



38

الشم في صدر الاسلام

من الفتح حتى سقوط خلافتي بني أمية

« دراسة للأوضاع الاجتماعية والإدارية »

رسالة قدمت لنيل درجة الدكتوراه

من جامعة دمشق - كلية الاداب - قسم التاريخ

إعداد

نجدة خماش

بإشراف

٢٠٠٢

الأستاذ الدكتور نبیه عاقل



٨١٨

الاهـدا

الى الشام ، بلد الأصلة العربية والشموخ ، بحدوده الشاطة ،
قبل أن تمن فيه عوامل الضعف والوهن وممـا
التجزئة والتزيبق .

شكر وامتنان

أتوجه بخالص الشكر وواثق الامتنان الى الأستاذ الدكتور
نبيه عاقل لاشرافه على اعداد رسالة الدكتوراه هذه ،
ولتوجيهه لي منذ البدء توجيهها سديدا على طريق
البحث العلمي .

ولا أنكر في هذا المجال فضل عدد من زملائتي
الأساتذة الكرام في قسم التاريخ ، وفضل الأستاذ الدكتور
وليد عرفات رئيس قسم الدراسات الاسلامية في جامعة
لانكستر ، لما أمدوني به من كتب ومصادر .
وأمل أن أكون قد وفقت بتزويد المكتبة التاريخية
ببحث يتناول حقبة تعتبر بحق من أهم فترات تاريخنا
العربي .

نجدة خماس

المقدمة

هذا البحث محاولة لدراسة الأوضاع الاجتماعية والادارية في الشام منذ الفتح حتى سقوط الخلافة الاموية ، وقد دفعني الى اختياره اهمال المؤرخين لدراسة أوضاع الشام في هذه الفترة ، بينما عطلت الولايات الأخرى ، لا سيما العراق ومصر ، باهتمام الباحثين ، وبالرغم من كثرة المؤلفات التي تبحث في الشام بشكل عام ، فانها كثيرًا ما تتخطى هذه المرحلة على أهميتها ، فولاية الشام احتلت في هذه الفترة بالذات مكانة عظيمة ، ولذلك فان سقوط الامويين لم يكن معناه زوال أسرة وقيام أسرة غيرها في الحكم فحسب ، بل زالت بسقوطهم عظمة اقليم الشام الذي كان يمثل مركزا استراتيجيا «بما في الدولة الاسلامية أثر كثيرا في توجيه النشاط الاقتصادي والسياسي والعسكري . وقيام دولة العباسيين ، انتقل مركز الاسلام الى الشرق ، الى بغداد عاصمتهم الجديدة ، وأخذوا يهتمون بسياساتهم على أساس هذا الوضع الجديد ، ومن ثم كان لذلك نتائجه الرهيبة المدى .

لم يكن اعداد هذه الدراسة ليغلو من المصائب ، ان أن تقديم صورة للوضع الاجتماعي والاداري للشام في فترة صدر الاسلام ، اقتضى جمع كل الشذرات والنبيذ المتناثرة في بطون المصادر على أنواعها ثم سد الثغرات بالاستنتاج المنطقي أو بالقياس الى ما كان يطبق في الولايات الأخرى ، فالشام جزء من الدولة الاسلامية ، وبالرغم من أن جغرافية كل منطقة وأوضاعها الاجتماعية والادارية السابقة قد لعبت دورها في ايجاد نوع من التمايز بين ولاية وأخرى ، فان القواعد العامة تكاد تكون واحدة تقريبا . ونظرا لأن بحثي السابق كان يتعلق بادارة الولايات بشكل عام ، فان هذا قد مهّد وساعدني على اعطاء صورة شاملة مكنتني من اجراء مقارنات ، بين الحين والآخر ، لاظهار أوجه الشبه أو الاختلاف بين الأوضاع الاجتماعية والتنظيمات الادارية المطبقة في الشام وتلك التي كانت مطبقة في الولايات الأخرى .

يتناول القسم الأول من بحثي طبقات المجتمع ودورها في الادارة والحكم وتوليدهم حكم بني أمية ، ولذلك كان لا بد لي في الفصل الأول من أن أبحث في العناصر السكانية التي كانت في الشام قبل الفتح ومناطق تواجدهم ، من عرب وروم ويهود وسامرة وفرنس وجراجمة ونبط . ولقد تبين لي أن مصادرنا العربية تذكر أسماء بعض القبائل ،

الآن هناك أسماء قبائل عربية كثيرة عديدة غير مذكورة ، لأنه لم يكن لعلماء الأنساب علم بها ، وأعني بذلك القبائل المذكورة في الكتابات الجاهلية والقبائل التي دوت تلك الكتابات فهي كتابات عربية وإن اختلفت من ههنا ، فقد سئل أحد علماء العربية عن لسان حمير ، فقال : ملسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا ههنا من ههنا ، ولكن هؤلاء العلماء لم يتصلوا من عروبة حمير ولا من عروبة غيرهم من كان يتكلم بلسان مخالف للساننا . وقد ألفت المكتشفات الأثرية الأضواء على كثرة وجود العرب في الشام ليس في الجنوب وعلى مشارف البادية فقط ، وإنما في مناطق داخلية والسواحل الشمالية . بالإضافة إلى العرب وجد بالطبع الروم ومرزقتهم في مدن الساحل والمدن الداخلية الهامة ، كإيليا ومصرى ودمشق وحمص ودمر ، ثم اليهود والسامرة في فلسطين والأردن ، والفرس في بعلبك وحمص وأنطاكية ، والجراجمة في منطقة اللكام ، وأخيرا تلك الطبقة التي يطلق عليها المؤرخون العرب لفظ العلوج أو النهط والتي تشير النصوص إلى كثرتهم في الأرياف والمدائن ، كما أن النصوص البعثية في المصادر تحوى قرائن مثل الأرض والقرى والزراعة ، وكلها تدل على أن المقصود بالنهط طريقة الحياة وليس النسب ، وإن كان البعض يعتبرهم من بقايا الشعوب القديمة التي سكنت بلاد الشام والعراق ومرسبات الآراميين ، وليس من المستغرب أن يكون قد اندمج فيهم الكثير من العرب الذين سكنوا هذه المناطق وبدأت أسماؤهم . ولقد حاولت أن أتبين نسبة هذه العناصر السكانية بعضها إلى بعض ، فلم أوفق ، لأن الروايات لا تهتم إلا بذكر أعداد المقاطعة من جهة ، ولأن التفاوت في الروايات حول هذه الأعداد كبير جدا ، وإن كان قد ظهر أن العرب كانوا نسبة سكانية لا يستهان بها في المنطقة ، وأن الروم الهيرنطيين قد اعتمدوا عليهم في الوقوف في وجه العرب المسلمين ، وأن هؤلاء العرب قد أيدوهم في كثير من المواقف ، بينما تشير الروايات إلى أن العرب استخدموا النهط كجواسيس وكفوج لأنهم كانوا إلى المسلمين لبرهم أميل ، وكان الروم لا يتهمونهم في شيء من ذلك . ولكن موقف العرب وموقف غيرهم من سكان الشام النصارى لم يكن موقفا جادا ، لا سيما بعد أن أمسك العرب بزمام الموقف ، وتبين لهم حسن المعاطاة التي كان يلقاها من يد غسل ذمتهم .

فإذا أتينا الى توزع العناصر السكانية في الشام بعد الفتح ، وهو ما بحثه نسي
الفصل الثاني ، فان ما يسترعي انتباه الباحث حين يتتبع حركة الهجرة القبلية أن القبائل
لم تسر في سبورتها وفق خطة موضوعة تعدد لكل قبيلة سبورتها وموالب نزولها ، وذلك
لارتباط هذه الهجرات أول الأمر بحركة الفتح ، وهذا يفسر لنا نزول بطون القبيلة
الواحدة موالب شتى ، ومن ثم كان لهذه الهجرات الجماعية ولاستيطان قبائل الحروب
الأمصار المحدثنة والأقطار المفتوحة آثار بعيدة المدى في حياة العرب الاجتماعية عامة
وفي المجتمع القبلي خاصة ، ومن أبرز هذه الآثار اتساع نطاق التجمع القبلي في اطرار
روابط النسب الواسعة ، كالمعدنانية والقحطانية والحضرية والرحمية ، ومنها تصدع
الوحدة القبلية ، لأن القبيلة الضخمة الممددة ، قلما كانت تنزل برمتها في موطن واحد .
وكانت جيوش المسلمين ، التي قدمت لفتح بلاد الشام ، نواة القبائل التي استوطنت
الشام ، وليس بين أيدينا احصاء تاريخي دقيق يرشدنا الى معرفة القبائل التي نزلت
بلاد الشام وهددها عند الفتح وحده ، إلا أننا نستطيع استخلاص احصاء تقريبي
لها من طريق تتبع جيوش الفتح والامدادات ، واعتمادا على أخبار الوقائع التي جرت
بين المسلمين ابان الفتنة الأولى والثانية والثالثة .

ويظهر أن عدد القبائل كان يتزايد منذ نزولها بلاد الشام تزايداً سريعاً ، فقد
كان عدد المسجلين في ديوان المصطفى في حمص في خلافة مروان بن الحكم من اليمانية
فقط شهرين ألفاً ، وبلغ عدد هم في ديوان المصطفى بدمشق في عهد الخليفة الوليد
بن عبد الملك خمسة وأربعين ألفاً ، وبلغ أهل دمشق من العرب أربعة وثمانين ألفاً
في سنة ١٢٦ هـ ، ومقاتلتهم خمسين ألفاً ، وكان عدة بني عامر من كلب عشرين ألف رجل .
ولا شك أن هذه الأرقام لا تمثل العرب الوافدين الى الشام وحدهم ، وانما تشمل
أيضاً من انضم اليهم من العرب الذين كانوا ينزلون هذه البلاد قبل الفتح ثم أسلموا
وانضموا بعد الى جيوش المسلمين .

ومن دراستنا لتوزع العناصر السكانية في بلاد الشام بعد الفتح ، يتبين لنا
أمر ثلاثة ، أولها أن العنصر العربي قد أصبح الغالب بعد هجرة الروم ، بحيث أن اليماني
الذي زار هذه المناطقة في القرن الثالث لا يذكر الروم على الاطلاق ، وانما يبالغ

فإذا أتينا الى توزع العناصر السكانية في الشام بعد الفتح ، وهو ما بحثه فسي
الفصل الثاني ، فان ما يسترعي انتباه الباحث حين يتتبع حركة الهجرة القبلية أن القبائل
لم تسر في سبيلها وفق خطة موضوعة تسد لكل قبيلة خط سيرها وموطن نزولها ، وذلك
لارتباط هذه الهجرات أول الأمر بحركة الفتح ، وهذا يفسر لنا نزول بطون القبيصة
الواحدة مواطن شتى ، ومن ثم كان لهذه الهجرات الاجتماعية ولاستيطان قبائل الحسرب
الأصار الحديثة والأقطار المفتوحة آثار بعيدة المدى في حياة العرب الاجتماعية عامة
وفي المجتمع القبلي خاصة ، ومن أبرز هذه الآثار اتساع نطاق التجمع القبلي في اطرار
روابط النسب الواسعة ، كالعديانية والقحطانية والحضرمية والرهمية ، ومنها تصدع
الوحدة القبلية ، لأن القبيلة الضخمة العدد ، قلما كانت تنزل برمتها في موطن واحد .
وكانت جيوش المسلمين ، التي قدمت لفتح بلاد الشام ، نواة القبائل التي استوطنت
الشام ، وليس بين أيدينا احصاء تاريخي دقيق يرشدنا الى معرفة القبائل التي نزلت
بلاد الشام وعدد ما عند الفتح وبعده ، إلا أننا نستطيع استخلاص احصاء تقريبي
لها من طريق تتبع جيوش الفتح والامدادات ، واعتمادا على اخبار الوقائع التي جرت
بين المسلمين ابان الفتنة الأولى والثانية والثالثة .

ويظهر أن عدد القبائل كان يتزايد منذ نزولها بلاد الشام تزايدا سريعا ، فقد
كان عدد المسجلين في ديوان المطاء في حمص في خلافة مروان بن الحكم من اليمانية
فقط شهرين ألفا ، وبلغ عددهم في ديوان المطاء بدمشق في عهد الخليفة الوليد
بن عبد الملك خمسة وأربعين ألفا ، وبلغ أهل دمشق من العرب أربعة وثمانين ألفا
في سنة ١٢٦ هـ ، ومقاتلتهم خمسين ألفا ، وكان عدة بني عامر من كلب عشرين ألف رجل .
ولا شك أن هذه الأرقام لا تمثل العرب الوافدين الى الشام وحدهم ، وانما تشمل
أيضا من انضم اليهم من العرب الذين كانوا ينزلون هذه الهللا قبل الفتح ثم أسلموا
وانضموا بعد الى جيوش المسلمين .

ومن دراستنا لتوزع العناصر السكانية في بلاد الشام بعد الفتح ، يتبين لنا
أمر ثلاثة ، أولها أن السمر السري قد أصبح النابض هجرة الروم ، بحيث أن اليه يقبل
الذي زار هذه المنطقة في القرن الثالث لا يذكر الروم على الاطلاق ، وانما يطلق

اسم المجمع عليهم ، ولا نجد لهم ذكرا في الأجناد الشمالية في دمشق وحمص وقنسرين ،
وانما في جندى الأردن وفلسطين ، وثانيها أن قبائل قضاة واليمن تستوطن الجانب
الأكبر من الشام ، فجعل أهل حمص كانوا يمانية قضاعية ، ولكنهم في جند حمص ضرب
المثل بذلة القيسي فيها ، كما أنهم تواجدوا بكثرة في جند دمشق والأردن وفلسطين .
أما واطن قيس ، فكانت في قنسرين ، بالإضافة الى وجود قلة منهم في مدينة دمشق
وفي القوطة وهوران والغور والجولان . ولما كانت قضاة وكلب خاصة هي أضخم
الكتل القبلية في بلاد الشام في العصر الأموي ، كان انحياز هذه الكتلة الى أي حزب
سياسي خليقا بترجيح كفته ومنعه تأييدا حربيا وسياسيا له شأوه ، وكذلك كان انحياز
هذه القبيلة الى إحدى الكتلتين المدنانية والقحطانية خليقا بترجيح كفتها العددية
وباختلال ميزان القوى القبلية ، ومن هنا استدم النزاع حولها وتجهادتها المدنانية
والقحطانية ، وقام نسابوكل من الكتلتين والاعرابيون فيها بمحاولات كثيرة منذ مستهل
العصر الأموي حتى منتصف العصر العباسي في ضم هذه القبيلة الى شجرتهم النسبية ،
أما الأمر الثالث ، فانه نظرا لعدم تجاوب أهل الساحل في بادئ الأمر لتأثرهم
بالصبغة الرومية ، فقد اضطر معاوية الى نقل قوم من الفرس الى سواحل الأردن وصور
وعكا والى انطاكية ، كما أسكن معاوية جماعة كبيرة من يهود الأردن طرابلس ، ثم
اقطع مهاد الطك فرس بحلبك الخمس في مدينة طرابلس ، ولذلك فانه ما يشير الانتباه ،
أن سكان كور جند دمشق الساحلية معظمهم من الفرس والمههود ، في حين يشكل
العرب الأكثرية الساحلية في مدن جند حمص الساحلية .

في الفصل الثالث ، بحثت في طبقات المجتمع الشامي ووضعها الاجتماعي
ودورها في الإدارة والحكم ، فتوضح لي أن عاملين اثنين كان لهما دور هام في بادئ
الأمر في تحديد المكانة الاجتماعية للحرب المسلمين في الشام ، وهما عامل العطاء منذ
فرضه الرسول ونظمه عمر بن الخطاب ، وعامل صحبة الرسول ونصرت في دعوته ، وما كان
من أثره في نشأة طبقة الصعابة التي انشطرت بدورها شطرا اتجه الى المعرفة والمعلم
وشطرا اتجه نحو السياسة والحكم ، فقد عاش صحابة الرسول في ذاكرة الجماعة الاسلامية
ووجدانها على أنها امتداد لميام الشريفة وتمثيل لها وتعبير عن دعوته وتجسيم لهذ

الدعوة لاسيما أن عدد هم ، حسب ماورد في كتاب الطبقات ، كان ١١٣ صحابيا . ويبدو أن جند حمص بالذات كان ملتحقا لأصحاب الرسول حتى كان يستقى الجند المقدم ، وكان لخروج هذا العدد الكبير من الصحابة مجاهدين وتوزعهم في الأجناد دور كبير في ارساء قواعد الدين وثقافة الناس وتعليب مهم دينهم وسنتهم ، فكانوا أساتذة لمن خلفهم ، كما أن عمر بن الخطاب اتبع في الشام سياسة خاصة لنشر الدين ، وهو بناء مسجد في كل مكان فيه كنيسة .

وكان للصحابة كذلك المراتب القيادية في حركة الفتح في الشام والجزيرة ، وقد جعل معاوية أثناء ولايته للشام والجزيرة ولاه على الأجناد من قادة الفتوح من الصحابة وأبنائهم ، الا أنه كان من نتيجة معركة صفين أن ازداد نفوذ القبائل الليمانية التي نصرت معاوية ، مما دفعه في عهد خلافة الى انتقاء ولاية الأجناد من زعماء القبائل حسبما يتوفر لهم من استقرار وكثرة ، ولكن معاوية في الوقت نفسه لا ينقاد لليمانية تماما ، لأنه استطاع بمصاهرة لقبيلة كلب أن يحقق نوعا من التوازن .

وبالرغم من أن سادات القبائل وأشرفهم بقيت لهم مكانتهم في العهد مرواني ، الا أن اخراج الأمويين وشيختهم من المدينة ومكة وتوجههم الى الشام سنة ٦٤ هـ ومعركة مرج راهط وطانجم عن ذلك من احتدام المصبيات ، دفع خلفاء الفرع مرواني ، باستثناء عمر بن عبد العزيز ، الى الاعتماد على أمراء البيت الأموي في شؤون ادارة وحكم الأجناد وقيادة الحملات ، لاسيما الصوافف والشواتي ، وأصبح أفراد البيت الأموي يتمتعون بامتيازات متعددة لم يكونوا يتمتعون بها في العهد السفاني .

ومن دراستي لسير ولاية بني أمية الشخصية ، تبين لي أن الفترة مروانية تميزت بازدياد اعتماد الخلفاء اما على أمراء من الفرع مرواني أو على ولاية من أهل الشام لادارة الولايات ذات الأهمية الكبرى ، وأظهرت مدى ما حققته هؤلاء السولاة في ميدان الادارة والتنظيم الاداري ، فكان الشام كانت المدرسة التي يتم فيها هذا التدريب ، إذ أن معظم التنظيمات الادارية الهامة في العراق ومصر وأفريقيا تمت في الواقع على يد ولاية من أهل الشام سواء من العرب أو الموالي فيما بعد .

أما فكرة العطاء فقد عاشت رمزا للمكانة الاجتماعية وتمعبيرا عن السابقة التي النصره ،

ثم تعبيرا عن الشجاعة والبلاء في تلك الحروب الخطيرة التي ساءموا فيها . وكان شرف العطاء في العهد الراشدي يمنع لمن يقوم ببعض الأعمال الادارية أو القيادة أو من يبدى بسالة في الحروب . وقد استمرت هذه القواعد في العصر الأموي ، إلا أن عامل الدعم لمعاوية وللحكم الأموي في الشام أصبح عاملا أساسيا . وبالرغم من أن مقدار ما كان يدفع في شرف العطاء لم يكن بالدرجة التي تجمل ممن يأخذه غنيا ، إلا أنه كان يعتبر شرفا عظيما يستحق التسجيل .

وكان لعامل العطاء دوره كذلك منذ البدء في تحديد المساواة بين المسرب المسلمين والموالي ، وقد اتضح لي من دراسة الروايات المتعلقة بهم في الشام أنه كانت لهم مكانة تكاد توازي مكانة العرب المسلمين . صحيح أن مجموعة كبيرة من هذه الروايات متعلقة بموالي بني أمية ، وهم موالي عقاة ، إلا أن هناك روايات أخرى متعلقة بالموالي بشكل عام ، وكان هؤلاء يعاملون بكل احترام وتقدير ، ويفرض لهم في العطاء ، ويتم تسجيلهم في الديوان . وقد ازداد اعتماد الخلفاء في الفترة مروانية على الموالي سواء في الدواوين أو الادارة ، وفي هذا دليل على المكانة التي كانت لهم وعلى ازدياد من دخل في الاسلام من سكان الشام من غير العرب أو من الرقيق . ثم انتقلت بعد ذلك الى الحديث عن أهل الذمة ، وميّزت بين وضع العرب النصارى ، والنصارى من غير العرب ، كما أوضحت سياسة التسامح تجاه أهل الذمة ومدى حقوقهم وواجباتهم ، وصلة المسلمين بهم ، وموقف الدولة من المعاقبة والملكانيين أو الطكيين ، وعوامل هذا الموقف . كما نشأت قضية الشروط العمرية المتعلقة بلباس أهل الذمة ، ثم بينت مدى اعتماد خلفاء بني أمية عليهم في الادارة وتناقص هذا الاعتماد تدريجيا ، نتيجة لتدهير الخليفة عمر بن عبد العزيز من جهة وازدياد من دخل في الاسلام من جهة أخرى .

ومن الطبيعي أن أتطرق الى الرقيق ووضعهم الاجتماعي في الشام ، لا سيما أن أعدادهم تضاقت نتيجة للفتوح وإرسال الخمس الى دمشق ، مما اقتضى إيجاد موظف خاص مسؤول عن أمر الرقيق بدءا من خلافة سليمان بن عبد الملك ، وأشرت الى الأعمال المنهضة التي كان يكلف بها الشهيد عامة ، ورقيق الخمس خاصة ، وبالرغم من أنه ليست بين أيدينا

روايات طقي ضوءاً على مستوى حياة الرقيق والمعاملة التي كانوا يلقونها من أسبادهم في الشام ، فان أمراء بني أمية وولاتهم كانوا يمتقون الكثير من رقيقهم ، وكثرة العوالم التي لدى خلفاء وأمراء بني أمية كلها دلائل تشير الى ذلك .

في الفصل الرابع بحثت في دور أهل الشام في توطيد سلطان بني أمية ، ان أن أهل الشام كانوا القاعدة المتينة والجهة المتراصة التي كان الحكم الأموي يقوم عليها ، وكل اختلال في هذه الجبهة كان يعرض الحكم الأموي للخطر ، وقد أظهرت مدى دعمهم لعمارة ثم لعمارة بن الحكم وهدد الملك من بعده ، وموقفهم من الفتنة الثالثة ، وكيف أن غزلاً منهم لعمارة بن محمد آخر خلفاء بني أمية كان من الأسباب الهامة والأساسية في سقوط الحكم الأموي ، وقد أشرت الى العوامل التي أدت الى دعمهم لخلفاء بني أمية بشكل عام والى غزلاً منهم لعمارة بن محمد ، ثم أشرت الى ازدياد اعتماد ولاية العراق ، خاصة في الفترة الحمرانية ، على القوات الشامية في قمع المعركات الخارجية والشمعية أو في الثورات الأخرى ، كثورة ابن الأشعث ويزيد بن المهلب ، وقد كان لذلك نواح ايجابية وأخرى سلبية .

أما في الفصل الخامس ، فقد أظهرت دور أهل الشام في الفتوح ولا سيما فتوح أرمينية والبلان وبعض مناطق بلاد الفخر ، وفي فتوح عدد من جزر البحر المتوسط وفتوح شمالي افريقيا ، واشتركتهم كذلك في فتوح السند مع محمد بن القاسم الثقفي ، وفي فتوح جرجان بقيادة يزيد بن المهلب . وهنا لا بد من الإشارة الى أن الفضل في تحقيق الفتوحات في المشرق يعود بشكل عام الى مقاتلة الكوفة والبصرة .

يتضمن القسم الثاني من رسالتي الإدارة في الشام . وقد بحثت في الفصل الأول منه النظام الإداري وتنظيم الشام الى أجناد ، وأسباب هذا التقسيم ومدى تأثيره بنظام البنود البيزنطي ، وانقسام هذه الأجناد الى كور ، وكون مراكز هذه الأبناد كلها مدناً داخلية ، ثم اتبعت بالحدديث عن أهم الموظفين الإداريين ابتداءً من الخليفة ، الرئيس الإداري الأعلى ، وأظهرت مدى التغيير الذي طرأ على مفهوم الخلافة ونوع المسؤوليات التي كانت ملقاة على عاتق الخليفة ، ثم انتقلت الى المستشارين أو الوزراء فولاة الأجناد فالكتاب وأصحاب الشرط والهرمسد والقضاة ، فهبت القواعد التي اعتمدها

طبيها الخلفاء في انتقائهم والمهمات والواجبات التي كانت توكل اليهم مع اظهرهم الفروق في هذه الواجبات التي كانت ملقاة على عاتق هؤلاء الموظفين في العراق ومصر ، وبين تلك التي كانت ملقاة عليهم في الشام لكونها الولاية المركزية ومستقر السلطنة .

وبالرغم من أنني كنت قد تعمقت عن الدواوين بشكل عام في بحثي عن ادارة الولايات في مصر الأموي ، فأنني هنا ركزت اهتمامي على الدواوين المتواجدة في الشام ، ذلك أنه بالإضافة الى الدواوين الأساسية التي كانت في الأمصار ، ظهرت في الشام دواوين خاصة ، كديوان المستغلات وديوان الرضى وديوان الرقيق والنفقات . وبالرغم من عدم ذكر ديوان للذراوى في الشام ، فلاشك أنه كان موجودا ، وان لم يذكر ذلك صراحة ، لكثرة الروايات المتعلقة بمصطلح الذراوى في الشام .

وقد حاولت في الفصل الثاني عند البحث عن النظام المالي في الشام أن أشير الى أن بعض الضرائب والتدابير المحلية ، مثل الجزية فردية ومشتركة ، والعشر والزكاة ومعاينة الاراضي الحربية في عهد الرسول كان لها أثرها على نظام الضرائب الذي طبق . كما أن نظامي الضرائب اللذين وبعدهما الحرب في الأراضي المفتوحة قد استملا مصطلحات ولكنها طبقتا وقتا للمفهوم الاسلامي . ثم ان ما يشير الانتباه أننا لا نكاد نجد فقيها مسلما واحدا يؤكد وحدة التطبيق في كل أطراف الدولة الاسلامية ، بل ان الروايات تشير الى العكس من ذلك ، وتحاول أن تظهر الاجراءات التي طبقت في الولايات المختلفة ، ولا تحاول مطلقا تقديم صورة لنظام موحد في كل أجزاء الدولة الاسلامية . فالاجراءات التي تمت أثناء الفتح لم تكن واحدة ، لأنها تأثرت بالأوضاع المحلية ، ولذلك كان لا بد لسي عند دراستي للنظام المالي في الشام من أن أعود الى النظام المالي البيزنطي الذي كان مطبقا لأبرهن أن نظامي الضرائب في الشام استملا مصطلحات فقط ، أما التطبيق فكان وفقا للمفهوم الاسلامي . كما أنني عمدت الى دراسة أحداث الفتح حتى يختفي ذلك التناقض الذي قد يبدو لأول وهلة عندما ندرس الروايات المختلفة المتعلقة بمجهود الصلح ، وقد نصت المماهدات التي عقدت مع مدن الشام والجزيرة بوضوح على وجود جزية وغزاج ، فبحثت في الجزية ومقدارها ومن أخذت ومن أعفي منها ، والى التمديل الذي أحدثه عمر بن الخطاب بعد ذلك في مقدارها ، ثم الى التمديل الثاني في خلافة عبد الملك بن

مروان . أما الخراج فان الروايات المتعلقة بالشام في هذا الصدد قليلة ، ولذلك اضطرت الى الاعتماد على الاجراءات التي تمت في العراق لايضاح بعض الأمور ، لا سيما عندما تكون لدى المؤرخين التي تسمع لي بأن أقيس ما حدث بالشام بما حدث بالعراق . وكذلك اعتمدت على الروايات الخاصة بالعراق ، فيما يتعلق بأراضي الصوافي في الشام وموقفهم من الخطاب منها ، وهي تختلف في الواقع مما يورد في كتب بعض الفقهاء كأبي يوسف الذي يحكم وضع الصوافي في الحصر الأموي ، كما تعرضت الى الضرائب الاضافية في الشام وقارنت بينها وبين تلك التي اضيفت في العراق ومصر ، فتبين أن هذه الضرائب في الشام هي التي نصت عليها المعاهدات التي عقدت أثناء الفتح ، في حين أن الضرائب في المشرق ومصر اضيفت بعضها في الحصر الأموي .

وجد في الشام في الحصر الأموي بيت مال خاص لأموال الفتي ، وآخر للصدقات ، وهناك رواية تشير الى أن عمر بن عبد العزيز أوجد بيت مال خاص للخمس ، فتكلمت عن الأموال التي كانت ترد بيت مال الفتي ، ومقدار ما كانت ترسله الولايات المختلفة من فائدها الى دمشق ، وموقف العراق خاصة من هذا الفائض ، وهذا بدوره يفسر لنا كثرة الأموال التي كانت ترد من جهة وعدم حاجة الخلفاء الى فرض ضرائب اضافية على أهل الشام الذين تتحموا في هذه الفترة بميزات لم يتمتع بها غيرهم من سكان الولايات الأخرى .

وكان لا بد لي أثناء الكلام عن النظام المالي أن أبحث في النقود المتداولة والتي تمريب النقد ولا سيما الدينار الذي كان يتم سكّه في دمشق خاصة ، وقد تهيّئ لعلماء الآثار أن الدينار الأموي العربي السامية في أفريقيا قد ضربت في دمشق لصالح المغرب بحسب الدراهم ، حيث استمر الولاة بضرب الدراهم حتى خلافة هشام بن عبد الملك الذي أمر خالد بن عبد الملك القسري والي العراق سنة ست ومائة أن يبطل السكك من كل بلدة الآ واسطاً ، وكذلك فعل يوسف بن عمر الثقفي ، فلما استغلف مروان بن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة بحرّان .

لا شك أن اصلاح عبد الملك للنقد واهياده نقدا قوميا عربيا كان بمثابة حجر الأساس للنهضة التجارية الاسلامية ، ولكن كان لحظه بالمقابل اثر فعال على العلاقات البيزنطية العربية وعلى اقتصاد الشام ومصر بشكل خاص ، ذلك أن البيزنطيين عادوا الى تطبيق

القيود التجارية التي كانت مطبقة سابقا أثناء صراعهم مع الساسانيين ، في حين لم يعمد خلفاء بني أمية الى تطبيق مثل هذه القيود على التجار المسلمين في تعاملهم مع البيزنطيين . فبيزنطة لم يكن باستطاعتها أن تتغلب على منتجات العالم العربي ، كما أن التوابل وبضائع الشرق التي كان يتاجر بها التجار العرب لمواد أساسية في حياة بيزنطة الاقتصادية ، لذلك سمح حكام بيزنطة لعرفاً أو حرفيين مراقبين من استقبال التجار المسلمين منها طرابزون

(Traebizond) الذي كان يسمح فيه باذخار كل التجارة العربية مع بيزنطة . واختيار طرابزون كمركز للتجارة العربية البيزنطية كان يحقق عدة أهداف لحكام بيزنطة ، فلطرابزون مرافق آمن على البحر الأسود غير مهدد ، وبالتحديد طرابزون محملة بمناخ مناسبة للتجارة العربية ، سمحوا بتجارة العرير والتوابل التي كانوا بحاجة ماسة اليها من مصر والشام المركزين البحريين لمنافسيهم الأميين الى بلاد العراق التي لم تكن تشكل خطراً عليهم . فاذا أضفنا الى ذلك قوة الأسطول البيزنطي الذي خرج منتصرا سنة ١٠٠ هـ وأخذ يسيطر على البحر المتوسط . ويقطع بشكل فعال التجارة ليس مع الغرب فقط ، وإنما بين الشام ومصر وشمال إفريقيا ، ثم انتقال الحكم الى العباسيين . حيث أصبحت العراق الولاية المركزية التي يمر بها الخط التجاري المتوجه نحو طرابزون ، نجد أن الشام خسرت مكانتها كمركز للخلافة الاسلامية من جهة ، كما خسرت من جهة ثانية مركزها التجاري الهام وبقيت بعد سنة ١٣٥ هـ / ٧٥٢ م عاجزة مدة عشرين عاما عن تشكيل اسطول لها ، وهذا أثر بدوره على فرنسا التي كانت تعتمد في حياتها الاقتصادية على التجارة مع الشام ومصر ، ان مرت بفترة ركود اقتصادي بعد سنة ٩٨ هـ / ٧١٦ م ، فلم تعد ترى تجارا سوريين في موانئها التجارية أو تجارا من مناطق اسلامية أخرى .

آخر فصل في البحث يتعلق بالتنظيم العسكري البري والبحري ، حيث تحدثت عن عناصر الجيش من عرب وموالي والى نسبهم في هذا الجيش ، وظهور فرق للموالي في الفترة الرومانية ، كالوضاحية والذكوانية والمحيرة وغيرهم ، وان كانت نسبتهم أقل بكثير من نسبة المقاطعة من العرب . ثم تفرقت الى التمهئة ومفهومها ، والتهادة والقواعد التي كان يعتمد عليها الخلفاء في تعيين قوادهم ، كما تحدثت عن الأسلحة ووسائل الدفاع والتحصين في الشام وأظهرت مدى التقدم السريع الذي أحرزه المسلمون ولا سيما مقاطعة أهل الشام

في هذا المضمار ، وأنهيت البحث بالتنظيم المالي للجيش ، وهو تنظيم قائم على أسس اسلامية ، وخلصت من بعثي هذا الى أن الجيش الشامي كان أشبه ما يكون بالجيش النظامي لأن مقاتله كانوا على أهبة الاستعداد دائما طيلة خلافة بني أمية ، فالغزوات في الجبهة الشمالية كانت متواصلة تقريبا ، بالإضافة الى الصوائف والشواتي التي كانت مستمرة ، فإذا انقطعت فمعنى ذلك انشغال المقاتلة بقمع فتنة . ولا شك أن هذا النظام الذي ظل معمولاً به طيلة خلافة بني أمية كان عبارة عن تمرينات ومنساورات جماعية جعلت مقاتلة الشام أكفأ المقاتلين ، حتى أن ليون الأيسوري نفسه يبين أن الهيزنطيين في حروبهم لم يواجهوا عمليات حربية حصيفة ومحكمة ومدروسة كخطط العرب ، وأن القائد المكلف بمواجهتهم كان يحتاج الى كل قدراته الاستراتيجية ، كما أن الفرق التي يقودها يجب أن تكون انضباطية وجريئة اذا أراد أن ينجح في صدّ العرب .

=====

تحليل المصادر :

ان دراسة الأوضاع الاجتماعية والادارية في الشام في صدر الاسلام اقتضى دراسة معمقة ودقيقة للمصادر على أنواعها التاريخية منها (كتب التاريخ العام والمحلّي ، والطبقات والتراجم والأنساب) والأدبية والجغرافية ، بالإضافة الى كتب الفقه ولا سيما كتب الخراج ، وبالرغم من أن كل صنف يركّز على ناحية معينة ، إلا أنه لا يهمل النواحي الأخرى ، ولذلك فقد أمكنني الافادة من معظم المصادر ، ولو جزئيا ، في كل موضوع من مواضيع الرسالة ، وان لم تكن نسبة الفائدة واحدة .

يجد الباحث المدقق في الكتب التاريخية العامة ، رغم تركيزها على النواحي السياسية معلومات ذات قيمة كبيرة في النواحي الادارية والاجتماعية والمالية ، كما أنها تتناول بشكل واسع القبائل التي اشتركت في الفتح واستقرارها في الأمصار . وقد تميّز الطبري (ت ٣١٠ هـ) في تاريخه بكثرة المعلومات الهامة التي افادتها في مناهي البحث كله ، سواء في الاشارة الى أماكن استقرار القبائل قبل الفتح وبعده أو في عرض الأوضاع الاجتماعية للحرب المسلمين والمواهل التي أثرت في تعدد مكانتهم ، كما أنه حسوى معلومات مفيدة عن الأرض والصوفي ونظرة القبائل تجاهها ، والغزوات الأولى التي اتخذها عرب بالنسبة للأرض ، كذلك تنسج تاريخه معلومات من الديوان والعطاء والتمهنة العسكرية وعناصر الجيش والقيادات والأسلحة التي استعملها العرب أثناء الفتح وبعده في العصر الأموي ، ولا يقل كتاب فتوح البلدان وكتاب أنساب الأشراف للملاذري (ت ٢٧٩ هـ) أهمية وقيمة ، فقد أفادت المعلومات الواردة فيهما البحث في جميع فصوله ، لا سيما وأن الملاذري في كتابه فتوح البلدان ، يتميز بالاهتمام الزائد في النواحي الادارية والمالية ، ويورد عنها أخبارا كثيرة غير مذكورة في المصادر الأخرى . وما دنا في صدر الكلام عن كتب الفتوح ، فلا بد من التمرّس لكتاب الفتوح لأحمد بن أعمش الكوفي (ت ٣١٤ هـ / ٦٢٦ م) ، ان يمتهر كتابه من أقدم الكتب التاريخية التي ألّفت من القرنين الأول والثاني الهجريين ، ولذلك فهو لا يعطي فقط روايات تاريخية عن الأحداث المنسطة ، ولكنه برواياته يمتهر مصدرا تقاس عليه روايات من سبقه أو عاصره من المؤرخين ، كالملاذري والباقرى واليهقوي وانسعودي والدينوري وغيرهم ، ومقارنة الروايات

يمكن الوصول الى فكرة أوضح من الاحداث التاريخية ذات العلاقة بالموضوع .
ومن مصادر التاريخ الهامة كذلك كتاب تاريخ خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ)
الذي أغنى البحث بالقوائم التي يوردها بأسماء الدواوين المركزية ووظيفيها ، وكذلك
التنضاد وروساء الشرطة وولاة الأجناد في نهاية عهد كل خليفة أموي . وهذه القوائم
تستوفي انتهاء داسي الأحوال الإدارية ، وتلقا نجد مثل هذا الاهتمام بالادارة من قبل
مؤرخي الأحوال السياسية .

وضمت مؤلفات الدينوري (ت ٢٨٢ هـ) واليمقوبي (ت ٢٨٤ هـ) والسعدي
(ت ٣٤٥ هـ) معلومات هامة تختلف عما أورده الطبري والبلاذري ، وهذا يدل على
أنهم استمدوا معلوماتهم من مصادر مختلفة ، ولكن عدم ذكرها للأسانيد يجعل من الصعب
تعيين هذه المصادر .

وتناول ابن سعد (ت ٢٢٠ هـ) في كتابه الطبقات الحديث من الصحابة
والتابعين الذين أقاموا في الشام وورهم في نشر الاسلام وارساء قواعده ، كما أن الروايات
الواردة في ترجمة عمر بن عبد العزيز أمدت البحث بمعلومات قيّمة من تدابير عمر بن عبد العزيز
في منتطف المجالات ، لا سيما المالية منها والمتعلقة ببيوت الأموال في دمشق ، وبالعطاء
وخاصة عطاء الأسرى ، والغائبين ومفاداة الأسرى .

ولكتب التاريخ السعدي قيمتها لأنها تصبر عن الرهاط الوثيق الذي يربط الناس
بمكان مولدهم ولأنها تورد حوادث معلية قد يهبطها المؤرخون الذين يهتمون بالحوادث
الدائمة والتي تعطي مع طالدينا من معلومات صورة أمّ وأشمل ، إلا أن الباحث في التواريخ
المحلية تواجهه عراقيل متنوعة منها عدم وجود تواريخ محلية لكل الاقاليم أو المدن الاسلامية ،
فلم تكن كل المدن الاسلامية محظوظة مثلا ، مثل دمشق أو حلب ، بحيث تيسر لتاريخها
أن يكتب على يد أحد أبنائها أو الساكنين فيها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان
بعض التواريخ المعلية لها صفة كتب (التراجم) أكثر من صفة (التاريخ) ، وأشهر مثل طي
ذلك كتاب بغية الطالب لابن العديم ، وتاريخ دمشق لابن عساكر ، وليس يخاف أن البحث عن
المعلومات التاريخية المتناثرة بين طيات هذه الكتب يحتاج الى وقت طويل وجهود
كبير .

وتأتي أهمية كتب الفقه من عنايتها بالضرائب والشؤون الاقتصادية والادارية والاجتماعية . ومن المصادر الفقهية التي أغنت البحث بشكل جلي ، كتب الخراج ككتاب العراج لأبي يوسف (ت ١٨٢ هـ) ، وكتاب الخراج ليحيى بن آدم (ت ٢١٣ هـ) ، وكتاب الأموال لأبي هيب (ت ٢٢٤ هـ) ، والأحكام السلطانية للماوردي (ت ٤٥٠ هـ) ، بالإضافة الى بعض المصادر الفقهية الأخرى ، كالدونة لمالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ) ، وكتاب الأم للشافعي (ت ٢٠٤ هـ) ، والمسند لابن حنبل (ت ٢٤١ هـ) ، وجامع المساند لأبي حنيفة (ت ١٥٠ هـ) ، وكتاب الخراج والفقه هذه تقدم مادة تاريخية واسعة ذات أهمية وفائدة خاصة تنفرد بها عن غيرها من المصادر ، ولا سيما اذا انتبه الباحث الى أن الفقهاء بشكل عام لا يراعون في تقديم مادتهم التطور التاريخي ، كما أنهم لا يراعون النواحي الجغرافية ، مما يخلق الارتباك وتمدد الآراء . هذا ما نلاحظه مثلا في الروايات التي يوردها أبو يوسف أو أبو هيب أو يحيى بن آدم والمتعلقة بالاجراءات التي اتخذها عمر بن الخطاب بشأن السواد أو بشأن تحديد الجزية ، ويعود السبب في ذلك الى أن اهتمام الفقهاء موجه بالدرجة الأولى الى السوابق التي يفيدون منها لوضع تعاليم أو قواعد فقهية مبنية على التداوير والاجراءات التي اتخذها الرسول (صلعم) والخلفاء الراشدون ولا سيما عمر بن الخطاب ثم عمر بن عبد العزيز من بعده .

لا يستغنى عن الأدب في كتابه التاريخ الاسلامي لأن المؤرخ الواعي يستتبسط من المصادر الأدبية الكثير من حقائق التاريخ ، ومن أهم المصادر الأدبية التي استفدت منها كتب الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ / ٨٦٨ م) ، وابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) ، وأبي الفرج الاصبهاني (ت ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م) ، وابن عدي (ت ٣٢٧ هـ) ، هذا بالإضافة الى دواوين الشعراء المحاصرين لفترة صدر الاسلام كديوان جرير والأخطل وغيرهما .

وتقدم الكتب الجغرافية هونا كبيرا ومتما في مجال البحث من حيث تحديد منطقة الشام وشورها وأجنادها وامتداد هذه الأجناد والمدن الساحلية التابعة لكل جند منها والقبائل التي استقرت فيها بعد الفتح ، بالإضافة الى العناصر السكانية الأخرى ، ومن أهم هذه الكتب ، كتاب الهلدان للهمقوي (ت ٢٨٨ هـ) ، والأطلاق النفيسة لابن رسته

(ت ٢٩٠ هـ) ، والمسالك والعمالك للاصطخري (ت ٣٢١ هـ) ، وكتاب أحسن التقاسيم

في معرفة الأقاليم للمقدسي (ت ٣٨٠ هـ / ١٠٩٠ م) .

المصادر الذميمة :

لا يكتفى البحث في الأوضاع الاجتماعية والادارية في الشام دون الرجوع الى أهم مصدر يهين علي ، وهو تانغ تيفانوس ، وبعض المصادر السريانية المترجمة الى الفرنسية أو الانكليزية أو العربية . وبالرغم من أن هذه المؤلفات قد أمدتني ببعض المعلومات القيمة غير المتوافرة في مصادرنا ، إلا أنه لا بد من القول بأن المادة المتواجدة في مصادرنا أعق وأغنى وأشمل . كما أن التحاليل التي ترد في مصادرنا ، وإن كانت ترد بشكل غير مباشر ، فإنها تدل على فهم للأحداث عميق ، بينما نجد تيفانوس والمؤرخين السريان يرجعون الأمور كلها الى القدرة الالهية وبركة القديسين والأولياء عند الفوز والانتصار ، أو الى الغضب الالهى ونقمة القديسين في حال الفشل والهزيمة .

المصادر التاريخية المتأخرة :

يعتمد المؤرخون المتأخرون بصورة عامة على روايات من سبقوهم من المؤرخين الأوائل . إلا أن الباحث قد يثربين طيات هذه المصادر على روايات فريدة غير واردة في كتب الأوائل ، ولذلك فلا يجدر بالباحث أن يرجع الى هذه المصادر المتأخرة ويدرسها . ومن المصادر المتأخرة التي ألفت البحث كتب ابن الأثير وابن خلدون والمقريزي والذهبي والسيوطي وابن الجوزي والقلقشندي والخوري وغيرهم .

المراجع الحديثة :

قدمت المراجع الحديثة ، العربية منها والأجنبية ، ولا سيما تلك التي تبحث في النظم الاسلامية عامة والأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والمالية خاصة ، فوائد جملة لما تضمنته من آراء وتحليلات وتحليلات ، وأخص بالذكر منها ما كتبه الدكتور عبد العزيز الدوري في النظم الاسلامية سواء في كتابه " مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي " أو في مقالاته عن الاقليات والضرائب والحرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام .

كما اعتمدت على المراجع الأجنبيّة عند البحث عن العرب في الشام قبل الفتح
ومناطق تواجدهم ، بناءً على ما توصل اليه علماء الآثار ، وكذلك في البحث عن النظام
المالي في الشام في العهد البيزنطي وفي النتائج الاقتصادية والسياسية الهامة
التي نجمت عن تعريب الدنانير . ومن أهم هذه الكتب ، كتاب دانييل دينيت حسن
الجزيرة والاسلام ، وكتاب أوستروفورسكي عن تاريخ الدولة البيزنطية ، بالإضافة إلى
بحوث كبار المؤرخين المنشورة في المجموعة المعرفة باسم (Byzantium)
وفي الموسوعة الاسلامية .

* * *

* *

*

.

الشَّامُ والشَّامُ والشَّامُ والشَّامُ (١) هو الاسم الذي أطلقه الجغرافيون العرب على المنطقة التي يحدها بحر الروم من الغرب ، والبادية الممتدة من إيالة الى الفرات ، ثم من الفرات الى حد الروم ، وشمالها بلاد الروم ، وجنوبها حد مصر وتيه بني اسرائيل ، وآخر حدودها مماليك مصر رفح ومماليك الروم الثغور. (٢) أي أن الشام كانت تضم الرقعة التي تشغلها الآن سورية ولبنان والأردن وفلسطين ، وتلك كانت بلاد الشام على مدى تاريخ طويل ، ولم يتم تقسيمها سياسياً الى دول أربع الا بفعل الاستعمار في أعقاب الحرب العالمية الأولى .

وسورية اسم غلب اطلاقه على القطر الشامي منذ عهد قديم ، قال الهجري : " سورية بضم أوله وكسر الراء المهبطه وتغفيف اليا" اسم للشام " (٣) وفي فتوح البلدان للبلداني ، أن هرقل لما بلغه خبر أهل اليرموك وابقاع المسلمين بجنده هرب من انطاكية الى قسطنطينية فلما جاوز الدرب قال : عليك يا سورية السلام ونعم البلد هذا للعدو يعني أرض الشام. (٤)

-
- (١) : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ط. ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ج ٣ ص ٣١٢
 (٢) : الاصلحى ، المسالك والممالك ، تحقيق دى غوجيه De Geoge ط ١٩٧٢ - ص / ٥٥ / ، ويرى الاصلحى أنه بالرغم من أن بعض الثغور تعرف بثغور الشام وأخرى كانت تعرف بثغور الجزيرة فان كليهما من الشام ، لأن كل ما وراء الفرات (ويقصد بذلك كل ما هو غربي الفرات) من الشام . وانما سمى من مطية الى مرهش ثغور الجزيرة لأن أهل الجزيرة بها يربطون وبها يفزون لا لأنها من الجزيرة ، أما قدامه بن جعفر فيجعل مرهش والحدث من ثغور الجزيرة ، وطرطوس وأذنة والمصيصة من ثغور الشام . قدامه بن جعفر ، نيز من كتاب الخراج وصناعة الكتابة ، ليدن ، ١٣٠٦ هـ ص ٢٥٣ .
 (٣) : محمد كرد علي ، خطط الشام ، دمشق ١٣٤٣ هـ / ١٩٢٥ م ج ١ ص ٤٧ .
 (٤) : البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق رضوان محمد رضوان ، مصر ١٩٥٩ م ، ص / ١٤٢ /

ويرى ارنست هرتزفيلد (Ernest Hertzfield) أن سورية اسم مقتضب من اسم آشورية لخطبة الآشوريين عليه (٥) والسين والشين تتماوران في اللغات السامية ، وقد ظهر اسم سورية لأول مرة عند هيرودوت (٤٨٥ - ٤٢٥ ق م) (٦) ويظهر بشكل Shryn في آداب أوغاريت وسيريون Siryon في الصهريه حيث يطلق على لبنان الشرقي ، (٧) وفي المعصور اليونانية وما بعدها توسع استعمال هذا الاسم وأطلق على البلاد كلها ، واستخدم بهذا المعنى حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. (٨) وكانت فلسطين بالنسبة لهيرودوت قسما من سورية ، (٩) واعتبر ولهم الصوري وغيره من مؤرخي السروب السليبية فلسطين جزءاً من سورية أيضاً . (١٠) واستخدمت كلمة سوري (Syrian) بالانكليزية حتى العصر الحديث كتسمية عرقية تشمل سكان سورية كلها ، غير أنها تستعمل الآن للدلالة على رعايا الجمهورية العربية السورية فقط . (١١) وكمنصاح ديني فان اسم سوري يشير الى أتباع الكنيسة السورية القديسة أو السريانية بفتحيتها السريان الكاثوليك Syrian Catholic والسريان الارثوذكس Syrian Orthodox (١٢) .

-
- (٥) : ارنست هرتزفيلد ، مجلة المجمع العلمي العربي ، مجلد ٢٢ - ١٩٤٧ ص ١٧٨ ، ١٨١ ، محمد كرد علي ، خطط الشام ج ١ ص ٤٧ .
- (٦) : فيليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان . ج ١ ص ٦٢ .
- (٧) : المصدر السابق ج ١ ص ٦٢ .
- (٨) : The Modern Encyclopaedia First Edition, 1961 Art. Syria : History .
- (٩) : فيليب حتي ، تاريخ سوريا ولبنان ص ٦٢ .
- (١٠) : المصدر السابق ص ٦٢ . A History of Deeds Done Beyond the Sea , tr.Emily A. Babcock & A.C. Krey New York , 1943 Vol. II P. 5 .
- (١١) : M.E.Art., Syria, History .
- (١٢) : E.Britannica, 15th.Edition Art., Syria ,Religious groups

أما كصطلح لغوي فان كلمة سرياني Syriac وليس سوري Syrian هي التي تشير الى اللغة التي تتكلم السريانية، (١٣) أما اللغة العربية فتستعمل اسم سوري للمفهوم المرقى والجغرافي، واسم سرياني للمفهوم اللغوي والديني .
وللغويين والجغرافيين في سبب تسميته شاماً أراً مختلفة، (١٤) فقبل انما سميت الشام شاماً لأن قوماً من كنعان نزلوها فتشاموا اليها فسميت شاماً لذلك . (١٥) وقالت طائفة انما سميت شاماً لما تشام لها أهل اليمن من بينهم كما يقال تيامنوا وتيامسروا فسميت لذلك ، (١٦) وقيل سميت الشام شاماً لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض ، فشبهت بالشامات ، أو لأن أرض الشام مختلفة الألوان بالحمرة والبياض والسواد فسمي شاماً لذلك كما يسمى الخال في بدن الانسان شامة ، (١٧) وقد تجمع الشام على شامات ، (١٨) وتسمى بلاد الشام بذلك ، كما أن اطلاق الشام على دمشق وارد أيضاً من باب اطلاق العام على الخاص ، والعرب كثيراً ما كانوا يسمون المدن القواعد بأسماء أقاليمها ، فكانوا يقولون بلا فرق ، دمشق أو الشام ، الفسقاط أو مصر ، شام أو حضرموت . (١٩)

M.E. Art ., Syriac.

: (١٧)

Donner , P. McGraw, The Early Islamic Conquests, Princeton New Jersey P. 94 (Syriac is a dialect of the Aramaic Language).

أما فيليب حتي فيرون أن اسم سوري Syrian يشير الى الشعوب التي تتكلم

السريانية (تاريخ سورية ولبنان ص ٦٣) .

(١٤) : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج ٣ ص ٣١٢

(١٥) : المصدر السابق ج ٣ ص ٣١٢ ، ابو اليقاع عبد الله بن محمد البدرى المصري

الدمشقي ، نزهة الأنام في محاسن الشام ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤١ هـ

ص / ١٣ / ٠

(١٦) : نزهة الأنام ، ص / ١٣ / ٠

(١٧) : المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تعليق غازي طليحات ، ط ١٩٨٠ م

ص / ١٤٠ / ٠

(١٨) : خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة ، ط ١٩٦٧ ص / ١٥٧ / ٠

(١٩) : كرد علي ، مخطط الشام ج ١ ص / ٤٨ / ٠

وكان أول جغرافيين أعطيا للديار الشامية وحدة جغرافية ، الأستخري (ت ٣٢١هـ) ثم المقدسي (ت ٣٨٠ هـ) إذ عنون الأستخري الفصل الخاص بالشام بقوله " أرض الشام " ، أما المقدسي فقد استعمل " إقليم الشام " قاصداً بذلك وحدة جغرافية ، كما أن المقدسي هو أول من تكلم عن التكوين الطبيعي لإقليم الشام فقال : ووضع هذا الإقليم ظريف ، هو أريسة صفوف ، فالصف الأول يلي بحر الروم وهو السهل ، رحال منحدرة متزجة يقع فيه من البلدان الرطبة وجميع مدن الساحل ، والصف الثاني الجبل ، مشجر ذو قرى وعيون ومزارع ويقع فيه من البلدان بيت جبريل وإيليا ، ونابلس واللجون وقدس والبقاع وأنطاكية والصف الثالث ، الأغوار ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع يقع فيه من البلدان إيله وتبسوك وصفر (زفر) وأريحا ويسان وطبرية وبانياس ، والصف الرابع سيف البادية وهي جبال عالية معتدلة مع البادية ذات قرى وعيون وأشجار يقع فيه من البلدان مآب وعمان وأذرعات ودمشق وحمص وحلب .

ان هذا الوصف الذي يقدمه المقدسي قريب من الوصف الذي يقدمه علماء الجغرافيا لتضاريس بلاد الشام التي تتألف من المناطق المتميزة التالية اذا ما اخترقنا سورية الطبيعية أو الشام من غربها الى شرقها .

١- السهول الساحلية :

السهول الساحلية الشامية هي بالأجمال ضيقة محدودة لانحصارها بين البحر والجبال الغربية ، ولكنها تتسع في الجنوب منها فتشكل سهولاً زراعية رطبة ، وقرب الجبال منها يخذيها بالأترية والمجروفات وبمياه الري ، لكن السيول الهابطة نحو الساحل تجف في الصيف فلا يستفاد منها حين الحاجة اليها ، وهي تفيض في شتاء فتضر بالزرع ، ولا يمكن استخدامها في الزراعة الا اذا شيدت لها خزانات وأقنية .

وتمتاز السهول الساحلية بخصب تربتها ووفرة أمطارها ، لذلك فهي صالحة لزراعات متنوعة ، لكنها ليست من الاتساع بحيث تكفي سكانها بالمنتجات الزراعية ،

ولا بد لها من التعامل الزراعي مع بلاد الداخل لتقييم التوازن في مواردنا الغذائية. (٢٠)

وتبدأ السهول الساحلية في الشمال بسهل الاسكندرون الذي يمتد على أكثر من (٤٨٠٠) كم ثم سهول اللاذقية وجبلية وبانياس ، وتمتاز هذه السهول بثرواتها الزراعية ، تأتي بعد ذلك سهول لبنان الساحلية ، وهي سهول ضيقة لا سيما بين دارابلس وبيروت ، فالجبال تقترب من البحر حتى لا تدع بينها وبينه سوى متسع صغير للزراعة. (٢١)

وتبدأ سهول فلسطين بسهل عكا الذي يتصل به من ابن عامر الممتد نحو الداخل والتميز بترته السوداء الملائمة لزراعة العنب ، وعند جبل الكرمل يضيق السهل الساحلي حتى لا يبعد عن البحر أكثر من ١٨٠ م ، ويحرف السهل الواقع بين جبل الكرمل وبافيا باسم سهل سارونه ، يليه نحو الجنوب سهل فلسطين العظيم ، وجميع هذه السهول مشهورة بخصوبتها لكنها قليلة المياه ، بسبب شح الأمطار ، وهي موطن الحمضيات المشهورة في العالم ، وسهل فلسطين يتصل عند غزة وبئر السبع بصحراء النقب القاحلة وتزيد مساحتها عن نصف مساحة فلسطين ، وساحل فلسطين مستقيم رملي لا يلائم نشوء الموانئ ، لذلك كانت أكثر المدن الفلسطينية داخل البر ، وهذا هو الفارق بين فينيقيا القديمة وفلسطين ، فالأولى ثلاث الحياة البحرية والثانية توافق الغاطية الزراعية ، ومرقاً حيفا إنما نشأ على جبل الكرمل ، وساعد على نشوء مرفأ بيفا عوامل ائتكالية بحرية. (٢٢)

منطقة الجبال الغربية :

هي منطقة ذات التواءات تتجه بصورة عامه من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي ، ولكن هذا الاتجاه يتبدل حسب المواقع ، وتتناول الصدوع هذه السلاسل الالتوائية في وسطها وعلى جوانبها وأعظمها شأناً صدع طولاني يكسرها في شرقها ، فتبدو قممها الشاهقة على طرفها الأيمن ، بينما تارنها البحري يهبها متدرجاً ويولف أسبانياً مضامها خفيفة التلون تنتشرها

(٢٠) : د. دويدري ، جغرافية سورية والولان العربي ، دمشق ١٩٨١ ص ٣٩٠

(٢١) : حسن سيد أحمد أبو الحسين / بيروت ١٩٦٨ ص ٩٨

(٢٢) : د. دويدري ، المصدر السابق ص ٣٩ - ٤٠

مجازات عرضانية ضيقة وصيقة وهي في الغالب من عمل الائتكال النهري ، وتتقارب رؤوس الأودية أحياناً فلا تترك بينها سوى ظهور أومتون جبلية ضيقة كما هو الحال في لبنان . (٢٣) وقد أثرت وعورة هذه الجبال في مصيرها التاريخي ، فكانت طجاً أميناً للأقليات المرقية والطائفية ، (٢٤) ولعل ما يعكس هذا الوضع وصف ياقوت العموي لهذه المنطقة بقوله : " ان في هذا الجبل سبعين لساناً ، لا يعرف كل قوم لسان الآخرين الا بترجمان " (٢٥) . تبدأ منطقة الالتواءات الخربية في الشمال بجبال الأمانوس التي يقع في وسطها مر بيلان (٦٨٤ م) يليها نحو الجنوب جبل الأقرع ، ثم جبال الساحل السوري — وربة فجبال لبنان التي يصل طولها الى (٣٠٨٨ م) في قمة القرنة السوداء ، ثم ينزل الارتفاع في الوسط الى (٢٦٢٨ م) في جبل صنين والى (١٦٥٠ م) في الجنوب في جبل الباروك والمر الرئيسي الذي يخترق جبال لبنان هو مر ظهر البيدر (١٥٠٠ م) . تلتحم جبال لبنان بمدى نهر الليطاني بجبال فلسطين ، وأول جبال فلسطين في الشمال جبل الجليل (قمة جبل الجرمق ١٢٠٨ م) وجبل الكرمل الذي يشرف على مدينة حيفا ، وبين مدينة جنين ومشارف القدس تقوم جبال نابلس أو السامرة ثم جبال القدس والخليل ، ويحلو جبل الزيتون المشرف على القدس (٨١٥ م) وتنتهي جبال فلسطين جنوباً بمحدوديات صحراء النقب التي تتجه من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي بينما يكون اتجاه جبال فلسطين من الشمال الى الجنوب . (٢٦)

(٢٣) : المصدر السابق ص ٤١ .

(٢٤) : حتي ، تاريخ سورية ولبنان ص ٣٩ .

(٢٥) : ياقوت العموي ، معجم البلدان ج ٥ ص ١١ .

(٢٦) : د . دويدري - المصدر السابق ص ٤٠ - ٤٢ .

منطقة الوهدة، الانهدامية :

بين الجبال الساحلية والجبال الداخلية يمتد أخذود طولاني ضيق ناجم عن خسف عميق ، وهو جزء من الانهدامات السورية الافريقية ، (٢٧) وهذا الأخدود أو الضور لا يتشابه في جميع أرجائه من حيث البنية ، وشكل السداح ونوع التربة والمناخ ، بل ينقسم الى مناطق متباينة تمتاز بها أودية متماثلة في الاتجاه ، وسبب التناقص متغير التوازي متصدع ، والصدوع الجانبية ليس لها علو واحد ففي فلسطين يهبها قمر الخور الى (٣٩٢ م) تمت سنان البحر في قاع البحر الميت . (٢٨) وعند بحلب يرتفع حتى (١١٠٠ م) فوق سنان البحر ، وفي أمكنة عدة خرجت الحمم من الصدوع وسالت نسو قرارة الضور فغلقت فيه سدودا طبيعية تجمعت وراءها المياه وشكلت بحيرات ، وقد جفقت بعض هذه البحيرات وتركزت مكانها رسوبات صلصالية نجدها اليوم في سهل الغاب وسهل الحمق ، تكسوها طبقة سطحية من الرسوبات النهرية الحديثة وهكذا نجد في الضور صخورا صلصالية وكلسية وبركانية ولحمية ، والاختلاف في أجزاء الضور لا يقتصر على الاتجاه والارتفاع ونوع الأرض ، بل يعتمد أيضا على المناخ ، ففي الشمال تهطل أمطار كافية ، بينما الوديان الجنوبية حارة جافة . (٢٩)

تبدأ الوهدة شمالا بحبري نهر قره صوالذي يلتقي بمياه نهر العاصي في بحيرة الحمق ، ثم يشغل الوهدة نهر العاصي فيوئلف سهل الحمق ، فسهل الغاب ، ثم

Gregory J.W. The Rift valleys of East Africa, London , (٢٧) :
1971, PP. 337 - 380

Quennel, A.M. The Structural and geomorphic Evolution : (٢٨)
of the Dead Sea Rift, quart. jour. geol. soc. vol. 114, 1959, p 7.

(٢٩) : صلاح الدين بحيري ، جغرافية الاردن ، عمان ، ١٩٧٣ ص ٧٩ .

سهل البقاع ، ويفصل بين حوض الليطاني وحوض الاردن ، عتبه بركانية ، ثم ينسد
سهل البقعة الذي يرتفع (٧٠ م) بابه بحميرة باميرة التي تنخفض (٢٠٠ م) من مساح
البحر ، وينتهي نهر الاردن بالبحر الميت الذي ينخفض سطحه عن البحر (٣٠٠ م) ، وفي
جنوب البحر الميت يمتد وادي عربة ماثلا من الجنوب نحو الشمال ، ويستمر الفجر الخسفي
في خليج العقبة . (٢٠)

منطقة الجبال الشرقية :

وهي تراصف الجبال الساحلية على الطرف الشرقي من الوهدة ، ولكنها على قريبا
منها تختلف عنها اشد الاختلاف ، فهذه باافة جرداء وتلك مروية مكسوة بالخضات ، وهذه
متقطعة قليلة الانتظام ، وتلك مستمرة الا حين تخترقها ميازات الأنهار ، والجبال
الغربية أكثر علوا ، أما الشرقية فهي أكثر تفرعا ، لأنها ترسل نحو الداخل مجموعة
محدودات تصل حتى نهر الفرات ودجلة وتدعونا بالسلاسل التدمرية .

وأول جبال المنطقة الشرقية جبل الاكراد ، يليه نحو الجنوب الشرقي جبل سمان

(٨٧٠ م) ثم جبل الزاوية (٩٣٩ م) فجبال لبنان الشرقية التي يصل ارتفاعها الى
(٢٦٢٩ م) ويحد مقعر الزبداني المنخفض نصل في الجنوب الى جبل حرمون (٢٨١٤ م)
الذي يشاهد في أفق مدينة دمشق وتكلم هامته الثلوج أشهرا من السنة ، لذلك يدعى أيضا
جبل الشيخ .

يتفرع من الجبال الشرقية محدودات تشكل مجموعتين ، اولاهما تبدأ عند حمص
(جبل بلعاس) والثانية تتشعب عند دمشق وتوأمف جبال وهضاب القلمون ، والمجموعتان
تقتربان حول تدمر في البادية السورية حيث نجد جبل البشري (٨٦٠ م) الممتد
حتى الفرات ، ثم جبل عبد العزيز القائم في شمال الجزيرة الفراتية ثم جبل
سناجر في العراق .

وفي الجنوب من غوطة دمشق وجبل حرمون تقوم مناخة بركانية واسعة تشكل اقليما متميزا بين الجمهورية العربية السورية والمملكة الاردنية الهاشمية وتتألف من مخاريط بركانية (جبل الحرب) يصل ارتفاعها الى (١٨٠٣ م) ومن مضاب وسهول مندالة بحرات البازلت ، (الجولان وحووران) ومن فجوات بركانية وعرة (الصفا واللجاة) .

والتواضعات المنطقتة الجبلية الشرقية تتحول في بلاد الأردن الى هضبة مرتفعة ، وأهم الموارض الطبيعية في هضبة الأردن جبال مجلون (١٢٠٠ م) في الشمال وجبال البلقاس (١٠١٢ م) عند السلط وجبال مآب (٩٠٠ م) وجبال الطفيلة (١٢٠٠ م) ثم جبال السراة (١٥٠٠ م) المطلحة بجبال السراة في شبه جزيرة الحرب. (٣١)

منطقة الهضاب والبادى والسهول الداخلية :

ان منطقة واسعة من البوادي تمتد غرب العراق وشرق بلاد الشام ، وهي تتحول الى شبه صحراء في منطقة الحماة ، وقد رأينا أن سلسلة الالتواضات تجتاز بوادي الشام من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي بادئة من القلمون ومنتبهة عند الفرات ودجلة أطلق عليها الجغرافيون اسم السلاسل التدمرية .

ولا تغلو البادية الشاميه من نتوات بركانية مبعثرة ، كما يتخللها شبكة من الاودية الجافة والسبخات ، ما يدل على أن المناخ كان قديما أكثر أمطارا والسهول أكثر انتشارا وأغزر ماء . وحتى في صحراء الحماة نجد عددا كبيرا من الأودية المتجهة نحو الفرات ، يتخذ منها البدو ممرات لنجماتهم ، والمناطق المأهولة بشكل ثابت هي بعض الواحات ذات المياه الباطنية كتدمر مثلا ، ويطلق البدو على هذه الواحات اسم المناظر ، وعند ما يخترق هذه السهوب فهدر أو ينبوع أو تتوافر فيها الأمطار تنقلب الى سهول مزروعة ، كما هو الحال في غوطة دمشق وسهل حمص وسهول حلب وأطراف نهر الفرات وسهول الخابـسـور في مناخة الجزيرة .

(٣١) : صلاح الدين بحيري - جغرافية الاردن ص ٩٣ .

الباب الأول

الفصل الأول

العناصر السكانية في الشام

قبل الفتح وموقفها منه

العرب وتوزعهم :

تتميز الشام بكثرة القبائل التي كانت قاطنة فيها أثناء الفتح والتي ترد أسماؤها في مصادرنا العربية ، إلا أن هنالك أسماء قبائل عربية كثيرة عديدة غير مذكورة لأنه لم يكن لعلماء الانساب علم بها ، ذكرت في التوراة وكتب اليهود الأخرى وفي المصادر اللاتينية واليونانية والكتابات الجاهلية ، وإذا جاز لأحد الشك في أصل بعض القبائل المذكورة في كتب اليهود أو في مؤلفات النحاة الكلاسيكيين على اعتبار أنها أخطأت في ادخالها في جماعة العرب ، فإن هذا الجواز يسقط متى بالنسبة إلى القبائل المذكورة في الكتابات الجاهلية والنسبة إلى القبائل التي دونت تلك الكتابات ، فهي كتابات عربية وإن اختلفت عن عربيتنا ، وبإينت لهجتها لهجتنا .

سئل أحد علماء العربية عن لسان حمير ، فقال : " ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا " (١) ولكن علماء العربية لم يتصلوا من عروبة حمير ولا من عروبة غيرهم ممن كان يتكلم بلسان مغالف للساننا ، بل عدوهم من صميم العرب ، وقد القت المكتشفات الأثرية الأضواء على كثرة وجود العرب في الشام ، فالنصوص الكثيرة المنقوشة على صخور البازلت في المنطقة التي يطلق عليها اسم الصفا في الجنوب الشرقي من دمشق تشير إلى أن السكان الذين نقشوا تلك النصوص في القرون الميلادية الأولى هم من أصل عربي ، فليفتهم لهجة عربية وكتابتهم تمت إلى الكتابات

(١) : محمد بن سلام الجمعي ، طبقات الشعراء ، ليدن ، ١٩١٣ ، طبعة أوفست

بيروت ، دار النهضة ص ٤٤٠

التي وجدت في جنوب الجزيرة العربية ، وأهمية هذا الاكتشاف هو أن علماء الآثار قد تفسروا على عرب السفا قول أن يمتزجوا بغيرهم امتزاجاً تاماً ، فتمروا بواسطه هذه النقوش على كتاباتهم وألهمتهم وعاداتهم ، (٢) كما أن الرأي السائد اليوم بين العلماء أن الأناط عرب مثل سائر العرب وأن استعملوا الآرامية في كتاباتهم ، ولم يذكرهم الاخباريون ، يدل على أن أسماءهم أسماء عربية ، فالصحة ، وأنهم يشاركون العرب في عبادة الأصنام المعروفة عند عرب الحجاز مثل ذي الشرى واللات والعزى ، وأنهم رستروا كتاباتهم الآرامية بكثير من الألفاظ العربية ، ويدل على إطلاق اليونان واللاتين والهنود الآرامية بكثير من الألفاظ العربية ، ويدل على إطلاق اسم العربية الصخرية

(يوسفوس) كلمة العرب على الأناط وإطلاق اسم العربية الصخرية

(Arabia Petraea) على أرضهم ، ولو لم يكن الأناط عرباً لما أطلق الكلاسيكيون اسم العرب عليهم ، وما كانوا ليدخلوا بلادهم ضمن العربية ويحيطونها جزءاً من أجزائها الثلاثة . (٣) أما استخدام الأناط للآرامية في كتاباتهم فيعود إلى أن الآرامية كانت قد تنقلت على أكثر لغات الشرق الأدنى ، وصارت لغة الكتابة والتدوين والتجارة في هذه المنطقة قبل الميلاد وبعده بقرون ، تغلبت على العبرانية مثلاً وزاحتها حتى فنشلت عليها عند المتكلمين بها من الغاصة والسواد إلى نهاية القرن السابع بعد الميلاد ، (٤) فلا عجب أن يدون الأناط وغيرهم من العرب بالآرامية ، لغة الفكر والثقافة والتجارة ، وأن يتكلموا بلغة أخرى ، هي لغة اللسان . وقد كان الأعاجم في الاسلام يتكلمون بالسنة أهمجية ويدونون باللسان العربي ، لسان القرآن والحلم والفكر . وما ذكرناه عن الأناط ينطبق على سكان تدمر ، فقد أخذ العنصر العربي بالمعنى الأصلي للكلمة يتغلب عليها تدريجياً اعتباراً من مطلع الألف الأول قبل الميلاد ، حتى أصبح هذا العنصر حوالي السبعين السلوقي هو النواة الثابتة في تدمر والغالبة عليها ، وذلك نتيجة تواصل إليها الباحثون .

(٢) : رينيه دوسو ، العرب في سورية قبل الاسلام ، ترجمة عبد الحميد الداخلي ، القاهرة ، ١٩٥٩ ، ص ١ / ١ .

(٣) : جواد علي ، الفصل في تاريخ العرب ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٠ م ، ج ٣ ، ص ١ / ١ .

(٤) : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١ / ١٠ .

ونوه بها البعض تنويها وأكد على البعض الآخر تأكيداً جازماً، (٥) كما أكدتها
أعدت دراسة في أسماء الأعلام القديمة، (٦) وكانت القبايل العربية في بادية الشام
ترقد مدينة تدمر بصورة خاصة نظراً لكونها أكبر مركز في تلك الأرجاء، ولاقتصادها
التجاري القافلي الذي يحتاج للرجال والخيول والجمال وتوطيد العلاقات البدوية
العربية على أساس المصلحة المشتركة، وأقدم الكتابات التدمرية حافلة بالأسماء العربية
العربية سواءً بالنسبة للأشخاص أو القبائل. (٧)
بالإضافة إلى الأنباء والسكان العرب في تدمر، فإن مدينة حمص كانت تحت
سلطان أسرة عربية قبل وصول بومبي إلى سورية والدليل على عروبتها، أن أمراءها يحيطون
أسماء ذات طابع عربي خالص شبيهة بتلك التي عثر عليها الملمح في نصوص صفوية. (٨)
وحكمت أسرارها نفس الأسماء العربية بلدة الرها، كما أن الايتوريين، وهم من أصل
عربي، (٩) كانوا يسيطرون على مملكة تقع في لبنان الداخلي عاصمتها خلقيس (Chalcis)

(٥) : Croke . G. A. A Text Book of North Semetic Inscriptions, Oxford, 1903, P.264. " The bulk of the population of Palmyra was of Arab race. Hence many of the proper names are Arabic and several Arabic words occur.

(٦) : Stark, J.K., Personal names in Palmyrene Inscriptions , Oxford, 1971, P.20. " A statistical survey of the names given in the main list would show that more than half of them can be best explained through Arabic, or can have a possible Arabic etymology, when one further considers ^{that} names like HYRN, MGYMW, MLKW which lexically require an Arabic explanation are attested with far greater frequency than other names, the balance weighs even more in favour of Arabic.

(٧) : عدنان البني، تدمر والتدمريين، رسالة دكتوراه منسوخة، دمشق ١٩٧٧، ص ٩٢

(٨) : دوسو، العرب في سوريا قبل الاسلام، ص ١١ / ٠

Donner, The Early Islamic Conquest, Princeton, New Jersey, P.95

Jones, V., Journal of Roman Studies, 1931 P. 257. : (٩)

عنجر في البقاع ، ومن هناك امتد سلكناهم في لبنان حتى الشاطي* الفينيقي ، وكانوا
يقلتون جبيل (Byblos) وبيروت (Beryte) الى أن تدخل بومبي ليضع حدا
لتمسقاتهم. (١٠)

ثم ان الدراسات التي قام بها رينان تبين أن أسماء الأعلام العربية التي تقدمها
النصوص التي اكتشفت في حوران لها ما يماثلها في دمشق وحمص ودمر ، (١١) كما يشير رينان
الى ذلك الضبط التام الذي كتبت به الأسماء العربية في النقوش مما يشير انتهاء الفقيه
اللفظي ، فقد روعيت فيها أدق خصائص اللغة العربية ، والتوافق الموجود بين خصائص
العربية قبل الاسلام والعربية التي يتعدت بها اليوم هو توافق يدعو الى العجب حقا . (١٢)
ويضيف دوسو أن آلاف النصوص التي ظهرت منذ ذاك الوقت حتى الآن في شرقي سورية ، سواء
أكانت نصوما اغريقية أم نبطية أم سبوية ، الى جانب نصوص ثلاثة عربية قبل الاسلام أكدت
صدق آراء رينان التي استوعبها من دراسته لاثني عشر نصا اغريقيا قد كتبت كتابة ناقصة ،
وكان رينان قد نشر آراءه في مذكرة عنوانها " في بعض أسماء عربية موجودة بنقوش اغريقية في
حوران " . (١٣) هذا وان اكتشاف نقوش بيزنطي رسمي مكتوب باللغات الثلاث ، الاغريقية
والسريانية والعربية ، بالقرب من حوران وعائد الى النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ،
يكشف أن المتكلمين باللغة العربية كانوا يشكلون نسبة لا يستهان بها ، والا لما كتب النص
بالعربية بالاضافة الى اليونانية لغة الادارة والحكم ، والسريانية وهي اللغة التي كان
يتكلم بها القسم الأكبر من السكان في سورية. (١٤)

(١٠) : دوسو ، المصدر السابق ص ١٤ .
Donner, Op. Cit. P. 95

(١١) : المصدر السابق ، ص ١٤ .

(١٢) : المصدر السابق ، ص ١٥ .

(١٣) : المصدر السابق ، ص ١٥ .

Donner, Op. Cit. P. 95.

(١٤) :

ومن سوء العظ أن المصادر العربية لا تقدم سوى معلومات شديدة الغموض فيما يتعلق بهجرة العناصر العربية إلى الشام والآثار التي تركتها، ولولا التأييد الذي حصل عليه العلماء، من النقوش الكتابية ومن مؤلفات معاصرة، لأضحت هذه المعلومات عديمة الجدوى .

يشير المحققي أن قضاة كانت أول من قدم الشام، وكان أول من قدمها من قضاة تنوخ، فملكهم الروم على من ببلاد الشام من العرب، ثم غلبت بنو سليح . (١٥)
أما الطبري، فيذكر بأن كثيرا من تنوخ الذين كانوا قد توجهوا مع مالك وصراهمي فهم ومالك بن زهير لحقوا بالشام إلى من هنالك من قضاة، بعد أن ضبط أردشير بن بابك أول ملوك الساسانيين العراق لأنهم كرهوا أن يقيموا في مملكته، (١٦) أي أن هذه الهجرة نحو الشام كانت حوالي النصف الأول من القرن الثالث الميلادي لأن أردشير بن بابك هو مؤسس السلالة الساسانية التي يبدأ حكمها سنة ٢٢٥ م. أما الهجرة الأولى من قبائل تنوخ (١٧) سواء نحو العراق أو الشام فربما كانت في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي .

(١٥) : المحققي، تاريخ المحققي، دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٩ هـ ١٩٦٠ م ، ج ١ ص ٢٠١ .

(١٦) : الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف - الطبعة الثانية ج ٢ ص ٤٢ .

(١٧) : تنوخ : عسي من اليمن اخطف النساء فيه، فقال ابن خلدون بأنهم من بني أسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمرو بن الحافي بن قضاة، وقال الزبيدي تنوخ قبائل اجتمعت وتألقت منهم بنو فهم، وقال الزمخشري، "تنوخ قبائل تحالفت فتنعت في مواضعها، وقال النويري : تنوخ وهو مالك بن زهير بن عمرو بن فهم بن ثيم الله بن أسد، وقال ابن عبد ربه وأبو الفداء، تنوخ من قبائل قضاة، وقال ابن سميذ : ومن الناس من يطلق تنوخ على الضجاعة ودوس الذين تنحوا بالبحرين، ويذكر الطبري أن تنوخ تضم قبائل عدة، من العرب تحالفوا على التنوخ وهو المتام وتماقدوا على التوازر والتناصر، فساروا يدا على النار، وضمهم اسم تنوخ .
الطبري ج ١ ص ٦١٠، عمروضا كحاله، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، بيروت، ج ١ ص ١٣٣، ١٣٤ .

ونستنتج مما يرد عند الدهري واليهقوبي والمسعودي وابن عبد ربه وغيرهم أن تنوخ التسي استقرت في الشام كانت من قبائل قضاعة ، وأن بني سليج غلبت عليهم وتنصرت فطكتهم الروم على العرب الذين بالشام ، وبنو سليج هم عرب نسبهم النسابون إلى سليج بن حلوان بن عمران بن الحاف من قضاعة (١٨) ، ثم سارت غسان إلى الشام فقدوا أرض البلقياء ، وسألوا سليجاً أن يدخلوا معهم فيما دخلوا فيه من طاعة ملك الروم ، فكتب سليج إلى ملك الروم وكان منزله بأنطاكية فأجابهم إلى ذلك وشرك عليهم شروياً ، (١٩) أما ابن عبد ربه فيذكر أن سليج ، وهو سرو بن حلوان بن عمران ، بينما الضجاعة هم من بني سعد بن سليج ، وأن الضجاعة هم الذين كانوا ملوك الشام قبل غسان (٢٠) ويبدو مما يذكره المستشرق تولد كنه أن الضجاعة كانوا عمالاً للروم على حرب مشارف الشام وأن جدّهم ضجعم عاش في أواخر القرن الرابع للميلاد وأخذ من الروم لقب فيلارك (Phylarch) ، (٢١) وأنه تنصّر وتنصّر معه عدد كبير من أتباعه ، ولم يتغلب الفساسنة على الضجاعة بسهولة ويسر ، على أن هذا النصر الذي أحرزه الفساسنة على بني سليج لم يؤد إلى زوالهم ، أو زوال الضجاعة نهائياً أو هجرهم للمنطقة ، إذ يرد ذكر بني سليج بن حلوان في حاضر قنشرين (٢٢) كما كان الضجاعة من القبائل العربية المعروفة عند ظهور الإسلام ، فقد وقفوا مع سكان دومة الجندل في عنادهم ومقاومتهم لخالد بن الوليد وكان رئيسهم ابن ذاك ابن الحدرجان ، (٢٣) كما زار الشاعر النابغة الذبياني أحدهم ببصرى وذكر ذلك في إحدى قصائده :

(١٨) : ابن عبد البر ، الأنباه على قبائل الرواء ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ ، ص ١٢٣ ، والمسعودي

مروج الذهب ومحاذن الجواهر ، دار الاندلس ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٣٩٣ هـ

عام ١٩٧٣ م ج ٢ - ص ٨٣ .

(١٩) : اليعقوبي ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٢٠٧ ، والمسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ - ص ٨٣ .

(٢٠) : ابن عبد ربه ، المعقد الفريد ، القاهرة ، ١٣٧٢ هـ / ١٩٥٢ م ج ٣ - ص ٣٧٣ .

(٢١) : تولد كنه ، أمراء غسان ، ص ٦ .

(٢٢) : البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق محمد رضوان ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ،

ص ١٥٠ .

(٢٣) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٣٧٨ .

لمصري ، لنعم الحرء من آل ضججهم

نزور ببصري أو ببرقة هارب (٢٤)

أما الفساسة فمهم باجماع النسابين من الأزد ، أزد اليمن ، التي افترقت
فيما ذكره ابن عبد ربه وغيره من علماء النسب على نحو من سبع وعشرين قبيلة منهم الأنصار -
الأوس والخزرج ، وكل الأوس والخزرج غساني الا ما كان منهم بعمان . (٢٥) وقد شذ عن الخزرج
قبيل من قبائلها كانت دارهم الشام فمهم غسانيون ، وليسوا في الأنصار ، الأرجلين كانوا
بالمدينة فأسلما ونصرا مع قومهما من الأنصار ، وهما أبو الدرداء ، وعدي بن كعب من الخزرج . (٢٦)
ويذكر ابن حزم أن الفساسة بدارون شتى من الأزد ، ومن بدارون فسسان التي سكنت الشام
أولاد بيفنة بن عمرو مزيتية (٢٧) وكانت ديار ملوك غسان باليرموك والجبولان وغيرهما من
غوطة دمشق وأعمالها ومنهم من نزل الاردن من أرض الشام ، (٢٨) ويستفاد مما يذكره
الشعراء أن مركز الجفنيين الأهم كان الجولان الذي كان يقع في ولاية فلسطين الثانية ، (٢٩)
كما يذكر هو لاء الشعراء أن الفساسة كانوا يتقربون بالقرب من دمشق في موضع على نهر
بردي يعرف بجلق ، (٣٠) يقول حسنان بن ثابت :

لله در عصاة ناد متهم يوما بجلق في الزمان الأول

(٢٤) : الناهضة الذباني ، الديوان ، تحقيق وشرح كرم البستاني ، دار بيروت صادر ، ص ٢٥

(٢٥) : ابن عبد البر ، الانباه على قبائل الرواة ، ص ١٠٦ .

(٢٦) : المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

(٢٧) : ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٥١ ، المسعودي ، مروان الذهب ، ج ٢ ، ص ٨٣

(٢٨) : المسعودي ، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨٣ .

(٢٩) : فلسطين الثانية (Palestine Secunda) كان مركزها بيسان ومدنها
الرئيسية جدرّة وطبرية .

Le Strange, Palestine and the Muslims, 1890, P. 26.

نولدكه - أمراء غسان ، ص ٥١ .

(٣٠) : يرى ياقوت الحموي أن جلّق هو اسم لكونه الغوطة كلها وبضيف وقيل جلّق موضع القرب
من قرى دمشق ، معجم البلدان ج ٢ ص ١٥٥ .

ورد في دمشق بالرعيه السلسل

بمشقون من ورد البريدي (٣١) لمهم

كما يذكر في قصيدة أخرى ،

أنظر خليلي بهطن جلق هل

تونس دون البلقاء من أحمد (٣٢)

وذكر حسان مواضع عديدة تقع في ملك غسان من جنوبي الجولان الى أطراف

دمشق (٣٣) ولم تكن سلطة الأمير الجفني تقف عند حدود ولاية ما ، بل كان تتجاوزها وتمتد على كل القبايل الرحل ، وأوشبه الرحل التي كانت دائما أو في أوقات معلومة في فلسطين الثانية ، والولاية العربية وفينيقية لبنان ، وربما أيضا في ولاية سورية الشمالية ، أما في البيدا فان ملكه كان يمتد الى العهد الذي كان العرب يخشون فيه بأسه وسلاحه ، أي الى

(٣١) : يستتج يا قوت الحموي من قصيدة حسان المذكورة ومن قصيدة وعده الجرمي " ولا سرطان أنهار البريدي " على أن البريدي اسم الخوذة بأجمعها ، فيقول : " ألا تراه نسب الأنهار الى البريدي ، وكذلك حسان فانه يقول : يستقون ما " ورد في من ورد البريدي " . مهم البلدان ج ١ ص ٤٠١ ، محمد كرد علي ، غزوة دمشق ، مطبوعات المجمع العلمي ، دمشق ، الدفعة الثانية ص ١١٠

(٣٢) : حسان بن ثابت - الديوان ، تحقيق وليد عرفات ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٤ م

ج ١ ص ٢٧٦

(٣٣) : المصدر السابق ص ٧٤ ، ٢٥٥ ، ٢٧٦ ،

بين الجوالي فالهضيق فموسل	القصيدة رقم ١٣ -
فديار سلعى درسا لم تحلل	أسألت رسم الدار أم لم تسأل
	والمن من الشفرين فباسم
بين أعلى اليرموك فالخمسان	القصيدة رقم ١٢٣ -
فسكاء فالقصور الدواني	لمن الدار اوعشت بمحسان
مخنى قنابل وهجسان	فالقريّات من بلاس فداريسا
	فتقا بجاسم فأودية المفسر
	القصيدة رقم ١٣٦ -

من دون بصرى وخلفها جبل الثلج عليه السحاب كالقصد

ما وراء سلسلة القلاع الأخيرة التي تعين حدود امبراطورية الروم، (٣٤) وبالرغم من المنطقة الواسعة التي كان يمتد اليها النفوذ الغساني، فاننا لا نرى كما يقول تولد كه اشارة الى أن الفساسنة كانوا يمتلكون أيًا من الأماكن الحصينة أو من المدن التي كانت مراكز للجيش، كدمشق، وبيروت، أو تدمر التي حصنها جوستينان. (٣٥)

ويبدو أن دخول الفرس لبلاد الشام سنة ٦١٣ - ٦١٤ م ضحضح ملك بني جيفسه ففر بعض أمراءهم الى بلاد الروم والتجأ البعض الآخر الى داخل الصحراء، ومن النابيجي أن لا يترك الفرس في الشام عمال الروم من الحرب، وكانوا قد ذاقوا منهم الامرين، ويؤيد هذا الافتراض ما يذكره غسان من تهديم ملك بني غسان وكيف أن بطريق الفرس (وكان لقب بطريق قد أصبح شامخا بين أهل تلك البلاد) قد سطا على ملك بني غسان وترجع في عقر دارهم وأباح رعاية الابل فيها حتى جبل الحارث في الجولان. (٣٦) أما قصيدته التي أشدها على طيبند وقيل هجره النبي (صلعم) بزمن قليل، فتدل على أن منطقته نفوذهم كانت تمتد من جبل الشيخ الى ايله، (٣٧) وفي فترة التوسع، تذكر المصادر العربية

(٣٤) : تولد كه ، امراء غسان ، ص ٥١ ، المناخلة الذهبية ، الديوان ، ص ٤٣ ، ٥٥٤ .

(٣٥) : تولد كه ، المصدر السابق ، ص ٥١ ، نقلا عن ملالا ١٥٢/٢ ، تيوفانس ص ٢٦٧ .

(٣٦) : حسان بن ثابت ، الديوان ، ص ١٦٤ ، قصيد ، رقم - ٨٤ -

أباح لها بطريق فارس غائطا

له من نرى الجولان بقل وزامر

ترجع في غسان أكفاف محبل

الى الحارث الجولان فالني ظاهر

(٣٧) : المصدر السابق ص ٣٠٨ - قصيد ، رقم - ١٨٣ -

من يفر الدعر أو يأمنه

من قبيل بحد عمرو وحجر

ملكا من جبل الثلج السسي

جانهي أيلة من عهد وهجر

أثيا فارس في دارهم

فتناها بحد اعصاب بقدر

ثم صاحبا يأكل غسان اصبروا

انه يوم مصاليت صبر

ووجود قبائل غسان في موته ، (٣٨) وفي من راعط ، (٣٩) ومنج الصفر ، (٤٠) والثنية ، (٤١) ومن هذرا ، (٤٢) ومعظم هذه المناطق قريبة من دمشق .

بالإضافة الى قبائل غسان ترد أسماء قبائل كلب في بادية الشام في قراقرص
و سوى مع قوم من بهراء (٤٣) وكانت مساكن كلب السماوة ولا يخالط بطونها في السماوة أحد ،
ويحدد الهمداني مناطق سكنها " من حوران في ديار كلب عن يمينك في السماوة ثم نسي
الدهناء الى أن ترى نخل الفرات ولا يخالط كلبا سواها ، (٤٤) أما ديار عاطة فمجاورة
للأردن ، وجبل عاطة مشرف على مكة والى الغرب من حصن تقع أرض بهراء ، (٤٥) ويطلق
الاخباريون لفظ عرب الضاحية او المستعربه عندما يذكرون القبائل العربية في الشام
أثناء الفتوح ، ففي رواية السري عن شميب عن سيف : " أن أبا بكر أمر خالد بن سعيد
أن ينزل تيماء وأن لا يبرحها وأن يدعو من حوله بالانضمام اليه فأقام فاجتمع اليه
جموع كثيرة ، وبلغ الروم عظم ذلك المسكر فضربوا على عرب الضاحية البعوث

-
- (٣٨) : الواقدي ، المغازي ، ج ١ ص ٤٠١ .
(٣٩) : البلاذري ، فتوح ، ص ١١٩ ، الطبري ، ج ٣ ص ٤٠٧ ؛ تهذيب تاريخ دمشق ،
ج ١ ص ١٣٥ ، ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج ٢ ص ٤٠٤ ؛ ابن حبيش ،
الفتوح ، مخطوطة ، ص ١٢٧ .
(٤٠) : الطبري ج ٣ ص ٤١٠ .
(٤١) : الأغاني ، ج ١٥ ص ١٦٤ .
(٤٢) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ١٣٦ .
(٤٣) : البلاذري ، فتوح ، ص ١١٨ ؛ وقراقرص ، واد لكلب بالسماوة ، وسوى ، ماء لبهراء ،
من ناحية السماوة .
(٤٤) : الهمداني ، وصفه جزيرة العرب ، تحقيق محمد علي الاكوع الحوالي ،
منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، ص ٢٧٢ ،
و ص ٢٧٤ .
(٤٥) : المصدر السابق ، ص ٢٧٢ .

ففر إليهم من بهرا* وكلبوسليح ، وتتوخ ، ولغيم وجذام وغسّان ، (٤٦)

أما في أحداث سنة ١٤ هـ فيذكر الطبري نقلا عن ابن اسحاق ، أن عرقيل سار في الروم حتى نزل انطاكية ، ومعه من المستعربة لدم وجذام وبلقين ولسي وهاجمة ، (٤٧) ثم ينسب ثمانية ، ومعه من المستعربة من غسّان وتلك القبائل من قضاة ، وعندما يطلق الاخباريون لفظ العرب المستعربة فهم لا يقصدون نسبها ، لأن من بينها من هو من أصل قحطاني ، على حسب مذهب أهل الانساب في نسب القبائل ، وانما يريدون من هذا المصطلح القبائل التي كانت قد سكنت في الشام وأطرافها وخاصة ، تلك التي دانت بالانصارية وتأثرت بالثقافة الارامية وبلهجتها ، وذلك لظهور هذا الاثر فيها وعلى لهجتها خاصة ، مما حدا بعلماء اللغة أن يتعرجوا في الاستشهاد بشعرها في قواعد اللغة. (٤٨)

وقد فضلت غالبية القبائل العربية المستعربة السكنى في أطراف المدن في مواضع قريبة من البوادي ، عرفت عندهم بالحاضر ، فكان في أكثر مدن الشام مثل حلب ، ودمشق ، وقنسرين وحمص ، حاضر يقيم فيه العرب ، فكان حاضر قنسرين لتتوخ ومنهم بنوسليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، (٤٩) كذلك كان يسكن في طرف قنسرين قبائل طسي* ، ويطلق على منطقة سكنائهم بالحاضر* نزلوا بها في البداية لطلب أثر السروب التي وقست فيما بينهم واستدعت تفرقتهم . (٥٠) وأن بقرب مدينة حلب حاضر يدعى حاضر حلب يجمع أصنافا من العرب من تتوخ وغيرهم . (٥١) ويذكر ابن حزم " أن قبيلة جديله من ولد

(٤٦) : الطبري ، ج ٣ ص ٣٨٤ ، ابن الأثير ، ج ٢ ص ٤٠٢ ، تهذيب تاريخ دمشق ،

ج ١ ص ١٣١ .

(٤٧) : الطبري ، ج ٣ ص ٥٧٠ ، البلاذري ، فتوح ص ١٤٠ .

(٤٨) : جواد علي ، الفصل في التاريخ ، ج ٦ ص ٢١٦ .

(٤٩) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٠ .

(٥٠) : المصدر السابق ، ص ١٥١ .

(٥١) : المصدر السابق ، ص ١٥١ .

فطرة بن طي* وتمم الله وحببش والأسمد جلاؤكهم عن الجبلين في حرب الفساد فلحقوا
بكتب وعاصر طي* (٥٢) بالإضافة الى هذه المناطق وجد العرب في بعلبك، (٥٣) وفي
قيسارية، (٥٤) ويبدو أن منطقة فلسطين كانت آهلة بالقبائل العربية ان يذكر ابن الاثم
اجتماع الروم في أجنادين وأن أهل البلاد من نصارى العرب قد وعدوهم بالمساعدة، (٥٥)
كما يطلق الطبري على أرض فلسطين أرض قضاة. (٥٦) الى جانب العرب وجد الفرس
في بعلبك، (٥٧) وعمى واندكبة، (٥٨) والسامرة واليهود في قيسارية، (٥٩) والاردن
وفلسطين، (٦٠) واليهود في عمى ومدن أخرى، (٦١) والجراجمة في جبل اللكام، (٦٢)
والروم ومرتزقتهم في مدن الساحل، (٦٣) وفي المدن الداخلية كإيلياء وبصرى ودمشق
وحمص وتدمر، (٦٤) وعلب، يضاف الى هؤلاء تلك القبقة التي يطلق عليها المؤرخون
العرب لفظ الملوج أو النبط، (٦٥) ويستنتج من الروايات الواردة في لسان العرب

-
- (٥٢) : ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٢٧٥ .
(٥٣) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٦ .
(٥٤) : المصدر السابق ، ص ١٤٧ .
(٥٥) : ابن الاثم ، فتوح ، ج ١ ص ١٤٣ .
(٥٦) : الطبري ، ج ٣ ص ٤٠٨ .
(٥٧) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٢٤ ، ١٣٦ .
(٥٨) : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .
(٥٩) : المصدر السابق ، ص ١٤٧ .
(٦٠) : المصدر السابق ، ص ١٤٧ .
(٦١) : المصدر السابق ، ص ١٤٣ .
(٦٢) : المصدر السابق ، ص ١٦٣ .
(٦٣) : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .
(٦٤) : ابن الاثم - فتوح ، ج ١ ص ١٤٠ .
(٦٥) : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٧٤ ، ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، المجلد الأول ،
ص ١٨٢ .

كثرة النبط في العراق والشام في منطقة الأرياف والمدائن ، (٦٦) كما أن النسب السوي
المبشرة في المصادر تحوى قرائن مثل الأرض والقرى والزراعة وكلها تدل على أن المقصود
بالنبط طريقة الحياة وليس النسب ، أما المسمودى ، فيشير الى أن هـم السـريـان
الذين يسكنون العراق والجزيرة والشام ، (٦٧) ويبدو أن الدكتور جواد علي قد أخذ برأى
المسمودى ، ولكنه جعله أكثر شحولا فهو يمتزجهم بقايا الشعوب القديمة التي سكنت بلاد
الشام والعراق وسترسبات الآراميين في هاتين المنطقتين وذلك قبيل الاسلام وفي الاسلام ، (٦٨)
وكان النبط يتكلمون بلهجات عربية ولكن برطانة أعجمية ، وملكة غريبة ظاهرة ، وقد ضرب
المثل في رطانة كلام النبط بالحربية وقبحه " وقد قبح الكلام وصار على كلام النبط " . (٦٩)
هذه هي المناسر السكانية التي وجدت في الشام ابان الفتوح ، الا أنه من
الصعب أن نتبين نسبة هؤلاء بعضهم الى بعض ، فالروايات لا تذكر عدد السكان الا عرضا ،
كما أنها لا تذكر سوى المقاطعة أحيانا مع اختلاف كبير في الارقام بين رواية وأخرى ، ففي
الحديث عن فتح قيسارية مثلا نجد أن عدد السامرة ثلاثون ألفا حسب رواية البلاذرى ،
وثمانون ألفا عند ابن عساكر وياقوت الحموى ، أما عدد اليهود فهو عند البلاذرى وابن عساكر
مائتا ألف وعند ياقوت مائة ألف ، وعدد مقاتلة الروم حسب رواية هشام بن عمار أثناء محاصرة
معاوية لها كان (٧٠٠) ألف من المرتزقة وكان يحرسها في كل ليلة على سورها مائة ألف ، (٧٠)

(٦٦) : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة نبط ، ورد في لسان العرب أنهم انما سموا
أنباطا لا استنباطهم ما يخرج من الأرضين ، وفي حديث عمر رضي الله عنه ،
" تعددوا ولا تتنبطوا " أى تشبهوا بالنبط ، وفي الحديث الآخر : لا تتنبطوا
في المدائن " أى لا تشبهوا بالنبط في سكانها واتخاذها المقار ، ومنه حديث
عمر بن سعد يكرب ، سأل عمر عن سعد بن أبي وقاص ، فقال : أعرابي في جبهته ،
نباطي في جبهته ، أراد أنه في جبهة الخراج وحصارة الأرضين كالنبط حدقا .

(٦٧) : المسمودى ، التنبه والاشراف ، ص ١٥١ .

(٦٨) : جواد علي ، الفصل في تاريخ العرب ، ج ٣ ص ١١١ .

(٦٩) : الاغانى ، ج ٥ ص ١٦ .

(٧٠) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٤٧ .

ابن عساكر وياقوت فيشيران الى أن مقاطعة الروم فيها كانوا مائة ألف . (٧١) ونجد نفس هذا الاختلاف عند ذكر المقاطعة من المستعمرة العرب ، ففي رواية مسعود بن اسحاق حسن عروة بن الزبير أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء بمائة ألف من الروم ومائة ألف من العرب المستعمرة ، (٧٢) ويذكر ابن الاثم أن جبلة بن الايهم الفسائي نزل الخوطة من أرض دمشق في أربعين ألفا من العرب المتدسرة بالخييل والعدد والسلاح ، (٧٣) أما ابن اسحاق فيشير أن عدد المستعمرة من غسان وتلك القبائل من قضاة التي كان يقودها جبلة بن الايهم الفسائي في معركة اليرموك ، كان عدد هم اثني عشر ألفا . (٧٤) ان هذه الروايات بالرغم من اختلافها تظهر بأن العرب كانوا نسبة سكانية لا يستهان بها في المنطقة ، لاسيما بعد أن جلا قسم كبير من أهل المدن الساحلية كميدا وعرقه ، وجبيل ، وبيروت ، (٧٥) وجبلة ، (٧٦) كما نفهم من روايات أخرى جلاء سكان المدن الداخلية ، ففي دمشق مثلا يذكر الواقدي ، أن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بانطاكية ، (٧٧) كما جلا قسم من أهل حمص عنها . (٧٨)

ان القبائل التي كانت طائفة في الشام في الفترة السابقة للفتح كانت اما قضاة أو قحطانية ، وكانت النصرانية منتشرة فيهم واكثر وضوحا وأوسع انتشارا منها بين عرب الحسار ، فأمراء الحساسة عند ظهور الاسلام وسادات القبائل النازلة في مناطق حكم الروم ونفوذهم

-
- (٧١) : تهذيب تاريخ دمشق من ٤ ص ٣٦٩ ، ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، مادة قيسارية .
(٧٢) : الطبري ، ج ٣ ص ٣٧ ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ٩٤ ، ٩٨ .
(٧٣) : ابن الاثم ، فتوح ، ج ١ ص ١٢٥ .
(٧٤) : الطبري ، ج ٣ ص ٥٧٠ .
(٧٥) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٣ ، ابن الاثير ، ج ٢ ص ٤٣٣ .
(٧٦) : ابن الاثير ، ج ٢ ص ٤٩٢ .
(٧٧) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٢٨ .
(٧٨) : المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

كانوا على هذه الديانة ، (٧٩) وان كانوا على مذهب يخالف مذهب البيزنطيين ، فالنصرانية وجدت المساعدة الرسمية من الروم في بلاد الشام ، وكان لدخول الروءساء فيها أهمية كبيرة في انتشارها ، لأن ذلك يؤدي الى حصولها على الحماية الرسمية ، وعلى انتشارها في شميلة الرئيس ، معاكاة وتقليدا لسلفه ، (٨٠) ونظرا لاعتناق سكان الشام طامة للمذهب اليهقوبي القائل بالالهية الالهية الواحدة للمسيح ، هذا المذهب الذي اعتبر هرطقة بموجب قرارات المجمع الكنسي الذي انعقد في خلقدونية سنة ٤٥١م فان كثرة كثيرة من المؤرخين يرون أن انتشار المذهب في هذه الحنطقة واضطهاد سكان الشام من قبل البيزنطيين دينيا كانا من أكبر العوامل التي مهدت للفتح العربي طريقه واعانت عليه ، (٨١) وليس منهم من يذكر هذه الحنطقة بين حرب الجزيرة وحرب الضاعية الا ويشير الى أثرها في سرعة الاستجابة وتحقيق النصر ، حتى أن فيليب حتي يرى أن الفتح كان معركة قومية وأن الفوز فيه كان للقومية العربية لا للمدين الاسلامي. (٨٢)

(٧٩) : ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص ٤٥٧ .

(٨٠) : جواد علي ، المفضل في تاريخ العرب ، ج ٦ ، القسم الديني ، ص ٢١٣ .

(٨١) : د . ابراهيم الحدوي ، الامبراطورية البيزنطية ، والدولة الاسلامية ، ١٣٧٠ هـ

١٩٥٣م وقد اعتمد في ذلك على ماورد في كتابي بيوري (Bury) ومور

(Muir) - Bury, A History of The Later Roman Empire II, - Sir William Muir, The Caliphate, Its rise, Decline and Fall. P. 140 . P. 269 .

كذلك نجد فازيليف (Vasiliev) يشير الى أن الانتصارات العسكرية

الرائحة التي حققها العرب ، تعود الى ذلك التدمير الديني لدى سكان سورية ،

وأن الاسلام كان متأثرا بالمذاهب النسطورية واليهقوبي وأن علماء اللاهوت

البيزنطيين نظروا الى الاسلام على أساس أنه مذهب من المذاهب المسيحية

المنشقة ، ولذلك فان شعوب المنطقة دعمتهم ، ويؤكد البروفسور غرينوار

(Gregoire) على الصلة بين الاسلام والموتوفيزية Monophysitism

" وان يوتيوخوس (Eutyches) أحد مؤسسي المذهب المونوفيزي هو

الذي أوجد معمدا "

Vasiliev, Byzantium and Islam in Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization ed. Norman H. Baynes and H. St. B. Moss XI P. 309 .

(٨٢) : حتي ، تاريخ العرب ص ١٩٧ .

لا نستطيع في الواقع أن نطلق القول في هذه القضية منكرين له أو مؤمنين ،
الا بعد أن نتتبع موقف العرب النصارى من حركة التحرير والفتح التي امتدت (اذا مانعينا
موته وتبوك ومث أسامة) بين ١٣ هـ / ٦٣٤ م وهي السنة التي التقت فيها الجيوش
الاسلامية بالروم في دائن ، (٨٣) ووادي عربة وبين سنة ١٩ هـ ، ٢٠ هـ / ٦٤٠ م السنة
التي استسلمت فيها قيسارية ، وفي خلال هذه السنوات استلذت الجيوش الاسلامية أن تركز
أقدامها في معارك قاسية ، أما بعد ذلك فقد كانت المقاومة يسيرة ليس فيها كبير جهد ،
ولم تتخذ حركات الجيوش الاسلامية في الواقع شكل المعارك الكبرى ، الا بعد أن جاء
خالد بن الوليد من العراق مدداً لأهل الشام ، ومع امداد خالد تبدأ مرحلة جديدة
في تطور الفتح العربي ، وتمثل هذه المرحلة في مظاهر ثلاثة : توحيد جيوش المسلمين ،
توحيد القيادة تحت إمرة خالد ، تسيير نظام التمبئة ، ويبدو من تتبع الفتوح أن فتوح
دمشق وهزيمة البرموك كان يشبه اسلام زمام بلاد الشام والجزيرة الى المسلمين ، لانه مكن
لهم أن يسيطروا على هذه المنطقة المتوسطة من الشام والتي تعمي ظهورهم بالبادية ،
ثم أن يتابسوا هجماتهم في الشمال وفي الجنوب ، أما في الجنوب فانتهى بهم الأمر الى
الاستيلاء على بيت المقدس ، بعد ثلاث سنوات من فتح دمشق سنة ١٧ هـ / ٦٣٨ م
والى الاستيلاء على قيسارية وهي المدينة الساحلية التي أتاح لها مركزها الساحلي أن تلتقى
المدد والعون من الروم بحراً ، ولكنها استسلمت في ولاية معاوية لجندى دمشق والاردن ،
أما في الشمال ، فقد توالى الفتح بعد حمص ، واستطاعت الجيوش الاسلامية أن تدخل
حلب وانطاكية حصن المسيحية الحصين في هذه المنطقة الشرقية ، ثم توجهت بعد ذلك
الى الشرق نحو مدن الجزيرة ، فصالحها أهل الرها ونصيبين ، وكانت الجزيرة أسهل
البلدان أمراً وأيسره فتحاً ، وكانت تلك السهولة مهجنة عليهم وعلى من أقام فيهم
من المسلمين . (٨٤)

موقف عرب الشام : ان الروايات التي يمكنها أن تقدم صورة عن تلقي عرب الشام

(٨٣) : البلاذري ، فتوح ص ١١٧ .

(٨٤) : الطبرى ، ج ٤ ص ٥٤ .

للحركة الاسلامية ، تعطى المطالع للمرة الاولى انطبعا سينا ، فأول هذه الاحداث
هو قتل شرحبيل بن عمرو الفسّاني ، للحارث بن عمرو الأزدي ، رسول رسول الله (صلم)
الى ملك بصرى ، (٨٥) وفي موءتة في العام الثامن - ٦٢٩ م ، واجه زيد بن حارث قائد
الجيش الاسلامي الموءلف من ثلاثة آلاف مقاتل جيش الروم ، ويقتل زيد ، ثم جعفر بن أبي
طالب ، ويعدده عبد الله بن أبي ربيعة ، ويستشهد من يستشهد ممن لم تعفظ لنا اسماؤهم
ولا اعدادهم ، ويأخذ اللواء خالد بن الوليد فكان أكبرهم أن يستنقذ الجيش وأن ينقذ
المسلمين من هزيمة محققة ماحقة " فيدافع عن القوم ويحاشي بهم وينحاز ويتحيز " (٨٦)
وأغلب الظن أن الروم لم يكونوا وحدهم هم الذين يحاربون بل كان العرب كذلك يحاربون
العرب المسلمين ، ويقتلونهم ، ففي رواية محمد بن اسحاق عن عروة بن الزبير ، أن المسلمين
نزلوا معان من أرض الشام ، فبلغ الناس أن هوقل قد نزل مأب من أرض البلقاء في مائة
ألف من الروم وانضمت اليد المستعربة من لحم وجذام ، وبلقين وسهرا* ويلي في مائة ألف منهم
طهم رجل من بني اسمه مالك ، (٨٧) وفي تاريخ ابن سائر ، من رجل من أهل البلقاء ،
أن الذين لتوهم يومئذ من أهل المشارق من النصارى من لحم وجذام وبلقين . (٨٨)
وفي عام الوفود ، أي في العام التاسع للهجرة ، بعد أن فتح الله على المسلمين
مكة ، ومكّن لهم من البيت وبدأت الوفود تنطلق من كل صوب متجهة الى النبي (صلم)
لا ننتبين فيما بين أيدينا من روايات المؤرخين صدى لذلك كله بين عرب الشام ، الا ما يذكره
ابن هشام عن اسلام فروة بن عمرو الجذامي الذي بعث الى رسول الله (صلم) رسولا
باسلامه وأهدى له بغلة بيضاء ، وكان فروة عاملا للروم على من يليهم من العرب ،

(٨٥) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ٩٤ .

(٨٦) : الطبرى ، ج ٢ ص ٤٠ .

(٨٧) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٧ ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ٩٤ ، ٩٨ ، ٩٩ .

(٨٨) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ٩٩ .

وكان منزله بعمان وما حولها من أرض الشام ، ولكن الروم عندما بلغتهم اسلامه حبسوه ثم صلبوه على ما يقال له عفراف بفلسطين ، (٨٩)

واذا نحن تجاوزنا هذه الفترة الاولى الى الفترة الثانية التي بدأ فيها الغليفة الاول تجهيز الجيوش وتوجيهها الى الشام ، نجد أن موقف العرب لم يكن في كثير من الأحيان استجابة أو تأييدا ، وأن الروم كانت تضرب البعث على عرب الضاحية وكانت تستنفرهم فينفر اليها من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان ، (٩٠) وكانت ولا شك تحارب بهم في المواقع المختلفة بل أنها كانت تجد منهم من تستخدمه في التجسس والتطلع ، فني أجناد بن أرسل قائد عسكر الروم رهلا مرها من قضاة من يزيد بن حسان يقال له ابن هزارف ، وطلب منه أن يدخل بين العرب وأن يقيم فيهم يوما وليلة ثم يأتيه بأخبارهم ، (٩١) وهناك رواية واحدة ينفرد بها سيف عن أولى مراحل الطريق الى الشام حين " أمر أبو بكر خالد بن سعيد بن الساس أن ينزل تيماء وأن لا يرحمها وأن يدعو من يوليه بالانضمام اليه فأقام فاجتمع اليه جموع كثيرة ، وبلغ الروم عظم ذلك المسكر فضربوا على عرب الضاحية البعث ، وكتب خالد الى أبي بكر بذلك وينزل من استنفرت الروم ونفر اليها من بهراء وكلب وسليح . . . فكتب اليه أبو بكر : أقدم ولا تحجم ، واستنصر الله ، فسار اليهم خالد ، فلما دنا منهم تفرقوا وأعدوا منازلهم ودخل عامة من كان تجمع له في الاسلام " . (٩٢) وهنا لا بد أن نتساءل عن قيمة هذه الرواية المفردة ، وهل في الوسع أن نتحقق من صحتها ، وهل دخل هو " عامة في الاسلام وانضموا الى جيش التحرير ؟ ربما يفنينا عن ذلك رواية ابن اسحق عن اليرموك وهو يصف قسوة المعركة واشتراك نساء المسلمين من قريش فيها ، إذ أنه يخص القبائل العربية بهذا النص ،

(٨٩) : ابن هشام ، السيرة النبوية - بيروت ١٩٧٥ ، ج ٤ ، ص ١٧٦ .

(٩٠) : ابن الاثير ، الكامل ، ج ٢ ، ص ٤٠٢ .

(٩١) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

(٩٢) : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٨٩ ، ابن الاثير ، ج ٢ ، ص ٤٠٢ ، تهذيب ،

ج ١ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

" وكان انضم الى المسلمين حين ساروا الى الروم ناس من لخم وجذام ، فلما رأوا جد القتال فرّوا ونهبوا الى ما كان قريتهم من القرى وغنلوا المسلمين ، (٩٣) وفي رواية البلاذري أن هرقل جمع جموعا كثيرة من الروم وأهل الشام وأهل الجزيرة وأرمينية وولى عليهم رجلا من خاصته ، وبعث على مقدمته جبلة بن الايهم الفسّاني في مستعمرة الشام من لخم وجذام وغيرهم وعزم على محاربة المسلمين ، فلما هزم الروم في اليرموك ، وعقد ابو عبيدة لحبيب بن مسلمة الفهري على خيل الدلب ، جعل يقتل من أدرك فانحاز جبلة بن الايهم الى الانصار فقال : " انتم اخوتنا وبنو ائمتنا " (٩٤) وعندما همت ابو عبيدة خالد بن الوليد الى قنسرين بعد فتح حمص نزل بالحاضر ، حيث التقى بجيش الروم وقتل قائد الجيش ومعظم من معه ، فأرسل أهل الحاضر الى خالد أنهم عرب وأنهم انما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه ، فقبل منهم وتركهم ، (٩٥) ولكن عندما أغزى هرقل ثانية جيشا عظيما توجه نحو حمص واستمد ابو عبيدة خالد الذي كان قد عينه على قنسرين ، أمده خالد بمن معه ، " فكفر أهل قنسرين وكان اكفر من هناك تنوخ " . (٩٦)

أما قبيلة تغلب بن وائل فقد حاربت في البدن ضد جيش المسلمين وذلك لما اجتمع المسلمون بالفراخ (٩٧) سنة ١٢ هـ ، " وحميت الروم واغتالغت واستمانوا بمن يلمهم من مسالح أهل فارس ، واستمدوا تغلب واياها والنمر " ، (٩٨) ولكن تغلب عادت وقاتلت مع الصرب في سنة ١٣ هـ حين رأوا نزول الصرب بالمعجم فقالوا : " نقاتل مع قومنا " (٩٩)

(٩٣) : الطبري ، ج ٣ ص ٥٧١ .

(٩٤) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٠ ، ١٤١ .

(٩٥) : الطبري ، ج ٣ ص ٦٠١ .

(٩٦) : ابن الجدي ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق سامي الدهان ، ج ١ ص ٣٠ ، ٣١ .

ابن حبيش ، الفتوح ، ص ١٤٧ .

(٩٧) : الطبري ، ج ٣ ص ٣٨٣ ، والفراخ تخوم الشام والمراق والجزيرة .

(٩٨) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٨٣ .

(٩٩) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٦٤ .

موقف عرب الضاحية بيدوان موقفا واضحا فهم لم يتلقوا الدعوة الجديدة بالترحيب
بها والانضمام اليها وهم كذلك لم يولوها المطف والحدب ، وقد قاتلوا الى جانب أهل
أرمينية والروم ، فهل كان هذا كله اضطرارا واكراها ؟ وكيف نفسر لحدائق بعض القبائل
بهرقل ومضيها معه الى بلاد الروم ، فقد لقي ميسرة بن مسروق الحبسي عندما سلك درب
بفراس من أعمال انطاكية الى بلاد الروم ، جمعا للروم معهم عرب من غسان وتنبوخ يريدون
الحدائق بهرقل ، (١٠٠) كما ارتحلت قبيلة اباد بن نزار الى أرض الروم ، فكتب عمر الى
ملك الروم يطلب منه اعادتهم ، فأخرجهم ملك الروم فخرجوا ، فتمّ منهم على الخروج أربعة آلاف
مع أبي عدى بن زياد ، وخمس بقيتهم ففرقوا فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الشام . (١٠١)
* موقف الدار عامة :

لا يتميز موقف الروم بأكثر من أنه كان محاولة جاهدة عنيفة للوقوف دون امتداد هذه
الموجة الجديدة المارمة ، ومن الطبيعي أن يدرك الروم مركز بلاد الشام من امبراطوريتهم ،
وأن اقتناعها سيؤدي بالتالي الى اقتطاع مصر أيضا وأنها كذلك تهدد لهم ، فهم لهذا
لن يتنازلوا عنها بهيسر وسالمة ، جهزوا كل ما قدروا عليه من جيوش ، وغاضوا كل ما استلماوا
أن يخوضوا من معارك ، واستنفروا كل ما كان في وسعهم أن يستنفروه من العرب ، وأهل أرمينيا
وسكان المقاطعات الأخرى ، كما أن الروم لجأوا الى استغارة مشاعر الجماعة الدينية ، واستثمروا
في ذلك رجال الدين ، وتلالمنا التفاسيل التي وردت في بعض روايات المؤرخين ، أن
قواد الروم كانوا يقدمون أمامهم الشماسة والرهبان والقسيسين ليضروهم ويعضضوهم على
القتال ، (١٠٢) وأن هؤلاء الشماسة والقساوسة كانوا جزءا من الجيش ، وسلاحها

(١٠٠) : ابن الاثير ، ج ٢ ص ٤٩٦ .

(١٠١) : الطبري ، ج ٤ ص ٥٤ ، ٥٥ .

(١٠٢) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٩٣ ، ٣٩٥ ، تهذيب ج ١ ص ١٦٤ . ابن حبش ،

الفتوح ، ص ١٨٥ .

من أسلحته ، يقيمون اذا أقسام ويرتحلون اذا ارتحل ، ويخندقون اذا خندق ،
يشيرون فيه سياسة الدين " ان ينسبون له النصرانية " (١٠٣) ويبدو هذا السابح الديني
واضحاً في صنيع أشرف الروم الذين كانوا يرون أنهم في هذه الحروب انما يهزمون النصرانية ،
فانالم يستطيعوا منعها ، فلا عليهم أن يتخطفهم الموت ، وقد لفوارو وسهم " لا يحبون
أن يروا يوم سوء اذا لم يستطيعوا أن يروا يوم السرور " وقد حدث هذا غير مرة تجلسل
الفيقار وأشرف من أشرف الروم في معركة اليرموك وأسيبوا في تزلهم . (١٠٤)
ولم يكن ذلك موقف القادة ورجال الدين ، ولكنه كان موقف النصارى بشكل عام ،
فقد استلماع الروم استشارة الما ليغة الدينية لدى العرب أكثر مما استلماعوا ذلك لدى النبط ،
ان نجد تكراراً عند ابن الاعثم حول استخدام الروم لمن يليهم من نصارى العرب في حين
أن المسلمين كانوا يستغدون الانبياء كجواسيس ، وهو لا الانبياء قوم نصارى
كما يقول ابن الاعثم ، " غير أنهم كانوا الى المسلمين لبرهم أميل فكانوا فيسوجا (١٠٥)
للمسلمين وجواسيس وكان الروم لا يتهمونهم في شي من ذلك " . (١٠٦)
على أن موقف النصارى لم يكن موقفاً جامداً ، ولم تلازمه هذه الملازمة في كل مراحل
الفتح ، فبعد أن كانت هزيمة اليرموك وبعد أن أمسك المسلمون بزمام الموقف حين تم
لهم الاستيلاء على الأقسام الوسطى من الشام وأضحى تقدمهم نحو الجنوب باتجاه القدس
ونحو الشمال باتجاه الجزيرة أمرا مضمون النتائج ، وبعد هذا أخذت النصرانية سبيلاً آخر في

(١٠٣) : الطبري ، ج ٣ ص ٣٩٥ .

(١٠٤) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٠٠ - تهذيب ج ١ ص ١٢٤ .

(١٠٥) : ابن الاعثم ، فتوح ، ج ١ ص ١٤٤ ، الفيح هو رسول السلطان الذي يسمى

علو رجليه ، فارسي معرب .

(١٠٦) : المصدر السابق ، ج ١ ص ١٤٣ ، ١٤٤ ، ابن حبيش ، الفتوح ،

مدارة الفاتحين المسلمين ، فارتضى أهل ايليا الصلح ، وقبل أنهم طلبوا أن يتولى الخليفة نفسه العقد ، (١٠٧) وإذا كان بطريك اورشليم صغرونيوس قد استقبل عمر وولاف به على أنهما البلدة وأراه الاماكن المقدسة ، (١٠٨) فان أرطيون الروم والتذارق لحقا بصر . (١٠٩) أما الجزيرة فكانت أسهل البلدان وأيسرها فتحها ، (١١٠) انسرعان ما صالح أهل الجزيرة على الجزية (١١١) وليس من شك في أن الموقع الجغرافي للجزيرة بين العراق والشام وقد خضعا للمسلمين ، يجعل من اليسير تطويقهم وامداد كل من الجيشين في الشام والعراق أحدهما للآخر ، وكان ذلك أحد العوامل الكبرى التي أملت على النصارى هذا الموقف ، وليس أدل على ذلك من رواية سيف بن السرى عن شبيب : " أنه حين كتب عمر الى سعد بتوجيه القمصاع في أربعة آلاف من جنده مددا لأبي عبيدة حين قدمت الروم وهو يحمى ، سلك سهيل بن عدي وجنده طريق الفراغ ، حتى انتهى الى الرقة ، وقد ارفض أهل الجزيرة عن حمص الى كورهم حين سمعوا بمقبل أهل الكوفة ، فنزل عليهم فحاصروهم حتى صالحوه ، وذلك أنهم قالوا فيما بينهم " أنتم بين أهل العراق وأهل الشام فابقواكم على حرب هؤلاء " وهوؤلاء ، فبعثوا في ذلك الى عياض وهو في منزل وسط من الجزيرة فرأى أن يقبل منهم " . (١١٢)

وهكذا نرى أنه من العسير أن يلتمس الانسان الى أن الخلاف المذهبي بين أتباع الكنيسة السورية المونوفيزية التي توهم بأن للمسيح طبيعة الهية واحدة والكنيسة البيزنطية التي توهم بما أقر مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م من اقرار البيهتين للمسيح الطبيعة الالهية والطبيعة البشرية كان له من أثر في الترحيب بالمسلمين ، وتسهيل مهمتهم أو الميل اليهم ،

(١٠٧) : الطبرى ، ج ٣ ص ٦٠٧ ، ٦٠٨ .

(١٠٨) : حتى تاريخ العرب مطول ، ج ١ ص ٢٠٨ نقلا عن تيوفانس .

(١٠٩) : الطبرى ، ج ٣ ص ٦٠٨ .

(١١٠) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٥٤ .

(١١١) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٥٣ .

(١١٢) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٥٤ .

وأن العداوة استنحل الى أن يفسح المجال لدين جديد أقل ما يوصف به أنه لا يرتضي
المذاهبين مما وانما كان يحل المسيح عليه السلام محل الايمان بنبوته وكتابه ولكنه يجرد
من الوهيته بطبيعتها او بطبيعتيهما ككتبيهما ، فلا يرى فيه غير ما يرى في محمد بشرا رسولا ،
وصحيح أن الاسلام قد أتاح لهؤلاء النصارى قدرا من الحرية لم يجدوه عند البيزنطيين ،
ولكن هل كان نصارى العرب يعرفون مسبقا كيف سيسير المسلمون بهم وكيف سيعاملونهم ؟ .
ان من واجبهنا أن لا ننسى التفريق بين النظر الى الامور قبل وقوعها وبين النظر اليها بعد
أن تقع .

لقد دخل الاسلام بلاد الشام فلقى من مقاومة النصارى مثل ما لقي من مقاومة العرب
على اختلاف من البواعت وتباين في الاغراض ، ولعل حركة الفتح وجدت منفذا من خلال
هذا الاختلاف والتباين ، أما الاسباب الكثيرة التي يحاول المؤرخون أن يفترضوها سواء ما اتصل
منها بالروم او السرب او النصارى عامة فهي لا تعد وان تكون اسبابا واهية ، لا تدل على
الحقيقة التي تكمن في أنه كان في حركة الاسلام دعوة ، وأن أصحابها يتمتعون بروح معنوية
رفيعة لم تكن موجودة لدى القوى المعادية بالروم ومرزقتهم يوقنون أن الارض لم تكن
أرضهم ، والسرب يظنون أن المهاجرين سيقاسمونهم نعمة السيش ، فانا نجد الجد فسيلتقون
معهم بحبل من قرابتهم لهم ولذلك فانه ما أن ثبتت أقدام المسلمين في المنطقة ورأوا معاملتهم
الجيدة ووفاءهم لأهل الذمة ، انقلبوا من أعداء الى مؤيدين ، فعن أبي حفص الدمشقي أن
المسلمين عندما أرادوا أن يردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا من الخراج لأنهم لن يستطيعوا
نصرتهم والدفع عنهم ، قال أهل حمص ، " لولا بهتكم وعدلكم أحب الينا ما كنا فيه من
الذل والمغشم ولن ندفن ضد هرقل من المدينة مع ما ملككم " . (١١٣)

✳ موقف اليهود والسامرة :

ليست لدينا اشارات يمكنها أن تعطينا صورة واضحة عن موقف اليهود والسامرة

من حركة التحرير العربية الاسلامية ، الا أن معاملة أبي عبيدة القاسم للسامريين ،
وأسكان مساوية اليهود في طرابلس ومدن ساحلية أخرى ، تجعلنا نميل إلى الاعتقاد
بأن العداء كان مستحكماً بين هؤلاء والروم البيزنطيين ، وتعود جذور العداء مع اليهود إلى
عهد الرومان عندما هدم تيتس (Titus) سنة ٧٠ م مدينة القدس ، وعندما
أعاد هادريان بناء المدينة وأطلق عليها اسم ايليا كابيتولينا ، وهو الاسم الذي يرد
في مصادرنا (ايليا) وبنى هيكلًا لجوبيتر مكان الهيكل القديم ، ما أدى إلى اندلاع
ثورة قضي عليها سنة ١٣٥ م وأعدم الأسرى أو بيعوا كرقيق ، ومنعوا من الاجتماع للصلاة ،
أو من دخول القدس وأطلق على منطقة يهودا اسم فلسطين السورية Syria Palaestina
وبعد انتشار المسيحية تأثر اليهود من الاعتراف الرسمي لمنافسيهم المسيحيين كما أنهم
أبعدوا بعد سنة ٤٢٨ م عن الوظائف المدنية والعسكرية . (١١٤)

ويبدو أن اليهود بقوا مهملين عن القدس ، إذ نلاحظ في النص الذي يسوره
الطبري أنه من ضمن الشروط التي منحها عمر بن الخطاب لأهل ايليا " أن لا يسكن
بإيليا أحد من اليهود " . (١١٥) كما يرد في الروض المصطار أنه بعد أن تم الاتفاق
ما بين أهل بيت المقدس وأبي عبيدة بن الجراح على أن تسلم مفاتيح المدينة إلى الخليفة
نفسه ، كتب عمر كتاباً أمهم فيه على أنفسهم وذرائعهم ونسائهم وكنائسهم ، واشترطوا
أن لا يسكنهم اليهود فيها . (١١٦)

ان هذه الروايات على قلتها تشير إلى ذلك التوتر الذي كان قائماً بين اليهود
والسلطة الحاكمة منذ عهد الرومان حتى الفتح العربي ، ولذلك لا نشك

E. B. Art. Syria, History of Syria. : (١١٤)

(١١٥) : الطبري ج ٣ ص ٦٠٩ .

(١١٦) : عبد المنعم الحميري ، الروض المصطار في خير الأقطار ، تحقيق احسان عباس ،
بيروت ، ١٩٧٨ م ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

بأن اليهود رحبوا بحسبنا بمجيء المسلمين وان لم تكن لدينا روايات تؤكد ذلك إلا أنه عندما رد المسلمون على أهل حمص ما كانوا أخذوا من الخراج لأنه بلغهم أن هرقل قد جمع الجبوع ، نهض اليهود وقالوا : " والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا أن نغلب ونجهد ، فأغلق اليهود وسكان حمص من النصارى الأبواب وحرسوها ، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود . " (١١٧)

أما السامريون فهم الذين يدعون بأنهم ينتمون الى قداماء اليهود الذين كانوا مقيمين في السامرة والذين لم يتعرضوا للسبي الأشوري سنة ٧٢١ ق . م لذلك فهم يدعون أنفسهم أبناء اسرائيل (Bene Yisrael) أما اليهود فانهم يدعونهم بالسامريين بينما يطلق عليهم في التلمود اسم كوثيم (Kutim) دلالة على أنهم من سلالة الكوشيين (Cuthaeans) الذين كانوا مقيمين في بلاد ما بين النهرين ثم نقلهم الاشوريون الى السامرة بعد غزو سورية ليحلوا محل اليهود الذين تسم سببهم الى أماكن بعيدة ، وقد تم انعزال هذه الطائفة كلياً عن المجتمع اليهودي بعد رجوع اليهود من السبي البابلي ، ولم يسمحوا لهم بأن يشاركوا في بناء الهيكل الثاني في القدس ، ونتيجة لذلك بنى السامريون في القرن الرابع ق . م هيكلهم الخاص في نابلس عند جبل جريزيم ، (Mt. Gerizim) (١١٨) وفي رواية للبيروني أن السامريين أعانوا نبوخذنسر ودلوه على نقاط الضعف عند اليهود حين غزا مملكة يهوذا وسبى اليهود الى بابل لذلك لم يسبهم بأى أذى " وكانت السامرة أعانوه ودلوه على عورات بني اسرائيل فلم يحرکهم ولم يقتلهم ولم يسبهم وانزلهم فلسطين من تحت يده . . . " (١١٩) وبالرغم من الصداقة بين اليهود والسامريين ، إلا أن وضع السامريين لم يكن

(١١٧) : البلاذري ، فتوح ص ١٤٣ .

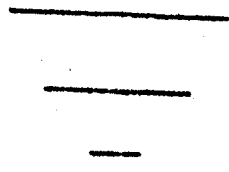
E. B. Art. Samaritan .

(١١٨) :

(١١٩) : البيروني - الآثار الباقية في القرون الخالية ، طبعة ليبزغ (Leipzig)

عام ١٩٣٢ م ص ٢١ .

بأفضل من وضع اليهود ، وكان أحلك عصرٍ بالسامرة هو العهد الذي بدأ بهساريان
وانتهى بقتضا^١ العرب على سلطان البيزنطيين في الشام (١٢٠) وقد قام السامريون بثورات
زمن الامبراطور زينو (٤٧٤ - ٤٦١) م فإلرد هم من سقرهم في جبلهم السندس جريزيم وبنى
فيه كنيسة ، وثاروا زمن الامبراطور جوستنيان ، فنكّل بهم ود مرّ معبد هم ، وأقام كنائس
في المدينة ، ولذلك فلا شك أن السامريين قدرحوا بفتح العرب لفلسطين أحرّ ترحيب
لأن هذا الفتح حرّهم من رقة الحكام البيزنطيين والكنيسة وخلصهم من استبداد هؤلاء^٢
وتعطشهم الى الانتقام . (١٢١)



(١٢٠) : دائرة المعارف الاسلامية المترجمة عن الاولين الانجليزي والفرنسي -
لمحة انتشارات جهان مهران بوندرحميري ، مادة السامرة .
(١٢١) : المصدر السابق ، مادة السامرة .

الفصل الثاني

توزيع المناصر السكانية في الشام

بمد الفتح

من الأمور التي تسترعي انتباه الباحث حين يتتبع حركة الهجرات القبلية ، أن القبائل لم تسرف في هجرتها وفق خطة موضوعة تمهد لكل قبيلة خط سيرها وموطن نزولها ، وذلك لارتباط هذه الهجرات أول الأمر بحركة الفتح ، فالقبائل التي تندب لفتح قطر كان الأمر ينتهي بها غالبا إلى الاستقرار فيه ، وهي لذلك كانت خليطا من قبائل شتى ، فإذا نزلت هذه القبائل أحد الموانئ لتستقر به احتلت كل قبيلة حيلة لها فيه ، وبسبب استقرار القبائل في حيلها ربطا لحقت بها جماعات أخرى ، فتنزل كل جماعة في حيلة قبيلتها ثم تندب القبائل لفتح مناطق أخرى فتغد من الجزيرة العربية موجات قبلية جديدة ، وقد تنضم اليها جماعات من القبائل التي سبقت هجرتها ، فإذا حققت الحملة الجديدة غايتها من الفتح التمسست لها مولنا تستقر فيه ، وهكذا نجد أن حركة الاستيطان القبلي لم تكن تسير وفق خطة ملتزمة ، وهذا يفسر لنا نزول بطون القبيلة الواحدة موانئ شتى ، ولو أن هذه الهجرات لم تكن مرتبطة بحركة الفتح لكان من المحتمل أن نجد القبيلة برمتها في موطن واحد حرصا على وحدتها وسلامتها ، ومن ثم كان لهذه الهجرات الجماعية ولاستييطان قبائل العرب الأعمار المحدثثة والأقطار المفتوحة آثارا بعيدة المدى في حياة العرب الاجتماعية عامة وفي المجتمع القبلي خاصة ، ومن أبرز هذه الآثار اتساع نطاق التجمع القبلي في الجار روابط النسب الواسعة كالعديانية والقحطانية ، والمضرية والرحمية ، ومنها تسدع الوحدة القبلية لأن القبيلة الضخمة العدد قلما كانت تنزل برمتها في موطن واحد ، وإنما كانت تتفرق بطونها في موانئ متعددة .

وكانت جيوش المسلمين التي قدمت لفتح بلاد الشام نواة القبائل التي استوطنت

الشام ومدبر بمدئذ ، وليس بين أيدينا احصاء تاريخي دقيق يرشدنا إلى معرفة القبائل

الضريبة التي نزلت ببلاد الشام وعدد ما عند الفتح بعده ، الا أننا نستطيع استخلاص
احصاءاً تقريبي المقتبائل العربية التي كانت بالشام بعد الفتح عن طريق تتبع جيوش
الفتح والاسدادات واعتمادا على أخبار الوقائع التي جرت بين المسلمين ابان الفتنة
الأولى والثانية والثالثة ، واعتمادا على ما جده في بعض المصادر التاريخية ، ففي
كتاب الفتح للبلاذري ، نجد أن أبابكر عقد لكل أمير في بلاد الأمازيغ على ثلاثة آلاف رجل ،
فلم يزل أبوبكر يتبعهم الامداد حتى صار مع كل أمير سبعة آلاف وخمسمائة ، ثم تمام
جمعهم بعد ذلك أربعة وعشرين ألفا . (١) وعن عبدالرحمن بن جبير أن أبابكر جهز
الجيوش الى الشام فاجتمع له أربعة وعشرون ألفا من المهاجرين والأنصار وسلمة الفتح وامداد
اليمن وأهل المالية ، (٢) وفي رواية الطبري أنه قدم على أبي بكر أوائل مستغفرى اليمن
ومن بين مكة واليمن وفيهم ذو الكلاع ، وقد علم عليه عكرمة قافلا وغازيا فيمن كان معه من تهامة
وعمان والبحرين ، (٣) ونجد لدى ابن الأعمش تفصيلا لمن توجه مع عمرو بن العاص الى
الشام بعد أن عسكر بآزاء المدينة ، فقد خرج اليه سهيل بن عمرو والحارث بن هشام
وابن أخيه عكرمة بن أبي جهل في ثلاثة آلاف فارس من قومهم ومواليهم ، وخرج اليه أبو الاعور
السلمي ، ومعه بن يزيد ابن عمه في ألف وسبعمائة فارس ، وخرج اليه الضحاک
بن قيس الفهري في ثلاثمائة وعمر بن حرام المرادي في مائتي فارس . (٤)
وما أن دخلت جيوش المسلمين أرض الشام حتى كتب أبو عبدة بخير الخليفة
أن سرقل قد نزل أدناكية وأنه بعث الى أهل مملكته فحشروهم وأنه قد اجتمع اليه منهم

(١) : البلاذري ، فتوح ، ص ١١٦ ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ، ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٢) : تهذيب ، ج ١ ، ص ١٣٣ .

(٣) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٣٨٩ ، ابن حبش ، الفتوح ، ص ١١٩ .

(٤) : ابن الأعمش ، فتوح ، ج ١ ، ص ١٢٣ .

خلع... كثير يزيدون عن ثمانين ألفا سوى ما في سائر المدن بالشام من الغيـل
والبنود ، (٥) فأمدّه أبو بكر بهاشم بن أبي عتبة بن أبي وقاص الذي انضم إليه خلـق
كثير من مدسندان وأسلم وغفار ومزينة وبرد والأزد وجميع القبائل ، (٦) ثم لا يلبث
أبو بكر أن يطلب من خالد بن الوليد التوجه إلى الشام لدعم اخوانه هناك ، وعندما
تختلف الروايات في عدد المقاتلة ، فالبلاذرى يذكر أن خالد سار من العراق في ثمانمائة
ويقال في ستمائة ويقال في خمسمائة ، (٧) أما الطبري في رواية السري عن
شبيب عن سيف ، فيشير إلى أنه قدم على المسلمين في تسعة آلاف ، (٨) بينما ذكر
ابن الأعمش أن خالد جمع أصحابه الذين قدم بهم من الحجاز واليمامة ، فكانوا سبعة
آلاف فارس فخرج بهم خالد من المهيرة متوجها إلى الشام . (٩) وأعتقد أن الروايتين
اللتين يوردهما الطبري وابن الأعمش أقرب إلى المنطق والواقع ، إذ لا يعقل أن يطلب أبو بكر
من خالد أن يتوجه لمساعدة المسلمين في الشام فيمدهم بهذا العدد الضئيل . ونتيجة
لهذا الاختلاف في عدد المقاتلة الذين قدموا مع خالد اختلفت الروايات تبعا لذلك فسي
عدد المقاتلة المسلمين في معركة اليرموك ، فهم أربعة وعشرون ألفا عند البلاذرى ، (١٠)
وسنة وثلاثون ألفا عند الطبري بانضمام خالد إليهم ، (١١) أما ابن الأعمش فيشير إلى أن
عساكر المسلمين التي اجتمعت بدمشق وقبل موقعة اليرموك كانوا سبعة وثلاثين ألفا ،
ثم قدم عليهم عامر بن حذيم في ثلاثة آلاف فصار المسلمون في أربعين ألفا ، (١٢) ولم
يلبث أن وصل عنه آخر من الخليفة بقيادة سويد بن الصامت " ممن كان

-
- (٥) : ابن الأعمش ، فتوح ، ج ١ ص ١٠١ .
(٦) : المصدر السابق ج ١ ص ١٠٤ ، وهذه القبائل المذكورة كلها يمانية ، فهمدان من قبائل
كهلان ، وأسلم من بطون خزاعة من الأزد من الخزرج ومراد من بطون مذحج ، والأزد
من أعظم قبائل كهلان ، (ابن عدي ج ٣ ص ٣٨٩ ، ٣٨٢ ، ٣٨٤ ، ٣٦٨ ، ٣٧٥ .
(٧) : البلاذرى ، فتوح ص ١١٨ .
(٨) : الطبري ، ج ٣ ص ٣٩٤ .
(٩) : ابن الأعمش ، فتوح ج ١ ص ١٣٤ .
(١٠) : البلاذرى ، فتوح ص ١٤١ .
(١١) : الطبري ، ج ٣ ص ٣٩٤ .
(١٢) : ابن الأعمش ، فتوح ، ج ١ ص ٢٢٨ .

بالمدينة ممن يصلح أن يوجه به الى الصدر فمريضهم فكانوا ثلاثة آلاف * ، فكان عدد المسلمين الذين اشتركوا في معركة اليرموك ثلاثة وأربعين ألفا . (١٣) أما القبائل التي اشتركت في معركة اليرموك ، فيرد ذكر لها في تاريخ دمشق ومخطوطة ابن حبيش ، فقد شكل الأزدي وفق هذه الرواية ثلث الناس ، وفيها حمير وهمسدان ومذحج وغولان وخشم وفيها كنانة وقضاة وجذام وكندة وحضرموت ، وليس فيها أسد ولا ربيعة لأن تلك الأماكن لم تكن دارهم وإنما كانت دارهم عراقية ، فقاتلوا أهل فارس بالسراق ، وفي معركة اليرموك استمر القتل في الأزدي فأصيبوا بمالم يقتل مثله من القبائل . (١٤) ونلاحظ من هذه الرواية ومن مواعن القبائل فيما بعد أن القبائل اليمنية كانت تؤلف الاكثرية في هذا الجيش ولعبت الدور الأكبر في فتوح الشام ، ذلك أن القبائل كانت تفصح في بعض الأحيان عن ايثارها منطقتا دون أخرى وقتال قوم من المشركين دون آخرين ، ووراء هذا الاختيار تكن نزعات قلبية ومواعن أخرى تتعلق بالبيئة والجموار والعادات المألوفة وغير ذلك ، وعند ما سألت عمر سرورات بجيلة ووفده : " أى الوجوه أحب اليكم ؟ " قالوا : " الشام ، فان أسلافنا بها . " فقال : " بل العراق فان الشام في كفاية " . فلم يزل بهم ويأبون حتى عزم على ذلك وجعل لهم ربع خمس ما أفاء الله على المسلمين الى نصيبهم من الغني ، (١٥) وعين أراد عمر نذب الناس مع سعد بن أبي وقاص أراد أهل اليمن من النخع التوجه الى الشام وكرهوا المسير الى العراق ، فاضطر عمر ازاهاهم الى توجيه نصفهم الى العراق والنصف الآخر الى الشام . (١٦) ولوحظ بصورة عامة أن أهل اليمن كانوا ينزعون الى الشام ،

(١٣) : ابن الاثم ، فتوح ، ج ١ ، ص ٢٣٤ .

(١٤) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ، ص ١٦٣ ، ابن حبيش ، الفتوح ، ص ١٧٤ .

(١٥) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٦٢ .

(١٦) : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٨٤ .

(١٧) : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٨٧ .

وضر تنزع الى العراق . (١٧) ونظرا لنزول القبائل الرحبية منذ العصر الجاهلي على حدود فارس ، ولنا كان لها من تجارب سابقة في قتال الفرس ، لم يكن أجراً على فارس من ربيعة ، (١٨) ومن ثم كانت طلائع جيوش العرب في قتال أهل فارس كلهم من هذه القبيلة ، (١٩) وعندما توجه سمد بن أبي وقاص الى العراق لحرب الفرس كان الثثنى في ثمانية آلاف من ربيعة ، ستة آلاف من بكر بن وائل وألفان من سائر ربيعة . (٢٠)

كانت القبائل الرحبية الوافدة الى بلاد الشام تتفرق في حواضرها وتنزل المضازل التي جلا عنها أهلها أو يقاسمونهم منازلهم أحيانا ، (٢١) وكانت المدن أحيانا تقسم خططا بين المسلمين كما فعل السمر بن الأسود الكندي بحمص ، (٢٢) أما الطبري ، (٢٣) فيشير الى أن أبا عبيدة عندما صالح أهل حمص أنزلها السمر بن الأسود الكندي في بني معاوية ، (٢٤) والأشعث بن مثنى في السكون (٢٥) والمقداد بن الأسود في بلس ، (٢٦) ورتب أبو عبيدة بهالس جماعة من المقاتلة وأسكنها قوما من العرب الذين كانوا بالشام فأسلموا بعد قدوم المسلمين الشام ، وقوما لم يكونوا من البصوت نزعوا من البوادى من قيس ، (٢٧) كما نجد اهتماما بالفا باسكان المقاتلة المدن الساحلية ، ان كتب عمر الى أبي عبيدة أن يرتب بأنطاكية جماعة من المسلمين أهل نيات وحسوبة

-
- (١٨) : الطبري ، ج ٣ ص ٤٨٧ .
(١٩) : البلاذري ، فتوح ، ص ٢٤٢ .
(٢٠) : الطبري ، ج ٣ ص ٤٨٦ .
(٢١) : المصدر السابق ج ٣ ص ٤٤٤ .
(٢٢) : البلاذري ، فتوح ص ١٣٧ .
(٢٣) : الطبري ، ج ٣ ص ٦٠١ ، ابن الأثير ج ٢ ص ٤٩٢ .
(٢٤) : بنو معاوية من كندة من قبائل اليمن ، (ابن عبد البر ، الانباه على قبائل الرواة ص ١١٣ ، ١١٤) .
(٢٥) : السكون من كندة كذلك ، (ابن عبد البر ، المصدر السابق ص ١١٥) .
(٢٦) : بلي من قضاة ، (ابن عبد البر ، المصدر السابق ص ١٢٢) .
(٢٧) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٥ .

ويجعلهم مرابطة ، (٢٨) واهتم معاوية بشكل خاص سوا في خلافة عمر أو في خلافة عثمان عندما ولي الشام والجزيرة بالمدن الساحلية وشحنها بالمقاتلة كما فعل بالانقيصة ، (٢٩) وبأنظر طوس وبانياس ، (٣٠) وعن الواقدي عن مشايخ من أهل الشام أن معاوية رم عكا عند ركوبه الى قبري ورم صور ، وأنهم نزلوا صور والسواحل وبها جند من العرب وخلق من الروم ، ثم لم يلبث أن نزع اليهم أهل بلدان شتى فنزلوها معهم وكذلك جميع السواحل . (٣١) وعندما حدثت الأحداث بالمدينة في خلافة عثمان ، خرج منها رجال الى الأمصار مجاهدين ، فمنهم من أتى البصرة ومنهم من أتى الكوفة ومنهم من أتى الشام ، وقد بقي من كان بالشام بينا رجع الباقون جميعا الى المدينة ، (٣٢) وبمد مقتل عثمان خرج ربيعة بن عاصم المقيلي مع قبيلته قيس من الكوفة يريدون معاوية ، فر بالجزيرة هو وقيس ، فأوا بلادا خصيبة ريفية ومزوطا وسما وقله أهل ، فلما وصلوا الى معاوية ردّهم الى أرض الجزيرة وأسكنهم بها ، (٣٣) كما ترك بنو الأرقم بن النعمان بن عمرو من آل كندة الكوفة وتوجهوا الى معاوية لأنهم كانوا عثمانيين وقالوا : " لا نقيم ببلد يسب فيه عثمان " ، فأنزلهم معاوية الرها . (٣٤) إذ أن معاوية في خلافة عثمان كان واليا على الشام والجزيرة وشفورعما (٣٥) وكانت الجزيرة في خلافة معاوية تابعة اداريا الى قنشرين ، ثم جندهما عبد الملك ، فصار جندهما يأخذون أعمالهم من خراجها ، (٣٦) وكذلك نزل خالد بن عقبة بن معبد الجزيرة أثناء الفتنة وولده بها . (٣٧)

- (٢٨) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٣ .
 (٢٩) : المصدر السابق ، ص ١٤٠ .
 (٣٠) : المصدر السابق ، ص ١٣٩ .
 (٣١) : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .
 (٣٢) : الطبري ، ج ٤ ، ص ٣٩٨ .
 (٣٣) : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٩٨ ، تهذيب ، ج ٥ ، ص ٣٠٧ .
 (٣٤) : ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٤٠٠ .
 (٣٥) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٨٩ .
 (٣٦) : المصدر السابق ، ص ١٣٨ .
 (٣٧) : الكلبى ، جمهرة النسب ، مخطوطة في مركز الوثائق والتوثيق ، الجامعة الأردنية رقم ٣٨٢ ، ص ١٧ .

ويؤخذ من تعداد ألوية القبائل التي كانت مع معاوية يوم صفين ومن تمهئة جيشه أن جلّ من قاتل معه كانوا من القبائل اليمانية والقضاعية ، والمنصر الغالب في القبائل المضربة التي كانت معه هو المنصر القيسي ، أما ربيعة فلم يكن في جيش معاوية أحد منها أو كانوا قلة لا يمتد بها ، وأبرز القبائل التي شاركت في القتال معه ، حمير وقضاعة (كلب ، بهراء ، تنوخ ، لخم ، وجذام) وعمدان وخثعم ، وغسان ومذحج وعك والأشعريين وكندة والأزد ، (٣٨) ويبدو أن الأزد كانوا يشكلون نسبة كبيرة في الشام كما نستخلص من قول معاوية لرجل جلب منه أن يجعله حيث شاء فقال : " عليك بهذه الأزد الطويلة المريضة الكثير عددها " . (٣٩)

وفي أثناء الفتنة الثانية عندما نزل عبدالله بن الزبير دار البلاط بمكة وجعلها دار امارته ، تغرّق من كان بمكة من شيعة بني أمية خوفا على أنفسهم فصاروا الى الشام . (٤٠) كما أخرج أهل المدينة من كان مع عمرو بن سعيد بن العاص من بني أمية . (٤١) ويظهر أن عدد القبائل كان يتزايد منذ نزولهم بلاد الشام تزايداً سريعاً ، فقد بلغ عدد المسجلين في ديوان الميلاء في حمص في خلافة مروان من الحكم من اليمانية فقط عشرين ألفاً (٤٢) وفي ديوان دمشق في خلافة الوليد بن عبدالملك خمسة وأربعين ألفاً ، (٤٣) وبلغ أهل دمشق من الصرب أربعاً وثمانين ألفاً في سنة ٢٦ هـ ومقاتلتهم خمسين ألفاً . (٤٤) وكان عدة بني عامر من كلب عشرين ألف رجل ، (٤٥) ولا شك أن هذه الأرقام لا تمثل الصرب الوافدين الى بلاد الشام

(٣٨) : نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ، القاهرة ، ١٣٦٥ هـ / ع ٢٣٢ ، ٢٩٩ .
خليفة بن خياط ج ١ ع ٢٢٢ ، الدينوري ، الأخبار الطوال ، ع ١٧٢ .

(٣٩) : الأغاني ، ج ١٦ ع ٤٠١ .

(٤٠) : ابن الأعمش ، فتوح ، ج ٥ ع ٢٠٩ .

(٤١) : المصدر السابق ، ج ٥ ع ٢٠٩ .

(٤٢) : الأغاني ، ج ١٦ ع ٣٤ .

(٤٣) : مؤلف مجهول ، العيون والحداث في أخبار الحقائق ، ع ٥ .

(٤٤) : الطبري ، ج ٧ ع ٢٦٧ ، تهذيب ، ج ٧ ع ٦٢ .

(٤٥) : الطبري ، ج ٧ ع ٢٨٢ .

وحد هم وانما تمثل أيضا من انضم اليهم من السرب الذين كانوا ينزلون هذه البلاد قبل الفتح ثم أسلموا وانسبوا بعد ذلك الى جيوش المسلمين .

واتبع في توزيع القبائل العربية في الشام وتجنيد ها نظام يختلف عن نظام الأحماس والأسباع الذي اتبع في العراق ، وهو نظام الاجناد ، فقد وزعت الجيوش العربية أجنادا تعسكر قرب مدن الشام الرئيسية ، وكل جندي كان ينسب الى المكان الذي هو فيه ، لا الى القبائل التي يتألف منها ، فيقال ، جندي دمشق و جندي الأردن و جندي قنسرين ونحو ذلك ، وبينما نجد عمر يكتب الى أبي موسى الأشعري وهو على البصرة بأمره أن يتخذ مسجدا للجماعة ومساجد للقبائل ، فاذا كان يوم الجمعة انضموا الى مسجد الجماعة ، ويكتب الى سعد بن أبي وقاص على الكوفة والى عمرو بن العاص في مصر بمثل ذلك ، فاننا نراه يكتب الى أمراء الأجناد في الشام ألا يتبددوا الى القرى وأن ينزلوا المدائن وأن يتخذوا في كل مدينة مسجدا واحدا ولا تتخذ القبائل مساجد ، فكان الناس متمسكين بأمر عمر وعهدده . (٤٦)

أما مواضع القبائل العربية بالشام بعد الفتح فنستطيع تحديدها على وجه التقريب اعتمادا على ما انتهى اليها من المصادر التاريخية والجغرافية ، ففي فلسطين استقرت قبائل من لخم وبنو أمية ، (٤٧) وعاملة وكندة وقيس وكنانة ، (٤٨) وفي الأردن نجد بطونا من غسان ومذحج وهمدان و كلب والسكاسك والسكون ، (٤٩) وأغلب القبائل التي نزلت دمشق كانت من اليمانية الى جانب قلة من قيس ، وقريش ، بينما نزلت قبائل قيسية ولا سيما

(٤٦) : المقرئ ، الخطوط ، دار التمهير للطباعة والنشر عن طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ج ٣ ص ١٥

E. I. ed. 1936. Art., Masdjid .

(٤٧) : البلاذري ، أنساب الاشراف ، مؤسسة الدراسات الشرقية ، الجامعة المصرية ، القدس

١٩٣٦ ج ٥ ص ١٢٨ .

(٤٨) : خليفة بن خياط ج ١ ص ٢٢٢ ، اليعقوبي ، البلدان ، ليدن ١٨٩١ م ص ٣٢٩ .

ابن هزم ، جمهرة أنساب العرب ص ٣٩٥ ، ٣٩٦ .

(٤٩) : خليفة ج ١ ص ٢٢٢ ، البلهري ج ٥ ص ٥٣٥ ، ٥٤٧ ، السمودي ، مروج الذهب

ج ٣ ص ٢٤٩ .

بني مره في الفوطه وخوران والثنية وفي الظاهر والغور والجولان ووجدت
فستان في الفوطه وكتب في السويداء (٥٠) وجبل أهل حمص كانوا يمانية قضاعية ،
من طي وكندة وعمير وهمدان وكتب وسهرا وتنوخ مع قلة من قيس ، وايدان في جبلة وايدان
فويمران وتامنن . (٥١) واكثر القبائل اليمانية في جند حمص ضرب النشل بذلة القيسي
فيها (٥٢) وكانت موايلن قيس قنشرين وما حولها ، (٥٣) بالاضافة الى تنوخ وطي . (٥٤)
واعملت قبيلة كلب البقاع ودعي بقاع كلب ، ومنهم بنوعان الذين نزلوا المرح الفلسطيني المنسوب
اليهم (مرج ابن عامر) . (٥٥)

أما منطقة الساحل فنظرا لعدم تجاوب أهلها في بادي الأمر لتأثرهم بالصبغة
الرومية ، فقد اضطر معاوية الى نقل قوم من فزس بملك وحمص وأنطاكية الى سواحل الأردن
وسور وعكا سنة ٤٢ هـ ، (٥٦) ونقل من أساورة البصرة والكوفة الى انطاكية ، (٥٧) ونقل
سنة ٤٦ هـ أو سنة ٥٥ هـ قوما من زط البصرة والسيابجة (٥٨) الى سواحل انطاكية . (٥٩)

-
- (٥٠) : اليمقوبي ، البلدان ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٧ ص ١٨٩ .
(٥١) : اليمقوبي ، البلدان ٣٢٤ ، غليفة ، ج ١ ص ٢٢٢ ، البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ١٤٧ .
(٥٢) : أبو الفضل النيسابوري ، مجمع الأمثال ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ ، ج ١ ص ٢٩٤ .
(٥٣) : الطبري ، ج ٥ ص ٥٣٥ ، ٥٣٨ .
(٥٤) : البلاذري ، فتوح ص ١٥٠ ، ١٥١ ، التسمودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٤٩ .
ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٤٠٤ .
(٥٥) : تهذيب ، ج ٣ ص ١٧٩ ، الدباغ ، بلادنا فلسطين ، ج ١ ، القسم الأول ص ٧١٤ .
(٥٦) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٢٤ .
(٥٧) : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .
(٥٨) : السيابجة قوة فارسية كانت عند البحرين والخلج والافوف ، (الطبري ،
ج ٣ ص ٣٠٤) . وينقل كايثاني رأي دي غويه أن السيابجة أصلهم من الهند ،
وجزر الهند الشرقية وأنهم كانوا يقومون بالملاحة بين ساحل الخليج الفارسي
وشرقي آسيا .
Caetani, L. Annali dell Islam, Milan, Vol. III P. 920
(٥٩) : البلاذري ، فتوح ص ١٦٦ ، ٣٦٩ .

وأسكن معاوية جماعة كبيرة من يهود الأردن طرابلس، (٦٠) ويذكر اليعقوبي أن كورة عرقة فيها قوم من الفرس ناقلة ، وكذلك طرابلس أهلها قوم من الفرس ، كان معاوية بن أبي سفيان نقلهم اليها ، وكذلك جبيل وصيدا وبيروت ، فأهل هذه الكور كلها قوم من الفرس نقلهم اليها معاوية بن أبي سفيان . (٦١)

وأقطع عبد الملك فرس بعلبك الخمس في مدينة طرابلس ، فسكنوها وسكنوا غيرها من مدائن الساحل ، (٦٢) ونقل الوليد بن عبد الملك الى انطاكية قوما من زبل السند من حملهم محمد بن القاسم الى العجاج ، فبعث بهم الى الشام . وفي القرن الثالث الهجري كان بأنطاكية عملة تعرف بالزط وبيوقا من عمل أنطاكية قوم من أولادهم يعرفون بالزط ، (٦٣) وما يشير الانتباه أن سكان جند دمشق الساحلية كان معظمهم من الفرس واليهود ، بينما يشكل العرب الاكثية الساحقة في كور جند حمص الساحلية ، فقد سكن مدينة اللاذقية قوم من يمن وسليح وزبيد وهمدان ويحصب ، كما سكنت همدان في مدينة جبلة مع قوم من اياس ومن اياز ، وأهل انطراوس كانوا من كندة في حين أن مدينة بلنيس فقط كان أهلها أخلاط . (٦٤) أما الجراجمة الذين كانوا يقطنون الجرجومة من جبل اللكام ، فقد تفرق قسم منهم في خلافة عبد الملك بن مروان بقرى حمص ودمشق ، أما اكثريتهم فقد رجسوا الى مدنيتهم باللكام بعد ثورتهم والقضاء عليها ، وفي عهد الوليد بن عبد الملك أخرب مسلمة بن عبد الملك مدنيتهم لكثرة ما كانوا يكاتبون الروم وبالمثونهم ، وأسكنهم جبل الحواري وعمق تيزين ، (٦٥) وعار بعضهم الى حمص ونزل بطريق الجرجومة في جماعة معه انطاكية ثم هرب الى بلاد الروم ، ويبدو أن بعضهم بقي مقيما في انطاكية ، (٦٦) أما تيوفانس فيذكر أن جستنيان الثاني نتيجة

(٦٠) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٣ ، اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ١٣٣ ، ابن الاثير ، ج ٢ ، ص ٤٣١ .

(٦١) : اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٢ .

(٦٢) : تهذيب ، ج ٦ ، ص ١٨٢ .

(٦٣) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٦٦ ، ص ٣٦٩ .

(٦٤) : اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٥ .

(٦٥) : عمق تيزين ، تيزين قرية كبيرة من نواحي حلب ، كانت تمد من أعمال قنسرين ثم صارت في أيام الرشيد من العواصم مع منبج وغيرها (ياقوت العموي ، معجم البلدان ج ٢ ص ٦٦) .

(٦٦) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

للصلح الذي عقده مع عبد الملك نقل ١٢ ألف من المردة وأسكنهم آسيا الصغرى . (٦٧)

هذه صورة للعناصر السكانية في بلاد الشام في صدر الاسلام ، وهي تشير بوضوح الى أمرين ، أولهما أن العنصر العربي قد أصبح الغالب بعد هجرة الروم بحيث أن اليمقوي الذي زار هذه المنطقة في القرن الثالث الهجري ، لا يذكر الروم على الاطلاق ، وإنما يطلق اسم المعجم عليهم ، ولا نجد لهم ذكرا في الأجناد الشمالية وإنما في جندي الأردن وفلسطين فقط حيث يذكر وجود المعجم في عكا وقدس وبهسان ، وفحل وجرش من كور الأردن ، وفي كورة ايليا ، ولدو عواس من جنود فلسطين ، أما الأمر الثاني فهو أن قبائل قضاة (٦٨) واليمن كانت تستوطن الجانب الأكبر من بلاد الشام ، ولما كانت قضاة وكتب خاصة هي أضخم الكتل القبلية في بلاد الشام في العصر الاموي ، كان انحياز هذه الكتلة الى أي حزب سياسي خليقا بترجيح كفته وينححه تأييدا حربيا وسياسيا له شأوه ، وكذلك كان انحياز هذه القبيلة الى احدى الكتلتين المدنانية والقحطانية خليقا بترجيح كفتها المددوية ، واختلال ميزان القوى القبلية . ومن هنا احتدم النزاع حولها وتجانستها المدنانية والقحطانية ، وقام نسابو كل من الكتلتين والاخباريون فيهما بمحاولات كثيرة منذ استهل العصر الاموي حتى منتصف العصر النبوي في ضم هذه القبيلة الى شجرتهم النسبية ، وذهب بعض نسابي اليمن الى أن

:(٦٧)

Sir George Hill, The History of Cyprus, Vol. II P. 286.

Archibald Lewis, Naval Power & Trade in the Mediterranean P. 80.

(٦٨) : قبائل قضاة ، كتب ، تنوخ ، بلي ، بهرا ، خولان ، اسلم ، جهينه ، عسذره ، نهد ، بنو القين ، سليح ، ابن عبد البر النعري ، الانباه ، ص ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، اليمقوي ، تاريخ ج ١ ص ٢٠١ .

لقضاة نسبت الى معد أيام العصبية ، وفي زمن معاوية وابنه يزيد بوجه خاص ، وأن معاوية وابنه ، لا لروءساء قضاة أموالا جسيمة لثقا الانتفا من اليمن والانتساب الى معد ، ولكن قضاة كما يهد وتغضب غضبا شديدا لشيوخ هذا القول وتكره أشد الانكار ، ثم تجمع مجموعها وتدخل مسجد دمشق يوم الجمعة وهي ترتجز بقول شاعرهما :

بأيها الداعي ادعنا وشهر

وكن قضاةمنا ولا تنزور

نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر

قضاة بن مالك بن حمير

النسب المعروف غير المنكسر

من قال قولا غير ذا بصير (٦٩)

ويرد الشرقي بن القطامي ومحمد بن حبيب هذا الاضطراب في نسب قضاة الى الحرب التي ثارت بين قيس وكلب اثر معركة مرج راهط ، فيذكر أن خالد بن يزيد أشار على أخواله من كلب بمخالفة اليمن والانتساب اليهم لانزال بني مسروان ومن انحط في هواهم من قيس ، فأجابه الى ذلك بعضهم وعصاه آخرون ، فكان بعضهم يقولون حالفتنا اليمن وبعضهم يقول بل نحن منهم ، (٧٠) كما يذكر الشرقي بن القطامي أن أول من ألحق قضاة بحمير عمرو بن مرة الجهمي ، وكانت له صحبة وسابقة

(٦٩) ، البلاذري ، أنساب الاشراف ، ج ١ ص ١٨ ، وينسب هذا الرجز الى أفلح

بن محبوب القضاي ، نشوان الحميري ، منتخبات في أخبار اليمن ، ليدن

١٩١٦ ، تحقيق عظيم الدين أحمد ص ٨٧ .

(٧٠) : ابن عبد البر ، الأنباه ص ٦٠ ، ٦١ .

في الاسلام وطاعة في قومه ، (٧١) ولكي يرعى كل فريق دعواه عند الى وضع الأحاديث على لسان الرسول ، فوضعت نزار حديثا ينسب فيه الرسول قضاة الى محمد بل يجمسه بكرولده (٧٢) ووضع أهل اليمن أساديث تنقض هذا القول وتؤيد نسبة قضاة النبي - صلى الله عليه وسلم - (٧٣) وكذلك دم النبيان دعواهما بأهبات من الشعر لشعرا ، قد ما ، ومحدثين .

ولقد لاقى القول بانتما قضاة الى حمير والجذم اليماني هوى في نفوس التضاعيين ، لأن في انتسابهم الى حمير ذات الماضي العريق في الحضارة والملك ما يرفع من شأنهم عند مفاخرة القبائل النزارية ، فأخذ الشعراء يؤكدون هذه النسبة في أشعارهم ويفخرون بنسبهم اليماني ، وأجابهم شعرا نزار ساخرين تارة ومعاتبين أخرى . (٧٤)

ومن القبائل التي تنازعتها القحطانية والمدنانية أيضا ، جذام ، وهي عند نسائي اليمن قحطانية النجار ، ولكن نسائي مضر يتبعون أن جذام هو ابن أسدة بن غزيرة أخي أسد ويحتجون على دعواهم ببيتين ينسبونهما الى امرئ القيس أو لبشر بن أبي خازم الأسدي ، (٧٥) ويبدو أن القول بانتما جذام الى مضر ، إنما شاع كذلك في المصر الأموي ، وأن بني أمية أرادوا تألف هذه القبيلة التي كان لها عدد وقوة بالشام ، فأغروا بعض رؤسائها بالانتما الى مضر ، ووافقهم في ذلك روح بن زباع الجذامي والشاعر الماطلي هدي بن الرقاع ، ولكن هذا النبأ ما كان يبلغ أسماع الجذاميين المتمصبين لأصلهم اليماني حتى قدموا على يزيد وطلح رأسهم سيدهم نائل بن قيس الجذامي الذي أعلن أنهم يمانون من قحطان

(٧١) : ابن عبد البر ، الأنباه ، ص ٦٠ .

(٧٢) : المصدر السابق ، ص ٥٩ ، البلاذري ، أنساب ، ج ١ ، ص ١٦ .

(٧٣) : المصدر السابق ، ص ٦٠ .

(٧٤) : المصدر السابق ، ص ٦٢ .

(٧٥) : المصدر السابق ، ص ١٠٤ ، البلاذري ، أنساب ، ج ١ ، ص ٣٦ .

وأنهم ليسوا بستغلبين عن نسبهم وشتم روعاً لمحاولة نسبة قومه إلى غير أصلهم واضطرب روح
إلى التبايع ، وكذلك رجح عدى بن الرقاع العامري بن مقاتله ، وقال في تأكيد نسبه السبي
سلمان أهباناً منها قوله :

سلمان والدنا الذي ندعى له

وأبو خزيمة خندب بن نزار . (٧٦)

وما قيل في جذام قيل مثله في أختها لخم ، فقد جعلها نسابو مضر معدية وقرنها
أكثرهم بجذام في انتسابها إلى أسدة بن خزيمة بن مدركة ، وذهب بعضهم إلى أن قنص
بن معد هو أبو لخم وأيدوا قوله بما نقلوه من النسابة القرشي بجبير بن مطعم من نسبه ملك
العيرة اللخمي ، النعمان بن المنذر ، إلى أشلاء قنص بن معد . (٧٧) ويظهر أن القعدانية
لما فاخروا الحدنانية بطوكهم في الجاهلية أدعت الحدنانية هذه الدعوى لتضم إلى شجره
نسبها آل نصر طوك العيرة ولا سيما النعمان بن المنذر الذي كان لاسمه بيت يملأ أرجاء
الجزيرة العربية .

إن هذا الخلاف في أدعاء كل من النسابين من مضر وقعدان بالحق هذه القبائل
بهم تظهر المكانة الكبيرة التي كانت لهم ، وتلقي الأضواء على بعض الأحداث التي سترت
في الفصول القادمة ، وإن كانت المصادر التاريخية ، عندما تتلم من الأحداث في العصر الأموي ،
تدلل قضاة ضمن اليمين .

(٧٦) : الأغاني ، ج ٩ ص ٣١٤ .

(٧٧) : البلاذري ، أنساب ، ج ١ ص ٢٣ ، ابن عبد البر ، الأنباة ، ص ١٠٤ .

=====

===

=

الفصل الثالث

طبقات الحبشيين ونورها في الإدارة والحكم

المسلمون من الحرب :

من العباديَّة الاصيلَّة في الدعوة الاسلاميَّة عدم المفاضلة بين الناس على أساس الانساب ، والمفاضلة انما تتَّون بالتقوى ، وعليه الآية الكريمة " يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم " ، (١) وأكد الرسول هذا المعنى في غزاة الوداع : " تعلمن ان كل مسلم أخو المسلم وأن المسلمين أخوة " (٢) ولكن الرسول أدرك كذلك بثاقب بصره أن حرص زعماء القبائل على مراتب الشرف التي يتبوَّءونها في قومهم ، والمنازع الماديَّة التي تحققها لهم مناصب الرئاسة هي عقبة كؤود تترض سبيل انتشار الدعوة الاسلاميَّة واعتناق القبائل العربيَّة لها . ورأى أن تذليل هذه العقبة لا يأتي الا عن طريق اصطناع رؤساء القبائل وتألُّفهم ، فكان لذلك يؤثرون من كان منهم بالمعطاء والهدايا ويقسم لهم نصيباً أو في من الخنائم . وكانت خطته هذه مدعاة لاستياء أنصاره في بصر الأسيان . (٣) جاء في الطبري عن أبي سعيد الخدري أنه لما أعطى رسول الله ما أعطى للمؤلفة قلوبهم - وكانوا أشرافاً من أشرف الناس يتألُّفهم ويتألَّف به قلوبهم - ولم يكن في الأنصار منها شيء وجد هذا المعنى من الأنصار في أنفسهم حتى كثرت منهم القالة ، (٤) فكان يباب الرسول لهم بأنهم إنما تألَّف بها قوماً ليسلحوا ووكلمهم الى اسلامهم ، وبأنه لو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً لسلك رسول الله (صلعم) شعب الأنصار . (٥)

(١) : سورة الحجرات ، آية : ٢ . .

(٢) : الطبري ، ج ٣ ص ١٥١ .

(٣) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٩٠ ، البخاري ، الجامع الصحيح ، ليدن ج ٢ ، ص ٢٨٢ .

(٤) : الطبري ، ج ٣ ص ٩٣ .

(٥) : الطبري ، ج ٣ ص ٩٤ .

وبالرغم من أن الاسلام جعل مدار التفاضل بين الرجال على التقوى ، والايان لا على
الاحساب والأنساب فإنه لم يبلغ مراتب الشرف القبلية الفناء تاما ، وإنما جعلها منوطه
بحسن الايمان وقوة العقيدة ، فحين سأله قوم عن اكرم العرب كان جوابه : " الناس معادن ،
خيرهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام اذا فقهوا " . (٦) وقد جرى خلفه الرسول على الموقف
نفسه الذي وقفه الرسول من الروح الجاهلية والحصبية القبلية ، فاتخذ أبو بكر موقفا صارما
لا هوادة فيه من حركة الردة ، وأمر بقسها بك وسيلة لأنه وجد فيها خطرا على كيان الدولة
الاسلامية الناشئة ، كما رأى فيها ظاهرة قبلية خطيرة ، تهدد بمحوه الحرب سيرتها الأولى
في الجاهلية من التناهد والتفرقة ، وكان صريح الخطاب أشد عنفا من سلفه في قمع الدعوة
الحصبية والنزعات القبلية وفي تجاهل امتيازات الشرف الموروثة من الجاهلية ، وكان يساند
في مجلسه للحوالي الذين عرفوا بسبقهم الى الاسلام كصهيب وبلال قبل أن يأذن للاشراف
الذين لم يكن لهم سابقة في الاسلام أمثال عيينه بن حصين الفزاري والأقرع بن حابس التميمي . (٧)
ومن فرض عمر العطاء للمسلمين وغضب بعض اشراف قريش أن يكون نصيبهم دون نصيب
غيرهم ، أجبهم أنه أعطى على السابقة في الاسلام لا على الاحساب . (٨) ووقف عمر من الأنساب
موقف الرسول قبله ، إذ منح القوم على رعايتها لا ليمتصوا لها ، وإنما ليصلوا أرحامهم ،
ويصرفوا روابط القرى التي تصل بينهم ، ومن المعتم في مجتمع كانت تسوده المفاهيم
والتقاليد القبلية أن يقوم الصراع بين الاتجاهات الاسلامية وبين التقاليد القبلية
سواء أكان ذلك واضحا مكشوفاً أو خفياً مستورا ، ومن المتمذر فهم تاريخ صدر الاسلام
ان لم يلاحظ هذا التصادم والاعتكاك . .

ومن اد ، أتينا الى الحرب المسلمين في الشام نجد أن طائفتين اثنتين كان لهما
دور هام في تحديد مكانتهم الاجتماعية ، وهما عامل المدنية منذ فرضه الرسول ونظمه عمر

(٦) : البخاري ، الجامع الصحيح ، ج ٢ - كتاب المناقب ، ص ٣٨١ .

(٧) : الجاحظ ، المشنبة ، القاهرة ، ١٩٥٥ م ص ٢١٧ .

(٨) : الطبري ج ٣ ص ٦١٣ .

وعامل صحبة الرسول ونسبته في دعوته ، وما كان من أثره في نشأة طبقة الصحابة التي انشطرت بدورها شطرا اتجه الى المعرفة وشارا اتجه نحو السياسة والحكم ، فقد عاش صحابة الرسول في ذاكرة الجماعة الاسلامية ووجدانها على أنها امتداد لحياته الشريفة ، وتشكيل لها وتفسير من دعوتهم وتبسيم لهذه الدعوة ، وعاشت فكرة العطاء رمزا للمكانة الاجتماعية وتصويرا من السابقة الى النصرة ، (٩) ثم تصويرا عن الشجاعة والبلاء في تلك العروب العظيمة التي ساءلها فيها ، فقد كان عطاء المقاطعة الذين اشتركوا في معركة اليرموك الفين ، (١٠) وفرض عمر لأهل العلاء البارع منهم في الفين وخمسمائة ثم تدرج العطاء ما بين ألف الى تسعمائة الى خمسمائة الى ثلاثمائة . (١١)

وكان الحد الأعلى للعطاء ويدهى شرف العطاء معددا بالفين وخمسمائة في العهد الراشدي ، (١٢) ثم انتقد معاوية وبطله ألفي درهم ، (١٣) وكان الأشراف في الشام الذين عطاؤهم ألفين يأخذون بالاضافة الى عطائهم قليفة ، (١٤) ولا نجد اشارة لذلك في العراق ومصر ، وربما تأثر معاوية بما كان يجري في الدولة البيزنطية حيث كان الحوظفون الكبار يأخذون بالاضافة الى أرزاقهم عطاء نقديا وملابس وكان العطاء والملابس توزع مرة في السنة . (١٥)

(٩) : الدابري ، ج ٣ ص ٦١٤ ، البلاذري ، فتوح ص ٤٣٧ .

(١٠) : الدابري ، ج ٣ ص ٦١٤ .

(١١) : البلاذري ، فتوح ، ص ٤٣٨ .

(١٢) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٢٥٥ ، ج ٦ ص ١٥١ .

(١٣) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٥٥ ، البلاذري ، انساب ، ج ٥ ص ١٣٦ ، الطبري

ج ٥ ص ٢٤٢ .

(١٤) : ابن سعد ، ج ٥ ص ٢٥٥ ، البلاذري ، انساب ، ج ٥ ص ١٣٦ .

(١٥) : Byzantium , An Introduction to East Roman

Civilization , ed. Norman H. Baynes and H. St.

K. Moss , Oxford , The Clarendon Press , p. 75 .

وكان شرف المطايع يمنح لمن يقوم ببعض الأعمال الادارية أو القيادية ، (١٦) أو من يبدى بمسالة في المعروب ، وقد استمرت هذه القواعد في العصر الأموي ، إلا أن عامل الدعم لمعاوية وللحكم الأموي في الشام أصبح عاملا أساسيا في منح الشرف في المطايع ففي الأخبار الطوال للدينوري ، أن معاوية قال لعمرو في معركة صفين : " قدم لك والاشعرين فانهم كانوا أول من انهزم في هذه الجولة ، فأتاهم عمرو فبلغهم قول معاوية ، فقال رئيسهم مسروق العمكي ، انتظروني حتى آتي معاوية ، فأتاه فقال : افرض لقومي في الفين الفين ، ومن هلك منهم فابن عمه مكانه ، قال : ذلك لك " (١٧) وكان يفرض أحيانا لاشخاص في شرف المطايع لأعجاب الخلفاء بتصرفاتهم ، فهذا معاوية بأمر لم يزيد بن شجرة الرهاوي بمخمسائة الف درهم وبأمر بزيادة عطاءه ألفا ، ويقول : " لقد ظلمك من جملك في الف من المطايع وأخرجك من عطاء أبناء المهاجرين وكماة أو حماة أهل صفين " وما ذلك كما يقول الجاعظ إلا لأنه وفاه حق الرياسة وأحسن الاصفاء اليه ولم يهتهم بالدم الذي سال على وجهه بسبب حجر طائر . (١٨)

ويمكننا أن نستنتج من نص بورد البلاذري أن من بلغ سنا يجب أن يعطى

شرف المطايع ، لا سيما وأن في الطبري نصوصا تشير الى مكانة ذوي السن . (١٩)

فقد كتب أبو بكر بن محمد بن عمر بن حزم الى عمر بن عبد العزيز : " ان قوما من الأنصار قد بلغوا أسنانا ولم يبلغ عطاؤهم الشرف ، فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر اثباتهم في

(١٦) : الطبري ، ج ٨ ص ١٧٧ ، ١٧٨ ، الأزدى ، تاريخ الموصل ، تحقيق علي حبيبة ،

القاهرة ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م ص ٢٥٦ . ابن عبد الحكم ، فتوح مصر

وأخبارها ، وليد ١٩٣٠ م ص ١٤٣ . البلاذري ، فتوح ص ٤٤٢ .

(١٧) : الدينوري ، الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، وزارة الثقافة والإرشاد ،

الاقليم الجنوبي ، ص ١٨٦ . (كان ما فرض لملك في أيام عمرو بن الخطاب

٣٠٠ درهم) الطبري ج ٤ ص ٩١ .

(١٨) : الجاعظ ، التاج في أخلاق الملوك ، بيروت ، ١٩٧٠ ص ٦٢ .

(١٩) : الطبري ج ٤ ص ١٣٠ ، ج ٤ ص ٣١٩ .

شرف الخطاء تليفعل. فكتب اليه عمر " وأما ما ذكرت عن أمر الرجال الذين
بأنفوا سنا ولم يبلغ مالا وهم الشرف ، فانما الشرف شرف الآخرة والسلام " . (٢٠)
وبالرغم من أن مقدار ما يدفع في شرف الخطاء لم يكن بالدريجة التي تبديل سمن
بأنفذه غنيا الا أنه كان يستتر شرفا عظيما يستحق التسبيل ، وقد استدهى فرض نظام
الخطاء الى تصنيف الناس حسب قبايلهم وأصولهم ، فنشط النسابون لتدوين الانساب ،
وتصنيف القبائل حسب أصولها وأجدانها فتجددت معالم الرابطين الحدانية والقحطانية ،
وكان لهذا التدوين أثره في عنابة القبائل بأنسابها وعرضها على تدوينها ، وأدى ذلك
الى تحصيلها لنسبها واعتزازها به ، وميلها الى القبائل التي تربطها بها رابطة النسب
والقرب ، وهكذا نرى أن وضع ديوان الخطاء قد أدى من طريق غير مباشر الى ظهور
الروابط القبلية وشيوع المعارف النسبية وأدى بالتالي الى ظهور العصبية في صورها المختلفة .
وأما عامل صحبة الرسول ونسبته لدعوته ، فقد كان له أثره في الشام واضحا
لا سيما زمن الغلظة الراشدة والفترة السفينية ، وما أكثر الصحابة الذين اشتركوا في
الفتح من المهاجرين والأنصار ، وقد بلغ عدد من نسب ماورد في كتاب الطبقات ١١٣ صاحبها (٢١)
ويبدو أن حمص كانت ملتقى لأصحاب الرسول ، فمن أبي مسلم الخولاني أنه دخل مسجد
حمص ، فاذا فيه نحو من ثلاثين كهلا من أصحاب النبي (صلعم) (٢٢) وأدرك كثيرين مره
الحضري في حمص سبعمين بدريا من أصحاب رسول الله ، ولذلك كان يسمى الجند المقدم (٢٣)
وكان لخروج هذا العدد الكبير من الصحابة مجاهدين وتوزعهم في الاجناد دور كبير
في ارساء قواعد الدين وتفقيه الناس وتعليمهم دينهم وسنتهم ، فكانوا أساتذة لمن

(٢٠) : صالح أحمد الحلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في النهضة ، دار الطليعة ،
بيروت ١٩٦٩ م ، ص ١٥٣ ، من البلاذري ، أنساب الاشراف ج ٣ ص ١٣٩ . مخطوطة
القاهرة .

(٢١) : ابن سعد ، الطبقات ج ٧ قسم ٢ ص ١١١ - ١٥١ .

(٢٢) : المصدر السابق ج ٧ قسم ٢ ص ١١٥ .

(٢٣) : المصدر السابق ج ٢ قسم ٢ ص ١٥٧ . وقد جاء في مخطوطة ابن عبيش أن جند حمص
انما سمي بالجند المقدم لأنها كانت اذناها من الروم ودمشق والاردن وفلسطين
كنهن وراها ، ابن عبيش ، الفتوح ص ١٨٤ .

خالصهم ، وقد تفتت معظم أفراد النابتة الأولى من التبصين في الشام على يد سيادة
بن الصامت وأبي الدرداء ومعاذ بن جبل ، (٢٤) ولكنهم من الأنصار ، بالإضافة إلى أخذهم
العديث من أبي بكر وعمر ، فنذ أن كتب يزيد بن أبي سفيان إلى عمر بن الخطاب " أن
أهل الشام كثير ، وقد احتاجوا إلى من يحلصهم القرآن ويفقههم " ، أرسل عمر مع
بن جبل وعبادة بن الصامت وأبا الدرداء ، وطلب منهم أن يبدأوا بحمص ، ثم أن يخرج
واحد منهم إلى دمشق وآخر إلى فلسطين ، فأقام عبادة في حمص وخرج أبو الدرداء إلى
دمشق ومعان إلى فلسطين ، (٢٥) واتبع عمر في الشام سياسة خاصة لنشر الدين وهو
بناء مسجد في كل مكان فيه كنيسة ، (٢٦) ولذلك انتشرت المساجد في بلاد الشام ،
وتابع الأمويون هذه السياسة في بنائها ، (٢٧) وأصبحت المساجد هي دور العلم في العصر
الأموي ، والمراكز التي يتدفق عليها الناس طلبا لسماع العديث ، ولانجد ذلك في مساجد
مراكز الأحياء فقط بل في الساجل كذلك ، فعن شراجيل الحنسي قال : " أتيت بيروت أنا
وعمر بن هاني الحنسي ، فإذ نحن برجل عليه الناس في المسجد ، فإذنا عليه قميص كرايمس

(٢٤) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٧ ص ٢١٣ ، ج ٦ ص ٢٩٠ ، ج ٦ ص ٢٤٣ .

(٢٥) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢١٣ .

(٢٦) : يا قوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٥٢١ .

(٢٧) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٥ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ولحل أهم المساجد التي بنيت في

الشام هي قبة الصخرة ، المسجد الأقصى ، ومسجد بني أمية ، ومسجد الرطة ، وقد

أظهرت النقوش التي كانت تزين داخل قبة الصخرة بوضوح روح مناظرة المسيحية ،

فالكتابات بالرغم من تأكيدها على نبوة المسيح وأنه نبي حق فان عبارة

" لا شريك له " قد تكررت خمس مرات في هذه النقوش ، كذلك سطرت الآيات ٣٤-٣٧

من السورة ١٩ (سورة مريم) هذه الآيات التي تنكر بشدة نبوة عيسى إلى الله ، وكتب

بعناية فائقة دعاء " اللهم صل على رسولك وعبداك عيسى بن مريم " وهذا دليل

على أن مناظرة المسيحية والرغبة في اظهار روح رسالة الاسلام كانتا واردتين

أثناء تشييد ثبة الصحراء المشهورة . (جواتيا بن ، ص ٥٠ ، د

دراسات في التاريخ الإسلامي والنظم الاسلامية ، تمريب وتحقيق الدكتور عطية القوصي ،

الكويت ١٩٨٠ ص ٤٤٤ . ابن شداد ، الاطلاق الغنظيرة ، ج ١ القسم الأول ص ٣١ .

الى نصف ساقيه ، وقلنسوة صغيرة ، يقال له حيان بن وبرة المروى ، فقلت لصحير بن هاني ،
أين أصحاب رسول اللّٰه (صلعم) هو ؟ قال : لا ولكنه صاحب لأبي بكر (٢٨) وقد
أمدّ الله بحمر بعض هؤلاء الفقهاء من الصحابة ، فقد توفي وائله بن الاضقع بن عبدالمعزى
سنة ٨٥ هـ وقيل سنة ٨٣ هـ وكان ينزل بيت المقدس ومات فيها ، ولتفه كان يمر بدمشق
وحمص حين يشهد الخمازي ، (٢٩) وكان آخر من توفي بالشام من أصحاب رسول اللّٰه
(صلعم) عبد الله بن بسر المازني توفي في خلافة الوليد بن عبد الملك ، (٣٠) وتوفي
أبو أمانة الباهلي قبله بستين ٨٦ هـ ، وكان عمرو البكائسي يحضر أفقه من بقى على وجه
الأرض من أصحاب رسول اللّٰه (صلعم) . (٣٢)

بالإضافة الى هؤلاء الصحابة من الفقهاء الذين كان يعولهم المسلمون بكثير من
الاحترام والرعاية كان للصحابة المراتب القيادية في حركة الفتح في الشام والجزيرة
كأبي عبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد ، ويزيد بن أبي سفيان ، وشرعبيط بن حسنة
وعياض بن غنم ، وسعيد بن عامر بن عذيم ، وعمير بن سعد ، ومعاوية بن أبي سفيان ،
وقد توفي أبو عبيدة ويزيد وشرعبيط في طاهون حمّاس ، وتوفي الباقون في أواخر خلافة
عمر وأوائل خلافة عثمان ، أما معاوية الذي كان له الدور الأكبر في فتح عدد
كبير من مدن الساحل ، فقد استطاع أن يحتل مكانة رفيعة في الشام
فهو من أصحاب رسول اللّٰه ، كما أنه حصل على ثقة أبي بكر وعمر وعثمان ، فولاه
عمر جنود دمشق والاردن اثر وفاة أخيه ، (٣٣) ثم جمع له عثمان الجزيرة والشام كلها ، (٣٤)

(٢٨) : تهذيب ، ج ٥ ص ٢١ ، ٢٢ ، القاضي عبد الجبار الخولاني ، تاريخ دارينا ، تحقيق
سعيد الأفغاني ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ، ١٣٦٩ هـ ، ١٩٥٠ م ص ٩٤ .

(٢٩) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٧ قسم ٢ ص ١٢٩ .

(٣٠) : المصدر السابق ، ج ٧ ، القسم ٢ ص ١٣٣ .

(٣١) : المصدر السابق ، ج ٧ قسم ٢ ص ١٣١ .

(٣٢) : المصدر السابق ، ج ٧ قسم ٢ ص ١٣٨ .

(٣٣) : الطبري ، ج ٤ ص ٦٢ ، ص ٢٨٩ .

(٣٤) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٨٣ ، ١٨٨ ، ٢٨٩ .

وتمتع معاوية في خلافة عثمان بمصالحيات واسعة ، (٣٥) استلماح أن يستغلها في جعل ولاية الشام وعبادة منسجمة تتقاد له ، (٣٦) وجعل ولايته على الأجناد من قادة الفتوح من الصحابة أو أبنائهم . فقد عين عبد الرحمن بن خالد بن الوليد " لمظم قدره في أهل الشام ولما كان مندهم من آثار أبيه خالد بن الوليد " ، (٣٧) على بلاد حمص ، (٣٨) وولى عيسى قنسرين حبيب بن مسلحة الفهمري القرشي ، (٣٩) وعلى الأردن أبو الأعور السلعي ، (٤٠) عمرو بن سفيان من بني سليم من بطون قيس عيلان ، (٤١) وعلى فلسطين علقمة بن حكيم الكناني ، (٤٢) وعلى البصرة عبد الله بن قيس الفزاري ، (٤٣) وعلى القضاء أبو الدرداء ، (٤٤) ونلاحظ أن ولاية معاوية في خلافة عثمان كانوا كلهم من القيسية وأنه عينهم في المناطق التي كان

(٣٥) : الطبري ج ٤ ص ٣٣١ .

(٣٦) : المصدر السابق ج ٤ ص ٥٦٢ ، ابن الأثير ج ٣ ص ١٩٧ ، القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ص ٢٠٦ .

(٣٧) : مصعب الزبيري ، نسب قريش ، ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٣٨) : الطبري ج ٤ ص ٣٢١ ، ٣٢٦ .

(٣٩) : حبيب بن مسلحة له صحبة وزواجة ، وجاهد في خلافة أبي بكر وشهد اليرموك

أمرا (الذهبي ، سيرة اعلام النبلاء ج ٣ ص ١٨٨) وولاه أبو عبيدة انلاكيه

واستعمله فخر بن الخطاب على فتح الجزيرة وغيرها (الطبري ج ٤ ص ٣٥ ،

ابن السديم ، زبدة العلب ، ص ٣٧) .

(٤٠) : الطبري ج ٤ ص ٤٢١ .

(٤١) : ابن عدي ، المقصد الفريد ج ٣ ص ٣٥٣ ، وهو من قادة الفتوح اشترك فسي

مركة اليرموك (الطبري ج ٣ ص ٣٩٦) وكان من القادة الذين وجاههم أبو عبيدة

الى فتح والذى صالح أهل طبرية ، (الطبري ج ٣ ص ٤٣٨ ، ٤٤٢ ، ٤٤٤ ، ٦٠٥) .

(٤٢) : الطبري ج ٤ ص ٤٢١ وعلقمة بن حكيم قائد من الصحابة دخل دمشق مع خالد

وتوجه مع مسروق الى ايلام ، وبعثه عمر بن الخطاب على نصف فلسطين وأنزله الرطبة

(الطبري ج ٣ ص ٤٤١ ، ٦٠٨ ، ٦١٠) .

(٤٣) : الطبري ج ٤ ص ٤٢١ .

(٤٤) : عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصاري الخزرجي ، أبو الدرداء ، وفي الحديث ،

عويمر حكيم أمتي ، ونعم الفارس عويمر ، وولاه معاوية القضاء في دمشق بأمر من عمر

بن الخطاب ، (الذهبي ، سيرة اعلام النبلاء ج ٣ ص ٣٣٥ - ٣٥٢) .

لهم فيها ذكر نابه كما يتبين لنا ذلك من تتبع أعمالهم ، أما أبو الدرداء فقد كان انصاريا خزرجيا ، وكان قد عينه قاضيا منذ خلافة عمر بن الخطاب وأمر منه .

وقد استتاع هو^{٤٥} الولاة أن يفرضوا احترامهم على القبائل العربية التي رأينا أن سانسها كانت اما قضاعية أو يمانية ، بحيث أن الشام هي الولاية الوحيدة التي لم تشارك في الثورة على عثمان ، ونلاحظ أن عبدالرحمن بن خالد بن الوليد يدهم معاوية تجاه الذين أخرجهم أشرف أهل الكوفة وصلحوا^{٤٦} بهم بأمر من عثمان الى معاوية لاقتناعهم بالمسودة الى جادة الصواب ، فلما أعياه ذلك وقف عبدالرحمن بن خالد موقفا حازما منهم حتى شعروا أنهم تاهوا . (٤٥) وخبرهم بين أن يتهموا أو بين أن يخرجوا ، وفي رواية ثانية أن عبدالرحمن أنزلهم الساحل وأجرى عليهم رزقا . (٤٦)

وعند ما جمع عثمان الأمراء ليستشيرهم فيما قد صنع الناس ، كان معاوية الوحيد الذي أشار عليه أن يأمر أمراءه أن يتقيه كل رجل ما قبله^{٤٧} واكتفيك أنا أهل الشام . (٤٧) ذلك أنه كان واثقا من تضامن أهل الشام معه كافة بمكس بقية الأمراء الذين اقترحوا عليه آراء^{٤٨} مختلفة ، ومنذ ما تنقل عبدالله بن سبأ اليهودي الذي أسلم في خلافة عثمان يحساول ضلالة الناس لم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام فأخرجوه حتى أتى مصر . (٤٨) بالاضافة الى المكانة التي احتلها الصحابة وقادة الفتوح وأبنائهم في بلاد الشام فان معاوية أدرك بثاقب بصره منذ أن كان واليا على الشام مدى الفائدة السياسية التي يجنيها من معاوية قبيلة كلب أقوى القبائل القضائية بالشام وأكثرها عددا ، فاختر له ميسون بنت سعد الكلبية التي أنجبت له ابنه يزيد ، وقد حققت الاحداث بعد ذلك سداد نظرة معاوية ، ان كان لقبيلة كلب الهد الاولى في تأييد خلافة يزيد وفي تثبيت دعائم

(٤٥) : الطبري ، ج ٤ ص ٣٢٢ .

(٤٦) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٢٦ .

(٤٧) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٤٠ .

(٤٨) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٣٤٠ .

الحكم الاموي في الشام ، ثم جرى خلفاء بني أمية على خنطة مؤسس دولتهم في الأصبهار الى القبائل القوية لكسب تأييدها ، وكانوا يوثقون الأصبهار اما الى قبيلة كلب القضاعية واما الى قبيلة قيس المضربة ، ويبرز من بين الاسر القيسية التي حرص بنو أمية على مصاهرتهم اسم آل عقيل بن علفة الحوي ، وكانت أسرته من أمرق الاسر القيسية شرفاً وأنبهها ذكراً ، ومن هنا رغب الخلفاء من بني أمية وأمرؤهم وولاتهم في الأصبهار اليه على الرغم مما عرف به من شدة الجفاء والعنجهية . (٤٩)

كذلك أدرك معاوية أهمية الدور الذي يمكن أن يلعبه أشرف القبائل بالاضافة الى أشرف أهل بيته ، فكان لا يقرأ أمراً قبل أن يستشيرهم ، ولذلك فإنه عندما قتل عثمان وأرسل علي جبراً بن عبد الله الهجري يدعو الى الدخول في طاعته والبيعة له أو الايدان بالحرب ، استعان معاوية بأشرف أهل بيته ، فنصحه أخوه عتبة أن يستعين على أمره بمصرو بن الماض الذي يمين له أنه ليس لمعاوية مثل سابقة علي وقرايته ، (٥٠) وأنه لا يستطيع أن يتصدى لعلي ويدعو أهل الشام لبيته ، الا بعد أن يحصل على دعم أشرف الشام له ، وأنه اذا حصل على تأييد شر حبيل بن السمط الكندي رأس أهل الشام فإنه يحصل على تأييد أهل الشام كافة ، (٥١) وأنه لما يثير الدهشة اذا صدقت رواية الدينوري أن نرى تأثير شر حبيل على القبائل في الأجناد ، أما رواية سيف في الطبري فتشير الى أن معاوية استفل قميص عثمان المخضب بالدماء والذي وضعه على المنبر ، وكتب بالخير الى الأجناد ، فتاب اليه الناس ، وآلى الرجال من أهل الشام ألا يأتوا النساء ولا يسهم الماء للفاسل

(٤٩) : ابن حزم ، جمهرة الأنساب ، ص ٢٤١ ، الأغاني ج ١٣ ص ٢٥٤ ، ابن عدي ،

المقد الفرید ، كتاب اليتيمة في النسب وفضائل العرب ج ٣ ص ٤١٥ ، كتاب

المرجانة الثانية في النساء وصفاتهن ، ج ٦ ص ٤٨ .

(٥٠) : الدينوري ، الأخبار النوال ، ص ١٥٨ .

(٥١) : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

الآ من استلام ، ولا يناموا على الفرش حتى يقتاتوا قنطرة عثمان (٥٢) ووقفت القبائل الحربية في الشام كلها إلى جانب معاوية في معركة صفين ، قيسية ، وبيانية وقضاعية ؛ (٥٣) إلا بعض المشايخ كأبي اندرود ، وأبي أمامة الباهلي المذنبين رفضوا الاشتراك ولحقا بهم من السراويل ولم يشهدا شيئاً من تلك العروب . (٥٤) وبالرغم من أن أهل الشام كانوا قلة بالنسبة إلى أتباع علي ، فقد كان مع معاوية قوم " لا يقولون إذا سكت ، ويستكفون إذا نطق ولا يسألون إذا أمر ، ومع علي قوم يقولون إذا قال ويسألون إذا سكت ، ولذلك فقليله خير من كثيره " . (٥٥) وكذلك يشير القزويني إلى أن معاوية قد تضمن له الأمر لأنه ^{كان} في أطوع جند بينما كان علي في أخص . بعد وهم أهل العراق . (٥٦)

كان من نتيجة معركة صفين أن ازداد نفوذ القبائل البيانية التي نضرت معاوية وليس أدل على ذلك ما قاله الضمك بن الحنذر بن سلامة بن ذي قابن الحميمي لمعاوية : " نحن نصرناك ومنعناك يوم صفين ، ونصرتناك على الانصار والمجاهدين ، وآثرناك على الإمام التقى ، فبنا علوت المنابر ولولا نحن لم تملها " . (٥٧) ونجد أشرف قبائل اليمن وساداتها ، حيوة بن شريح الكلاعي ، وكريب بن أبرهة بن شرحبيل ، ويزيد بن عبيد المرادي ، وناتل بن قيس الجذامي ، وفروة بن الحنذر الغساني كلهم يتخذون الموقف نفسه ويبينون له صراحة أنه إذا ما لبني نزار ولم يأمر ، بينهم وبين قومه فسوف يكون هو الفاسد ، لأنهم أكثر منه نفراً وبصفاً ، (٥٨) ولذلك نجد معاوية في خلافته ثم يزيداً من بعده يتجهان اتباعاً مختلفاً في تعيين ولاية الأبناء فيمدان إلى انتقائهم من زعماء القبائل حسبما توفر لهم من استقرار

(٥٢) : الديلمية ، ص ١٧٢ .

(٥٣) : الديلمية ، الأجزاء الأولى ، ص ١٧٢ .

(٥٤) : المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

(٥٥) : الديلمية ، المصدر السابق ، ص ١٥٥ ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٣ ، ص ١٤١ .

(٥٦) : القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، ص ٢٠٦ .

(٥٧) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٧ ، ص ٣٠ .

(٥٨) : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٣١ .

وكثره فكانت قنسرين والجزيرة بأيدي عمال من عرب الشمال أو القيسية بينما كانت حصص
والأردن وفلسطين بأيدي عمال من عرب الجنوب أو قضاة ، فكان زفر بن العمارث الكلابي
عاملا لمعاوية ويزيد على قنسرين والجزيرة ، وذلك بن هبيرة السكوني على حصص في خلافة
معاوية ، (٥٩) والنعمان بن بشير الأنصاري في خلافة يزيد وحسان بن مالك بن سعد
الكلابي عاملا لمعاوية ثم ليزيد على فلسطين والأردن . (٦٠) ونلاحظ أن معاوية لا ينقاد
للإمانيّة تماما لأنه استطاع بمصاهرته لقبيلة كلب أن يحقق نوعا من التوازن ، وانضمام
قضاة اليه منحه تأييدا عربيا وسياسيا عظيم الخطر ، إلا أن هذا التأييد كان له شروطه ،
وهو أن يفرض معاوية لألفي رجل منهم ألفين ، وألفين ، وإن مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه ،
وأن يكون لهم الأمر والنهي و صدر المجلس ، وكل ما كان من حل وعقد فمن رأى ومشورة
منهم ، (٦١) ولكن معاوية الربيع الإداري يعتمد على الاستفادة من كل أصحاب الكفاءات
من القبائل المختلفة أو من شيعته المخلصين ، فكان كاتب رسائله غسانيا ، واستخدم حميرا
على ديوان الخاتم وهو عبد الله بن محصن الحميري ، وعلى ديوان الجند عمرو بن سعيد
بن العاص . (٦٢) وعلى شرطه قيس بن حمزة الهمداني ، ثم زمل بن عمرو الصدري ،
وهناك رواية تشير إلى أن الضحاك بن قيس الفهري كان على شرطة معاوية قبل وفاته
بينما تذكر رواية أخرى إلى أنه كان واليا على دمشق ، (٦٣) أما في مجال القضاء فقد
جعل معاوية الأولوية للمصحابة والتابعين من الفقهاء ، فقد عين فضاله بن عبيد الأنصاري ، (٦٤)
فلما توفي سنة ٥٣ هـ استقضى أبو ادريس عائذ الله بن عبد الله الخولاني . (٦٥) واشتهر

-
- (٥٩) : الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج ٦ ص ١٤٥ .
(٦٠) : الطبري ، ج ٥ ص ٥٣١ ، البلاذري ، انساب ، ج ٥ ص ١٢٢ .
(٦١) : المسعودي ، مرقى الذهب ، ج ٣ ص ٨٦ .
(٦٢) : الجهشيارى ، الوزراء ، الكتاب ، الطبعة الأولى ، القاهرة ص ٢٤ .
(٦٣) : الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج ٣ ص ٢٤٢ .
(٦٤) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ١١٤ - ١١٦ .
(٦٥) : غليظه بن خياط ، ج ١ ص ٢٧٦ ، الطبري ، ج ٥ ص ٣٣٠ ، الجهشيارى ، ص ٢٤ ،
وأبو ادريس الخولاني . تابعي فقيه وكان عالم أهل دمشق (الذهبي ، سير
الاعلام النبلاء ، ج ٤ ص ٢٧٢ ، ٢٧٦) .

عدد من القادة لأمرًا للصوافي والشواتي ، وكان معاوية يمينهم حسب كفاة اتهم القيايدية
دون النظر إلى انتفاء اتهم القيايدية ، فكان منهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، (٦٦) ومالك
بن شبيب ، السكوني من رؤساء كنده ، (٦٧) وفضالة بن عبيد الأنصاري سنة ٥٠ ، ٥١ هـ . (٦٨)
وسفيان بن عوف الأزدي الذي كان من الصعابة القادة فقد كان مع أبي عبيدة عين انتحست
دمشق ، وولاه معاوية الصوافي ، وعندما أدركه أجله في أرض الروم استخلف على الناس
عبد الرحمن بن مسعود الفزاري . (٦٩) بالرغم من أنه أبعد العرب نسبا منه وذلك " لأن له
نية حسنة وعفافا " ؛ ولما بلغت وفاته معاوية كتب إلى أمصار المسلمين وأجناد الحرب ينحاه ،
فيكي الناس عليه في كل مسجد ، وكان معاوية بمد ذلك إذا رأى غللا في الصوافي فقال
" واسفياناه ولا سفيان لي " . (٧٠)

سار يزيد على غطلى والده في تعيين ولاية الأجناد من سادات القبائل ، كما أنه
كان يستند لهم في القضايا التي كانت تعترضه ، فعندما بلغ يزيد بن معاوية ما فيه عبدالله
بن الزبير من بيعة الناس واجتماعهم إليه دعا بمشورة من وجوه أصحابه وهم يحتلون مختلف
القبائل في الشام ، النخمان بن بشير الأنصاري ، وشريك بن عبدالله الكناني ، وزمل بن عمرو
الصدري ، ومالك بن شبيب السكوني ، وعبدالله بن عضاة الأشعري ، وروح بن زبيد
الجدامي ، وأبو كيشه السككي ، وسعيد بن عمرو الهمداني ، وعبدالله بن مسعدة الفزاري ،
وعبد الرحمن بن مسعود الفزاري ، (٧١) وطلب منهم التوجه إلى الحجاز وأن يحظوا حق
ابن الزبير وحق أبيه وأن يغثروه بالذي بلغ يزيد عنه ، ثم أن يسألوه بمد ذلك أن يلزم

(٦٦) : الطبري ج ٥ ص ١٠٧ ، ٢١٢ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

(٦٧) : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٢٧ ، ٢٢٩ .

(٦٨) : المصدر السابق ج ٥ ص ٢٣٤ ، ٢٥٢ .

(٦٩) : تهذيب تاريخ دمشق ج ٦ ص ١٨٤ .

(٧٠) : المصدر السابق ج ٦ ص ١٨٥ .

(٧١) : البلاذري ، انساب ج ٤ قسم ٢ ص ٢٠٠ ، ابن الاثم ، فتوح ج ٥ ص ٢٧٩ .

الطاعة ولا يفارق الجماعة، (٧٢) وبرهن يزيد بحمله هذا من رغبة صادقة في التفاهم مع
عبدالله بن الزبير، وأخذ الهيمة منه بالرفق، وأشهد على ذلك أفراد الوفود كلها،
ومن ثم وثقت الأجناد كلها إلى جانب يزيد في حربه ضد أهل المدينة وعبدالله بن الزبير (٧٣)
وبالرغم من أن سادات القبائل وأشرفهم بقيت لهم مكانتهم في العهد مرواني (٧٤) إلا أن
إخراج الأمويين وشيختهم من المدينة ومكة وتوجيههم إلى الشام ومصر من راحط وطابعهم
من ذلك من استئصال للمصبيات دفعت عبدالمطلب رغبة منه في إبقاء الوحدة الداخلية
لما لها من أهمية كبرى في تثبيت دعائم الحكم، لأن يوسف إمارة الأجناد إلى أبنائه وأخوته،
أو أفراد من الفرع مرواني، (٧٥) واتبع الوليد أسلوب والده فأسند جند دمشق والأردن
وحمص إلى أبنائه عبدالمعز، وعمر بن الوليد، وهما بن الوليد، أما جند فلسطين
فقد ولي عليه أخاه سليمان بن عبدالمطلب، (٧٦) واتبع الخلفاء هذا النهج ماعدا عمر
بن عبدالمعز الذي اتبع أسلوب معاوية في تعيين عمال وفق الأكثرية القبلية في المنطقة،
فبين عهد بن الحجاج المذنب على دمشق، وسادة بن نسي الكندي على الأردن،
والنضر بن يريم بن أبرهة الصباح على فلسطين، ويزيد بن عيص السكوني على حمص
والوليد بن هشام بن الوليد بن عقبة على قنسرين، أي أن الولاة كلهم من قبائل يمانية
أو قضاعية سوى والي قنسرين. (٧٧)

ونظرا لاعتماد الخلفاء على أمراء الهيمت الأمور في شؤون الإدارة والحكم وقيادته

- (٧٢) : ابن الأثير، فتوح، ج ٥، ص ٢٨٠.
- (٧٣) : الطبري، ج ٥، ص ٤٩٣، والبلدري، انساب، ج ٤، قسم ٢، ص ٣٣، الهمداني،
تاريخ، ج ٢، ص ٢٥١، تاريخ الخلفاء، لمؤرخ مجهول، ص ١٩٧، ابن الأثير،
ج ٤، ص ١١٢، تهذيب تاريخ دمشق، ج ٧، ص ٦٠.
- (٧٤) : النويري، نهاية الأرب، ج ٢١، ص ١٣١ (زفر بن العارث وأبناؤه هذيل وكوشر)
تهذيب، ج ٥، ص ٣٤٠ (روح بن زباج الجذامي) ابن عدي، ج ٣، ص ٣٨٢،
الطبري، ج ٥، ص ٤١٢ (قبيصة بن ذؤيب الخزاعي) .
- (٧٥) : خليفة بن خياط، ج ١، ص ٣٩٣، ٣٩٤.
- (٧٦) : المصدر السابق، ج ١، ص ٤١٧.
- (٧٧) : المصدر السابق، ج ٢، ص ٤٦٥.

الحمولات ، أصبح أفراد البيت الأموي يتمتعون بامتيازات متعددة ، فكانت لهم جوائز وأرزاق لعراسهم وقطائع ، (٧٨) وكثير مدد من سكن بدمشق من بني أمية ، وأصبحت منازلهم وقصورهم أكثر منازل دمشق ، (٧٩) كما انتشرت القصور الاموية في بلاد الشام انتشارا واسعا ، ولم تكن مقتصرة على منطقة معينة ، بل تجدها تمتد من جنوبي الاردن الحالي ، الى الجزيرة الفراتية شمالا ، ومن جوف الصحراء شرقا حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط . (٨٠) ولكن الآثار الباقية للقصور الاموية تعود كلها الى فترة الوليد بن عبد الملك وما بعدها ، أي في الفترة التي تحققت فيها المجد السياسي والتوسع الأقصى للدولة الاسلامية شرقا وغربا ، وما تبع ذلك من ازدهار اقتصادي وغنى مادي ، كما أن كثرة القصور التي وجدت أطلالها في البادية تشير الى شدة صلة الخلفاء والأمراء من بني أمية بالبادية ، ما دفع بعض المستشرقين والمؤرخين العرب الى القول بأن الخلفاء الامويين أولا ثم امراءهم ورجالهم ولتهم ثانيا تركوا المدن واتجهوا الى البادية لسببين ، هروبهم من أوبئة المدن ، ومناخاتها القاسية ، ثم عيبتهم للبادية حيث يتعلم الامراء اللغة العربية الفصحى (٨١) بالإضافة الى متعة الصيد الصحراوي ، ويشير كرينول في كتابه ، أن الامويين لم يهاجرتوا الى حياة المدن تماما كالعرب البداءة ، كما أن غرائزهم كانت بدوية ، كما يتكلم عن الحياة نصف البدوية للخلفاء الامويين

(٧٨) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٢٥ ؛ ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ،

ج ٢ ص ٢١ .

(٧٩) : اليعقوبي ، البلدان ص ٣٢٦ .

(٨٠) : فؤاد أحمد طوقان ، الحائر ، بحث في القصور الاموية ، عمان ١٩٧٩ ،

ص ٥٧ - ١٠٩ .

(٨١) : حتي ، تاريخ العرب مطول ، ج ٢ ص ٢٣٨ ، عبدالحق ، اعادة تشييد

جناح قصر الحير الغربي في متحف دمشق ، الحوليات الأثرية السورية ،

العدد الاول ١٩٥١ ص ٠٧ .

التأخرين . (٨٢)

أما غرترود بل (Gertrud Bell) فإنها حين تتكلم عن تبدى الامويين تقول : هذه المقرات الصعراوية ، انما هي حاصل طبيعي منطقي لفترة التمسول العضاري التي هز الامويون خلالها وهي فترة الانتقال الصعب من حياة البداوة الى حياة الاستقرار ، هذه المقرات تشهد على أن دعوة القفار الفسحة كانت طمعة ، تلك الدعوة التي صورها بأمانة شمراة القرن الأول الهجري ورواة الأدب ، وقد كانت الصحراة بالنسبة للبري أكثر من مكان للسكنى كانت عامي تقاليد القديمة ، تلك التقاليد الاكثر رسوخا من الاسلام نفسه . . . ثم تقول : أما الخلفاء الامويون فقد رجسوا الى سيرة آباءهم الأولين ، فهربوا الى البادية الى المراعي الربيعية في البراري المتصلة ، (٨٣) ان بعض الأسباب التي يذكرها هو لا المؤرخون وطلما الآثار صحيحة ، وبعضها بعيد عن الدقة العلمية ، فالتبدى والهروب من الطاعون والايهة هجرات تتردد في مصادرنا العربية ، ففي الطبري على لسان أحمد بن زهير أن هشاما كان ينزل الرصافة ، وكان سبب نزوله ايها أن الخلفاء وأبنائهم كانوا يتبدون ويهربون من الطاعون فينزلون البرية خارجا عن الناس . (٨٤) كما يذكر الطبري في احداث سنة ١٢٦ هـ أن الشام كانت وبية فخرجوا الى البوادي وكان يزيد بن الوليد متبديا ، كما أن عامل الوليد بن يزيد على دمشق ، خاف الوهاة فنزل قطنا . (٨٥)

(٨٢) : Creswell. Early Muslim Architecture, Oxford, The Clarendon Press. 2nd. ed. Vol. I PP. 402 - 403.

(٨٣) : Gertrud Bell. Palace and Mosque at Ukhaider, Oxford, The Clarendon Press, 1914, P. 55.

(٨٤) : الطبري ، ج ٦ ص ٣٢٢ .

(٨٥) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٠٦ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، بلاندي ، فتوح ، ص ١٨٤ ،

ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ١٠٥ .

أما افتراض علماء الآثار الإسلامية أن الأمويين كانوا بدوا قبل توليهم الخلافة ، ولذا كان -سببهم الى الصحراء التي انبتهم ، فان بني أمية في الجاهلية والاسلام كانوا أهل حاضرة ومدنية ، كانوا ارستقراطية مكة واكثر شخصياتها أغذا بأسباب الحضارة والمدنية ، ولعل الأمويين لم يخرجوا من مكة إلا الى الطائف ، (٨٦) التي كانت تمتاز بصيفها لأهل مكة ، أما الصحراء فكانت طريقهم الشاقة التي تسلكها قوافلهم ، فاذا أتينا الى قضية خروج الأمويين الى البلاد طلبا للحرية الفصحى ، فقد ارسى علماء اللغة قواعد دراسة بغصون صفاء اللغة العربية ، وقرروا بالاجماع أن الذين ينطقون اللغة العربية الفصحى هي ست قبائل ، ثلاث منها رئيسية وثلاث غيرها مرتبة من حيث الفصاحة والسلامة في اللغة ، وهي قبيل وتميم وأسد ثم غيرها هذيل ، وهض ، كنانة ، وبعض الطائمين ، (٨٧) أي أن علماء اللغة اعتدوا على كلام القبائل في قلب جزيرة العرب وردوا كلام القبائل التي على السواحل أو في جوار الاطاحم . (٨٨) فلم يأخذوا عن غسان أو تغلب أو ايام لأنهم جاؤوا الفرس والروم والسريان . (٨٩) ولم يأخذوا شيئا من أهل اليمن ، لأنهم ذو لسان ما هو بلساننا* (٩٠) ولو تفحصنا مجموع القبائل المحيطة في الهادية الشامية لرأينا أن معظمها من يمن وقضاة كفسان وكلب ، وهو لا نقضوا شوطا تاما وهو مباورتهم للاطاحم ، وأكثرهم نصارى يقرأون في صلاتهم بنسب السرية* . (٩١) واعتقد أن التعليل الذي قدمه الدارسون للآثار في سورية للأسباب التي دفعت الأمويين الى بناء هذه القصور في أماكن حساسة

-
- (٨٦) : باقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ١٢٠ .
(٨٧) : السيوطي ، الافتراج في علم أصول النحو ، تحقيق أحمد صهيبي فزات ، استانبول ، مطبعة كلية الآداب ، ١٣٩٥ هـ ١٩٧٥ م ص ٢٧ ، ٢٨ .
(٨٨) : سعيد الافغاني ، في أصول النحو . دمشق ، ١٣٧٠ هـ ١٩٥١ م ص ١٥ .
(٨٩) : السيوطي ، المصدر السابق ، ص ٢٨ .
(٩٠) : الجمعي ، طبقات الصحراء ، ص ٤ .
(٩١) : السيوطي ، المصدر السابق ، ص ٢٨ .

من البادية هي أسباب منطقية ، فقد تبين لهم أن هذه القصور كانت تلعب أدوارا عديدة ،
منها صيران البادية ، الاشراف على النظام والامن ، وتسهيل السفر بايجاد محطات ومنازل
فيها ، كما أن هذه القصور كانت منتجعا للمقاتل وزعمائها يلتقون فيها بالخلفاء والامراء
الامويين ، الذين كثيرا ما كانوا يستكون بأمر القباطل فيملون مشاكلهم ويخططون بهم ويتزوجون
منهم ليكسبوا قوة في البادية توأزهم وتحميهم . (٩٢)

ويستثنى سوافجيه (Sauvajet) بعد مسح أثرى للمواقع الاموية في
بوادى حماة وتدمر ومآب والملقاة وشمال سورية والجزيرة الفراتية أن جميع تلك المنشآت
الاموية لها طابع ثابت محدد هو : " قصر تلازمه مجموعة أبنية وتوجد فيه آثار استغلال
زراعي " . (٩٣) ويؤكد سوافجيه على نظريته مستندا الى نصوص تاريخية ، تذكر الاقطاعات
التي كان الخلفاء يقتطعونها لأمراء البيت الاموي ولاشرافالقبائل وكبار رجالاتها ، ويورد
الدكتور عبدالمزيز الدورى أمثلة كثيرة من هذا الاتجاه في منح الامراء والاشراف الضياع
والاقطاع التي أدت الى ظهور طبقة جديدة من الملاكين الكبار من العرب في الشام
وأن الاشراف تحولوا الى ارسقراطية ملاكة . (٩٤) كما أن الدكتور الدورى يشير الى اهتمام
القبائل في نهاية العصر الاموي بالزراعة وانتقالهم من ملاكين غائبين أو مقاتلين متركزين
في مراكز معينة الى طور الاهتمام بالزراعة ومزاوتها ، ولئن كانت المشاكل القبلية أيام
الرشيد سببا لتصرفنا بهذه القرى ، فان استقرار القبائل على الأرض لم يقتصر على منطقة
دمشق بل شمل مناطق أخرى مثل منطقة حمص وفلسطين . (٩٥)

(٩٢) : دليل المتحف الوطني بدمشق ص ١٨٣ - ١٨٤ .

(٩٣) :
Jean Sauvajet, " Châteaux Omayyades de Syrie,
Contribution a l'étude de la Colonisation Arabe aux
Ier. et II er. Siècles de l' Hégire, Revue des Etudes Islamiques
XXXV 1967, PP. 1 - 52.

(٩٤) : د . عبدالمزيز الدورى ، العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام ، المؤتمر
الدولي لتاريخ بلاد الشام ، ١٩٧٤ ، ص ٣٠ .

(٩٥) : المصدر السابق ، ص ٣١ .

تميزت الفترة المروانية كذلك بازدياد اعتماد الخلفاء الامويين اما على امراء من الفرع
المرواني أو على ولاية من أهل الشام لإدارة الولايات ذات الأهمية الكبرى ، فقد عين
عبد الملك أخاه بشر بن مروان واليا على الكوفة وخلف معه جماعة من أهل الرأي والمشورة
من أهل الشام ، منهم روح بن زنباع الجذامي . (٩٦) وهين خالد بن عبد الله بن خالد
بن أسيد الأموي القرشي على البصرة ثم عزله وضم البصرة لأخيه بشر ، ثم لم يلبث أن ولي
العجاج بن يوسف الثقفي الذي يمكن أن نعتبه في عداد أهل الشام بالرغم من أنه ولد
ونشأ في الحلاف ، الا أنه انتقل الى الشام فحقق بروج بن زنباع فكان في عديد شرطته . (٩٧)
ثم مازال يظهر حتى قلده عهد الطائفة أمر ببنده ولذلك فان له دورا دمشق منها دار الزاوية ، (٩٨)
وهو شاك على عبد الله بن الزبير ولاء مكة والمدينة والائف . (٩٩) ثم أصبح واليا على
العراق سنة ٧٥ هـ والمشرق كله . ورغم تعامل معظم المصادر على العجاج ، الا أنها تكاد
تجمع على أمانته وهدم تلاعبه بأموال الدولة أو محاباته لأقربائه وأصحابه والمقربين اليه ، وأنه
كان يؤثر مصلحة الدولة على أي اعتبار آخر ، (١٠٠) واستطاع العجاج بعد إخضاعه
لثورات الخوارج ثعلبثة ابن الأشعث في خلافة عبد الملك أن يقطف ثمار جهده الطويل وأصبح
العراق ترفرف عليه رايات السلام والهدوء وانصرف العجاج الى اصلاح والاعمار لا سيما
وأن الفتن والثورات قد خربت الكثير ، وأصبح الالتفات الى الناحية العمرانية أمرا ضروريا ، وكان
العجاج كالخليفة الوليد يحب العمران وتحسين الضياع وتنظيم الري وتعمير الأرض وكسرى
الترع والانهار وتجفيف المستنقعات ، وقد انتج في هذا الحقل انتاجا خصبا نجد ثباتا موسما
له في الطبري والبلانزي ، مما لا ضرورة لذكره هنا ، والكثير من الفتوحات المسماة كريمة
التي تمت زمن الخليفة الوليد ، كان العجاج صاحب الفضل في المبادرة للقيام

(٩٦) : المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ١١٠ .

(٩٧) : ابن عدي ، المحقق الفردي ، ج ٥ ص ١٤ ، ابن خلدون المقدمة ، ج ٢ ص ٨١٨ .

ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١١٢ .

(٩٨) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٤ ص ٥١ .

(٩٩) : الطبري ، ج ٦ ص ١٩٣ .

(١٠٠) : احسان صدقي العمدة ، العجاج بن يوسف الثقفي ، بيروت ، ١٩٧٣ ، ص ٣٧٠ .

بها ، فهو الذي بحث قتيبة بن مسلم الباهلي طامه على خراسان لفتح منطقة ماوراء
النهر ، فأتم قتيبة ما ندب من أبله ووصل الى حدود الصين ، وهو الذي سير محمد بن القاسم
الثقفي لفتح عوض نهر السند بالهند ، كما أنه هو الذي جهز الجيوش وسيرها للفتح ،
وهو الذي كان يجمع الأموال التي تنفق على هذه الجيوش من ولايته وهو الذي كان يبحث
القادة المسكرين على الخي في قداما في فزوعهم ويهدم بأرائه ونصائحه ، وأغلب الظن أنه
لولا كل هذا الذي قام به الحجاج لما استطاع عبد الملك وابنه الوليد من بعده أن يسجلا
للدولة الأموية في زمنهما كل هذه المفاخر في التوسع واستتباب الأمن ، وقد استمرت
ولاية الحجاج على العراق مدة عشرين سنة ومات في خلافة الوليد بن عبد الملك ، وكان
المنصور يتمنى لو أن الله هدأ له عكاما كالحجاج في إخلاصه وطاعته للوليد . (١٠١)
لم يكن الحجاج الوالي الشامي الوحيد الذي حكم العراق ، بل ان كل ولاية العراق
باستثناء يزيد بن المهلب في خلافة سليمان بن عبد الملك (٦٦ - ٦٩ هـ) كانوا من أهل
الشام فعدي بن ارطاة الفزاري ، الذي عينه عمر بن عبد العزيز واليا على البصرة كان من
أهل دمشق ، (١٠٢) وكذلك عمر بن هبيرة الفزاري (١٠٣) الشامي الذي ولي المراقين
ليزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ) بعد عزل أخيه مسلمة بن عبد الملك . (١٠٤)
فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥ - ١٢٥ هـ) عزل عمر بن هبيرة وعين خالد بن
عبد الله القسري واليا على العراق (١٠٥ - ١٢٠ هـ) وكان جده يزيد من صحابة رسول الله
قد نزل الشام . (١٠٥) ويذكر ابن عساکر أن خالد بن عبد الله القسري من أهل دمشق ،

(١٠١) : تهذيب تاريخ دمشق ج ٤ ص ٧١ .

(١٠٢) : الزركلي ، الاعلام ج ٥ ص ٨ ، الذهبي ، سير اعلام النبلاء ،

ج ٥ ص ٥٣ .

(١٠٣) : الذهبي ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٥٦٢ .

(١٠٤) : الطبري ، ج ٦ ص ٦٠٤ ، ٦٠٥ .

(١٠٥) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٧ قسم ٢ ص ١٢٣ .

وداره بدمشق واليه ينسب الحطام الذي يقابل باب قنطرة سنان بباب توما . (١٠٦) واستعمل
عشام كذلك . جنيد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الحارث من أهل دمشق طوى السند
وخراسان ، (١٠٧) وولى الحارث بن عمرو الخلافة الذي كان قد ولي امرة البلقاء في خلافة
عمر بن عبد العزيز على ارمينية سنة ١٠٧ هـ وأضاف اليه اذربيجان سنة ١٠٨ هـ (١٠٨) وولي
سنة ١٢٠ هـ عزل عشام بن عبد الملك خالد بن عبد الله القسري ، وولى يوسف بن عمر الثقفي
الذي كانت منازل أهله في البلقاء ، (١٠٩) طوى العراق واستمر واليا على العراق وخراسان
حتى زمن يزيد بن الوليد بن عبد الملك الذي ولى منصور بن جمهور الكبي من سكان المزة
من ضواحي دمشق ، (١١٠) طوى أن ولا يتعلم تطل إذ أن يزيدا عزله وأرسل موضا عنده
عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وكان محبوبا من العراقيين وله بين الناس مكانة مستمدة من
مكانة أبيه ، (١١١) وكان آخر ولاية العراق يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري ، (١١٢) مسن
قنسرين ، (١١٣) من رجال مروان الهارزين .

أما في مصر ، فكان أول وال شامي طمها سعيد بن يزيد الازدي من أهل فلسطين
عنه يزيد بن معاوية سنة ٦٢ هـ بعد وفاة مسلحة بن مخلد ، فلما قدم سعيد واليا على مصر
تلقاه عمرو بن قحذم النولاني ، فقال : " يخفر الله لأمر المؤمنين أما كان فينا مائة شاب
ككهم مثلك يولي علينا أحدهم " (١١٤) وقد بقي سعيد بن يزيد واليا على مصر حتى وفاة
يزيد بن معاوية سنة ٦٤ هـ ، فلما دعا ابن الزبير لنفسه بميث عبد الرحمن بن جحدم
الفهري فقد مها في طائفة من الخوارج فاعتزلهم سعيد بن يزيد ، وعندما بويع مروان بن الحكم

-
- (١٠٦) : تهذيب ج ٥ ص ٧١ ، مصعب الزبيرى ونسب قريش ص ٩ ، ابن الاثير ج ٥ ص ٢٧٩ .
(١٠٧) : تهذيب تاريخ دمشق ج ٣ ص ٤١٥ .
(١٠٨) : المصدر السابق ج ٣ ص ٤٥٦ .
(١٠٩) : الزركلي ، الاعلام ج ٩ ص ٣٢٠ .
(١١٠) : ابن حزم ، الجمهرة ، ص ٤٢٨ ، الزركلي ، الاعلام ج ٩ ص ٣٢٠ .
(١١١) : الطبري ج ٧ ص ٢٨٤ .
(١١٢) : المصدر السابق ج ٧ ص ٣٧٦ .
(١١٣) : المصدر السابق ج ٧ ص ٢٣٧ .
(١١٤) : الكندي ، الولاة والقضاة ، ص ١٩٠٨ ، بيروت ، ١٩٠٨ ص ٤٠ .
٠٠/٠٠

بالمشام في ذي القعدة سنة ٦٤ هـ سار مروان الى مصر وصحه خالد بن يزيد بن معاوية
وعدرو بن سعيد وحسان بن مالك بن بحدل ومالك بن هبيرة السكوني وعدد كبير من اشراف
الشام . (١١٥) فدخلمها في جمادى الأولى سنة ٦٥ هـ وجعل ولايتها لابنه عبد العزيز
الذي بقي واليا عليها (٢٠) سنة حتى وفاته سنة ٨٥ هـ ، (١١٦) واذا تركنا جانبها
من ولي مصر من أمراء بني أمية ، (١١٧) لوجدنا أن ولايتها الشاميين كثيرون ، منهم قره
بن شريك القيسي القنسريني ، (١١٨) والذي كان كاتباً للوليد بن عبد الملك ، (١١٩) ويحتمر
قره من أقدر ولاية مصر ، دخلها في شهر ربيع الأول سنة ٩٠ هـ ، (١٢٠) وبقي واليا حتى
وفاته سنة ٩٦ هـ ، وكان من أهم أعماله تدوين الديوان ، وهو التدوين الثالث في مصر
وعين يزيد بن عبد الملك بشرين سفوان الكلبى الدمشقي واليا على مصر سنة ١٠١ هـ ، (١٢١)
ويعود لبشر هذا الفضل في التدوين الرابع في مصر ، وهو الذي رأى افتراق قضاة في القبائل
فكتب الى يزيد بن عبد الملك يسأله الاذن في استغراج من كان في القبائل منهم فجعلهم
دعوة منفردة فأذن له يزيد في ذلك ، فأخبر مهرة من كنده ، وأخرج تفوغا من الازد وجبهينة
مع أهل الرابية فجعلهم مع سائر قضاة دعوة منفردة . (١٢٢) وفي سنة ١٠٢ ورد كتاب يزيد

(١١٥) : الكندي ، ص ٤٢٠ .

(١١٦) : المصدر السابق ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(١١٧) : بالاضافة الى عبد العزيز بن مروان وليها عبد الله بن عبد الملك (الكندي ص ٥٨)

ومحمد بن عبد الملك (المصدر السابق ص ٧٢) والحر بن يوسف بن يحيى بن الحكم

وليها المشام بن عبد الملك ثلاث سنين (المصدر السابق ص ٧٤) .

(١١٨) : الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٤٠ ، الكلبى ، جمهرة النسب

ص ١٨٢ / ٢ .

(١١٩) : النويرى ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ص ٣٣٥ .

(١٢٠) : الكندي ، ص ٦٤ .

(١٢١) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٣ ص ٢٤٥ ، ويبين أن ابن يونس في كتابه تاريخ

الخراسان يذكر أنه دمشقي .

(١٢٢) : الكندي ، ص ٧٠ .

بن عبد الملك على بشر بتأميره على افريقيا فاستغلف أخاه عنظلة وهو من أهل دمشق
كذلك ، (١٢٢) فأقره يزيد ، فلما مات وغلفه هشام بن عبد الملك صرفه سنة / ١٠٥ هـ ، (١٢٤)
ثم أعاده سنة ١١٠ هـ (١٢٥) فأقام الى سنة ١٢٤ هـ عندما ورد كتاب هشام بتوليته افريقيا .
وكان أول من دخل افريقيا من أهل الشام في زمن بني أمية حسّان بن النعمان
الفسّاني ، (١٢٦) وكان له الدور الأكبر في توطيد الفتح في افريقيا ، فقد استقامت له
بمعد القضاء على الكاهنة ، (١٢٧) وعمد الى تدوين الدواوين وتنظيم الخراج وفرضه على
عجم افريقيا وعلى من أقام معهم على دين النصرانية ، (١٢٨) واتجه الى انشاء قاعدة بحرية
جديدة تمل محل قرطاجنة ويتوافر لها الحماية والابتعاد عن غارات الهزناديين ، وبذلك
القاعدة البحرية هي تونس التي تتميز بأنها غير مفتوحة على البحر مثل قرطاجنة ، (١٢٩) ولم
يكتف حسّان ببنا مدينة تونس وإنما طلب من عبد الملك بن مروان أن يرسل اليه من مصر
دار الصناعة بتونس ويحطم المسلمين صناعة السفن في المغرب ، فكتب الخليفة عبد الملك الى
أخيه عبد العزيز والى مصر أن يوجه لتونس ألف قبيلي بأهله وولده ، وأن يعطهم من مصر
ويحسن عونهم حتى يصلوا الى توشيش أي تونس . (١٣٠) وأكمل موسى بن نصير ، (١٣١)
فتح المغرب كله وفتح الاندلس وسأهم موسى في نشر الاسلام في المغرب الأقصى ، فترك فسي

(١٢٣) : تهذيب ج ٥ ص ١٤٠ .

(١٢٤) : الكندي ص ٧٢٠ .

(١٢٥) : المصدر السابق ص ٨٠ .

(١٢٦) : المالكي ، رياض النفوس في طبقات طلمة القيروان و افريقيا ، تحقيق حسين مؤنس

مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ م ص ٣١٠ .

(١٢٧) : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٧٣ . المالكي ، رياض النفوس ص ٣١ ، ٣٢ ،

ابن عذارى ج ١ ص ٢٣٠ .

(١٢٨) : ابن عبد الحكم ص ٢٠١ ، ابن عذارى ج ١ ص ٢٩٠ .

(١٢٩) : سبب زلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، دار المنار بمصر ، ص ٢٠٢ .

(١٣٠) : ابن أبي دينار ، الحوّنس في أخبار افريقيا وتونس ، ١٣٨٦ هـ ص ٣٢ ، ٣٣ .

(١٣١) : موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي ، المختلف على أصله بين عربي

صريح أو مولى . كان أبو نصير على مرس معاوية (ابن خلكان ، وفيات الأعيان

ج ٢ ص ١٢٤) ونشأ موسى في دمشق وكان على خراج البصرة ثم التحق بمعد ذلك

بمعد المزيز بن مروان (ابن عذارى ج ١ ص ٣٢) ، (الاعلام ج ٨ ص ٢٨٥) .

في طنجة سبعة عشر رجلا من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الاسلام، (١٣٢) وعند موسى كذلك الى توسيع دار الصناعة وشق القناة التي توصل بين ميناء رادس وبين تونس على طول اثني عشر ميلا، وبفضل تلك القناة أصبحت المدينة مشقة للمراكب تحميلها من الحواصل والانبوا، (١٣٣) كما أنه أمر بصناعة ماثسة مركب، (١٣٤) واهتمام ولاية بني أمية بدار الصناعة بتونس هو الذي مهّد وساعد على غزو صقلية في أيام زبادة الله الأول بن ابراهيم الاغليبي. (١٣٥)

وقد رأينا أن بشر بن صفوان ولي افريقيا سنة ١٠٣ هـ، وعندما وفد سنة ١٠٥ هـ على يزيد بن عبد الطك وجده قد ملك، فردّه هشام سنة ١٠٥ هـ الى افريقيا حيث بقي والمينا حتى وفاته سنة ١٠٩ هـ فكانت ولايته سبع سنين، وكان من أهم أعماله غزوه لصقلية، (١٣٦) ثم عين هشام بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن السلمى وهو ابن أخي ابي الأعور السلمى صاحب خيل معاوية بصفين، فقدم افريقيا سنة ١١٠ هـ وعزل سنة ١١٤ هـ حيث توجه الى الشام بهدايا وتحف عظيمة، (١٣٧) وعندما انتفض الهرير سنة ١٢٢ هـ في ولاية عبيد الله بن الخبيعب أرسل هشام كلثوم بن هياض القشيري أمير مدينة دمشق واليا على افريقيا والمغرب، فلما قتل في المعركة التي قادها ضد الهرير بحث هشام الى افريقيا سنة ١٢٤ هـ عنظلة بن صفوان الكلبي عامله على مصر منذ سنة ١١٩ هـ حيث استطاع القضاء على الخوانج فسي معركتين هما معركة القرن والأصنام، وبقي واليا حتى دعا عبد الرحمن بن حبيب الفهرى الى نفسه، وأراد استدلة الهرير اليه والزحف لقتاله، ثم كره قتال المسلمين، إذ أنه كان كما يقول ابن عذارى، ذا ورع ودين فترك افريقيا سنة ١٢٩ هـ. (١٣٨)

(١٣٢) : ابن عذارى، ج ١ ص ٣٦، ابن الاثير، ج ٤ ص ٣٢٠

(١٣٣) : ابن قتيبة، الامامة والسياسة، ج ٢ ص ٥٠٧

(١٣٤) : المصدر السابق، ج ٢ ص ٥٧

(١٣٥) : المقرئ، الخياط، ج ٣ ص ٥٥

(١٣٦) : ابن عذارى، ج ١ ص ٤٨

(١٣٧) : المصدر السابق، ج ١ ص ٥٠

(١٣٨) : المصدر السابق، ج ١ ص ٦٢

وهكذا نرى كثرة الولاة من العرب الشاميين في العراق ومصر وأفريقيا ودورهم الكبير في التنظيم والإدارة ، والفتوح وعمارة الأرض ونشر الإسلام في ربوع الدولة الإسلامية وفي دهرهم سكم بني أمية فيها .

الموالي :

الموالي في نظر مؤرخي التاريخ الإسلامي هم المسلمون من غير العرب ، فكان كل فرد من غير العرب من أبناء الدولة الإسلامية يصبح مولى إذا اعتنق الإسلام ويقف على قدم المساواة مع أخيه العربي المسلم لا فرق بينهما ولا فضل لأحد على الآخر إلا بالتقوى ، وقد تجلّت معالم المساواة بين العرب والموالي منذ فجر تاريخ الدولة الإسلامية عندما فرض عمر بن الخطاب لسلطان الفارسي في أربعة آلاف درهم وفرض للمهرمزان فسي الفين من المطاء . (١٣٩) كما فرض عمر لكبار دهاقين فارس والعراق الذين أسلموا ، تقديراً لخدماتهم للدولة الفتية ، (١٤٠) وكتب عمر بن الخطاب إلى أمراء الأجناد " ومن اعتنقتم من العمراء فأسلموا فألحقوهم بمواليهم لهم مالهم وعلهم ما عليهم ، وإن أحبوا أن يكونوا قبيلة وخدمهم فاجعلوهم أسوة في المطاء . (١٤١) وعندما بلغ عمر بن الخطاب أن قوماً قد موأ على عامل فأعطى الحرب وترك الموالى ، كتب إليه " أما بعد فبحسب المرء من الشر أن يحقر أخاه المسلم والسلام " (١٤٢) أي أن عامل المطاء كان له دوره في تحديد المساواة بين العرب والموالي وتحديد مكانتهم الاجتماعية ، فالى أى مدى طبقت هذه المساواة في الشام في العصر الأموي .

الزوايا المتملقة بالموالي في الشام معدودة إذا قيست بتلك المتملقة بالعراق والجناب الشرقي ، ذلك أن القبائل العربية المنتصرة كانت تشكل نسبة لا

-
- (١٣٩) : البلاذري ، فتوح ص ٤٤٣ .
 - (١٤٠) : المصدر السابق ص ٤٤٢ .
 - (١٤١) : المصدر السابق ص ٤٤٤ .
 - (١٤٢) : المصدر السابق ص ٤٤٣ .

يستهان بها كما رأينا ، وعندما دخل أفراد هذه القبائل بالاسلام أصبحت مرتبتهم كالمغرب المسلمين سواء بسواء ، ومن أسلم من أهل الذمة من غير الحرب على أرض الخراج رفضت الجزية عن رأسه وانتقلت أرضه الى أصحابه من أهل قريته يوم دون خراجها عنها وأسلموا له ماله ورقيقه وفرضوا له في ديوان المسلمين . (١٤٣) وهو لا كانت نسبتهم قليلة لأن دخولهم في الاسلام كان بطيئا كما سنشير الى ذلك أثناء الكلام من أهل الذمة ، أما الروايات القليلة التي تشير الى الروم الذين دخلوا في الاسلام فليس فيها ما يوحي بأنه كان يستهان بهم وليس فيها اشارات الى أنهم نظموا حياتهم الاجتماعية في بادئ الأمر بالانضمام الى أقوى القبائل العربية كما فعل الاساورة مثلا الذين انضموا الى بني تميم لأنهم أقرب الأحياء نسبا الى رسول الله ، (١٤٤) وانما كونوا قبيلة وحدهم ، وانما اعتمادنا رواية الواقدي ، نجد أن حاكم قلعة حلب دخل في الاسلام ودخل معه من كان يخدمه بحلب وأن ثلاثة آلاف فارس من فرسان الروم قد دخلوا في الاسلام واشتركوا في فتح الساحل ، (١٤٥) ودخل مع عمرو بن العاص من الشام قوم من الصميم يقال لهم الحمراء وهم قوم من الروم فيهم بنوينة ، وبنو الأزرق ، وبنو روهيل ، فنزل هؤلاء كما يقول ابن عبد الحكم الحمراء التي بالقنطرة (١٤٦) ويبدو أن الجماعات الفارسية التي أسكنها معاوية الساحل الفتح قبائل وحدها كذلك ، ان ليست لدينا اشارات الى انضمامهم الى قبائل عربية ، وهذا دليل على عدم لجوء كل المسلمين من غير المغرب الى الولاة في الشام منذ البدء ، وبمكس ما حدث في العراق ، فهل يعني ذلك أن هؤلاء المسلمين كانوا يشعرون من جهة أن سيطرة الدولة واعتبارها الضمان للمشاركة

-
- (١٤٣) : ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، المجلد الاول ص ٥٩٣ .
(١٤٤) : البلاذري ، فتوح ص ٣٦٦ ، الطبري ج ٤ ص ٩٠ ، ويذكر البلاذري في صدر الحديث من تمصير الكوفة أنه كان مع رستم يوم القادسية أربعة آلاف يسمون جند شاهنشاه ، فاستأمنوا على أن ينزلوا حيث أحبوا ويحالفوا من أحبوا ويفرض لهم في المطايا ، فأعطوا الذي سألوه ، وحالفوا زهرة بن حوية السعدي من بني تميم ، وأنزلهم سعد حيث اختاروا وفرض لهم في الف الف .
(١٤٥) : الواقدي ، فتوح الشام ج ٢ ص ١٧٠ .
(١٤٦) : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ص ١٢٦ .

كان أقوى في الشام منه في العراق ، وأن الحصبية القبلية كانت متخلخلة في الشام ، وأن
قبر، الديبادى* الاسلامية التي تؤكد على المساواة كانت واضحة جلية فيها (١٤٧) ؟ هذا
فيما يتعلق بالجماعات ، أما الأفراد فكان منهم من يلبى إلى الولا* ومنهم من لا يلبى
حين فتح دمشق وأصبحت أسيرة أبي إسحق العنبري بن عبد بن الوليد
فلا دركون كان قسيساً أسلم على يد خالد بن الوليد/والى أحد أحفاده سنان تنسب قنطرة
سنان بنواحي باب توما (١٤٨) بينما نجد أن أبا عبد رب الزاهد كان رومياً اسمه قسطنطين ،
فلما أسلم تسمى عهد الرعمن ، (١٤٩) ويبدو أن موالى المتأققة هم الذين كانوا يحطسون
اسم عشيرة سيد هم مرفقة بكلمة مولى إشارة إلى أن رابطتهم هي رابطة اجتماعية لا رابطة دم ،
وأغلب الظن أن نسبة كبيرة من الموالى في الشام كانوا موالى عتاقة ، أما من الرقيق الذى كان
موجوداً قبل الفتح أو من الرقيق الذى كان يولف الخمس من الاسرى أو السبي والذى كان
يرسل إلى المدينة أو إلى دمشق بمد أن أصبحت عاصمة للدولة الاسلامية ، ولذلك
فان هؤلاء كانوا من أصول مختلفة ، فارسية ، رومية ، بربرية ، تركية ، وكان لموالى المتأققة
مكانتهم عند خلفاء وامراء بني أمية ، فهذا أبو حفصة يزيد من سبي اصطلخرا اشتراه عثمان
فوهبه لمروان بن الحكم ، فشهد أبو حفصة الدار مع مروان ، (١٥١) فلما جن يومئذ استطاعه
أبو حفصه وداواه حتى برى* ، فأعتقه مروان وزوجه أم ولید يقال لها سكر ،

- (١٤٧) : عندما يتكلم الدكتور عبد العزيز الدورى عن الموالى في العراق يشير إلى أن ظاهرة
عدم اللجوء إلى الولا* هي ظاهرة بدأت في العصر الأموى في العراق وليس كما
هو الأمر في الشام . مقدمة في التاريخ الاقتصادي ، بيروت ، ١٩٦٩ ، ص ٤٢ ، ٤٣ .
- (١٤٨) : باقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٤٠٦ .
- (١٤٩) : أبوزرعة ، تاريخ ابن زرعة ، ج ١ ص ٢٤٧ ، ٣٦٨ .
- (١٥٠) : كتب عمر إلى بعض عماله : الموالى ثلاثة ، مولى رجم ، ومولى عتاقه ، ومولى عقد ،
فمولى الرجم يرث ويورث ، ومولى العتاقه ، يرث ولا يرث ، ومولى العقد لا يرث
ولا يرث وميراثه لمصيبته ، (ابن عدي ، المعقد الفرید ، ج ٤ ص ٤٣٦) .
- (١٥١) : الطبرى ، ج ٤ ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ .

كانت له منها بنت يقال لها حفصة ، فحفصتها فكني أبو حفصة ، فحفصة بنت مروان ، وكان مروان إذا ولي المدينة وبه أبا حفصة إلى اليمامة ، وكانت مضافة إلى المدينة ليجمع ما فيها من المال ويحطه إليه ، (١٥٢) وكان لأبي حفصة مولى مروان بن الحكم ابن يقال له مروان وكان شجاعا مجربا أمده به عبد الملك بن مروان الحجاج وقال له : قد بحثنا إليك مولاى ابن أبي حفصة ، وهو يعدل ألف رجل فشهد معه محاربة ابن الأشعث ، فأبلى بلاء . بسنا ومقرت تحت عدة لغيره ، فلا يتسببها السباج طيه من ماله ، فشكاه إلى عبد الملك ، فمروءه ما كان أغرمه الحجاج ، (١٥٣) وعندما خطب يحيى بن أبي حفصة إلى مقاتل بن طلحة بن قيس بن عاصم المنقري ، ابنته وأختيه ، أنعم له بذلك ، وبحث إلى بنيه سليمان وعمر وجميل فزوجهم بنيه ، (١٥٤) وكان ميمون الجرجاني عبدا روميا لبني أم الحكم أختت معاوية بن أبي سفيان وهم ثقفيون ، وإنما نسب إلى الجراجمة لا اختلاطه بهم وغروجه . فجعل لبنان معهم ، فبلغ عبد الملك هذه بأس وشجاعة ، فسأل مواليه أن يمتقوه ، ففعلوا فعهد إليه بقيادة جماعة من الجند وصهره بأنطاكية ، ففزا مع مسلمة بن عبد الملك وهو على ألف من أهل انطاكية ، (١٥٥) واعتمد سعيد بن المهاجر في القضاء على ثورة الجراجمة في جبل اللكام في خلافة عبد الملك بن مروان بعيش من موالى عبد الملك وموالى بني أمية بالاضافة إلى جند من ثقات جنده (١٥٦) وأرسل عبد الملك أربعين رجلا من أهل فرغانة مع رجل من بصرى للقبض على العارث الكذاب الذى ادعى النبوة وطلب منهم أن ينطلقوا معه ويظهروه : (١٥٧) وفي رواية عن ابن لهيعة أن معاوية فرض للسوالي خمسة عشر

(١٥٢) : الأغاني ، ج ١٠ ص ٧٥ .

(١٥٣) : المصدر السابق ، ج ١٠ ص ٧٥ .

(١٥٤) : المصدر السابق ، ج ١٠ ص ٧٥ .

(١٥٥) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٥٥ .

(١٥٦) : ابن الأثير ، ج ٤ ص ٣٠٤ .

(١٥٧) : باقوت الحموى ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٣٢٤ .

فولج... عهد الملك عشرين ثم بلخهم سليمان خمسة وعشرين ، ثم قام هشام فأتى للأبنا منهم ثلاثين . (١٥٨) وأغلب الظن أن هذا الحملج هو بالدينار وأنه فريضة موالي المعتقة ، فمن أبي بكر بن أبي مرهم أن عمر بن عبد العزيز جعل الحسب والموالي في الرزق والكسوة والمسونة والمصلا سوا غير انه جعل فريضة المولى المحقق خمسة وعشرين دينارا ، (١٥٩) وفي تاريخ أبي زرقعة أن عمر بن عبد العزيز أجرى على عمرو بن المهاجر كل شهر عشرين دينارا ، وعمرو بن المهاجر مولى أسما ابنة يزيد بن السكن الانصاري ، (١٦٠) مولى الانصار ، وهذا يشير الى أن موالي المعتقة كانوا يأخذون المصلا اذا سجلوا في ديوان المقاطعة ، وكان هو لا يسجلون ضمن القبائل التي ينتسبون اليها ، فمن رجاء بن حيوة أنه قال : أفا ممن أنعم الله عليه بالاسلام وهداه في كندة ، (١٦١) وكان مكبول فيمن افترض في المصلا فكان يأخذه ويتقوى به على جهاد الحدود . (١٦٢) وكان بكر بن مازان من موالي بني مسلمة يسكن الاردن من الشام وكان من أهل الديوان قبل أن يفزرو مع يزيد بن المهلب خراسان ويدخل معه جرجان حين فتحت . (١٦٣) وألحق الاوزاعي في الديوان وضرب عليه بعت الى اليمامة وهناك التقى به يحيى بن أبي كثير فقرر متاهمة عليه فترك الديوان . (١٦٤)

كان للفقهاء من الموالى مكانة كبيرة لدى الغلفاء ، والامراء وأهل

-
- (١٥٨) : ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج ٤ ص ٤٠٠ .
(١٥٩) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٢٧٧ .
(١٦٠) : أبو زرقعة ، تاريخ ، ج ١ ص ٢٧٧ .
(١٦١) : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٣٢ .
(١٦٢) : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٢٨ ، ابن سعد ، الطبقات ، ج ٢ قسم ٢ ص ١٦١ ، ومكبول الدمشقي من أهل كابل وكان لعمر بن سعيد بن العاص فوهبه لرجل من هذيل بمصر فأعتقه .
(١٦٣) : أخبار الدولة العباسية ، أخبار الحساس وولده ، تحقيق د . عبد العزيز الدوري ، د . عبد الجبار الحطاب ، بيروت ص ١٩١ .
(١٦٤) : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٧ ص ١٠٩ ، يعتبر محمد بن سعد ، الاوزاع بنان من سعدان وان الاوزاعي هو من أنفسهم ، أما البناري ، واليهتم بن خارجة بنون أنه لم يكن من الاوزاع بل نزل فيهم ويذكر أبو زرقعة الدمشقي أن أصله من سبي السند ، وأنه ولد سنة ٨٨ هـ ، الذهبي ، ج ٧ ص ١١٦ .

الشام ، فهذا رجاء بن حيوة مولى بني كنده ، (١٦٥) كان زاهد بني أميه وهو الحاكم في دولتهم برأيه (١٦٦) ومن سلعة بن عبد الملك ان في كنده لثلاثة ان الله عزوجل ينزل بهم الفيت وينصر بهم الاعداء ، رجاء بن حيوة ، وعهاد بن نسي ، وعدي بن عدي ، وكان رجاء بن حيوة يمشي سيد أهل فلسطين ، كما اعتبر شهادة بن نسي سيد أهل الاردن ، وعدي بن عدي سيد أهل الجزيرة . (١٦٧)

وكان ميمون بن مهران عالم الجزيرة وفتيها اعتقت امرأة من بني نصر من معاوية بالكوفة فنشأ بها ثم سكن الرقة ، (١٦٨) وكان يمشي مع مكحول والحسن البصري والزهرى طمما النار في زمن هشام بن عبد الملك ، وكل هؤلاء الفقهاء من الموالي الا الزهرى ، وعندما اتهم الزهرى بأنه لا يحدث عن الموالي قال : اني لأحدث عنهم ، ولكن اذا وجدت أبنساء أصحاب رسول الله (صلعم) من المهاجرين والانصار فطأصنح بغيرهم ، (١٦٩) أي أن الزهرى يؤمن بأن المكانة الأولى في نقل الحديث انما هي لأبناء المهاجرين والأنصار ومن ثم للفقهاء من الموالي .

ازداد الامتداد في الشؤون الادارية ولا سيما في الدواوين على الموالي في الفترة الرومانية ، فكان أبو الزعيرة مولى عبد الملك على الرسائل وسليمان بن سعد مولى خشين على الخراج والجنيد يمدان ترجم ديوان الشام الى العربية ، (١٧٠) وبقي سليمان بن سعد على الخراج والجنيد في خلافة الوليد وسليمان ابني عبد الملك ، (١٧١) وكان جناح مولى الوليد بن عبد الملك على الرسائل ، وعمر بن الحارث مولى طامر بن لوئى على الخاتم ، ثم جمع الوليد لجناح موله الرسائل والخاتم ، (١٧٢) وكان ليث بن أبي ربيعة مولى ام الحكم بنت أبي سفيان كاتب الرسائل للخليفة سليمان بن عبد الملك ،

(١٦٥) : أبوزره ، تاريخ ، ج ١ ص ٣٣٧ .

(١٦٦) : الميون والحدائق ج ٤ ص ٣٨ ، ٢٠٠ .

(١٦٧) : أبوزره ، المصدر السابق ج ١ ص ٣٣٧ ، الذهبي - سير اعلام النبلاء ج ٥ ص ٣٢٤ .

(١٦٨) : الذهبي - المصدر السابق ج ٥ ص ٧١ .

(١٦٩) : المصدر السابق ج ٥ ص ٣٤٤ .

(١٧٠) : خليفة بن خياط - تاريخ - ج ١ ص ٣٩٥ .

(١٧١) : المصدر السابق ج ١ ص ٤١٨ ، ٤٣١ ، ٤٣٢ .

(١٧٢) : المصدر السابق ج ١ ص ٤١٨ ، ٤١٩ .

ونعيم بن أبي سلامة مولى لأهل اليمن على الخاتم و عبد الله بن عمرو بن الحارث مولى بني عامر بن لوئى على بيوت الأموال والرقيق والغنقات . (١٧٣) وبقي الليث بن أبي رقية كاتباً للرسائل في خلافة عمر بن عبد العزيز ، (١٧٤) ثم أصبح سالم مولى سعيد بن عبد الملك كاتب الرسائل في خلافة هشام بن عبد الملك ، وصعيد الله بن الحبيب مولى بني سلول على الخراج والجنود ، ثم ولاه خراج مصر وجعل مكانه سعيد بن عقبة مولى بني الحارث بن كعب ، وعلى الخاتم الربيع بن شابر مولى بني العريش ، وعلى الخاتم الصخير والخاصة اصطخر أبو الزبير موله ، (١٧٥) وكان من أشهر من نبغ من الكتاب الحواري عبد الحميد بن يحيى بن سعد الماسري بالولاية المعروف بالكاتب وتلميذ سالم مولى هشام بن عبد الملك . (١٧٦)

كذلك ازداد اعتماد الخلفاء على الحواري الشاميين في إدارة ولاية أفريقيا ، فقد عين سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد مولى قريش من الشام والياً على أفريقيا ، فكانت ولايته سنتين وأشهر وسار كما يقول ابن عذارى " أحسن سيرة وأعدلها في أفريقيا " . (١٧٧) وفي سنة ١٠٠ هـ . ولّى عمر بن عبد العزيز اسماعيل بن أبي المهاجر ، أبو عبد الحميد الدمشقي مولى بني مخزوم ، (١٧٨) ولاية أفريقيا " وبها من بها من قريش وغيرهم " (١٧٩) وكان قبل ذلك مؤدبها لاولاد عبد الملك من عاتكة ، يزيد ومعاوية ومروان ، (١٨٠) وكان من أهم أعماله حرصه على نشر الاسلام بين البربر ، حتى أسلم بقية البربر بأفريقية على يديه ، كما أنه طم أهل أفريقيا العلال والبرام وبعث معه عمر بن عبد العزيز عشرة من التابعين
أهل طم وشكل . (١٨١)

- (١٧٣) : خليفة بن شياط ج ١ ص ٤٣١ ، ٤٣٢ .
(١٧٤) : المصدر السابق ج ٢ ص ٤٦٨ .
(١٧٥) : المصدر السابق ج ٢ ص ٥٤٥ .
(١٧٦) : الذهبي - سير اعلام النبلاء ج ٥ ص ٤٦٢ .
(١٧٧) : ابن عذارى ج ١ ص ٤٤ ، ٤٥ .
(١٧٨) : الذهبي ، المصدر السابق ج ٥ ص ٣١٣ ، ابوزرعة ج ١ ص ٣٢٨ .
ابن عذارى ج ١ ص ٤٥ .
(١٧٩) : ابوزرعة ج ١ ص ٣٤٨ .
(١٨٠) : المصدر السابق ج ١ ص ٣٤٨ .
(١٨١) : ابن عذارى ج ١ ص ٤٦ .

وفي خلافة هشام بن عبد الملك أصبح عبيد الله بن الحبحاب مولى بني سلول (١٨٢) عادلا على الخراج في مصر وظل ساطعا على الخراج الى أن عين واليا على افريقيا سنة ١١٦هـ (١٨٣) وقد امتد نفوذه الى عزل الولاة في مصر وتوليبتهم برضى الخليفة (١٨٤) ويهود لعبيد الله بن الحبحاب الفضل في نقل قيس الى مصر سنة تسع ومائة (١٨٥) ولم يكن بها أحد منهم قبل ذلك ، الا ما كان من فهم وعدوان ، فوفد ابن الحبحاب على هشام بن عبد الملك فسأله أن ينقل الي مصر منهم أحياتا فأذن له هشام في لحاق ثلاثة آلاف منهم وتحويل ديوانهم الي مصر على الا ينزلهم الفسادات (١٨٦) وقد ساعد ويهود السرب في القرى واشتد اليهم بالزراعة على الاغتلاط بالأهالي ، وكان لهذا الاغتلاط أثره في انتشار الاسلام بحصر نتيجة للتزواج أو للموالة بينهم وبين الأهالي ، ولذلك يقول المقريزي " ولم ينتشر الاسلام في قرى مصر الا بعد المائة من تاريخ الهجرة ، عندما انزل عبيد الله بن الحبحاب قيسا بالحواف الشرقي ، فلما كان بالمائة الثانية من سني الهجرة كثر انتشار المسلمون بقوى مصر ونواحيها . (١٨٧) ويرى لين بول (Lane Poole) ان الذي دعا عبيد الله بن الحبحاب الي احضار قيس الي مصر هو مارآه من عدم انتشار الاسلام بين الاقطاط . (١٨٨)

وعندما قدم عبيد الله بن الحبحاب افريقيا واليا ، أرسل حبيب بن أبي عبيدة على رأس جيش الي السوس وأرض السودان ، كما يبدو أنه قام بحطيات تنظيمية فسي المضرب الأقصى بتقسيمه الي قسمين ، السوس الأدنى وهو وطنجه وماوالاها والسوس الأقصى في الجنوب . (١٨٩)

-
- (١٨٢) : خليفة بن خياط ج ٢ ص ٥٤٥ .
(١٨٣) : ابن عذارى ج ١ ص ٥٠ .
(١٨٤) : الكندي ص ٧٤ ، ٧٥ .
(١٨٥) : المقريزي ، الخطاط ج ١ ص ١٤٦ .
(١٨٦) : الكندي ص ٧٦ ، ٧٧ ، المقريزي ، الخطاط ج ١ ص ١٤٦ ، ١٤٧ .
(١٨٧) : المقريزي ، البيان والاعراب ص ٥٠ - ٥١ .

(١٨٨) : Lane Poole, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925, P. 28.

(١٨٩) : ابن عبد الحكم - فتوح مصر ، ص ٢١٧ - ٢١٨ .

وهكذا نرى أن الولاة من الموالي الشاميين قد سقوا كالولاة الشاميين من المـسـرب
الكثير في مجال التنظيم الإداري وميدان نشر الاسلام ، كما يتبين لنا بالاستناد إلى
الروايات التي بين أيدينا على قلتها الحكمة التي كانت للموالي في الشام ، ولم يكن الأمر
يختلف في العراق عما هو في الشام بالرغم من أن عددا من المستشرقين ومن مؤرخينا العرب
الحديثين قد حاولوا البرهنة بالاعتماد على روايات وأخبار متفرقة وردت في العقد الفريد
وبسبب الأخبار التليدة المبهثة في كتاب الأغانى أو في مصادر أخرى أن الأمويين كانوا
يتمصبون للحرب وأن الموالي كانت طبقة مستغلة مضطهدة معتقرة ، (١٠) هذه الأخبار
في الواقع تسجل حالات فردية لا يمكن أن نستخرج منها قاعدة تصف سياسة الدولة أو الرأي
العام ، كما أن جل الأخبار الواردة كما يقول الدكتور الدوري هي أخبار تتعلق بالبيئات
القبلية ومفاهيمها ، وهي بيئات لا تعترم الحرف اليدوية والفلاحة ، وتمتاز بالفروسية وبفسن
القتال ، وطبيعي أن تكون نظرة هؤلاء إلى الموالي من فلاحين وصناع نظرة لا تتسم
بالاحترام (١١) ثم اننا يجب أن لا ننسى كثرة الموالي في العراق ، فقد كان عدد منهم في الكوفة

- (١٠) : ابن عبدربه ، العقد الفريد ، ج ٣ ، باب المتحصنين للحرب ص ٤١٢ ، ٤١٧ .
Von Kremer, Kulture Geschichtliche Streifzuge auf dem
Gebeit des Islames, Calcutta, 1950, PP. 78 - 82 .
Brown, A Literary History of Persia, London, 1959, PP. 232 - 240 .

- فان فلوتن ، الشيمتوالا سراييليات ، لاسيما صفحات ٢١ وما بعدها ، و ٣٥ وما
بعدها عندما يتكلم عن أوضاع الموالي السياسية والاجتماعية .
جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي ، ج ٢ ، ص ٢١ ، ج ٤ ، ص ٥٨ - ٦١
فيليب حتي ، تاريخ العرب مطول ج ٢ ، ص ٢٠٠ - ٣٠٠ .
الخير بطلي ، تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي في بحث الموالي خاصة ص ٢٥٥ ،
٢٥٦ ، حسن ابراهيم حسن ، تاريخ الاسلام السياسي ، ج ١ ، ص ١٣ ، ١٤ ،
ص ١٤٧ وما بعدها ، ص ٢٦٢ ، بعنوان تمصب الامويين للحرب .
(١١) : د . عبدالمعز السدوري ، مقدمة في التاريخ الاقتصادي ص ٤٢ .

زمن معاوية ٢٠ ألفاء (١٩٢) ولا شك أن هذه الأعداد قد ازدادت مما جعل العرب يشعرون في قرارة نفوسهم أن معظم الموالي لم يعتنقوا الإسلام لاقتناعهم بربابته القويحة ، ولكن لمصالح شخصية ذاتية ، ولذا لم يقتنع العرب بما نادى به الموالي أن إسلامهم قد ساواهم بالعرب وشعروا أن ازداد هم ومساواتهم بالعرب قد يشكل خطرا عليهم يتهدد بهم ، هذا ما تفهمه من قول ابن مطيع عامل عبدالله بن الزبير على الكوفة * وانما ذهب عزكم وسلطانكم وتفسير دينكم عين يكترون * . (١٩٣)

أما ولاية بني أمية فقد اعتمدوا على الموالي في وقت مبكر ، فهذا زياد بن أبيه يكتب الى معاوية يوصيه باستخدامهم لأنهم أنصر وأغفر وأشكر ، (١٩٤) كما استخدمهم في جباية العراق ، وكذلك فعل هبدي الله لأنه وجد الدناقين " أهدر بالجبالية وأوفى بالأمانة وأهون على المطالبة " . (١٩٥) وعين العجاج صالح بن عبدالرحمن على ديوان العراق بعد أن عزبه ، (١٩٦) كما طرد سعيد بن جبير القضاء . فلما ضج أهل الكوفة وقالوا : لا يصلح القضاء إلا لسبي ، ولى أبا بردة وأمره ألا يقطع أمرا دونه ، (١٩٧) وجعله كاتبها ووزيرا له ، (١٩٨) ولكن أهل الكوفة يقبلون بعد ذلك بحامر الشمسي قاضيا في خلافة عمر بن عبدالعزير ، كما أن الحسن بن أبي الحسن البصري ، تولى قضاء البصرة في هذه الفترة ، وكلاهما من الموالي ، (١٩٩) وكانت منزلة الكتاب ورجال العلم من الموالي محترمة حتى في الاوساط القبلية ، فقد عاش الحسن البصري هيبة الزعامة في البصرة ، ولقي احترام الجميع واجلال السلطة ورجالها ،

-
- (١٩٢) : الدينوري ، الاخبار الطوال ص ٢٨٨ .
(١٩٣) : الطبري ، ج ٦ ص ٢٥ .
(١٩٤) : البلاذري ، انساب ، ج ٤ قسم ١ ص ٢٣ .
(١٩٥) : المصدر السابق ، ج ٤ قسم ٢ ص ١٠٩ .
(١٩٦) : البلاذري ، فتوح ص ٢٩٨ ، وكان ابوصالح من سبي سجستان .
(١٩٧) : البلاذري ، انساب ، ج ٤ قسم ١ ص ٣٦ .
(١٩٨) : ابن قتيبة عيون الأشهار ، ج ١ ص ٦٢ ، ابن خلكان ، ج ١ ص ٢٠٥ .
(١٩٩) : الطبري ، ج ٦ ص ٥٥٤ .

روى في ~~التاريخ~~ ~~بني~~ ~~مصر~~ ~~بن~~ ~~ال~~ ~~خاندان~~ ~~ال~~ ~~مصر~~ ~~بن~~ ~~الحسن~~ ~~ال~~ ~~بصري~~
تبع الناس كهم جنازه ، واشتغلوا به فلم تقم صلاة العصر بالجامع ، ولا أعلم كما يقول أنها
تركت منذ كان الاسلام الا يومئذ لأنهم تحموا كهم الجنازه ولم يبق من يصلي العصر (٢٠٠)
والأمثلة على الاحترام الذي كان يلاقيه الموالي من الملوك كثيرة يكفي أن نقرأ كتب الرجال
حتى نتبين أن مكانة هؤلاء الملوك كانت واحدة سواء كان العالم الفقيه عربيا أو موليا .
وإذا كانت لدينا روايات تشير الى أن اشراف الكوفة كانوا يرفضون اشراك مواللي
المشافة في الديوان ، فليس معنى هذا أن مواللي المشافة لم يكونوا يسجلون أولم يكن
يفرض لهم ، فقد ورد في البلاذري أن صبيد الله بن زياد سعى خلتا من أهل بخارى
وأنه أسكنهم البصرة وفرض لهم . (٢٠١) كما أننا عندما نقرأ بأن الحجاج بعث الى شبيب
الشاربي ، أما الضريس مولى بني تميم في الف من المواللي ، (٢٠٢) وأن الحجاج عمل على
أن يسقط ديوان المواللي لا شراكهم في ثورة ابن الاشعث ، (٢٠٣) فأننا لا نستطيع أن نهرب
بأن هؤلاء المواللي كهم كانوا مواللي حلف وأنه ليس بينهم مواللي عاققة ، أما في المشسر
فأننا اذا استثنينا السكام المظلمين الذين أسلموا واستعملوا يحارسون سلطانهم تحت اشراف
الحمال العرب ، والذين يمكن أن نفترض بأنهم كانوا يعتمدون على أبناء المنطقة في تسير
شؤون ادارتهم ، فان القادة العرب اعتمدوا على رجال من المواللي من اصحاب السرى
والمشورة مثل الفضل بن يسام مولى بني الليث ، وعبد الله بن أبي عبد الله مولى بني سليم
والبختري بن مجاهد مولى بني شيبان ، (٢٠٤) وكان البختري مستشار نصر بن سيار
وكانته وصاحب أمره ، (٢٠٥) وكان سارون بن السباوش قائد خراسان ، (٢٠٦) ونيزك

-
- (٢٠٠) : ابن خلكان ج ١ ص ١٢٩ .
 - (٢٠١) : البلاذري ، فتن ص ٣٦٩ ، ٤٠١ ، الطبري ج ٥ ص ٢٠٤ .
 - (٢٠٢) : ابن أبي الحديد ج ٤ ص ٢٤٨ .
 - (٢٠٣) : ابن عدي ، الحقد الفرید ، ج ٤ ص ٤١٦ ، ٤١٧ .
 - (٢٠٤) : الطبري ، ج ٢ ص ٧٩ .
 - (٢٠٥) : المصدر السابق ج ٢ ص ١٥٥ / ١٥٩ / ٣٨٤ .
 - (٢٠٦) : المصدر السابق ج ٢ ص ١٧٦ / ١٩٥ .

بن صالح حاكم الشافعي من الموالي ، (٢٠٧) وفي ولاية قتيبة على خراسان وجد ما يزيد
عن ٣٠ ألف مقاتل عربي وسبعة آلاف من الموالي وطيهم حيان النبطي مولى بني شيان ، (٢٠٨)
وليس هناك اشارة الى أن هؤلاء الحقاتلة من الموالي لم يكن لهم صلا ، والا لذكر ذلك .
ثم ان الثورات التي قامت في العصر الاموي في الشرق هي ثورات عربية ولا نجد ثورة
للموالي تستحق الذكر قامت تحت رايهم أو بدعوتهم وانما شارك فيها الموالي مع حلفائهم
(موالهم) او مع رؤسائهم قادة الاعراب ، ولذلك فاننا عندما ندرس الروايات التاريخية
يجب علينا أن ننتبه الى اختلافاتها في مطلع القرن الثاني للهجرة بسبب ظهور الفرق الدينية
السياسية ونشوب الفتن بين المسلمين ، كما يجب الانتباه كما يقول الدكتور فاروق عمر السلي
مهاجات الشعوبية ومفالاتها ، وبالرغم من أننا لا ننكر وقوع حالات من الضغط الاقتصادي
والتمييز الاجتماعي الا أنها لم تكن في الحقيقة تدل على الوضع العام للموالي فقط لأنها أصابت
العجم الضعفاء كما أصابت العرب الضعفاء ، كذلك ، (٢٠٩)

أهل الذمة :

أهل الذمة هم الذين شطهم الاسلام من النصارى واليهود بمحسده وأمانه ثم اولئك
الذين طبق عليهم المسلمون فيما بعد قواعد ونظام أهل الذمة ، وكان الرسول أول من طبق
عليها قواعد نظام أهل الذمة على النصارى واليهود في المجاز ثم على مجوس البحرين ،
ان فرض الجزية على النصارى واليهود ثم قررهما أيضا على المجوس قائلا : " سنوابعهم سنة
أهل الكتاب " (٢١٠) وكانت الجزية مقابل المنعة وتمسك المسلمون بالمحافظة على أرواح
السكان وأموالهم ودياناتهم واعفائهم من الخدمة العسكرية ، ولم تكن كما يحسب

(٢٠٧) : الطبري ، ج ٧ ، ص ١٧٧ .

(٢٠٨) : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٥١١ .

(٢٠٩) : د . فاروق عمر ، طليحة الدعوة السياسية ، الطبعة الأولى ، ١٣٨٩ هـ .

/ ١٩٧٠ م ، ص ١٣٢ .

(٢١٠) : البلاذري ، فتوح ، ص ٢٦٦ .

الهمض توضيحها نوعاً من الحقوبة والجزء ، وكيف تكون كذلك وقد فرضت على الذكور البالغين من أهل الذمة ولم تفرض على النساء والأطفال والشيوخ ، وكيف يمكن اعتبارها عقوبة وهذا خالد يطرح الجزية من كل شيخ ضعيف عن العمل أو أصابته آفة من الآفات أو كان غنياً فافتقر ؟ ولم يكتب على الجزية من هؤلاء بل جعل بيت مال المسلمين مسوئلاً عن إعالتهم وإعالة عائلاتهم ما أقاموا بدار الهجرة ودار الإسلام . (٢١١)

وقد ادرك المسلمون منذ أن وطئت أقدامهم أرض الشام أن أمان الناس على أنفسهم وأموالهم هو أول ما يجب أن يشيع في نفوس السكان وأن يملأ عليهم آفاقهم حتى يعيشوا في أجواء مسالمة لا يفسد ما الخوف والقلق ، وحين تتوافر لهم هذه الأجواء فانما تتوافر لهم الثقة بأصحاب الدعوة والاعجاب بما يؤمنون به ، وقد يكون الاعجاب طريقاً للمشاركة والوحدة ، ومن أجل هذا كان أول ما كان في كتب الصلح المختلفة أن يعطي القائد أو الخليفة للسكان الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم ، جاء هذا في كتاب خالد لأهل دمشق ، (٢١٢) وفي كتاب عمرو بن العاص لأهل غزة وسبيلية ونابلس ، (٢١٣) وكتاب أبي عبيدة لأهل بصرى وحمص وحلب ، (٢١٤) وكتاب شرحبيل بن حسنة لأهل طبرية (٢١٥) وفي كتاب عمر بن الخطاب إلى أهل بيت المقدس ، وبذلك استلزم هؤلاء السكان أن ينتسبوا في جوهر ، فالأنفس والأموال في عرف المسلمين آمنة والأموال كلها سدينة تتصل بالأرض والمنازل ودينية تتصل بالكنائس والمساكن ، والأنفس كلها ضعيفها وقويها ، سقيمها وبرئها وسائر طعتها ، فلهذه الأنفس جميعاً مكانها في المجتمع الجديد ، لا يضطهد ضعيفها ، ولا يهمل مريضها ، ولا تنسى فيه حقوق ولا واجبات ، وتدرج كتاب الصلح الذي كتبه عمر

(٢١١) : محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للمعهد النبوي والخلافة الراشدة ،

الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩ م ، ص ٣١٦ ، ٣١٧ .

(٢١٢) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٢٨ .

(٢١٣) : المصدر السابق ، ص ١٤٤ .

(٢١٤) : المصدر السابق ، ص ١٢٠ ، ١٣٧ ، ١٣٦ .

(٢١٥) : المصدر السابق ، ص ١٢٣ .

لأهل ايليا، تدرجها رائعا فهو لم يقتصر على منح الامان لسكان البلاد وحدهم وانما منح هذا الامان للروم كذلك ، فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى ييلفوا منهم ، ومن أقام فهو آمن ، وعليه مثل ما على أهل ايليا ، ووقف كتاب الصلح مثل هذا الموقف أيضا من كان بايليا من أم الأرض جميعا لم يهمل شأنهم وأتاح لهم الامان ما أتاح لغيرهم ، وأنهم أن يلحقوا بأرضهم أو يظلوا في مكانهم أو يلتحقوا بالروم " ومن كان بها من أهل الأرض . . . فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل ايليا من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله " . (٢١٦)

ووقف الاسلام من النصرانية في الشام موقف التحبب والود ، فتفهم الاسلام وتقد يسسه للأديان السابقة وإيمانه بالأنبياء الذين تقدّموا محمدا (صلعم) واعتباره ذلك شـرطا في صحة العقيدة ، كل ذلك كان كفيلا ، أن يكون مرحلة في التطور الديني ، وتقبله واعتناقه والاندماج في أسمايه ، ولما كان شعار الاسلام أن لا اكراه في الدين فان أهل الشام تمتعوا بحرية لم تتح في ذلك الوقت في العالم الا في اضيق الحدود ، وقد آمنهم عمر على عقائدهم وآمنهم كذلك على كل ما يتصل بهذه العقائد من مقدسات وصلبان وكنائس ، ووقف بذمتها وبين " ان تسكن أو تهتّم أو ينتقص منها ولا من مميزاتنا ، ولا من مسلمهم ولا من شيء من أموالهم . . . " وأتاح لهم أن يستمتعوا بما يستفيدون في مدى واسع من الحرية ، فلا يتطلع اليهم أحد باكراه ولا ينالهم من أحد اجبار " ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم " . (٢١٧) وما اكثر الروايات التي تشير الى اهتمام عمر بأهل الذمة وتخفيف الجزية على من لا يطبقها واعانة من عجز على دفعها . (٢١٨) وأوصى عمر بن الخطاب عند وفاته بذمة رسول الله (صلعم) أن يوفى لهم بمعهدهم

(٢١٦) : الطبري ، ج ٣ ص ٦٠٩ من عهد عمر لأهل ايليا .

(٢١٧) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٦٠٩ ، ٦١٠ .

(٢١٨) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ١٨٠ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام

أهل الذمة ج ١ ص ٤٤ .

وأن يقاتل من ورائهم ولا يكفوا فوق طاقتهم". (٢١٩)

بالرغم من سياسة التسامح هذه تجاه أهل الذمة ، فإن عمر اضطر أن يتخذ موقفاً
مميّناً من عرب الشام والجزيرة ، فعرب الشام قبل الفتح كانوا كلهم على الدين المسيحي ، وكان
للخساسنة مكانة رفيعة بينهم ، ولذلك فإن الروايات المتعلقة بجميلة بن الأيهم يشير بعضها
إلى إسلامه ثم ارتداده (٢٢٠) وبعضها الآخر على إقامته على دينه وأباه من دفع الجزية
انفة (٢٢١) ولكنها كلها تشير إلى دخوله إلى أرض الروم مع أتباعه وقومه وأن هرقل أقبله
حيث شاء وأجرى عليه من النزل ماشاء وجعله من سواره ، ويرى الدكتور جواد طلي أن جميلة
لم يدخل في الإسلام أبداً وأن ماروي عن إسلامه وعن زيارته ليشرب أو مكة ليس إلا من قصص
القصار ، وضموه فيما بعد . (٢٢٢)

إن موقف جميلة هذا دفع عمر بن الخطاب إلى أن يضيف الصدقة (٢٢٣) على قبيلة
تغلب عندما رفضت الدخول في الإسلام وأبت كذلك دفع الجزية ، وهم أفرادها بالحقاق
بأرض الروم ، (٢٢٤) ويبدو أن قبائل أخرى اقتدت بتغلب فرضيت بدفع الصدقة مضاعفة ،
مفضلين إياها على دفع الجزية لكي لا تكون في مصاف الأعلاج . (٢٢٥)

وإذا كانت قبيلة تغلب قد نجحت في مسعاها فإن مكانة العرب النصارى الاجتماعية
بقيت دون مكانة العرب المسلمين ، وبالرغم من أن الأخطل كان مقرها إلى عهد الطك وكان
يعتبره أشعر العرب ، وشاعر بني أمية إلا أنه كان يتمنى أن يسلم فيفرض له في الفيسن

-
- (٢١٩) : أبو يوسف ، كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٤٦ ، المطبعة السلفية ، ص ١٦ ، ١٤٩٠ ،
١٥٠ ، ١٥١ ، البخاري ، الجامع الصحيح ج ٢ ص ٢٩٣ .
(٢٢٠) : الأغاني ج ١٥ ص ١٦٢ ، ١٦٤ ، البلاذري ، فتوح ص ١٤٢ .
(٢٢١) : البلاذري ، فتوح ص ١٤٢ .
(٢٢٢) : جواد طلي ، الفصل في تاريخ العرب ج ٤ ص ٤٣٠ .
(٢٢٣) : البلاذري ، فتوح ص ١٨٦ .
(٢٢٤) : المصدر السابق ص ١٨٦ ، الطبري ، ج ٤ ص ٥٤ .
(٢٢٥) : البلاذري ص ١٨٦ ، قالوا : (أما إذا لم تكن جزيرة كجزيرة الأعلاج فانا نرضى
ونحفظ ديننا) ومن الزهري ، قال هو ليس في مواشي أهل الكتاب صدقه إلا نصارى
بني تغلب أو قال نصارى العرب الذين عامة أموالهم المواشي فإن عليهم ضعف ما على
المسلمين .
٠٠/٠٠

أى في شرف الصطاء ، (٢٢٦) ويصير بجرير الأخطال بأنه من ضربت عليه الذلة وباء بفضب من الله وأدى انجزية عن يده وهو صاغر ، (٢٢٧) وعندما دخل على عمر بن عبد العزيز قنوم من تغلب وطلبوا منه أن يفرض لهم لأنهم حرب ، رفض لأنهم نصارى ، (٢٢٨) أى أنهم بمثابة أهل الذمة ، ويجب أن تطبق على العرب النصارى الانظمة التي تطبق على النصارى من غير العرب فهم في نظره سواء .

ارتبطت قضايا أهل الذمة في الأمور المدنية والجناحية والقضائية بروءائهم الروحانيين ، إلا اذا كانت القضية تمس المسلمين (٢٢٩) وقد عيسى القر الأخطال في كنيسة دمشق لأنه يشتم الناس ويهجوهم ، ولما سئل عن سبب هذا الخضوع والاستغناء الذى يظهره للقرس بالرغم من مهابة الناس له وإكرام الخليفة لشخصه جعل يقول : " انه الدين انه الدين " (٢٣٠) وكان يسمح للذمي أن يوصي للكنيسة أو يوقف لها وقتا من ماله (٢٣١) كما أنه ممن كان له عهد أو ذمة فديته دية المسلم (٢٣٢) إلا أن دية المعاهد كان يدخل نصفها بيت المال ويأخذ الخليفة النصف الآخر ، فعند ما قتل خالد بن المهاجر ومولاه نافع ابن أثال وكان طبيبا متقدما من الأطباء المتميزين في دمشق غضب معاوية وأمر بضرب نافع مائة سوط والزم بني مخزوم دية ابن أثال اثني عشر الف درهم ، فأدخل بيت المال ستة آلاف درهم وأخذ ستة آلاف . (٢٣٣) فلم يزل ذلك يجرى في دية المعاهد حتى ولي عمر بن عبد العزيز ، فأهبط الذى يأخذه الخليفة لنفسه وأثبت الذى يدخل بيت المال . (٢٣٤)

-
- (٢٢٦) : الأغاني ج ٨ ص ٢٨٧ ، ٢٨٨ .
 - (٢٢٧) : المصدر السابق ج ٨ ص ٦٢ .
 - (٢٢٨) : الطرطوشي ، سراج الطولك ص ١١٨ .
 - (٢٢٩) : العميون والحدايق ص ٦٠ .
 - (٢٣٠) : الأغاني ج ٨ ص ٣٠٩ .
 - (٢٣١) : ابن سببر ، الطبقات ج ٥ ص ٣٦٢ .
 - (٢٣٢) : يعقوب بن آدم القرشي ، الخراج ص ٧٦ ، الفقه ص ٢٣٩ .
 - (٢٣٣) : ابن أبي أصيبعة ، عميون الأنبا في طبقات الأطباء ص ١٧٣ ، ١٧٤ .
 - (٢٣٤) : المصدر السابق ص ١٧٤ .

حافظ خلفاً بني أمية على كنائس المسيحيين وفقاً لما ورد في اليهود المختلفة ،
وعندما هدمت الزلازل جانبها من بيعة الرها الكبرى أمر معاوية بترميمها واعادتها الى سابق
عهد ما ، (٢٣٥) وأمسك معاوية من زيادة كنيسة يوحنا في الجامع عندما أمر الدمار ذلك ،
وبذل لهم عبد الملك مالا كثيراً لكي يتخلوا عنها فرفضوا ، (٢٣٦) فلما كان عهد الوليد
بن عبد الملك وكثر المسلمون وضاق بهم المسجد تأبوا عليه ، بالرغم من أنه حاول أن يقطعهم
قطائع كثيرة وأن يبذل لهم الأموال ، (٢٣٧) وفي تاريخ دمشق لابن عساکر أنه عرض عليهم
أن يبني لهم كنيسة حيث شاؤوا وبدمشق وإن شاؤوا دفع ثمنها لهم ، وأضعف لهم الثمن ،
وعندما رفضوا هدد بأن يهدم كنيسة توما ويبنى المسجد فيها لأنها لم تكن في العهد
فقبلوا (٢٣٨) وفي رواية ابن شداد أن الوليد أخذ كنيسة يوحنا وأعطاهم مقابل ذلك أربع
كنائس (٢٣٩) وعندما أمر أبي الفعلة النصارى هدمها ، لم يجبرهم على ذلك وإنما طلب من اليهود
هدمها بحد أن بدأ هو ومن معه من وجوه أهل البلد ذلك (٢٤٠) وكان في حلب نيف
وسبعمون هيكلًا للنصارى ، بقيت كذلك الى أن حاصر الفرنج حلب في ثمانى عشرة وخمسائة
وملكها يومئذ البخازى بن أرتقى صاحب ماردين ، وقام بأمر البلد ومن فيه القاضي أبو الحسن
محمود بن يحيى بن محمد ، فعمد الفرنج الى قبور المسلمين فنهبوها ، فلما بلغ القاضي
ذلك أخذ من كنائس النصارى التي كانت بحلب أربعاً ، وجعل فيها محارب ، منبها
كنيسة القديسة ميلانة ، فجعلها مسجداً ، فاستمرت على ذلك الى أن ملك الطك المارل
نورالدين ، فأحدث فيها ايواناً وبهوياً وجعلها مدرسة لتدريس مذهب أبي حنيفة

(٢٣٥) : توتون ، أهل الذمة في الاسلام ص ٤١ .

(٢٣٦) : ابن شداد ، الاطلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، ص ٥١ .

(٢٣٧) : المصدر السابق ، ص ٥٤ .

(٢٣٨) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ٢٠١ .

(٢٣٩) : ابن شداد ، المصدر السابق ، ص ٥٥ .

(٢٤٠) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ٢٠١ .

ووقف عليها وبقا (٢٤١) وأما الكنائس الباقية فقد حوّل قسم منها في العهد الأيوبي
إلى مدارس لتسليم الخنزير السنفي . (٢٤٢)

هذه الروايات تدل بوضوح أن المسلمين في كل الصهود كانوا يفنون للذمة بجهودهم ،
يرعون مصالحهم ويحافظون على كنائسهم ، فلما جاء الفرنجة وهاطوا المسلمين تلك المماطلة
البشعة ، كان رد الفعل طبيعيا وهو تحويل هذه الكنائس إلى مساجد أو مدارس .

تشرح الروايات إلى أن المسلمين كانوا على صلة مع أهل الذمة في حياتهم اليومية ،

ولم يعيشوا منزولين عنهم ، فقد سكن المسلمون مع النصارى في دور واحد وعندما تولى سمرة
بن فاك أخو خريم بن فاك الصعابي قسمة المساكن في دمشق أهلها بعد الفتح ، كان يترك

الرومي في الملوك والمسلم في السفلى لثلا يضر المسلم بالذمي ، (٢٤٣) كما أنه كانت لهم أسواق
واحدة شريطة أن لا يبيعوا الخمر والخنزير فيها (٢٤٤) وكان المسلم يهود جاره النصراني

إذا مرض ، فقد عاد أبو الدرداء جارا له نصرانيا ، (٢٤٥) وفي بيت لحم وفي الحنية التي

أخذها عمر بن الخطاب مسجدا للمسلمين ، جعل على النصارى أسراجها وممرسارتها

وتنظيفها ، (٢٤٦) ولم يزل المسلمون يزورون بيت لحم ويقصدون إلى تلك الحنية ويصلون فيها

وينقل خلفهم من سلفهم أنها حنية عمر بن الخطاب ، ولم يغيرها الفرنج عندما ملكوا البلاد . (٢٤٧)

وكان الأخطل يدخل المسجد مرتديا بجهة خنز متقلدا صليبا من ذهب وينشد قصائده (٢٤٨)

وكانت بكر بن وائل إذا تشاجرت في شي^١ رضيت الأخطل ، وكان يدخل المسجد فيقصد من إليه (٢٤٩)

(٢٤١) : ابن شداد ، المصدر السابق ص ٤٥ .

(٢٤٢) : المصدر السابق ص ٤٥ .

(٢٤٣) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٦ ص ٦٤ .

(٢٤٤) : أبو يوسف الخراج ، ص ٥٢ .

(٢٤٥) : ابن قتيبة ، هيون الأخبار ، المجلد الثاني ، ج ٣ ص ٤٤ . ابن قيم الجوزية ،

أحكام أهل الذمة ، ج ١ ص ٢٠ .

(٢٤٦) : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٥٢٢ ، وفي رواية ياقوت ، أن عمر بن الخطاب

عند ما ورد إلى بيت المقدس ، أتاه راهب من بيت لحم فقال له : معي منك أمان على

بيت لحم ، فقال له عمر ، ما أطم لك ، فأظهره وعرفه عمر ، فقال له : الأمان صحيح ،

ولكن لا بد في كل موضع للنصارى أن يجعل فيه مسجد ، فقال الراهب ، إن في بيت

لحم حنية مبنية على قبلكم ، فأجعلها مسجدا للمسلمين ولا تهدم الكنيسة ، فعفا

له عن الكنيسة وصلّى إلى تلك الحنية واتخذها مسجدا .

(٢٤٧) : المصدر السابق ، ج ١ ص ٥٢٢ .

(٢٤٨) : الأغاني ، ج ٨ ص ٣٠٤ .

(٢٤٩) : المصدر السابق ، ج ٨ ص ٣٠٣ .

كما أن أولاد المسلمين كانوا يتلقون الفلسفة على أيدي رجال الدين من النصارى فقد أثر من
يعتقوب الرضاوى (٦٤٠ - ٧٠٨ م / ٢٠ - ٩٠ هـ) أنه أفتى لرجال الدين النصارى
بأنه يحل لهم أن يسلحوا أولاد المسلمين المتخلمين المالى (٢٥٠) ونتيجة للاحتكاك
بين المسلمين والنصارى أخذوا يتعادون ويتحاجون في الحقائق ، يدلنا على ذلك أن أحد
المؤلفين في هذا العصر واسمه يحيى دمشقي الف رسالة على هذا النمط " اذا قال لك الخريبي
كذا فأجبه كذا " (٢٥١)

واشتهرت الأديار (٢٥٢) في الباطنية بايواء المجتازين بها وضيافة اللاجئين والاحسان
الى كل طارق محتاج ، ولم يكن فيها وقتئذ دور خاصة بالضيافة ، بل كان نزول الأضياف فيها
في بعض المعجر ، ثم جاء الاسلام ، فأوجب على النصارى في جملة شروطهم أن لا ينموا كنائسهم
من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار (٢٥٣) وفي رواية أبي يوسف أن ابا سيدة بن البراء
لما صالح أهل الشام اشترط عليهم أن يضيفوا من تربهم من المسلمين ثلاثة أيام ، (٢٥٤)
فلم يكن من ثم يد من وجود مواضع في الديارات لمبيت الزوار وهاجرى السبيل ، ثم كثر الأضياف
والعقربون في الأديرة ، لاسيما من الأبراء وما شتهرهم ، فكان لا يد من بناء دور ودور لهم
خاصة الى جانب الأديار ينزل فيها كل من يمشى لها من الناس المسافرين وتقام لهم فيها

(٢٥٠) : أحمد أمين ، فجر الاسلام ، بيروت ، الطبعة العاشرة ، ١٩٦٩ ، ص ١٣١ ، ١٣٢

(٢٥١) : المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

(٢٥٢) : يشترط في كل دير صغير أم كبير أن يكون فيه كنيسة كما يشترط فيه أن يستوى على

صوامع تستوعب من فيه من رهبان بالإضافة الى المغازن وبيوت الطعام وغيرها
من المرافق ، والصوامع هي قلالي الرهبان ، فكانت في بعض الأديرة تمتد
بالمشترات وفي بعضها بالمطبات وجاوزت في بعضها الالف عدا ، اذ لا يد
للراهب من صومعة يقيم فيها وحده ولا بيان لزاثر أن يقيم في صوامع الرهبان
ذاتها ، ولذلك فان الديارات الجليلة الشأن لا تخلو من دور ضيافة وبيوت
ينزلها زوار الدير (الشاهشتي ، الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، بغداد
١٩٥١ م ص ٣١) .

(٢٥٣) : حبيب الزيات ، الديارات النصرانية ، ص ٥٨ . عن أبي يحيى محمد بن الحسين

بن محمد الفراء من مخطوطات الخزانة الشرقية .

(٢٥٤) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٦٥ .

الضيافات على أقدار كل منهم ، ومن أعظم هذه الاديرة في الشام ، دير مروان ظاهر دمشق ، كان يزيد بن معاوية قد اتخذها منزلاً ، (٢٥٥) ونزله أيضا جماعة من الخلفاء الامويين والعباسيين ، (٢٥٦) ودير البخت في دمشق على فرسخين منها وهو دير كبير حسن وكان يسمى دير ميخائيل فسمي بهذا الاسم لبخت كانت لعبد الطك بن مروان مقيمة هناك فصرف بها ، (٢٥٧) ودير صليبيا مقابل باب الفراءيس ، ويحرف بدير خالد بن الوليد لأن نزولهم كان به عندما حاصر دمشق ، وكان الوليد بن يزيد كثير المقام به يحن اليه ومعه حرمه استخسانا (٢٥٨) ودير يونا (يوحنا) بجانب غوطة دمشق ، (٢٥٩) أقام الوليد بن يزيد فيه أياما ، ودير الرصافة ، رصافة هشام بن عبد الملك ، وهذه الديارات كانت كلها تقع في مناطق جميلة بين رياض مشرقة وأنهار متدفقة وأشجار كثيرة . (٢٦٠)

موتف الدولة من اليمانية والروم الملكيين :

يجمع كل مؤرخي النصرانية على أن لقب الملكيين نشأ في القرن الخامس الميلادي أطلقه اليمانية على من خالفهم من نصارى الشرق ووافقوا امبراطور بيزنطة على قبول مقررات المجمع الخلقيدونسي سنة ٤٥١ م (٢٦١) ولذلك كان الخلقيدونسي مرادفا للملكي ، (٢٦٢) وكان انتساب الملكيين الى الامبراطور البيزنطي على أثر مجمع خلقيدونية سببالاتهامهم

- (٢٥٥) : يا قوت الحموي ، معجم البلدان ج ٢ ص ٥١٩ .
(٢٥٦) : شهاب الدين الحموي ، مسالك الابصار ، مطبعة الدار ، مصر ج ١ ص ٣٥٥ .
(٢٥٧) : الشاهستي ، الديارات ، ص ١٣٧ .
(٢٥٨) : يا قوت الحموي ، ج ٢ ص ٥١٩ ، الحموي ، مسالك الابصار ج ١ ص ٣٤٩ .
(٢٥٩) : يا قوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٥٠٢ .
(٢٦٠) : ابن شداد ، الاطلاق المشاهرة ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ .

(٢٦١) : Donner, The Early Islamic Conquests, P. 94.
(٢٦٢) : L. Duchesne, Autonomie Ecclesiastique Eglises Separees, 1396, P. 52.

(٢٦٢) : كان الخلقيدونيون عند السريان ينقسمون الى قسمين ، خلقيدونيين مكسيمية ، نسبة الى القديس مكسيموس ، الذي اشتهر بالندال من المشيختين . وخلقيدونيين مارونية أتباع بيث مارون اودير مارون .

Chronique de Michel Le Syrien, Edition et traduction de Y.B. Chabot, t. II PP. 492 - 496.

بالحيل الى الروم والتبسس لهم ومطالعتهم بأخبار الفرس ، ثم بعد بأخبار المسلمين ، ولذلك كانوا يرغبون أحياناً على الحدود من مذاهبهم الخلقيدوني ليدفعوا عن أنفسهم كل ظففة بالتعزب للبيزنطيين أهدا الفرس ثم العرب ، وقد ضيق الفرس على من كان في بلادهم من الملكيين ، قال ابن العميد : في السنة الثالثة للمهجره ضيق كسرى على أهل الروما والمب منهم أن ينتقلوا عن مذهب الملكية الى اليمقوبية لأن طبيبه يونان أوهمه أنهم ما داموا على مذهب الملكية ، فقد يميلون الى الروم ويكاثروهم ، فعرض عليهم القتل أو الانتقال الى المذهب اليمقوبي فانتقلوا بأجمعهم . (٢٦٣) كما أمر كسرى بطرد الاساقفة الخلقيدونيين أي الملكيين من كل بلاد ما بين النهرين وسورية وزال ذكرهم على حد قول ميخائيل من حد الفسرات الى الحسرت ، ولم يتمكنوا من العودة الى مذاهبهم وكثافتهم الا بعد انتصار هرقل على الفرس (٢٦٤) واتهام الملكيين بالتعزب للبيزنطيين هو الذي حمل الخلفاء الامويين على منع قيام بطاركة لهم في كراسيهم الثلاثة وبسرات اليمقوبية على التغلب عليهم ، فقد بقي الملكيون أكثر من ثمانين سنة بخير بطارك في مصر ، من عهد عمر بن الخطاب الى خلافة هشام بن عبد الملك فنسب اليمقوبية في هذه المدة على جميع الكنائس في مصر وأقاموا منهم أساقفة (٢٦٥) وكان البطريرك اسطقانوس هو أول بطاركة ملكي دخل انطاكية بعد شفورها صدة تنيف على أربعين سنة ، وقد فوض عليهم اسطقان لانه كان عزيزاً على هشام بن عبد الملك . (٢٦٦) ويظهر أن بطاركة بيت المقدس سبقوا بطاركة الاسكندرية وانطاكية في العودة الى كراسيهم واستقر أولهم بعد صفرونيوس في زمن الوليد بن عبد الملك وهو البطريرك يوحنا الثامن . (٢٦٧)

(٢٦٣) : جرجس بن العميد ، تاريخ ابن العميد ، طبعة ليدن ، ص ١٢٠ .

(٢٦٤) : Chronique de Michel Le Syrien, t II PP. 377, 378.

(٢٦٥) : المقرئ ، الخطوط ج ٣ ص ٥٢٧ .

(٢٦٦) : Theophanes, Bilderstreit und Arabersturm In Byzanz

Das 8 Jahr hundert 717 - 813, aus der welt Chronik des Theophanes. Ubersetzt, eingeleitet und erklart Von Leopold Breyer, Wien, 1957, P. 55.

ويرى البعض أن أوجه ما يملك به هذا الرضى من الامويين بعد الامتناع الطويل هو النزاع الذى حدث بين المالكين من روم بيزنطيين وروم بلديين عند ما بدأت الحركة المهادية للايقونات (Iconclasm) في الامبراطورية البيزنطية زمن الامبراطور ليون الثالث (٧١٧ - ٧٤١ م / ٩٩ - ٢٤ هـ) فضحفت ربيبة هشام بن عبد الملك في رعيته من الروم وسمح لهم بالرجوع الى حقوقهم القديمة باقامة بطاركة لهم من المالكين البلديين .

وبالرغم من أن المؤرخ تيوفانس (Theophanes) يذكر أن أول قرار ضد عبادة الايقونات لم يصدر في القسطنطينية بل في دمشق عاصمة الخلافة في خلافة يزيد بن عبد الملك ، (٢٦٧) (١٠١ - ١٠٥ هـ) ، فإنه يشير الى أن الخلفاء المسلمين كانوا اعلم وأنصف من ليون الايسورى وابنه قسطنطين الخامس ، الذى عمد الى اضهاد الرهبان وقتلهم وتعذيبهم . (٢٦٨) ومن يراجع تواريخ فرق الميخاقية والنسطورية يقف فيها على عدة شهادات ناطقة بتعزيمهم للاسلام وانتصارهم على النصرانية البيزنطية ، ونسبوا لهم النسطورية واليهودية للحرب كان من المديهي أن ينظر العرب اليهم بحين غير التي كانوا ينظرون بها الى المالكين وهم أشسيع أعدائهم بالأمس ، ولا يزال لقبهم ناطقا بالانتماء اليهم ، فكانوا من ثم يمتدنون فيهم قلعة المناصحة ، ولم يكن الحرب في ذلك مختلين ، فان الجراجمة في جبل اللكام (وهم الذين عرفوا فيما بعد باسم الموارنة) كانوا تابعين لبطريرك انطاكية قبل الفتح ، ولم يقاتل أهل البرجومة حبيب بن مسلمة الفهري ، بل بدروا الى طلب الامان والصلح ، فصالحوه على أن يكونوا أعوانا للمسلمين وعبونا ومسالح في جبل اللكام ، وأن لا يؤخذوا بالعزبة وأن ينقلوا أسلاب من يقتلون من عدو المسلمين اذا حضروا معهم في منازلهم ، (٢٧٠) ولكن الجراجمة كانوا

(٢٦٧) : في سنة ٧٢٣ م على عهد زعم تيوفانس أصدر الاموي يزيد بن عبد الملك أمرا يقضي برفع الايقونات من جميع الكنائس الموجودة في أراضي امبراطوريته .

Theophanes OP. Cit. PP. 46, 70, 71 : (٢٦٨)

(٢٦٩) : المقرئى الخطيب ج ٣ ص ٥٣٦ ، ٥٣٧

Chronique de Michel Le Syrien t. II . P. 433 .

(٢٧٠) : البلاذرى ، فتوح ص ١٦٤ .

يستقيمون للولاية مرة ويخرجون أخرى ، فيكاتون الروم وبالمثلونهم ، فلما كانت أيام ابن الزبير وموت مروان بن الحكم وخلافة عبد الملك بن مروان واستمداده للشخوص الى العراق لمصارمة مصعب بن الزبير ، توجهت خيل الروم الى جبل الطكام واستطاع قائد الجيش الرومي ان يتوجه الى لبنان ، وانضم اليه جماعة كبيرة من الجراجمة مما اضطر عبد الملك الى مصالحتهم طس ألف دينار كل جمعه ويصالح طاغية الروم على مال يوديه اليه كذلك ، واقتدى بصلحه بمعاوية حيث شغل بحرب أهل العراق ، ولكنه ما أن قضى على فتنة عمرو بن سعيد بن الحاص وطس مصعب بن الزبير حتى أرسل سحيم بن المهاجر الذي استطاع بالخدمة أن يقضى على القائد الرومي ومن معه من الروم ثم نادى في سائر من ضوى اليه بالامان ففرق الجراجمة بقوى حمص ودمشق ورجع اكثرهم الى مدينتهم باللكام ، وعند ما اجتمع الى الجراجمة سنة ٨٩ هـ قسوم من الروم من قبل الاسكندرونة ورووس ووجه الوليد بن عبد الملك المهيم أخاه مسلمة بن عبد الملك فافتتحها وقرر تخريب مدينتهم حتى لا يعودوا الى مخالطة الروم ، ولكنه منحهم مع ذلك مميزات متمدده ، إذ نجده يترك لهم حق اختيار المكان الذي يودون النزول فيه بالشام ، ويجسرى على كل امرئ منهم ثمانية دنانير وطس عيالاتهم القوت من القمح والزيت وعلى ألا يكرهوا أحدا من أولادهم ونسائهم على ترك النصرانية . (٢٧١)

وبالرغم من ذلك الشك الذي كان يساور نفوس الخلفاء تجاه الطكيين ، فان اليمامة في الشام لم يستطيعوا الشقوق على الطكيين كثيرا وغاية ما انتازوا به عليهم اطلاق الخلفاء المروانيين لهم حق اختيار بطاركتهم من رجتال كنيستهم واختصاص هؤلاء البطاركة البلديين بالكرامة والسطوة ، في حين كان الطكيون مهرومين من هذا الحق حذرا من قيام الضربا بينهم ، ولما عقد اليمامة البطركية لاسقف أفاميه مار الياس ، وقد طس الوليد بن عبد الملك فأحسن لقاءه وزاد في تشريفه بينما أخذ كنيسة الطكيين الكبسرى بدمشق ليحولها جامعا . (٢٧٢) وفي السنة الأولى من خلافة يزيد بن عبد الملك أذن للبطريرك مار الياس وقد دخل انطاكية بحوكمب حافل من الرهبان والاتباع ، وذلك بعد مضي اثنتين وثلاث سنين من خروج ساويرس رأس شيعتهم منها ، قال ديونيسيوس تل محسرى

(٢٧١) : البلادري ، فتوح ، ص ١٦٥ .

Chronique de Michel Le Syrien, t. II P. 480 .

(٢٧٢) :

فيما نقله عنه المطريرك ميخائيل الكبير : " ومنذ ذلك الحين لم يستطع أحد من بطاركتنا نحن
الارثوذكس أن يظا أرض انطاكية قبل مار الياس دخلها في هذا الزمن من دولة العرب". (٢٧٣)
وقبل أن أنهي البحث عن أهل الذمة لابد من أن أتطرق الى قضية ملابس أهل الذمة
في صدر الاسلام لاسيما وأن الفقهاء يطلقون اسم الشروط العمومية ، حين يتعرضون لهذا الموضوع
ليشيروا الى أنها من وضع عمر بن الخطاب ، وأزل من نسب هذه الأوامر الى الخليفة عمر ،
أبو يوسف (٢٧٤) المتوفى سنة ١٨٢ هـ) وابن عبد الحكم (المتوفى سنة ٢٥٧ هـ) في كتابه فتوح
مصر. (٢٧٥) أما اليهود الواردة في البلاذري والطبري وابن الأعمش فانها خالية من الإشارة
الى الملابس ، مما يدفع الانسان الى الشك في حقيقة اصدار عمر لهذه الأوامر ، لأن الفرض من
القواعد المتعلقة بالملابس هو سهولة التمييز بين النصارى والمسلمين ، وهذا أمر لا يرقى
اليه الشك عند كل من أبي يوسف وابن عبد الحكم (هكذا كان عمر بن الخطاب أمر عماله أن يأخذوا
أهل الذمة بهذا الزي ، حتى يعرف زبهم من زي المسلمين" ، (٢٧٦) على أنه يجب أن نلاحظ
أنه لم يكن ثمة ضرورة وقت الفتح لالزام النصارى لبس نوع من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون ، ان كان
لنقى من الفريقين وقتذاك شيا به الخاصة ، فمثلا كان النصارى قبل الاسلام يتزينون بالزنانير المحلاة
بالذهب والنفضة ويتعاضون بلبسها ، وكان النعمان بن المنذر يركب في كل أحد الى دير اللج ،
وفي كل عيد معه أهل بيته من آل المنذر ومن يناديه من أهل دينه عليهم حلل الديباج المذهب
وعلى رؤوسهم أكليل الذهب وفي أوساطهم الزنانير المحلاة بالذهب المقصصة بالجواهر ،
ونقل عن مارامه (٢٧٩) أو أبا الجاثليق أنه كان أول من أمر الاسكلانيين بشد الزنانير

Ibid P. 490

- (٢٧٣) :
(٢٧٤) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .
(٢٧٥) : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٥١ .
(٢٧٦) : أبو يوسف ، المصدر السابق ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .
(٢٧٧) : دير اللج بالحيرة . بناء النعمان بن المنذر ابو قابوس في أيام مملكته ، ولم يكن
في ديارات الحيرة أحسن بناء ولا أنزه موضعا (ياقوت ، معجم البلدان ج ٢ ص ٥٣) .
(٢٧٨) : الأغاني ، ج ٢ ، ص ٣٩ .

(٢٧٩) : Book of Governors, The Historia Monastica of Thomas, Bishop of Marga, A.D. 480. Tr. by E. A. Wallis Budge, London 1893 B. I Ch. XXIII P. 79.

في أوساطهم ليميزوا عن غيرهم، (٢٨٠) فالزناز إذا كان معروفا عند النصارى قبل الهجرة
والغالبية عمر بن الخطاب يرى من تهيئة وضعه عليهم قصد اذلالهم ، ولكن يبدو أن الحاجة
استلزمت هذه الشروط نفيها بعد حينما أخذت الشعوب الغاضمة تعمل على الاقتداء بالعرب
في طريقتهم والتقليد بهم في ثيابهم ، نستشعر ذلك مثلا في اتفاقية سنة ٨٩ هـ بين المسلمين
والجرجانة حيث تضمنت السماح للجرجانة بأن يلبسوا لباس المسلمين . (٢٨١)

وإذا راجعنا ما وقع لنا من أخبار الأمويين والاشعار التي قيلت في عهدهم ، لا نجد فيها
ذكرا للزناز في أوصاف النصارى ، الا فيما زعموه من أوامر عمر بن عبد العزيز وكتبه الى عماله فسي
التضييق عليهم ، واكثر ما يجيء التفضل بالزناز في غصون الخلفان في الأشعار العباسية ، وهذا
ما يجعل المرء يعتقد أن شرط الزناز حدث في أوائل عهد العباسيين ، وفي الشروط العمريّة
أن الزناز كان متوجبا على أهل الذمة من النصارى واليهود والمجوس ، ولكن لم تشتهر به حقيقة
الا النصارى وحدهم وقل جدا ذكر اليهود في الاوامر السلطانية بالزناز ، (٢٨٢) ومن الأبيات

القليلة التي صرح فيها بلبسهم اياه قول أبي نواس وقد نزل في حافة غمار يهودى .
وفتيان صدق قد صرفت مطيهم
فلما حكى الزناز أن ليس مسلما
فقلنا على دين المسيح بن مريم
ولكن يهودى يحبك ظاهرنا

الى بيت غمار نزلنا به ظهرنا
ظننا به خيرا فظن بنا شرا
فأعرض مزورا وقال لنا هجرا
ويضمر في المكنون لك الفـدرا (٢٨٣)

وكان اليهود أكثر ما يعرفون بالزناز أي في اللون الأصفر في عائمهم ، بينما كان النصارى
يمتازون بالزناز في أوساطهم .

ويبدو أن عمر بن عبد العزيز هو أول من أصدر أحكاما بشأن ملابس أهل الذمة ، وأقدم
النصوص التي تشير الى ذلك ، النص الذي أورده كذلك أبو يوسف ثم ابن عبد الحكم في كتابه سيرة
عمر بن عبد العزيز ونص ابن الحكم أكثر اختصارا ، ان يذكر أن عمر بن عبد العزيز كتب الى الآفاق :
" أن لا يمشون نصراني الا مفروق الناصية ولا يلبس قبا ولا يمشي الا بزناز من جلد ولا يلبس طيلسانا

(٢٨٠) : حبيب الزيات ، مسات النصارى واليهود في الاسلام ص ٢٠١ ، عن تاريخ جبالقة

النساطرة ، مخطوط رقم ٦٦٥٣ ، باريس ص ١٨٠ .

(٢٨١) : البلاذرى ، فتوح ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٢٨٢) : حبيب الزيات ، المصدر السابق ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٢٨٣) : المصدر السابق ص ٢٠٣ ، ديوان أبي نواس ، خزانة الفاتيكان رقم ٤٥٦ ص ١١٤ .

ولا سراويل ذات خدمة ولا نعلها هذبة". (٢٨٤) أما الرواية التي ينقلها أبو يوسف
من عبد الرحمن بن ثابت بن شيبان عن أبيه ، أن عمر بن عبد العزيز كتب الى عامل له : وانزع
تلك ، فلا يلبس نعلات ، ولا ثوب غز ولا مصب ، (٢٨٥) وقد ذكر لي أن كثيرا من قبلك مسن
النصارى قد راجعوا لبس المعائم ، وتركوا المناطق على أوساطهم واتخذوا الجمام والونسر
وتركوا التقصيص". (٢٨٦)

وبالرغم من أن ابن هديره يشير كذلك الى أن الخليفة حرّم على جميع الذميين لبس
المعائم أو التشبه بالمسلمين في ثيابهم ، (٢٨٧) وأن ابن عساكر يكرر رواية ابن عبد الحكم ،
فانه ما يسترعي الانتباه ، أن ابن سعد في طبقاته ، وهو كاتب الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ هـ
لا يشير الى هذه الشروط مع أنه لم يترك أمرا من الأمور المتعلقة بأحكام عمر بن عبد العزيز
الا وذكره ، ثم ان أباهلال في كتابه الأواكل يذكر أن أول من أمر بتغيير زي أهل الذمة هو
المتوكل ، (٢٨٨) وانما كانت النصوص السابقة تشير الى ملابس المسلمين التي يمنع النصارى
من ارتدائها فان أباهلال يتدبر الى أنباء أهل الذمة وألوانها ، ثم ان ابن قيم الجوزية يذكر
فقط أن عمر بن عبد العزيز أمر أن تهدم بيع النصارى المستجرة (٢٨٩) بينما يؤكد على التدابير
التي اتخذها المتوكل بحق ملابس أهل الذمة ، (٢٩٠) وهو في هذا يتفق مع ما ورد في الطبري
عند ذكر كتاب عمر بن عبد العزيز الى عبد الرحمن بن نعيم : " لا تهد مواكيسة ولا بيعة ولا بيت نار
صولحتم عليه ، ولا تهدن كنيسة ولا بيت نار " (٢٩١) وانما كان من قرارات عمر عدم الاستمارة

(٢٨٤) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٣٦ .

(٢٨٥) : مصب ، برد يمانية يمصب غزلها أي يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج فيأتي موشيا لبقا ،
ما مصب منه أبيض ولم يأخذه الصبغ .

(٢٨٦) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

(٢٨٧) : ابن هديره ، المقصد الفريد ، ج ٤ ص ٤٣٦ .

(٢٨٨) : أبوهلال المسكوي ، الأواكل ، ج ١ ص ٣٩٥ .

(٢٨٩) : ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ج ١ ص ٢١٣ .

(٢٩٠) : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٢٢ .

(٢٩١) : الطبري ، ج ٦ ص ٥٧٢ .

بأهل الذمة " فان المسلمون استعانوا بهم في أول الأمر لعلمهم بالجباية والكتابة والتدبير فكان لهم في ذلك مدة قضاها الله ، " ولذلك طلب من عماله منزل الكتاب والعمال من أهل الذمة واستنفذ إليهم بمرجال مسلمين ، (٢٩٢) ويؤكد هذا ما ذكره ساويرس من عمر بن عبد العزيز بأنه أثنى الاساقفة والكنايس من الخراج ، ومصر المدن التي خربت وأبطل الجبايات ، فماش القبط في أمن وهدوء ، ولكنه لم يلبث أن أرسل كتابا يأمر فيه الأقباط بالتخلي عن أصلهم في الدولة ماداموا على دينهم " أما من يريد الاحتفاظ بعمله فليكن على دين محمد " . (٢٩٣) ويرد في كتاب أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية أن معاوية كتب الى عمر بن الخطاب : أما بعد يا أمير المؤمنين ، فان في علي كاتبا نصرانيا لا يتم أمر الخراج الا به فكرهت أن ألقده دون أمرك ، فكتب اليه ، " ما فانا الله وإياك ، قرأت كتابك في أمر النصراني ، أما بعد فان النصراني قد مات والسلام " (٢٩٤) أي ماذا نعمل اذا مات ؟ ألا تجدون حينئذ من يقوم مقامه ؟ ثم يضيف ابن الجوزي بأن الخلفاء الذين لهم ثناء حسن في الأمة درجوا على ما طبقه الرسول وعمر بن الخطاب في عدم استخدام أهل الذمة في أعمال المسلمين ، فيذكر أسماء بعض الخلفاء كعمر بن عبد العزيز والمنصور والرشيد والحمدي والمأمون ، (٢٩٥) وفي هذا إشارة الى أن خلفاء بني أمية كافة باستثناء عمر بن عبد العزيز استعانوا بأهل الذمة ، كما أنه يورد روايات مستنقذة تظهر منع عمر بن الخطاب عماله من استخدام أهل الذمة ويطلب من المسلمين أن يتعلموا الكتابة فانما هي حلوسة الرجال ، (٢٩٦) وهذه الأتسوال على ما اعتقد لا تنطبق على أحوال زمان الخليفة عمر بن الخطاب ، وما عرف عنه من اهتمام بأمر رعيته ، وكل عارف بأخبار عمر ومعاوية يعلم أن الدواوين وقتئذ كانت بالشام الرومية ، وأن كل كتابات الخراج والجباية لم تكن تدون الا بالرومية ، فلم يكن يد للعرب من كتاب بلديين يجيدون فهم الرومية ، ولذلك لم يكن عند

(٢٩٢) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٣٦ .

(٢٩٣) : ساويرس ، سيرة الآباء البطارقة ، باريس ١٩١٠ م ج ٥ ص ٧١ ، ٧٢ .

(٢٩٤) : ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ج ١ ص ٢١٠ .

(٢٩٥) : المصدر السابق ج ١ ص ٢١٢ .

(٢٩٦) : المصدر السابق ج ١ ص ٢١١ .

معاوية كاتب نصراني واحد فقط بل مئات وآلاف من رجال القلم والملاحة والصناعة وكلهم من المسيحيين ، فلم يكن ثم من سبيل للاستفناء من النصارى سكان البلاد ، وقد شهد ضر بن عبد العزيز بمعاوية المسلمين الى النصارى كما رأينا ، ولذلك فان ما يذكره ابن الجوزية عن استفذان معاوية عمر في استخدام كاتب نصراني واحد واجابته بأن النصراني قد مات رواية لا يقبلها العقل والمنطق ، ولكن قد تقبل من الخليفة الناصر لدين الله العباسي الذي كتب من ابن زطينا النصراني كاتب ديوان الانشاء ببغداد حين أبي أن يفارق دينه النصراني ، مات ابن زطينا والسلام .

تشير المصادر العربية الى استخدام معاوية لسرجون بن منصور الرومي على الديوان وأمره كاهن (٢٩٧) واستخدمه ابن أثال النصراني على خراج حمص (٢٩٨) واستمر سرجون على ديوان الخراج حتى خلافة عبد الملوك . وكان لسرجون مكانة كبيرة لدى الخلفاء ، ويقال ان الكنيسة التي كانت خارج باب الفراديس كانت معدثة بنيت بمد الفتح لسرجون (٢٩٩) . وعند ما نقل سليمان بن سعد الخشني مولى بني أمية الديوان من الرومية الى العربية كان أول مسلم ولي ديوان الخراج ، وكانت النصارى تلي الدواوين قبله ، (٣٠٠) وبالرغم من أن اللغة العربية أصبحت لغة الدواوين في عهد عبد الملوك فان هذا لا يعني أن الأمويين لم يستغمو الكتاب النصارى ، فقد أورد ابن العبري في كتابه " أن عبد الملوك منسج الكتاب النصارى من أن يكتبوا الدفاتر بالرومية ولكن بالعربية " (٣٠١) وهذا دليل على أن الذين

-
- (٢٩٧) : خليفة ابن خياط ج ١ ص ٢٧٦ ؛ الطبري ج ٥ ص ٣٣٠ ؛ الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ص ٢٤ ؛ سيرة يوحنا الدمشقي ، ص ١٢ .
- (٢٩٨) : اليعقوبي ، تاريخ ج ٢ ص ٢٢٣ ؛ الجهشيارى ، ص ٢٤ .
- (٢٩٩) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٦ ص ٧٣ .
- (٣٠٠) : الجهشيارى ، ص ٤٠ ؛ تهذيب ، ج ٦ ص ٢٧٨ .
- (٣٠١) : ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١٦٤ .

مجيدون المربية قد بقوا في وظائفهم ، واستمر استخدام الامراء والخلفاء للنصارى ،
فقد وفد سليمان بن عبد الملك أمر الخنفقة على بناء الرقبة ومسجدها الجامع لكتاب له نصراني
من أهل اللد ، قال له الامير بن النكا (٣٠٢) وكان من كتابه من كتابه من عهد الملك تانورى بن
أسندين النصراني ، الذى قلده ديوان حص . (٣٠٣) ولا شك أن نسبة النصارى في الوظائف
قلت لدخول قسم من سكان البلاد في الاسلام ونتيجة للتدابير التي اتخذها عمر بن عبد العزيز
في خلافته ، الا أن تسامح خلفاء بني أمية وأمراءها بشكل عام مع أهل الذمة في الشام
جعل انتشار الاسلام بطريقا ، وليس أدل على ذلك كثرة الاسقفيات والكنايس التي بقيت
منتشرة في الشام ، (٣٠٤) والاشارات الى كثرة المسيحيين واليهود في المناطق المختلفة
في أوائل العصر العباسي (٣٠٥) ومن مقارنة ما ذكره اركولف (Arculf) في زيارته
للمناطق المقدسة في فلسطين وقد زارها سنة ٦٧٠ م / ٥٠ هـ وزيارة وليبالد
(Willibald) ، (٣٠٦) لهذه المناطق سنة ٧٥٤ م / ١٣٧ هـ نرى بوضوح أن
المسيحية كانت لا تزال واسعة الانتشار ولا سيما في المنطقة الجنوبية من الشام ، كذلك بقي
لبنان نصراني النذهب سرياني اللغة الى ما بعد الفتح بأجيال طويلة ، (٣٠٧) ويشير
المقدسي (ت ٣٨٠ هـ) الى كثرة أهل الذمة في مصره في منطقة الشام ، (٣٠٨) ويعلق قائلا :
أقل ما ترى في الشام فقيها له بدعة ، أو مسلما له كتابة ، الا بطبرية ، فانها مازالت تخرج

(٣٠٢) : البلاذرى ، فتوح ص ١٤٩ ، الجهشيارى ص ٤٨ .

(٣٠٣) : الجهشيارى ص ٥٩ .

(٣٠٤) : يوسف الدبس ، تاريخ سوريا ، ج ٣ المجلد الخامس ، ص ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦٢ ،

٢٦٤ ، وهو يشير الى وجود اسقفيات في حماه وبيروت وصيدا ودمشق

وبهروك ، وداريا واخرى بالقرب من غزة واثني الاسقفيات في فلسطين .

(٣٠٥) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٤٠ .

(٣٠٦) : The Pilgrimage of Arculfus in The Holy Land about the

year 670. Translated and Annotated by the Rev. James Ros

Macpherson, London, 1889. The Pilgrimage of Willibald in the

Holy Land about 754.

(٣٠٧) : حتى ، تاريخ العرب مطول ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٣٠٨) : المقدسي ، أحسن التماسيم في معرفة العالم ، ص ١٧٩ .

الكتاب ، وانما الكتبة به وبمصر نصارى . وأكثر الجهادية والصباغين والديباغيين يهود في هذا الاقليم ، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى ، (٣٠٩) كما يشير الى أن بيت المقدس تربة الملمساء كثيرة النصارى قد غلب عليها النصارى واليهود ونحو المسجد من الجماعات والصباغين . (٣١٠) وفي العديد من أهل الذمة في الشام تستوقفنا هذه الحقيقة البالغة الأهمية في تكوين المجتمع الاسلامي ، هذه الحقيقة هي أن ايمان المسلمين بالسابقين من الأنبياء وبشرية وجود أصحاب الديانات الأخرى واحترام الاسلام للانسان كمخلوق مهما كان اعتقاده ، هذه العناصر هي التي افسحت المجال لبقاء واستمرار تلك الجماعات غير المسلمة وسط مجتمعات المسلمين عبر تاريخ المسلمين الطويل ، في حين أن الكنيسة في أوروبا رفضت الاعتراف بنبوته محمد (صلعم) وكان من نتيجة هذا الموقف أن أوروبا المسيحية لم تسمح منذ البداية باستمرار وجود المسلمين ، وما جرى في الاندلس خير شاهد على ذلك فقد كانت الغارات التي وضعت امام المسلمين هي في حقيقة الأمر ، القتل ، والتتصير أو الطرد ، أى أنها كانت درجات في اقتلاع الجذور والغاء كيان المسلمين ، وهذا ما حدث بالفعل وأدى في النهاية الى اختفاء الاسلام تماما من الاندلس .

الرقيق :

كان الرق أمرا مشروعا عند الأمم القديمة من مصريين وباليونانيين وفرس ويونان وروم وعرب ، وقد أقرته اليهودية واعترفت به المسيحية . (٣١١) وقد أقر الرق جميع الفلاسفة والفقهاء من رومان ويونان ، افلاطون ، وأرسطو ، وشيشرون ، وسينيكا ، واعتبروه من الأمور الطبيعية أو الضرورية ، وكان أول من استعبد الأسرى وسخر الشعوب المغلوبة هم الرومان ، وكثر الرقيق في عهدهم حتى ذكر بعض مؤرخيهم أن الارتقاء في الممالك الرومانية بلغت في المدة ثلاثة أمثال الأحرار ، (٣١٢) وكانت

- (٣٠٩) : المستشرق سينيكي ص ١٧٩ ، الجاحظ ، ثلاث رسائل ، طبعة القاهرة ١٣٤٤ هـ ص ١٤
(٣١٠) : المصدر السابق ص ١٦٧ .
(٣١١) : أحمد شفيق ، الرق في الاسلام ، تصريب أحمد زكي ، المطبعة الاميرية -
الطبعة الأولى ١٣٠٩ هـ . ص ٩ - ٢٧ . أحمد أمين ، فجر الاسلام ،
الطبعة المباشرة ١٩٦٩ م ص ٨٧ - ٨٨ .
(٣١٢) : أحمد أمين ، المصدر السابق ص ٨٧ .

وجره الاسترقاق عند الرومان متددة (٣١٣)

ومع ذلك جاء الاسلام كان الرق يعتبر نظاما أساسيا في حياة الشعوب القديمة ودائمة في كيانها الاقتصادي والاجتماعي ، فلم يتمكن من الخاء الرق في العالم حتى لا تصدم دعوتهم مع مألوف النفوس وأثلا تضرربالأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، وإذا كان الاسلام يقدر معنى الحرية ويمتبرها الأصل في الانسان ، إلا أن من خصائص تشريعه التدرج في الاحكام ، لذلك أقر مؤقتا واقع الأمر ولم يمنع الرق دفعة واحدة ومضى في التدرج بالمسلمين (٣١٤) فهدأ أسبابها للقضاء على الرق وحرّم سائر مصادره ما عدا رق الاسر بسبب الحرب العادلة لرفع العدد وان الرق بسبب الوراثه ، والشرع لا يبيح أن يسترق مسلم أصلا . (٣١٥)

وكان المسلمون اذا غزوا بلدا دعوا أهله الى احدى خصال ثلاث ، الاسلام والجزية أو القتال ، فان رفضوا الاسلام والدخول تحت حكمه ودفع الجزية أظنت الحرب وقوتلوا ، وان طلب المحاربون صلحا أثناء الحرب أجبروا اليه متى رأى الامام ذلك ، (٣١٦) " وان جدهوا للمسلم فاجتنب لها " ووجب ان ذلك تنفيذ الشروط حسب ما تعاقدوا ، وان لم يكن صلح وانتصر المسلمون ونجح البلد فهناك أسرى حرب وهناك أهل البلد المفتوح الذين لم يكونوا في الجيش المحارب ، أما الاسرى فانا نجد أنه ورد فيهم في القرآن الكريم ، " فانا لقيتم الذين كفروا ، فضرب الرقاب ، حتى اذا أشخنتموهم فشدوا الوثاق ، فاما مناهم وما فداؤهم " (٣١٧)

(٣١٣) : مدونة جستنيان في الفقه الروماني ، ترجمة الدكتور عبد العزيز فهمي ، دارالكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٦ ، ص ١١ ، دروس في الفقه الروماني ، محمد

محسن البرازي ، الطبعة الثانية ، ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٩ م ، ص ٧٩ - ٨١ .

(٣١٤) : علي أحمد الجرجاوي ، حكمة التشريع وفلسفته ، القاهرة ، الطبعة الرابعة ،

١٩٣٨ م ، ج ٢ ، ص ٤٠٠ .

(٣١٥) : أحمد بن الحسين البيهقي ، سنن البيهقي ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ،

حيدرآباد ، طبعة أولى ، ١٣٥٤ هـ ، ج ٩ ، ص ٧٣ .

(٣١٦) : أحمد أمين ، فجر الاسلام ، ص ٨٦ .

(٣١٧) : سورة محمد ، آية ٤ .

وهي تدل على أنه ليس للإمام في الأسرى إلا أن يمن عليهم ويطلقهم أو يأخذ مالا فدية لهم أو يفتدي الرجل المسلم بالرجل الصعاب ، ولكننا نجد من ناحية أخرى أن الرسول (صلعم) كان يفعل أسد هذين الأمرين أحيانا وكان يقتل الأسير ويسترقه أحيانا أخرى ، ففي بدر قتل عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث بعد أسرهما ، وقتل النبي (صلعم) يوم أحد أبا عزة الشاعر بعد أسره ، وقتل بني قريظة بعد نزولهم على حكم سعد بن معاذ ، فعلم فيهم بالقتل وسبي الذرية ، ولكن قتل الرسول لبعض الأسرى في أول الإسلام يعتبر حوادث فردية لظروف معينة ، وليس تشريعا عاما دائما ، إلا لتجدد نفس الظروف ، فقد قتل بعض الأسرى لفلوهم في معاداة الدعوة الإسلامية وللمتمادي في إيذاء الرسول عليه السلام والاسترسال في هجائه . (٣١٨)

أما الاسترقاق فقد أنظر الرسول إلى تطبيعته هو وصحابته جريا على شريعة السماطية ، بالسلب واحتضى قانون العرب أنساءد في ذلك الزمان ، ولكي يشمر المسلحون غيرهم أنهم صاروا في مركز ذي كيان دولي يستطيعون تنفيذ تعاليم الحرب وتثبيت الهيبة والسلطان ، إذ لو استرق الأعداء أسرى المسلمين دون مقابلتهم بالمثل لاستمر العدو وفعله ، ولكن ذلك سببا فسي زيادة عدد الرقيق في العالم دون أن يقيد ذلك بقيد ، وفي هذا من المفسدة والضرر ما لا يخفى ، ولكن المسلمين كانوا إذا قدروا عفوا وصفحوا وأظهروا فضلهم واحسانهم ، فيكون

(٣١٨) : القسطلاني ، شهاب الدين أحمد بن محمد ، إرشاد السارى لشرح صحيح البخارى طبعة بولاق ، ١٣٢٧ هـ ج ٥ ص ١٥٧ ؛ وعن الأوزاعي أن عقبة بن معيط أقبل ورسول الله (صلعم) عند الكعبة فلوى ثوبه في عنقه وخنقه خنقا شديدا فقام أبو بكر من خلفه فدفعه عن رسول الله (صلعم) . (الطبرى ج ٢ ص ٣٣٣)
أما النضر بن الحارث من بنى همدان فكان ممن اجتمعوا في دار الندوة للتشاور فيها يصنعون بأمر الرسول حين خافوه ، واشترك في معركة بدر ، (الطبرى ج ٢ ص ٤٥٩) وبالرغم من أن الرسول قد من على عمرو بن عبد الله ، أبي عزة الشاعر يوم بدر وكان في الأسارى ، لأنه كان فقيرا ذا بنات ، فان صفوان بن أمية استداع أن يتدعه بأن يبينهم بلسانه مقابل اغناقه ، فخرج يسير في تهامة ويدعو بني كنانة لحرب الرسول . (الطبرى ج ٢ ص ٥٠٠ ، ٥٠١) .

ذلك مدعاة لقبول الاسلام بما يرضى بين جناحيه من انسانية ورحمة ، وبدل على هذا أن أغضب ما استرق من القبائل أو أفراد العدو وقد عاد حرا ، فقد رد رسول الله ستة آلاف من سبي هوازن من النساء والصبيان والرجال الى هوازن ، (٣١٩) ومن رسول الله (صلعم) على أهل مكة بقوله " اذهبوا فأنتم الطلقاء " واعتق الرسول حين تزوج جوهرية بنت الحارث مائة من أهل بيت بني المصطلق اكراما لصهر رسول الله (صلعم) . (٣٢٠)

وفي خلافة عمر بن الخطاب استقامت الجزيرة كلها لنظام الخلافة ، فمنع أن يسترق العرب ، فقال : انه ليقيح بالعرب أن يملك بعضهم بعضا ، وقد وسع الله وفتح الأعاجم ، واستشار في فداء سبايا العرب في الجاهلية والاسلام الا امرأة ولدت لسيداها ، وجمائل فداء كل انسان سبعة أبعرة أو ستة أبعرة الا حنيفة وكندة فانه خفف عنهم لقتل رجالهم (٣٢١)

ان الاجراءات التي اتخذها الرسول تجاه الاسرى جعلت أئمة الفقهاء يختطفون في حكم الاسرى ، وان اتفق معظمهم على أن هذه الامور متروكة للامام يتصرف في كل حال حسب ما يحيط به من ظروف مشددة أو مخففة . أما في حالة اسلام الاسير فالأمر يختطف ، فاذا أسلم أحد من السبي من النساء والصبيان فلا يجوز رده الى بلاد الحرب منعا للفتنة ، (٣٢٢)

وان أسلم الاسير يحرم قتله عند جميع العلماء ، ولكن اعتناق الاسلام لا ينافي الرق . (٣٢٣)

أما أهل البلد المفتوح من غير المحاربين فالامام مخير بين استرقاقهم وتركهم أحرارا يدفعون الجزية والخسراج ، ولكن عمر بن الخطاب واليه المرجع في كثير من هذه المسائل ،

(٣١٩) : ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٤ ، ص ٩٨ ، ٩٩ ؛ الطبري ج ٣ ، ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٣٢٠) : الطبري ، ج ٢ ، ص ٦١١ ، ٦١٢ .

(٣٢١) : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٤٠ .

(٣٢٢) : سورة الممتحنة ، آية ١٠ .

(٣٢٣) : ابو عبيد ، الاسوال ، ص ١٣٦ ؛ السرخسي ، شرح السير الكبير ، الطبعة

الأولى ، ١٣٣٥ ، ج ٢ ، ص ٢٦٣ .

ترك أهل سواد العراق أحرارا مقابل دفع الجزية والخراج، (٢٢٤) واتبع عبر الاسلوب نفسه في الشام وحرر في الاراضي التي استولى عليها العرب عنوة، (٢٢٥) وإذا استرق الاسرى أو أهل البلد المفتوح فإنهم يحترقون غنمة، ينبغي أن تأخذ للدولة محسبهم وتوزع الأربعة أخماس الباقية بالتساوي على من اشترك بالمعركة من المقاطعة من أهل الديوان وغيرهم، (٢٢٦) وبقيت الغنائم تقسم في عهد بني أمية عندما كان المسلمون يخزون الروم والترك والبربر، (٢٢٧) ويبدو أن المسلمين في عمليات فتوحهم الأولى قد أطلقوا عليها سراج معظم من وقع بأيديهم من السبي ولا سيما سبي القرى (سبي الأهواز، (٢٢٨) وسبي منادر، (٢٢٩) ولهبب وألخيس، وسلطيس، (٢٣٠) وسبي تستر، (٢٣١)، إلا سبي المدن، (٢٣٢) ولكنهم عدوا إلى قتل المقاطعة، (٢٣٣) كما أن الاسلام حرر العبيد المسلمين الذين يفرون من أسيادهم، إذا كان هؤلاء الاسياد من أهل الحرب، (٢٣٤)

شرع الاسلام في الواقع منافذ عديدة في سبيل التخلص من رق الأسر وتوابعه، فجعل القرآن الكريم مصير الاسرى اما العن واما الفداء، وجعل العتق كفارة عن كثير من الجرائم والذنوب، (٢٣٥) وخصص الاسلام سهما لبيت المال من الصدقات التي تجب لتفسيق في سبيل تحرير الرقاب، وفضلا عن ذلك فان الاسلام جعل من أسس النجاة في الآخرة.

-
- (٢٢٤) : يحيى بن آدم القرشي، الخراج، طبعة ليدن، ١٨٩٥، ص ١٣، البلاذري، فتوح ص ٢٦٨، الطبري ج ٣ ص ٥٨٦.
- (٢٢٥) : البلاذري، فتوح ص ٢١٥، ٢١٦، الطبري ج ٣ ص ٣٦٩.
- (٢٢٦) : يحيى بن آدم، ص ٣، أبو يوسف، الخراج ص ٢١، ابن تيمية، السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية، دار الكتب العربية، بيروت ص ٣٠.
- (٢٢٧) : ابن تيمية، المصدر السابق ص ٣٠.
- (٢٢٨) : البلاذري، فتوح ص ٣٧٠.
- (٢٢٩) : المصدر السابق ص ٣٧١.
- (٢٣٠) : المصدر السابق ص ٢١٧.
- (٢٣١) : المصدر السابق ص ٣٧٤.
- (٢٣٢) : المصدر السابق ص ١٤٧.
- (٢٣٣) : المصدر السابق ص ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٤.
- (٢٣٤) : ابن حنبل، المسند ج ٤، فقرة ٢١٧٦، ٢٢٢٩.
- (٢٣٥) : محمد سلام مذكور، تاريخ الفقه الاسلامي، القاهرة ١٩٥٩، ص ٤٣.
- .../...

فك رقبة ، (٣٣٦) وقر الاسلام مهدأ العدل والمساواة في الحقوق كافة بين طبقات الناس قال تعالى : " يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم " (٣٣٧) وأحسن لذلك معاطة العبيد في المطعم والمسكن واللبس والتخاطب ، روى ابن أبي داود عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : " قال رسول الله (صلعم) لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي فلكم عهد الله وكلمة الله ، ولكن لتقل غلامي وجاريتي وفتاتي وفتاتي " . (٣٣٨)

كانت العلاقة بين السيد ومهده علاقة شخصية ولذلك فليس للمشيرة أو الدولسية حق التدخل فيها ، وكان من نتيجة ذلك أن المشيرة لم تكن تدفع دية الجرائم التي يرتكبها عبيدها . (٣٣٩) كما أن الدولة كانت غير مسؤولة عن القبض على الأبق الهاربين من أسبادهم . (٣٤٠) وبالرغم من أن العبد كان يحتر ملكا لسيد الذي يتمتع بالحقوق المطلق في بيته واستئذانه غيما يشاء من الأعمال ، فانه لم يكن له الحق في قتل عبده (٣٤١) وقد روي أن رجلا قتل عبده متعمدا فجلده الرسول مائة جلدة ونفاه سنة وصعا اسمه ممن المسلمين ، (٣٤٢) واكتفى في الواقع لا نعلم بماذا كانت الدولة تعاقب من يقتل عبده . كان العبيد في الاسلام يتمتعون ببعض الحقوق التي لا يمكن أن ينكرها عليهم القائلون والمجتمع ، فمقدورهم بعد استئذان سيدهم أن يتزوجوا (٣٤٣)

-
- (٣٣٦) : الرازي ، تفسير الرازي ، المطبعة الخيرية ، الطبعة الاولى ١٣٠٧ ، ج ٨ ص ٤٣٣ .
(٣٣٧) : سورة الحجرات آية ١٣ .
(٣٣٨) : الألف المفتراة من صحيح البخاري ، اختيار وشرح عبد السلام محمد هارون ، بيروت ١٩٧٩ ص ٤٠٣ ، فقهه ٣٣٣ ، الطحاوي ، مشكل الآثار ، مطبعة دار المعارف النظامية في الهند ، حيدرآباد ، الطبعة الأولى ، ١٣٣٣ هـ ج ١ ص ٤٩٣ .
(٣٣٩) : أبو يوسف ، الآثار ، القاهرة ١٣٥٥ هـ . ص ٢٢١ ، مالك بن انس ، المدونه ، القاهرة ، ١٣٢٤ هـ ج ٤ ص ٤٤٤ .
(٣٤٠) : ابو حنيفة ، جامع المساند ، حيدرآباد ١٣٣٢ هـ ، ج ٢ ص ٧٣ - ٧٥ ، أبو يوسف ، الآثار ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، مالك ، المدونه ، ج ٤ ، ص ٣٦٦ .
(٣٤١) :
(٣٤٢) : ابن ماجه ، السنن ، القاهرة ١٣١٣ ، كتاب الديات ، الباب ٢٣ .
(٣٤٣) : ابو حنيفة ، مساند ج ٢ ص ٨٣ ، ٨٤ ، أبو يوسف ، الآثار ، ص ١٣٠ ، ١٣١ .
.../...

ويصح اولادهم الام في حالة رقها وولائها ، (٣٤٤) ويحدد ورهم ان يمتلكوا الاموال ويتمتعوا
بها في حياتهم ، ولكن اموال الميراث تخرج الى سيدهم عند موتهم او موتهم ، (٣٤٥) ثم ان
لهم ان يستنقوا ماشاؤوا من اديان ويحاربوا طقوسها ، فاذا اعتنقوا الاسلام كانت عليهم معظم
الفرائض الدينية المفروضة على الاحرار من المسلمين ، غير ان صلاة الجمعة مثلا ليست
واجبة عليهم ، (٣٤٦) وكذلك الحج ، (٣٤٧) كما ان حقوقهم في الامور المدنية اقل من الاحرار
فلم يكن لهم ان يتزوجوا اكثر من زوجتين ، والطلاق عندهم طلقان (٣٤٨) وعدة الجارية
شهران ، (٣٤٩) ولم يكن للعبد ان يحارب من غير ان سيده ، (٣٥٠) كما انه لا يدون
اسمه في الديوان ولا يعطى عطاء ، (٣٥١) ولم يكن يسهم له في الفريضة لانه تابع لسيد ، (٣٥٢)
الا انه كان يرضخ له اى يعطى اجرا ، (٣٥٣) غير انه يجوز للعبد المسلم اعطاء الامان اعتادا
على قول عمر : " ان العبد المسلم من المسلمين وذمة ذمتهم ، وامانه امانهم " (٣٥٤) اى ان
الامان هو اساس اعتبار الشخص اهلا لاعطاء الامان ، وليس هو العرية والعبودية ،
وقد اتخذت الخليفة عمر امان العبد بالفعل عندما امن عبد اهل حصن ، فأرسل القائد
يستشير ، فكتب عمر ان احيروا امان العبد . (٣٥٥)

-
- (٣٤٤) : الشافعي ، الام ، القاهرة (١٣٢١ ، ١٣٢٦ هـ) ج ٦ ص ٣٨٥ ، ابو حنيفة ،
مسند ج ٢ ص ٨٣ .
- (٣٤٥) : الشافعي ، الام ، ج ٣ ص ٣٦ ، ج ٤ ص ٣ ، ابو حنيفة ، مسند ج ٢ ص ٢٧ ، ١٦٥ .
- (٣٤٦) : ابو يوسف ، الآثار ص ٧٣ ، الشافعي ، الام ج ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .
- (٣٤٧) : المصدر السابق ص ٧٣ ، الشافعي ، المصدر السابق ج ١ ص ١٦٧ ، ١٦٨ .
- (٣٤٨) : E. I. , Art. Abd .
- (٣٤٩) : ابو حنيفة ، مسند ج ٢ ص ١٣٣ .
- (٣٥٠) : ابن سعد ، الطبقات ج ٦ ص ١٨٣ .
- (٣٥١) : البلاذري ، انساب الاشراف ج ٥ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ابن الاثير ، ج ٤ ص ٣٠٤ .
- (٣٥٢) : ابن حنبل المسند ج ٤ فقه ٢٩٣١ ، ٢٩٣٢ ، ٢٩٣٣ ، ابن الصري ، احكام
القرآن ، القاهرة ، ١٣٧٦ هـ سنة ١٩٥٧ م ج ٢ ص ٨٩٢ .
- (٣٥٣) : ابو هريرة ، الاسوال ، ص ٣٣٣ ، الطبري ، اختلاف الفقهاء ، القاهرة ١٩٣٦ ص ٢٠ ،
١١٤ .
- (٣٥٤) : البيهقي ، السنن ج ٩ ص ٩٤ .
- (٣٥٥) : البلاذري ، فتوح ، ص ٣٨٣ .

وكان لبعض العبيد مزايا شخصية مكنتهم من الحصول على ثقة أسيادهم ، فأصبحوا تلامذة أو رواة لأهل العلم منهم ، (٣٥٦) أو وكلاء عن أسيادهم في الاعمال التجارية وهذا الى أن عددا كبيرا منهم أصبحوا مآذونيين أي منحوا حق ممارسة المهنة والأعمال التي يريدونها وأصبحت لهم حرية في مباديهم الأعمال في الصناعة والتجارة ، (٣٥٧) على أنه مهما كانت نظرة المجتمع للعبيد طيبة ، ومعاملة السيد حسنة ، فإنه كان معروفا من حرمة مقبدا في تصرفاته ، مرتبطا بسهولة سيده وأمزجته وأهوائه ، محروما من التمتع بكل ثمار دخله ، فكانت انزالا بهد أن تكون أقل من مكانة العر المتتمع بكامل حرمة .

كانت الدولة تملك رقبتا يسمى رقيق الخص ، أو رقيق الاماره ، وكان ممظم رقيق بني أسية منهم . (٣٥٨) وقد ازداد عدد رقيق الخص نتيجة للفتوحات الاسلامية شرقا وغربا ، فقد أخذ موسى بن نصير ٣٠٠ ألف أسير من اغريقيا وبلغ النخس يومئذ ٦٠ ألفا (٣٥٩) ويقال أن قتيبة بن مسلم الباهلي أصاب من خوارزم مائة ألف رأس ، (٣٦٠) وعند ماصالح قتيبة أعل سمرقند صالحهم على ألفي ألف وداثني ألف في كل عام على أن يحطوه تلك السنة ثلاثين ألف رأس ليس فيهم صبي ولا شيخ ولا عيب ، أما انبا سليمان فيقولون أنه صالحهم على ١٠٠ ألف رأس ، (٣٦١) وهذه الارقام وان كان فيها بعض المبالغه إلا أنها تشير الى الاعداد الكبيرة من الرقيق التي تدفقت على الشام اضافة الى ما كان فيها من العبيد ، فقد استطاع يزيد بن أبي النسر الفسّاني الذي لم يشهد الجابية واغتيا بدمشق أن يشور بأهل

(٣٥٦) : ابن سعد ، الطبقات ج ٧ قسم ٢ ص ١٧٣ .

E.I. , Art. Abd .

(٣٥٧) :

(٣٥٨) : ابن سعد ، المصدر السابق ج ٧ قسم ٢ ص ١٧٣ .

(٣٥٩) : ابن عذارى ، البيان المغرب ، ج ١ ص ٣٢ .

(٣٦٠) : الطبري ج ٦ ص ٤٧١ .

(٣٦١) : المصدر السابق ج ٦ ص ٢٧٥ .

دمشق في عهد ها ، وأن يغلب عليها ويخرج عامل الضحاك ، (٣٦٢) وكان لعمرو بن سعيد وهو من أمراء البيت النبوي الف عهده ، (٣٦٣) وبلا حظ ابتداء من خلافة سليمان بن عبد الملك تعيين أشخاص يوكل اليهم أمر الرقيق ، فقد عين سليمان بن عبد الملك ، عبد الله بن عمرو بن الحارث بنو بني عامر بن لؤي على بيوت الاموال والخزائن والرقيق والنفقات ، (٣٦٤) وعند ما سيطر العباسيون على الشام قبضوا رقيق بني أمية من الأخصاس . (٣٦٥) كان رقيق الخمس يستخدم في شؤونهن شتى ، فعند ما أرسل معاوية سبي قيساريه البالغ أربعة آلاف رأس الى عمر بن الخطاب ، قسمهم على بنات من الأنصار وجعل بعضهم في الكتاب وأعمال المسلمين ، (٣٦٦) واستخدم خالد بن يزيد عند ما كان واليا على حمص (٤٠٠) عهد في بناء مسجد ها ، (٣٦٧) كما أن عبد الملك أقام من خمس الأسرى خدما لمسجد قبة الصخرة ، وكانوا سائلين له وكانوا يسمون الاخصاس ولا يخدمه غيرهم ، (٣٦٨) وكان عمر بن عبد العزيز اذا كثرت عهده وأرقه الخمس فرق بين كل مقدم بين وبين كل زمني غلاما يخدم مبهما ولكل أحده غلاما يقوده ، (٣٦٩) ولا شك أن الوليد بن عبد الملك الذي كان أول من أجرى على العميان والبرصى والمجنون الارزاق وأعطى كل مقدم خادما وكل ضريح قائدا ، قد استخدم في ذلك رقيق الخمس ، (٣٧٠) وبالرغم من أن كلود كاهن (Claude Cahen) يذكر في بحثه عن المؤسسات الاقتصادية والاجتماعية في الاسلام أن العبيد كانوا يستخدمون لادارة

-
- (٣٦٢) : الطبرى ج ٥ ص ٥٣٧ .
(٣٦٣) : المصدر السابق ج ٦ ص ١٤٤ ، ابن الاثير ج ٤ ص ٣٠ .
(٣٦٤) : خليفة بن خياط ج ١ ص ٤٣٢ .
(٣٦٥) : ابن سعد الطبقات ج ٧ قسم ٢ ص ١٧٣ .
(٣٦٦) : البلاذرى ، فتوح ص ١٤٧ .
(٣٦٧) : البلاذرى ، انساب الاشراف ج ٤ قسم ٢ ص ٦٩ .
(٣٦٨) : المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ص ١٧١ .
(٣٦٩) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٤٨ .
(٣٧٠) : العيون والحدايق ص ١١ ، ١٢ ، الطقشندى ، صبح الأعشى ج ١ ، ص ٤٣٢ ، تهذيب تاريخ دمشق ج ٥ ص ٤٤٤ .

الأعمال البيتية والحرف اليدوية وأنهم لم يستخدوا في العمل الزراعي في العصر الاموي (٣٧١)
فهناك روايات تشير الى أن العمل في الأرض كان يعتبر من الأعمال الأساسية للعبيد ،
وكانت العزبة اذا وهبت وهبت بالأمتار روثهم . (٣٧٢)
لمست بين أيدينا روايات تثقى ضوءاً على مستوى حياة الرقيق والمعاطة التي كانوا
يلقونها من أسيادهم في الشام ، الا ان اشتراك عدد كبير من أباقي العبيد مع الجراجمة في
ثورتهم تجعلنا نتساءل عن سبب هربهم والتحاقهم بالثورة ، أهو ناجم عن سوء في المعاطة ،
أم عن رغبة في الحصول على الحرية التي تعتبر أشد ما يتوق اليه الانسان ؟ مهما يكن دافع هؤلاء
العبيد ، فإن سحيم بن المهاجر الذي كان قد أرسله عبد الطالك للقضاء على القائد الرومي الذي
أثار الجراجمة ، استطاع أن يستميل العبيد اليه عندما أمر فنودي بأن من يأتيه من العبيد
فهو حر ويثبت في الديوان (٣٧٣) فانفض اليه خلق كثير وقائلوا معه فوفى لهم وجعل لهم ربحاً
على حده فهم يسمون الغنيمان . (٣٧٤) وكان أمراء بني أمية رولا تهم يعتقدون الكثير من رقيقهم ،
فتد اعتق خالد بن يزيد (٤٠٠) عهد بعد انتصاهاتهم من بناء المسجد بخص ، (٣٧٥) وأمتق
سليمان حسب رواية النويري في يوم واحد سبعين ألف مملوك ومطوكة وكساهم ، (٣٧٦) هذا
وان كثرة الحوالي لدى الخلفاء ولدى أمراء بني أمية كلها دلائل تشير الى ذلك .

Claude Cahen, Economy, Society, Institution , The : (٣٧١)
Cambridge History of Islam, Vol. II The Cambridge University Press
1970, P. 519.

(٣٧٢) : المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ١١٩ ، تهذيب ج ٥ ص ٣٤٢ ، ابن طولون ،

الثغر البسام في ذكر من ولي قضاء الشام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق

١٩٥٦ م ص ٦ ، ٧٠

(٣٧٣) : البلاذري ، انساب ج ٥ ص ٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ابن الاثير ج ٤ ص ٣٠٤ .

(٣٧٤) : المصدر السابق ص ٣٠٠ .

(٣٧٥) : المصدر السابق ج ٤ قسم ٢ ص ٦٩ .

(٣٧٦) : النويري ، نهاية الارب في فنون الأدب ، ج ٢١ ، ص ٣٥٣ .

الفصل الرابع

دور أهل الشام في توطيئهم

سلطان بني أمية

دور أهل الشام في دعم خلفاء بني أمية

كان أهل الشام القاعدة المتينة والجبهة المتراصة التي كان الحكم الأموي يقوم عليها ، وكل اختلال في هذه الجبهة كان يعرض الخلافة الأموية للخطر كما ستبين لنا من خلال البحث ، وقد رأينا دعم أهل الشام لمعاوية في صفين ، كما دعم أهل الشام يزيد بن معاوية ، عندما رفض عبد الله بن الزبير البيعة له ، (١) وانضم أهل المدينة اليه فثاروا على يزيد ، وبالرغم من أن معظم المصادر تقسو بشكل عام على يزيد ، إلا أنها في الوقت نفسه تحاول أن تبرز محاولات يزيد المتكررة في الوصول الي حل يمنع سفك الدماء ، كما أنها تشير الى أن يزيد بن معاوية لم يحمد الي حرب أهل المدينة ثم عبد الله بن الزبير إلا بعد أن فشلت المفاوضات التي اشترك فيها عدد من الشخصيات البارزة في المجتمع الشامي . (٢) وهذا بدوره ساعد يزيد على أن يحصل على دعم القوات الشامية بفئاتها المختلفة ، ومن ثم نجد اتفاقا في عدد كبير من المصادر بأن الجيش الذي انتدب لقتالهم كان مؤلفا من (١٢) ألف مقاتل يضم مقاتلة من الأجناد الخمسة ، (٣) كما أنه كان يضم وجوه أهل الشام وفرسانهم ، (٤) المؤمنين

(١) : البلاذري ، أنساب ، ج ٤ ، قسم ٢ ص ٣١ .

(٢) : المصدر السابق ج ٤ ، قسم ٢ ص ٢٠ ، ٣٢ ، ابن الأثير ، فتوح ، ج ٥ ، ص ٢٧٩ ، ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ١ ص ١٧٧ .

(٣) : البلاذري ، أنساب ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٣٣ . الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٩٣ .

تاريخ الخلفاء لمؤرخ مجهول ، ص ١٩٧ . ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ١١٢ .

تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٧ ص ٦٠ .

(٤) : الطبري ، ج ٥ ص ٥٣٧ .

بان النصر سيكون عليهم لأن أهل المدينة قد خالفوا الامام وخرجوا من الجماعة ، (٥) وقد انتصر أهل الشام بفضل طاعتهم لأمرائهم واستقامتهم وصبرهم في لقاء عدوهم (٦) فسي معركة الحرّة في ثلاث بقين من ذي الحجة سنة ٦٣ هـ ، ولكننا يجب أن لا ننفل السدور الذي لمعه عبد الملك والخطأ الذي ارتكبه أهل المدينة باخراجهم بني أمية منها ، وبالرغم من أنهم أخذوا المواثيق عليهم أن لا يدلوا لهم على عورة وأن لا يظاهروا عليهم عدوا ، (٧) فان عبد الملك عندما التقى بمسلم بن عقبة المري قائد الجيش الشامي في وادي القرى ، نصحه أن يتوجه بجيشه الى المنطقة القريبة من المدينة التي يمكنه فيها " أن يستظل بجيشه بظل نخيلها وأن يأكلوا من صقره " كما نصحه أن يذكي الحرس الليل كله عقبا بين أهل المسكر ، ثم ان يتجه بعد صلاة الصبح مشرقا بحيث تكون المدينة الى يساره ثم يدور حول المدينة حتى يأتيهم من قبل الحرّة مشرقا ثم يهاجم القوم لأن الشمس عند ذلك ستطلع بين أكتاف أصحاب مسلم فلا تؤذيهم ، وتقع في وجوههم فيؤذيهم حرها ويصيبهم أذاها " ويسرون ما دمتم مشرقين من اثلاق بهضكم وحرابكم وأسنة رماحكم وسيوفكم ودروعكم وسواهدكم ما لا ترون أنتم لشيء من سلاحهم ما داموا مغربين " . (٨)

بالرغم من انتصار القوّات الشامية في موقعة الحرّة إلا أن هذه المعركة زادت من مكانة عبد الله بن الزبير في الحجاز ، إذ بايحه أهل مكة وأهل الحجاز وأتاه أهل الحرّة ، كما قدم عليه نجدة بن عامر الحنفي في ناس من الخوارج ليمنعوا البيت من أهل الشام ، (٩) وتوجه الحصين بن نمير الذي تولّى قيادة الجيش اثر وفاة مسلمة بن عقبة المري (١٠) الى مكة لمحاربة ابن الزبير ، فحاصروهم حصارا شديدا

(٥) : الطبري ، ج ٥ ص ٤٨٦ .

(٦) : البلاذري ، أنساب ج ٤ قسم ٢ ص ٣٦ ، الطبري ، ج ٥ ص ٤٨٩ .

(٧) : الطبري ، ج ٥ ص ٤٨٥ .

(٨) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٤٨٦ .

(٩) : البلاذري ، أنساب ج ٤ قسم ٢ ، ص ٤٧ ، الطبري ، ج ٥ ص ٤٩٧ .

(١٠) : الطبري ، ج ٥ ص ٤٩٦ ، ٤٩٧ .

بقية المعرم وصفر ومدة أربعين يوماً اثر وفاة يزيد بن معاوية الذي مات لأربع عشرة ليلة
خلت من ربيع الأول سنة ٦٤ هـ ، وقد يوحى لمعاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان
بالشام بالخلافة ولعبد الله بن الزبير بالحجاز . (١١)

ان الترابط الذى نشاهده في بلاد الشام بين الأجناد جميعها لا يلبث أن يتصدع
بمعد وفاة يزيد وابنه معاوية في السنة نفسها ، ولا يعود هذا الانشقاق الى الصراع بين قيس
ويمن كما يحلو لبعض المؤرخين اظهاره ، وانما لعدم وجود شخصية قرشية بارزة في الشام
يمكنها أن تستقطب ولاء أهلها كما استقطبهم معاوية في صراعه مع طلي ، ولذلك اتجهت
الأنظار كلها تقريباً في بادئ الأمر الى عبد الله بن الزبير ، ففي رواية هشام بن قيسار
من مولى لمعاوية ، أنه لما مات معاوية بن يزيد مال أكثر الناس الى ابن الزبير " لأنه رجل
كامل السن ابن حواري رسول الله ، وابن بنت أبي بكر ذات النطاقين " ، فاهو الآن
ورد كتاب ابن الزبير بتولية الضحاك بن قيس دمشق حتى سارموا الى طاعة وبهتت ، (١٢)
ومن المعروف أن الضحاك بن قيس كان من أكثر الناس ولاءاً لمعاوية وابنه يزيد ، كما يشير
البلاذرى الى أن ثابت بن قيس الجذامي أخذ البيعة لابن الزبير في فلسطين ، وضبط
له النعمان بن بشير الأنصارى بهيمة أهل حمص ، (١٣) وأخذ له زفر بن الحارث الكلابسي
بهيمة أهل قنسرين ، (١٤) فاستقامت لابن الزبير الشام كلها إلا الأردن ، وهذا هو
الثبت كما يقول البلاذرى . (١٥) ويتبين لنا من رواية ابن سعد عن محمد بن عمران مروان

(١١) : الطبري ، ج ٥ ص ٥٥١ .

(١٢) : البلاذرى ، أنساب ، ج ٤ قسم ٢ ص ٦٤ .

(١٣) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٢٨ ، الطبري ، ج ٥ ص ٥٣١ .

(١٤) : الطبري ، ج ٥ ص ٥٣١ ، ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٤٥ .

(١٥) : البلاذرى ، أنساب ، ج ٥ ص ١٢٨ .

بن الحكم نفسه رأى في هادي* الأمر أن ينطلق إلى ابن الزبير فيبايعه ، (١٦) ولكن قدوم عبيد الله بن زياد من العراق أدى إلى تغيير في الموقف ، إذ منعه قائلا : "استحييت لك ما تريد ، أنت كبير قريش وسيد ها نصنع ما نصنع " . (١٧) أما ابن الاعثم ، فيذكر أن روح بن زباج هو الذي أشار على مروان أن يطلب هذا الأمر لنفسه " لأنه شيخ كبير بني أمية وهو ابن عم أمراء المؤمنين عثمان " ، (١٨) ذلك أن قسما من أهل الشام من رؤوس قريش ومن بنسي أمية ومن أشرف أهل الشام كانوا مستعدين لتقبل عبد الله بن الزبير كخليفة ، ولكنهم يجدون صعوبة في تقبل فكرة انتقال الملك من أهل الشام إلى أهل الحجاز ، (١٩) وهذا الرفض نجده كذلك في رواية عوانه بن الحكم الذي يذكر أن العصين بن نعيم السكوني الذي كان محاصرا لحكة طلب مقابلة عبد الله بن الزبير بالأبطح عندما بلغه خبر وفاة يزيد وأنه قال لابن الزبير : " ان يك هذا الرجل قد هلك ، فأنت أحق الناس بهذا الأمر ، فهلم لنبايعك ثم أخرج معي إلى الشام فإن هذا الجند الذي معي هم وجوه أهل الشام وفرسانهم فوالله لا يختلف عليك اثنان " ، ولكنه اشترط على عبد الله أن يهدر الدماء التي كانت بينهما والتي كانت بين أهل الشام وأهل الحرة ، فرفض عبد الله ، فكان سعيد بن عمرو يقول : " ما منعه أن يبايعهم ويخرج إلى الشام الآ تطير ، وأن عبد الله لو سار معهم حتى يدخل الشام ما اختلف عليه اثنان " . (٢٠) ويبدو أن ابن الزبير قدم على الذي صنع ، فأرسل إلى العصين يبلغه أنه لن يسير إلى الشام لأنه يكره الخروج من مكة ، ولكنه طلب منه أن يبايعوا له هناك ، وأنه مؤمنهم وعادل فيهم ،

(١٦) : الطبري ، ج ٥ ص ٥٣٠ .

(١٧) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٠ .

(١٨) : ابن الاعثم ، فتوح ، ج ٥ ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

(١٩) : ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ١٢٠ .

(٢٠) : الطبري ، ج ٥ ص ٥٠٩ .

ولكن الحصين بن نمير يسن له صعوبة تحقيق مطلبه ، لأنه اذا لم يقدم بنفسه ، فان هناك شخصيات قرشية أخرى ستطلب هذا الأمر لنفسها وستجد تأييدا من الناس الى ذلك ، (٢١)
وقد حدث هذا فعلا لأن رفضه لهذا الاقتراح ، رجح كفة مروان بن الحكم الذي اعتلى عرش الخلافة دون أن يكون له بها أرب ، إذ أن خروجه من الحجاز حين نفي مع بني أمية كان السبب البعيد لوصوله الى هذا المنصب ، ولو بقي في الحجاز لما عرفه أهل الشام ولما بايعوه ، لاسيما وأن حسّان بن مالك بن يحدل كان هواه مع مرشح من الفرع السفلي ، ولكن أهل الاردن بالرغم من استعدادهم للوقوف الى جانب حسان بن مالك ضد من خالفه من الناس وأطاع لمن الزمير ، فانهم رفضوا أن يكون الأمر لابني يزيد بن معاوية ، عبدالله وخالد ، فانهما حديثا أسنانهما ونحن نكره أن يأتينا الناس بشيخ ونأتهم بصبي . (٢٢) وكان مالك بن هبيرة السكوني كحسان بن مالك يهوى هوى بني يزيد بن معاوية لأن مروان كما قال مالك للحصين بن نمير " ليحسدك على سوطك وشراك نعلك وظل شجرة تستظل بها ، ان مروان أبو عشيرة ، وأخو عشيرة ، وهم عشيرة ، فان بايعتموه كنتم عبيدا له " . (٢٣) وسع ذلك فان أهل الجابية من بني أمية ومن تميم وحسّان ورهطه اجتمع رأيهم في النهاية على أن يبايعوا لمروان ، وكان روح بن زنباع الجذامي من أكثر التحمسين لمروان إذ يسن أحقية مروان بن الحكم بالخلافة وأنه لم يكن في الاسلام صدع قط الا وكان مروان من يشعب ذلك الصدع ، وهو الذي قاتل من أمير المؤمنين عثمان بن عفان يوم السدار ، واقترح أن يبايع الناس الكبير ويستشبهوا الصغير ، يعني بالكبير مروان بن الحكم والصغير خالد بن يزيد . (٢٤)

(٢١) : الطبرستان ، ج ٥ ص ٥٠٢ .

(٢٢) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٦ .

(٢٣) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٦ .

(٢٤) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٧ .

وبالرغم من أن الضحاك كان قد مال بمن معه من الناس في بادئ الأمر بمرسيد
الجبالية للمقاتل حسان بن مالك بن بهدل ، إلا أنه لم يلبث أن غير موقفه بتأثير من شور
بن معن بن يزيد بن الأعمش السلمي لأنه كما قال له شور ، انما دعاهم الى طائفة
ابن الزبير فبايعوه على ذلك ، أما التوجه الى حسان بن مالك فيعني مبايعتهم لمرشحهم
أو من سير شحونه ، وهذا بدوره سيؤدي الى سيطرة بني كلب وازدياد نفوذهم وهو أمر
لا يتقبلونه ، ولذلك مال الضحاك بمن معه من الناس حتى نزل مرج راهط. (٢٥)

بعد مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة في الجابية ، توجه نحو مرج راهط فسي
أهل الأردن من كلب وأتته السكاسك والسكون ، وغسان وبيع حسان بن مالك بن بهدل. (٢٦)

ومن قصيدة يقال أن مروان أنشدها يوم يبيع يثمين لنا أن القبائل التي أيّدت مروان
كانت كلها يمانية وقضامية ، كلب ، السكاسك ، طي* ، القين ، تنوخ ، والسكون ، وغسان. (٢٧)

في حين أن القبائل التي أيّدت الضحاك كانت قيسية ريمانية ، إذ يذكر البلاذري أنه كان مع
الضحاك خلق من أهل اليمن إلا أن قيسا كانوا رؤوس الناس وهددهم ، (٢٨) فقد استمد
الضحاك النعمان بن بشير الأنصاري وهو طي حمص فأمدّه بشر حبيل بن ذى الكلاع ، واستمد
أيضا زفر بن الحارث وهو طي قنسرين فأمدّه بأهل قنسرين ، وأمدّه نائل بأهل
فلسطين فاجتمعوا عنده في مرج راهط ، فاذا قبلنا رواية خليفة بن خياط
وابن عباد لوجدنا أنه كان مع الضحاك ستون ألف مقاتل ومع مروان

(٢٥) : الأنطوني عمري ، ج ٥ ص ٥٣٤ .

(٢٦) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٣٧ ، وابن الأثير ، ج ٤ ص ١٤٥ .

(٢٧) : الطبري ، ج ٥ ص ٥٣٨ ، البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ١٣٨ ، ابن الأعمش ،

فتوح ، ج ٥ ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٨٧ .

ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ١٤٩ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ص ٨٥ .

(٢٨) : البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ٣٠١ .

ثلاثة عشر ألفا فقط ، (٢٩) في حين تشير رواية ابن الأعمش أن مروان كان في ثمانية عشر ألفاً أكثرهم جماعة اليمصن ، وأن الضحاك بعد امداد بشير الأنصاري كان في ٢٢ ألفاً أكثرهم من قبائل قيس ، (٣٠) واعتقد أن الأرقام التي يذكرها ابن الأعمش أقرب الى الواقع والحنطق من تلك التي ترد عند خليفة وابن عبد ربه ، لأننا اذا قبلنا أن الضحاك كان نسي ستين ألفاً فمعنى ذلك أن القبائل اليمانية التي كانت معه كانت أكثر من القيسية ، وهذا يتناقض مع الروايات التي تشير الى أن الأكثرية مع الضحاك كانت قيسية ، وقد رأينا عندنا دراسة لتوزيع السكان أن العناصر اليمانية والقضامية هي الغالبة في كل الأجناس ما عدا جند قنسرين ، التي كانت أكثريتها قيسية ، الا أنه لا يمكن أن يصل عدد مقاتله الى أكثر من (٢٠) ألفاً ، وبالرغم من أن بعض الروايات تحاول التأكيد على كثرة القتلى من قيس ، فان رواية عوانه بن الحكم تشير الى أن أهل الشام قتلوا يومئذ مقلته عظيمة لم يقتلوا مثلها قط بين القبائل . (٣١)

ما أن انتصر مروان في معركة مرج راهط حتى أطبق أهل الشام على مروان واستوثقوا له واستعمل طليها عماله ، (٣٢) وكان أول ما فعله مروان بعد أن استتب له الأمر في الشام أن توجه نحو مصر بقوات شامية ، (٣٣) مع عدد كبير من أشرف أهل الشام ، (٣٤) إذ أن أهمية مصر ظهرت في الواقع أثناء الصراع بين علي ومعاوية بسبب موقعها الفريد ومواردها الوفيرة ، وتوجيه كفة من يسيطر عليها ، ونجح مروان في استعادة مصر من أنصار عبد الله بن الزبير ثم غادرها أول رجب سنة ٦٥ هـ بعد أن وطد أمورها وأعادها ثانية للحكم الأموي ورأسها عليها ابنه عبد العزيز بن مروان . (٣٥)

(٢٩) : خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٣٢٦ ، ابن عبد ربه ، المعقد ، ج ٤ ص ٣٩٦ .

(٣٠) : ابن الأعمش ، فتوح ، ج ٥ ص ٣١٣ .

(٣١) : الطبري ، ج ٥ ص ٥٣٧ .

(٣٢) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٥٤٠ .

(٣٣) : الكندي ، الولاة والقضاة ، ص ٤٦ .

(٣٤) : المصدر السابق ، ص ٤٢ .

(٣٥) : الطبري ، ج ٥ ص ٥٤٠ ، الكندي ، ص ٤٧ .

كان من نتيجة معركة مرج راهط ودعم حسان بن مالك أن بقيت مكانته ومكانة قبيلته رفيعة ، واشتروط حسان بن مالك على مروان ما كان لهم من الشروط على معاوية وابنه يزيد منها أن يفرض لهم لأنثوي رجل ، أثنين ألفين ، وأن مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه ، وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي و صدر المجلس ، فرضي مروان ، (٣٦) كما اشتراط الحميين بن نمير بن ناهل الكندي ثم السكوني على مروان أن ينزل اليلقا من كان بالشام من كنده ، وأن يجعلها لهم ملكه فأعطاه ذلك ، (٣٧) وكان لحسان بن مالك الدور الأكبر في جعل الخلافة بعد مروان لعبد الملك إذ فضل أن تنتقل الخلافة الى أولاد مروان على أن تنتقل الى عمرو بن سعيد الأشدق . (٣٨)

توفي مروان في شهر رمضان سنة ٦٥ هـ ، وانتقلت الخلافة الى عبد الملك الذي كان عليه أن يواجه مشاكل عديدة استطاع أن يتقضي عليها الواحدة بعد الأخرى ، إلا أن أهم أمر كان يشغله هو أمر عبد الله بن الزبير الذي دانت له البلدان كلها إلا الشام ومصر ، ومع ذلك لم يتمكن عبد الملك الأمور ، وانتظر حتى قضى مصعب بن الزبير على المختار بن أبي عبيد الشنسي ، (٣٩) وبالرغم من أن القضاء على المختار كان سنة ٦٧ هـ فإن انتصار عبد الملك على مصعب ومقتله لم يتم إلا سنة ٧٢ هـ ، (٤٠) لأن عبد الملك شغل بفتنة عمرو بن سعيد بن الأشدق الذي تحصن في دمشق وأعلن العصيان أثناء خروج عبد الملك من دمشق يريد قرقيسيا وفيها زفر بن الحارث الكلابي ، (٤١) أو لحرب مصعب ، فأضطر عبد الملك الى الرجوع ، وجرى بينه وبين عمرو قتال انتهى الى عقد الصلح بينهما ، ولكن عبد الملك لم يلبث أن استدرك عمرو بن سعيد الى قصره وقتله ، وذلك سنة ٦٩ هـ ، أو ٧٠ هـ (٤٢)

(٣٦) : المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٨٦ .

(٣٧) : الطبري ، ج ٥ ص ٥٤٤ .

(٣٨) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٦١٠ .

(٣٩) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ١٠٩ - ١١٦ .

(٤٠) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ١٦٠ وفي بعض الروايات أن مصعب قتل سنة ٧١ هـ .

(٤١) : قرقيسيا ، بلد على نهر الخابور ، قرب رهبة مالك بن طوق على ستة فراسخ ، وعند مصب الخابور في الفرات ، فهي في مثلث بين الخابور والفرات .

(٤٢) : الطبري ، ج ٦ ص ١٤٠ ، خليفة ، ج ١ ص ٣٣٧ .

كذلك اضطر عبد الملك لمصالحة الجراجمة الذين انضموا للروم في جبال اللكام على ألف دينار كل جمعة ، وصالح طائفة الروم كذلك على مال يزيد به لكي يتفرغ لحرب مصعب الذي دانت له أرض العراق وسائر البلدان فأصبح خطرا يهدد عبد الملك ، ومن ثم جمع عبد الملك اخوته واشراف أهل بيته وأوضح لهم قوة مصعب وأنه يخشى أن يفزوه في عقرب دارهم ، " وأنه ما من قوم غزوا في عقرب دارهم الا وذلوا " . (٤٣) فكانت نصيحتهم اليه أن يجمع رجاله ويعد عدته وأن يسير الى خصه قبل أن يسير خصه اليه ، " فوجه عبد الملك الى كور الشام فاجتمع له جميع الأجناد " . (٤٤) ويذكر السمودي أن عبد الملك خرج في جند الشام ومصر والجزيرة (٤٥) بينما يذكر ابن الأعمش خروج عبد الملك في جند الشام ومصر ، (٤٦) الا أن الكندي لا يشير الى اشتراك جند مصر الا في القضاء على عبد الله بن الزبير ، (٤٧) ولذلك يمكن الاستنتاج بالاستناد الى هذا الاختلاف الوارد في الروايات ، أن عبد الملك اعتمد بالدرجة الأولى على القوات الشامية لأنه قبل خروجه لقتال مصعب زحف على الجزيرة قاصدا زفر بن الحارث زعيم القبائل القيسية ، وجرت بينه وبين زفر مفاوضات انتهت بعقد أمان بينهما ، ويقال أن زفر خرج مع عبد الملك لحرب مصعب ولكنه لم يشترك في القتال ، (٤٨) ويبدو أن هدف عبد الملك من هذه العطية كان أن يتجنب ما حدث لعبيد الله بن زياد وأن يحمي ظهره أثناء صراعه مع مصعب ، (٤٩) لا شك أن توجه عبد الملك بنفسه

(٤٣) : الدينوري ، الأخبار الطوال ص ٣١٠ .

(٤٤) : المصدر السابق ، ص ٣١١ .

(٤٥) : السمودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ١٠٥ .

(٤٦) : ابن الأعمش ، ج ٦ ص ٢٦ .

(٤٧) : الكندي ، ص ٥١ .

(٤٨) : البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ٣٣٤ ، ٣٣٥ .

(٤٩) : نبيه عاقل خلافة وني أممية ، ص ١٥٥ .

لقتال مصعب ، (٥٠) ودعم القوات الشامية له لمبت دورها في الانتصار الذي حققه
عبد الطك ، ولكننا يجب أن نشير إلى أنه بالرغم من كثرة كتابات مصعب بن الزبير القيادية
المستقيمة إلا أن أهل العراق خذلوه ، إذ تواطأ البصريون بحجة أن الفواجح الحرورية
برئاسة تطرى بن النجاة قد نزلوا سوق الأهواز ، وغدوا على مقربة من البصرة ، وأن
البصريين يخشون هجومهم على مدنتهم . (٥١) وإذا قبلنا رواية البلاذري نجد أنه
يدعي أن أشرف أهل العراق كتبوا إلى عبد الملك يدعونهم إلى أنفسهم ويخبرونه أنهم
مأمنون ، فلم يبق بالبصرة شريف إلا كاتبه غير السهلب ، (٥٢) وفي هذا الزعم ، إذا
صح ، دلالة على يأس الأشراف في العراق من حكم ابن الزبير واعتقادهم بأن استقرار
بصرهم لن يتم إلا إذا ضبط لهم الأمور فيها شخص قوى كعبد الملك يستطيع أن يضع
حدا للمهد طويل من الفوضى ، أضرب بمصالحهم وعطل أعمالهم وكبد لهم الخسائر
الكبيرة في الأرواح والأموال ، وفتح باباً لا يورع عنها خطيرة لاسيما ماجسرى
زمن المختار من ملو مكانة الموالي وسأواتهم في العطاء مع الأشراف وأشراكهم
في أسوأ الغني ، وغير ذلك مما احتج عليه الأشراف ووقفوا ضد المختار بسببه ، (٥٣)
ومع ذلك نجد بعض الأشراف يتخوفون من ادخال أهل الشام عليهم ، فهذا الأحنف بن
قيس يقول لزياد بن عمرو المكي : " أظنك والله يا زياد وأصحابك ستدخلون علينا ذلاً ولاءً
عظيماً ، أحسبكم والله ستدخلون علينا أهل الشام فيقتلوننا وينزلوننا ، (٥٤) وهذا
قيس بن الهيثم يقول لأهل البصرة " ويحكم لا تدخلوا أهل الشام عليكم ، فوالله لئن تطمئنا
بممشكم ليرضينكم طيكم منازلكم " . (٥٥) وهذا دليل على العصبة القلمية التي بدأت تظهر

(٥٠) : البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ٣٣٥ ، اقترح البعض على عبد الملك أن لا يعمد

إلى قيادة الجيش الوجيه لقتال مصعب ، فكان رده ، أنه لو بحث إلى مصعب

جميع أهل الشام ، لفلهم وفضهم ما لم يكن معهم .

(٥١) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٣٢ .

(٥٢) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٣٤ .

(٥٣) : نبيه طاق ، خلافة بني أمية ، ص ١٥٥ .

(٥٤) : البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ٣٣٢ .

(٥٥) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٤٤ .

في هذه الفترة من صدر الاسلام .

بعد القضاء على صمصم وسقته ، سنة ٧٢ هـ وفقا لأغلب الروايات ، وأخذ عبد الملك
الديلمي من أهل العمراق ، وجه الحجاج بن يوسف الثقفي الى عبد الله بن الزبير بمكة
وسار في بقية أهل الشام الى دمشق . (٥٦) ويذكر الواقدي أنه أرسل الحجاج بن يوسف
في ألفين ويقال في ثلاثة آلاف ويقال في خمسة آلاف من أهل الشام ، (٥٧) أما ابن الأعمش
فيذكر أن عبد الملك ضم للحجاج أثنا توجمه لقتال عبد الله بن الزبير ستة آلاف رجل ،
ألفين من أهل الشام وألفين من أهل مصر وألفين من فرض العراق . (٥٨) ولكننا عندما نتبع
سير الأحداث في المصادر نرى أن اعتماد الحجاج في القضاء على عبد الله بن الزبير كان
وقفا على أهل الشام ، فقد توجه الحجاج بعد قضاءه شهرا في الطائف الى مكة وحاصر
ابن الزبير في المسجد وأرسل جماعة من أهل الشام الى المدينة كي يستولوا على مقاليد
الأموال فيها ويخرجوها من سلطان ابن الزبير ، (٥٩) وكانت خطة الحجاج ترك الزبير محصورا
في الكعبة حتى يفنى مامعه من زاد فيضطر وصحبه للاستسلام ، وفعلا قل مخزون الطعام
وارتفعت أسعار المواد الغذائية ، وارتفاها فاحشا ، حتى بهمت الدجاجة بمشرة دراهم
ومد الذرة بمشرين درهما ، (٦٠) بينما كانت المير تحمل الى أهل الشام من عند عبد الملك
السويق والكمك والدقيق ، (٦١) ولما طال الحصار على ابن الزبير وجد أن لافائدة ترجى
من الاستمرار في الاعتصام بالكعبة فخرج منها وقا تل حتى سقط قتيل بعد أن انفض عنه
الكثير من أصحابه ، (٦٢) ونفهم من رواية ابن سعد عن محمد بن عمران أجناد الشام
الخمسة اشتركت مع الحجاج في قتال عبد الله بن الزبير (٦٣) كما اشتركت في قتال

(٥٦) : السمعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ١١٠ .

(٥٧) : البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ٣٥٧ ، ويذكر ابن قتيبة أن عبد الملك أرسل الحجاج
في ألف وخمسمائة رجل من رجال أهل الشام حتى نزل الطائف ثم جعل عبد الملك

يرسل اليه الجيوش رسلا ، ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ج ٢ ص ٢٤ .

(٥٨) : ابن الأعمش ، فتوح ، ج ٦ ص ٢٧٢ .

(٥٩) : البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(٦٠) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٦١ .

(٦١) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٦٠ ، الطبري ، ج ٦ ص ١٧٥ .

(٦٢) : الطبري ، ج ٦ ص ١٨٨ ، ابن الأثير ، ج ٤ ص ٣٥٢ - ٣٥٥ .

(٦٣) : الطبري ، ج ٦ ص ١٩٠ ، ابن الأثير ، ج ٤ ص ٣٥٤ .

مصعب ، وهكذا نرى أن دم أهل الشام لعبد الملك ساعده على ضم المناطق المختلفة المنسقة الى حظيرة الحكم الأموي ، واستتب الأمر لعبد الملك بعد أن تخلص من الحركة الزبيرية ، هذه الحركة التي طال أمدها وظلّت نارها مشتعلة مدة ثلاثة عشر عاماً من سنة ٦٠ هـ الى ٧٣ هـ ، كما انتهى بانتهاج ابن الزبير ضد المجرار باعتباره مقر الخلافة وعاصمتها .

بأن انتهى عبد الملك من القضاء على عبد الله بن الزبير ، حتى عهد الى جسر شتات التبايل التي فرقنها أحداث الفتنة الثانية ، إذ أن موقعة مرج راهط كانت الشرارة الأولى لسروب ووقائع عنيفة بين قبيلتي قيس وتغلب من ناحية ، وبين قيس وكنب من ناحية أخرى ، إذ أن قبيلتي كلب وتغلب كانتا مروانية وكانت قيس زبيرية ، (٦٤) وهنا لابد من الإشارة الى أن هذه الوقائع جرى معظمها على أطراف البادية ، فقد كانت منازل كلب البادية تتاخم منازل بطون قيس التي نزلت بالجزيرة وجلها من بني سليم وبني عامر بن صعصعة ، أما الوقائع بين قيس وتغلب فقد جرى معظمها في الجزيرة . وقد استطاع عبد الملك بالحزم تارة ، والصدارة تارة أخرى ، أن يوطد الأمن في المنطقة كلها كما استطاع بعد أن استتب له الأمر أن يسلك طريقاً وسطاً في ميدان العصبية ، فأدت سياسته الى التخفيف من غلواء السيطرة البمانية التي مبرمها هويج الطائي بقوله :

فلولا أمير المؤمنين لأضحت

قضاة أربابا وقيسا عبيد هـ (٦٥)

وقد أدى هذا الموقف الى ترك القيسية سياسة المقاومة لعبد الملك الذي قرب رجالها ووسّدهم من الأمور ما وسّده خصومهم من البمانية ، فكان زفر بن الحارث وأبنساو ، هذيل وكوثر من بعده من أكبر الشخصيات وأعظمها جاهاً في بلاط دمشق ، (٦٦) كما أشمر الكبيسي

(٦٤) : البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ٣٠٨ - ٣١٤ .

(٦٥) : الطبري ، ج ٥ ، ص ٥٤٤ .

(٦٦) : النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ، ص ١٣١ .

والبيمانيين أنهم لا يزالون موضع اعتمادهم ، وأنهم لا يفتنون أهمية عنده من القيسيين
كأبن سعد بن زبوع الجذامي (٦٧) وقهبة بن ذؤيب الخزاعي من الأزد ، (٦٨)
أما نبي مبال الشعر والشعراء فلم يكن عبد الملك يأذن في بادئ الأمر ولا يسمع من شعراء
مضر لأنهم كانوا زبيريّة ، ولم يأذن لجبريل إلا بعد تدخل من الحجاج ، (٦٩) الذي أطلق
عبد الملك أنه لم يكن ممن والى ابن الزبير وأنه لم ينصره بيده ولا بلسانه ، ومع ذلك بقي
عبد الملك مفضلاً للأخطل التغلبي (من قبائل ربيعة) ولعمد بن رفاع العاطي . (٧٠)
دور أهل الشام في دعم ولاية بني أمية في العراق :

كان من نتائج انتقال الحكم الى البيت الأموي انتقال مركز الثقل السياسي والاقتصادي
من العراق الى الشام ، ذلك أن العراق كان خلال خلافة طي بن أبي طالب وأثناء صراعه
مع معاوية مستقراً له ومقراً لحكمه ، وكان أهله شيعته له ، ولولا التحكيم ، وانشقاق الخوارج ،
وما تلاه من عطية الاغتيال الفادر التي تعرّض لها طي بن أبي طالب لكانت سيادته سيادة
حقيقية ، لا ينازحها منازع ، فاذا أضفنا الى ذلك أن القبائل العربية التي هاجرت الى العراق
أثناء الفتح كانت في غالبيتها من قبائل الردة الذين ثاروا أصلاً على فكرة الحكم المركزي ،
وأن هذه القبائل لم تنكسر حدة تمرداتها القبلي نتيجة لسكناها في معسكرات خاصة كالبصرة
والكوفة ، لأدركنا سبب ذلك الصراع الذي قام خلال هذا العصر بين السلطة المركزية
المتثلة بالخلافة الأموية من جهة ورجال القبائل والشيعية والخوارج من جهة أخرى ،
وليس مجال بحثي التعمّص الى هذه الحركات والثورات التي نجد لها تفصيلاً وانها
في المصادر والمراجع ، وإنما غايتي اظهار مدى اعتماد ولاية بني أمية في العراق على
القوات الشامية في الفترة المروانية ، بحيث أصبح الاعتماد وفقاً عليها وحدها أحياناً .

(٦٧) : الطبري ، ج ٦ ص ٤١٢ ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٥ ص ٣٤٠ .

(٦٨) : الطبري ، ج ٦ ص ٤١٢ ، ابن عدي ، المقدم ، ج ٣ ص ٣٨٢ .

(٦٩) : الأغاني ، ج ٨ ، ص ٦٦ ، ٦٧ .

(٧٠) : المصدر السابق ، ج ٨ ص ٨٠ .

٢- مقاتلة الشام ودورهم في قمع حركات الخوارج في العراق :

أثار الخوارج في وجه الخلافة الأموية الفتن والتقاتل ، وما زاد في خطورتهم أنهم لم يجتمعوا على خلافة توحيد كلمتهم وتجميع شملهم ، بل أخذت جموعهم المتفرقة في أنحاء المدينة تثقق الولاة وتتأوئهم ، فاستغرق ذلك جهودهم ، وقد أجبر معاوية أهل الكوفة عندما ثار فروة بن نوفل الأشجعي ومعاوية في النخيلة أن يمدوا إلى محاربة الخوارج مهدداً إياهم أن لا أمان لهم عنده حتى يكفوا بوائقهم . (٧١) فخرج أهل الكوفة إلى الخوارج فقاتلهم ، واتبع المغيرة بن شعبه الأسلوب نفسه عند خروج المستورد بن علفة ، إذ جمع الناس وخطب فيهم بعد أن حمد الله وأثنى عليه " أما بعد فقد علمتم أيها الناس أني لم أزل أحب لجماعتكم المافية وأكف عنكم الأذى وقد ذكر لي أن رجلاً منكم يريدون أن يظهرُوا في مصر بالشقاق والخلاف ، وأيم الله لا يخرجون في حي من أحياء العرب في هذا المصر إلا أهدت بهم وجعلتهم نكالا لمن بعدهم " . (٧٢) وطلب المغيرة من كل امرئ من الروم ساء أن يكفه قومه والا فإنه سيغير سياسته تجاههم ، (٧٣) وكان أكثر الناس تحسسا لقتالهم صعصعة بن صوهبان من أتباع علي الذي بيّن لقومه عبد القيس ، أنه لا قوم أعدي لله ولأهل بيت الرسول ولجماعة المسلمين من هذه المارقة الخاطئة الذين فارقوا الإمام علي واستسلموا له . أتاهم وشهدوا طمئنتهم بالكفر ، وحذرهم أن يهوا أحدا في دورهم ، ثم وجه المغيرة فرسان أهل الكوفة ، وكان قد أمر بانتخابهم انتخاباً وجعل على رأسهم مفضل بن قيس وطلب منه أن يسير إليهم وأن يدعوهم للتوبة وإلى الدخول في الجماعة وأن يقبل منهم ان فعلوا . (٧٤) وما يشير الانتباه أن أهل كل نصر كانوا مسوولين عن مناجزة الخوارج في مصرهم ، (١٧٥) فلما جاء الحجاج أبطل ذلك وكتب إلى عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الذي

(٧١) : الطبري ، ج ٥ ص ١٦٥ .

(٧٢) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٨٤ .

(٧٣) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٨٤ .

(٧٤) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٨٩ .

(٧٥) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

كان قد أرسله للاحقة شبيب ، أن يطلب شيئا وسلك في أثره أين سلك حتى يدركه فيقتله
أو ينفيه فانما السلطان سلطان أمير المؤمنين ، وذلك أنه عندما وصل شبيب دقوقا
وشهرزور ، قال عبد الرحمن ، انما هو في أرض الموصل فلما اشواقين بلادهم أوليدعوه . (٧٦)
ان نظرة الحجاج هذه هي التي دفعت فيما بعد الى الاستجداد بجند الشام ، فالولايات
بالنسبة اليه وحدة متاسكة ، فلامراق ولاشام ولا مصر ولا حجاز وانما السلطان سلطان أمير
المؤمنين ، فاذا أخفق مقاطعة مصر في الدفاع من ~~مصرهم~~ ومواجهة عدوهم فلا بأس من الاستجداد
بغيرهم ، ومن ثم هدد الحجاج أهل الكوفة قائلا : " أيها الناس ، والله لتناقطن
من بلادكم ومن فيكم ، أو لأبعثن الى قوم هم أطوع وأسمع وأصبر على الأوامر والفيظ منكم
فيقاتلون عدوكم ويأكلون فيكم " . (٧٧) وكتب الحجاج الى عبد الملك يخبره أن شيبا شارف
المدائن يريد الكوفة وأن أهل الكوفة قد مجزوا من قتاله في مواطن كثيرة فسي
كلها بقتل أمراءهم ، ويقتل جنودهم ، " فان رأى أمير المؤمنين أن يبعث الى أهل الشام
فيقاتلوا عدوهم ويأكلوا بلادهم فليفعل والسلام " ، فلما أتى عبد الملك كتابه بعث اليه
سفنان بن الأبرد الكلي ، (٧٨) في أربعة آلاف وحبيب بن مذحج في ألفين ، (٧٩) فاستغنى بهم

(٧٦) : الطبري ، ج ٦ ص ٢٥٠ : كان صالح بن مسرح وجماعته من الخوارج الصغرى قد خرجوا
سنة ٧٦ هـ ، وانضم الى صالح شبيب بن يزيد وجماعته في أرض الجزيرة ، وهزموا جيشا
أرسله محمد بن مروان أمير الجزيرة ، فأرسل جيشين آخرين أجبرا صالح على الخروج
من الجزيرة الى أرض الموصل ، فأرسل الحجاج عند ذلك الحارث بن عسيرة البهدياني
في ثلاثة آلاف رجل من أهل الكوفة وقتل في المعركة صالح (الطبري ج ٦ ص ٢٢٢)
واستلم شبيب القيادة ، واتسمت رقعة نفوذه ، وقد وصل أمره أنه استطاع دخول الكوفة
وسعه زوجته فزالة ، وكان الحجاج بالبصرة ، فلما سمع يتوجه شبيب الى الكوفة طسوى
الحجاج المنازل فوصلها صلاة الظهر ، ونزل شبيب السبخة صلاة المفـسـرب
(الطبري ج ٦ ص ٢٤٠) .

(٧٧) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٥٨ .

(٧٨) : سفنان بن الأبرد الكلي داره بجمرون وكان له سوق الصاغة قطيمة ، وغزا سفنان
القسطنطينية مع يزيد بن معاوية وكان من قادة بني أمية ، (ابن حزم ، جمهرة أنساب

العرب ، ص ٤٢٧ . تهذيب ، ج ٦ ص ١٨٢) .

٠٠/٠٠

(٧٩) : الطبري ، ج ٦ ص ٢٥٨ .

الحجاج عن أهل الكوفة ، وقام على المنبر فقال : يا أهل الكوفة لا أهر الله من أراد بكم
العز ولا نصر من أراد بكم النصر ، أخرجوا عنا فلا تشاهدوا معنا قتال عدو ، وأنزلوا
السيوف مع اليهود والنصارى ، ولا يقاتل إلا من لم يشهد قتال عتاب بن ورقاء . (٨٠)
وعند ما توجه شبيب نحو الكوفة للمرة الثانية ، صعد جند الشام أمام كتائب شبيب
الواحدة بعد الأخرى ، وكان الحجاج يصيح بهم قائلا : " يا أهل السمع والطاعة والصبر
واليقين ، لا يفلت من باطل هو إلا الأوجاس حتكم " . (٨١) وقرر شبيب أن يأتي الحجاج
من ورائه ، ولكن الحجاج كان قد جعل فرجة بين المضيئة بين شعبة في نحو ثمانمائة رجل
من أهل الشام ردأ له ولأصحابه لثلاثين يوما من ورائه ، (٨٢) ونجح الحجاج يومئذ من
عزيمة شبيب ، وقتل أخو شبيب وتثلثت غزاة امرأت ، ودخل الحجاج الكوفة ، (٨٣) وبين
لأهلها أن شبيب لم يقاتل قبلها ، فلما جاء جند الشام ولّى هاربا ، ثم دعا الحجاج
شبيب بن عبد الرحمن الحكي وحثه في أثره في ثلاثة آلاف من أهل الشام واشتباك معهم عند
الأنبار وأثنى فيهم الجراح ، فاضطر شبيب إلى أن يتراجع إلى الأهواز فنارس ثم كرسان ، (٨٤)
وبعد أن استراح شبيب في كرمان أقفل راجعا فالتقى مع سفيان بن الأبرد الكبي السدي
كان الحجاج قد أرسله للقضاء على شبيب بجسر دجيل الأهواز ، فاقتتلوا أشد قتال ،
وحمل شبيب على أهل الشام أكثر من ثلاثين حملة وأهل الشام على حالهم في

(٨٠) : ابن الأثير ، ج ٤ ص ٤٢٣ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ص ١٨٨ .
وكان الحجاج قد أمر أهل الكوفة بالانضمام إلى عتاب بن ورقاء ، وأنه لا يسمح لأحد
من الناس بالإقامة إلا رجلا قد ولاه مالا ، وبين لهم أن للصابر المجاهد الكرامة
والأثرة ، وأن لتناكل الدهوان والجفوة ، وهدد هم بأنهم إذا فعلوا في هذه المواطن
كفعلهم في المواطن الأخرى لمولينهم كنفنا غشنا ولمصركمهم بكلك ثقيل (الطبري
ج ٦ ص ٢٦٢) ولكن أهل الكوفة لم يثبتوا مع عتاب وانفضوا من حوله وقتل عتاب
بن ورقاء وقائده زهرة بن حوية (الطبري ج ٦ ص ٢٦٥) .

(٨١) : الطبري ، ج ٦ ص ٢٦٩ ، ٢٧١ .

(٨٢) : ابن الأثير ، ج ٤ ص ٤٢٧ .

(٨٣) : الطبري ، ج ٦ ص ٢٧٧ .

(٨٤) : ابن الأثير ، ج ٤ ص ٤٢٧ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ص ١٨٩ .

ثبات القدم ، واستمر القتال حتى اختلط الظلام ثم انصرف ، فلما انتهى شبيب الى الجسر طلب من أصحابه أن يهرروا الجسر ثم يعودوا للهجوم باكرا في اليوم التالي ، فمسيروا أماتهم وتغلبت في آخرهم ، فنزوا فوسه ، فسقط في الماء وغرق ، فكان نصرته سنة ٧٧ هـ أو سنة ٢٨ هـ . (٨٥)

وهكذا نجح أهل الشام في القضاء على ثورة شبيب الخارجي التي تمتد من أعنف الحركات الخارجية ، وقد حيرت الحجاج أهل الكوفة بأنه وجه لقتال شبيب خصه وعشرين أمر جيش ، وكل له مكانه ، فيقتل أمهم وهم وقوف ينظرون اليه لا يرون له حرمة في صحبة ولا ذماما في طاعة ، (٨٦) كما أرسل الحجاج سفيان بن الأبرق مع جيش كبير من أهل الشام في طلب قطرى بن الفجاءة ، ذلك أنه بعد تشتت أمر الأزارقة نتيجة للاختلاف الذي حدث بينهم بكرمان وصار بعضهم مع عبد ربه الكبير وبعضهم مع قطرى ، ضعف أمر قطرى الذي توجه يريد طهرستان ، فأقبل سفيان حتى أتى الري ثم أتبعهم ، وكتب الحجاج الى اسحاق بن محمد بن الأشعث وهو على جيش لأهل الكوفة بطهرستان أن يسمع ويطيع لسفیان ، فأقبل الى سفیان وسار معه في طلب قطرى حتى لحقوه في شعب من شعاب طهرستان ، فقاتلوه ففرق عنه أصحابه ، ووقع عن دابته فتدهدى حتى خر الى أسنله ، وادعى قطه فمد من أهل الكوفة . (٨٧)

وهذه حركات الخوارج نتيجة لقضاء المهلب على فرقة الأزارقة من جهة وقضاء الحجاج على حركة شبيب ، فلما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ - ١٠١ هـ) خرج شوزب (٨٨) على عبد الحميد بن عبد الرحمن والي الكوفة ، فأمر عمر بن عبد العزيز واليه أن لا يبادئهم القتال الا اذا أفسدوا في الأرض ، وكتب عمر الى بسطام يدعو له يسأله عن سبب خروجه كما طلب منه أن يناظره ، فبعث اليه بسطام بهرجلين يناظرانه ، (٨٩) ولكن الخليفة

(٨٥) : الطبري ، ج ٦ ص ٢٧٩ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ص ١٦٠ .

(٨٦) : ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ٣٢ .

(٨٧) : الطبري ، ج ٦ ص ٣٠٩ ، ٣١٠ .

(٨٨) : اسمه بسطام من بني يشكر وكان مفرجه بجوش في ثمانين فارسا أكثرهم من ربيعة ،

وجوش كورة واسعة في سواد بغداد . (الطبري ج ٦ ص ٥٥٥) .

(٨٩) : الطبري ، ج ٦ ص ٥٥٥ ، ٥٥٦ .

هو بن عبد العزيز توفي قبل أن يقتنع الخارجيان بوجهة نظره ، وأراد عبد الحميد بن عبد الرحمن أن يحظى عند يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ) فكتب إلى محمد بن جرير الجعفي بأمره بمحاورة شونب وأصحابه ، وكان معه ألقان من أهل الكوفة ، فلما هزم هو لا^١ اضطر يزيد أن يرسل من قبله تصم بن الحباب في الفين ، ثم نجدة بن الحكم الأزدي ثم الشحاج بن وداع في ألفين كذلك ، ولكن شونب استطاع أن يهزمهم الواحد تلو الآخر ، فلما دخل مسلحة بن عبد الملك الكوفة شكوا إليه أهلها وكان شونب يباقد قتل منهم فدعا مسلمة سميد بن عمرو الحرشي من قادة الشام فمقتله على عشرة آلاف فارس فتمكن من أن ينتصر على الخوارج وقتل شونب سنة ١٠١ هـ (٩٠) وفي سنة ١١٩ هـ خرج بهلول بن بشر الملقب بكثارة ، وهو من الموصل من بني شيان ، ولما طم خالد بن عبد الله القسري والي المراق (١٠٥ - ١٢٠ هـ) بخروجه ، خرج من واسط وأتى الحيرة ، وكان بها جند قد قدموا من الشام مددا لمامل الهند ، فأمرهم خالد بقتاله ووجد من يقتل منهم رجلا أن يحطيه مطاء سوى ما أخذ في الشام وأن يحفيه من الخروج إلى الهند ، فساروا إلى ذلك ، ولكن بهلول هزمهم وزحف يريد الخليفة هشام في الشام ، عند ذلك سير خالد جندا من المراق وسير مامل الجزيرة جندا من الجزيرة ووجه هشام جندا من الشام واجتمعوا بدير بين الجزيرة والموصل ، وقتل بهلول في المعركة (٩١)

ب - مقاطعة الشام وديرهم في القضاء على ثورتي ابن الأشعث (٨١ - ٨٥ هـ) ويزيد بن المهلب (١٠١ - ١٠٢ هـ) :

بالإضافة إلى حركات الخوارج ، اضطر ولاية العراق لمجابهة ثورات كان بعضها من العنف بحيث فرض الدولة الأموية لأزمات تاسية واضطر الولاة إلى الاعتماد على الجند الشامي في سبيل إخمادها .

من أهم هذه الثورات ، ثورة ابن الأشعث الذي كان الحجاج قد أرسله مع معظم مقاطعة الكوفة والبصرة للقضاء على ثورة رتهيل في سجستان ، فلما شارابسن

(٩٠) : الطبري ، ج ٦ ص ٥٧٦ .

(٩١) : ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢١٠ ، ٢١١ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ص ٤٤٧ .

الأشعث وخلع جنده الحجاج ثم عبد الملك ، ووصل حتى نزل الأهواز ، جمع الحجاج الناس وخرج في جيش كبير حتى نزل على سبعة فراسخ من الأهواز ودعا ، بسيد الله بن رميثة الطائي من أهل حمص ، ومظهر بن مر العكي من أهل الأردن فضم اليهما ثمان مائة آلاف فارس ، (٩٢) ولكن هذا الجيش هزم عند دجيل الأهواز ، (٩٣) وتقدم ابن الأشعث متوجها نحو البصرة ، وبلغ ذلك الحجاج ، فقطع جسر الأبله ، وضم الأسواق ، ووجه نداءه الى أهل الشام ، أن لا يتركوا بالحكلا شيئا من العلف والطعام الا ونقلوه الى المعسكر ، فانما الناس أحد رجلين ، فمن لحق بنا أعطيناه من طعامه وعلفه ومن لحق بعدونا فدمه كحلل لنا . (٩٤)

وفي معركة الزاوية سنة ٨١ هـ كان الحجاج يومئذ في ثلاثة وعشرين ألفا من أهل الشام ومن تبعه من أهل العراق ، وابن الأشعث في زهاء ستين ألفا ، (٩٥) ولحق سفيان بن الأبرد الكلابي مع جنود الشام دورا كبيرا في هزيمة ابن الأشعث في وقعة الزاوية ، ومكّن الحجاج من الدخول الى البصرة ، فاضطر عبد الرحمن للتوجه نحو الكوفة حيث استطاع أن يدخلها ويحتوي على بيت مال الحجاج ، (٩٦) وعند ما سمع الحجاج بذلك توجه نحو الكوفة وعسكر بديرقصره ، (٩٧) واجتمع الى عبد الرحمن أهل الكوفة ، وأهل البصرة ، والقراء ، وأهل الثغور والساحل بدير الجمجم ، فكانوا مائة ألف من يأخذ المعطاء ومعهم مثلهم من مواليتهم ، (٩٨) وبلغ ذلك عبد الملك بن مروان فأرسل الى الحجاج أشرف أهل الشام والجزيرة مدد له في سبعين ألفا ، (٩٩) ولكن عند ما اشتد القتال بين الطرفين وجد عبد الملك ورويس قرهش وأهل الشام أنه اذا كان يرضي أهل العراق أن ينزع عنهم الحجاج ، فان نزع الحجاج أيسر من حرب أهل العراق ، فبعث ابنه عبد الملك بن عبد الملك

(٩٢) : ابن الأعمش ، فتوح ، ج ٧ ص ١٣٠ .

(٩٣) : الطبري ، ج ٦ ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .

(٩٤) : ابن الأعمش ، فتوح ، ج ٧ ص ١٣٢ ، ابن الأثير ، ج ٤ ص ٤٦٥ .

(٩٥) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ١٣٤ .

(٩٦) : ابن الأثير ، ج ٤ ص ٤٦٧ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ص ٢٣٧ .

(٩٧) : الطبري ، ج ٦ ص ٣٤٧ ، ابن الأعمش ، فتوح ، ج ٧ ص ١٣٤ .

(٩٨) : الطبري ، ج ٦ ص ٣٤٧ ، ابن الأثير ، ج ٤ ص ٤٦٩ .

(٩٩) : ابن الأعمش ، ج ٧ ص ١٣٧ .

وهمت الى أخيه محمد بن مروان بأرض الموصل يأمره بالتقدم عليه وأمرها أن يعرضوا على أهل العراق عزل العجاج ، وأن يجزى عليهم أعطياتهم كما تجزى على أهل الشام وأن ينزل ابن محمد أى بلد من عراق شاء يكون عليه وإنما ما دام عبداً وهد الطك خليفة ، فان هم قبلوا ذلك عزل عنهم العجاج وكان محمد بن مروان أمير العراق ، وان أبوا فالعجاج أسير جماعة أهل الشام وولي القتال ، ومحمد بن مروان وعبد الله بن عبد الطك في طاعته ، (١٠٠) أما ابن الأعمش فيضيف الى هذه الشروط شرطاً آخر وهو أن عبد الطك وعد هم باخراج أهل الشام من بلادهم " ولا يسرى العراق شاماً أبداً " . (١٠١)

رفض العراقيون شروط عبد الطك بالرغم من أن عبد الرحمن كان يفضل قبولها ، (١٠٢) واعتمد العجاج اعتماداً كلياً على قادة الشام ، فجعل على بيئته عبد الرحمن بن سليم الكبي ، وعسى سميرت عمارة بن تميم اللخمي ، وعلى خيله سفیان بن الأبرد الكبي ، وعلى رجاله عبد الله بن حبيب الحكي ، (١٠٣) وبالرغم من أن أهل العراق كانت تأتيتهم موادهم من الكوفة وسوادها وهم في غصب وأهل الشام في ضنك شديد ، وقد غلت عليهم الأسعار وفقد عندهم اللحم ، (١٠٤) فقد استطاعوا التغلب على عبد الرحمن بعد أن دامت الحرب مائة وثلاثة أيام ، (١٠٥) وكان لسفيان بن الأبرد كذلك الدور الأكبر في هزيمة عبد الرحمن في دير الجماجم . (١٠٦)

(١٠٠) : الطبري ، ج ٦ ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ ، ابن الأثير ، ج ٤ ص ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ص ٢٣٩ .

(١٠١) : ابن الأعمش ، ج ٢ ص ١٢٧ .

(١٠٢) : الطبري ، ج ٦ ص ٣٤٨ ، ابن الأثير ، ج ٤ ص ٤٧١ ، وقد بين ابن الأعمش لاتباه أهمية هذه الفرصة التي يجب عليهم أن ينتهزوها قائلاً لهم : " فقد أعطيتكم أمسرا انتهازكم اليوم اياه فرصة ، ولا آمن أن يكون على ندي الرأي غداً أحسرة ، وأنكم اليوم على النصف ، وان كانوا اهتموا بالزاوية ، فأنتم تعتدون بيوم تستر ، فاقبلوا ما عرضوا عليكم وأنتم أسرا أتوا ، والقوم لكم هائمون وأنتم لهم منتقصون فلا والله لا زلتهم عليهم حراً ، ولا زلتهم عندهم أمراً ، ان أنتم قبلتم أبدا ما بقيتم " ، فوثب الناس من كل جانب فقالوا : ان الله قد أهلكهم ، فأصبحوا في الأزل والضحك والمجاعة والقلة والذلة ، ونحن ذو العدد الكثير ، والسعر الرفيع ، والمادة القريبة ، لا والله لا نقبل .

(١٠٣) : المصدر السابق ج ٦ ص ٣٤٩ ، ابن الأثير ج ٤ ص ٤٧١ .

(١٠٤) : ابن الأثير ، ج ٤ ص ٤٧٢ .

(١٠٥) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٤٨٠ .

(١٠٦) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٤٨١ .

بعد هزيمة عبدالرحمن ودخل الحجاج الكوفة وأقام فيها شهرا ، وهناك روايات تشير الى أنه أنزل أهل الشام بيوت أهل الكوفة : " أنزلهم الحجاج فيها مع أهلها " ، وأن الحجاج أول من أنزل البيت في هيرتشرم ، وأن هذه القاعة استمرت بعد ذلك (١٠٧) في حين يذكر الطبري أن الحجاج بعد وقعة الجمل فزل أهل الشام عن بيوت أهل الكوفة ، (١٠٨) وأمر أن لا ينزل أحد على أحد وأن يخرج البيت فيمسكروا ، (١٠٩) وهجت الحجاج رواد ايرتادون منزلا فوق اختياره على واسط ، (١١٠) وعندما انتهى من بناء واسط ، نقل إليها من وجوه أهل البصرة وأمرهم أن يصلوا على يسار المقصورة ، ونقل إليها من وجوه أهل الكوفة وأمرهم أن يصلوا من بين المقصورة ، وأمر من كان معه من أهل الشام أن يصلوا بحياله ما يلي المقصورة . (١١١)

ان عزيمة ابن الأشعث في دير الجمل سنة ٨٣ هـ ثم في مسكن في نفس العام كانت نقطة النهاية بالنسبة اليه ، إذ أنه تراجع الى السوس ، ولم يزل عمارة بن تميم اللخمي في جيشه الكثيف من أهل الشام والجزيرة بهزمه حتى بلغ الى سابور فارس ، حيث اقتنطسوا وانهزم ابن الأشعث نحو بلاد كرمان ، وكتب عمارة بن تميم الى الحجاج بالهزاه فأسره بالمسودة . (١١٢)

وعندما التجأ ابن الأشعث الى رتييل ثانية بعد انصرافه من هراة ، كتب الحجاج

(١٠٧) : النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ص ٢٤٨ ، ابن الاثير ، ج ٤ ص ٤٨١ .

(١٠٨) : الطبري ، ج ٦ ص ٣٦٥ .

(١٠٩) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٣٨٤ .

(١١٠) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٣٨٤ ، ويذكر اليعقوبي أنها سميت واسطا لأنها الى البصرة خمسين فرسخا والى الكوفة خمسين فرسخا والى الأهواز خمسين فرسخا ، والى بغداد خمسين فرسخا (اليعقوبي ، البلدان ص ٣٢١ ، ياقوت الحموي ،

ج ٥ ص ٣٤٨) .

(١١١) : أسلم بن سهل الرزاز الواسطي المعروف بهحشل ، تاريخ واسط ، تحقيق

كوركيس مواد ، ص ٤٣ .

(١١٢) : ابن الأثير ، فتوح ، ج ٧ ، ص ١٥٠ .

الى رتبيل بأنه سيوجه اليه بمطارة بن تميم اللخمي في ثلاثين ألفا من أهل الشام لم يدخلوا طاعة ولم يهايموا امام ضلالة يستعملون الحرب استمظاما ، ويقدمون عليها اقداما ، وطالب من رتبيل أن يمدد اليه تسليم ابن الأشعث اليهم ، (١١٣) ولكن رتبيل لم يسلمهم ابن الأشعث سنة ٨٥ هـ الا بعد أن وافق الحجاج على شروط رتبيل ألا تغزى بلادهم عشر سنين وأن يؤدى بعد العشر سنين في كل سنة مائة ألف . (١١٤) وخاطب الحجاج أهل الكوفة بعد القضاء على ثورة ابن الأشعث ، وندد بهم ووصفهم بأنهم أهل الشقاق والاختلاف والنفاق ، وامتنح أهل الشام بأنهم العدة والمدد والجنّة في الحرب ، (١١٥) ويذكر أبو هلال العسكري أن الحجاج هو أول من أطعم على ألف مائدة ، على كل مائدة عشرة رجال وطيها جنب شوا وشهد وسكة ، وبنية (١١٦) فيها صل ، وكان الحجاج وفق هذه الرواية لا يطمع الا شاميا . (١١٧)

بالإضافة الى ثورة ابن الأشعث ساهم الجند الشامي في القضاء على ثورة يزيد بن المهلب التي تمت من أهم الأحداث الداخلية زمن يزيد بن عبد الملك (١٠١ - ١٠٥ هـ) ، وكان لصلة المصاهرة التي تربط هذا الخليفة بأسرة الحجاج أثرها في اساءة الملاقة بينهما وبين المهلب ، لأن ابن المهلب حين ولي العراق لسليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ) هذب آل الحجاج ، فعاهد يزيد بن عبد الملك لله لئن مكه من يزيد بن المهلب ليقطن منه

(١١٣) : الطبرى ، ج ٦ ص ٣٩٠ ، ابن الاثم ، ج ٧ ص ١٥٠ ، عندما توجه ابن الأشعث سنة ٨٣ هـ اثر هزيمته الى سجستان ، أنزله رتبيل عنده وأكرمه وعظمه ، ولكنه لم يلبث أن وقع تحت تأثير أتباعه الذين بلغ عددهم ٦٠ ألفا بأن يتوجه الى خراسان بالرغم من وجود يزيد بن المهلب بها لأنها أرض طويلة مريضة ، وأن من سيبتهم سيكون أكثر من سيقاتلهم ، فلما بلغوا هراة فارقه عبيد الله بن عبد الرحمن / سمره القرشي في الفين ، فقر العود الى رتبيل لأنه تهيّن له أنه لا يستطيع الامتناع عليهم ، وأنهم سيخرفون عنه كما فعلوا في مواطن أخرى .

(١١٤) : الطبرى ، ج ٦ ص ٣٩١ .

(١١٥) : السعوى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(١١٦) : البرنية ، اناء من خزف .

(١١٧) : أبو هلال العسكري ، الأوائل ، ج ٢ ص ٦٣ ، ٦٤ .

طابقتا ، (١١٨) ويذكر أبو مخنف أنه حين بلغ ابن المهلب وهو في محبته زمن عمر بن عبد العزيز أن الغليفة مرض ، وأن الخلافة ستؤول بحسبه إلى يزيد بن عبد الملك ، دبر أمر هربه من السجن . أما الرواة ، فيزعمون أن يزيد بن المهلب انما هرب من سجنه بعد موت عمر ، (١١٩) وتوجه يزيد إلى البصرة موطن أسرته من المهالبة ومنتر قريبت أزد هناك ، وتتمكن من السيطرة عليها وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك عليها وهو عدى بن أرطاة الفزاري فحبسه ، وخلع يزيد بن عبد الملك ، ودنا أهل البصرة إلى كتاب الله وسنة نبيه محمد (صلعم) وحشهم على الجهاد وزعم أن جهاد الشام أعظم ثوابا من جهاد الترك والديلم ، (١٢٠) وبالرغم من أن الحسن البصرى لم يكن راضيا عن أهل الشام وخلفاء بني أمية ، إلا أنه أيضا لم يكن راضيا عن يزيد وثورته ، إذ قال : " هجبا من يزيد بالأسس يضرب أعناق هؤلاء الذين اتبعوه تقربا إلى بني مروان حتى إذا مضوه شيئا من دنياهم وأخذوه بحق الله تعالى عليه ، غضب ، فمقد خرقا على تصب ، ثم نعت بالأعلاج وطعام فاتبعوه ، وقال : اني قد غالفت هؤلاء فغالبهم ، فهو يزعم أنه يدعوهم إلى كتاب الله تعالى وسيرة الخلفاء الراشدين ، إلا وان سيرة الخلفاء الراشدين أن يوضع في رجله قيد ويرد إلى حبس عمر " . (١٢١) وكان يشارك الحسن البصرى في الرأي ، والنضر بن أنس بن مالك ، الذي قال : " يا عباد الله ماتتقون من أن تجيبوا إلى كتاب الله وسنة نبيه (صلعم) فوالله ما رأينا ذلك وما رأيتوه منذ ولدتم ، إلا هذه الأيام من إمارة عمر بن عبد العزيز " . (١٢٢)

ونفهم ما ذكره الحسن البصرى بأن الذين اتبعوا يزيد هم من الأعلاج والطغام ،

بمعنى أن رؤوس أهل البصرة ، لم يشتركوا في ثورته ، بل هرب رؤوس أهل البصرة من قيس

وتدبر ومالك بن النضر فلتحقوا بحسد الحميد بن عبد الرحمن بالكوفة والحق بعضهم بالشام . (١٢٣)

(١١٨) : الطبرى ، ج ٦ ص ٥٦٤ .

(١١٩) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٥٦٤ ، ٥٦٥ .

(١٢٠) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٥٦٧ .

(١٢١) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٥٨٧ ، العميون والحدائق ، ص ٥٩ .

(١٢٢) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٥٨٧ .

(١٢٣) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٥٨٣ .

وبعث يزيد بن عبد الملك رجلا من أهل الشام إلى الكوفة ليشكر أهلها ويخبرهم ويهدمهم
الزيادة في أعطياتهم، (١٢٤) ثم وجه يزيد بن عبد الملك المبرقع بن الوليد في أربعة آلاف
فارس، يهتدون بخيل حتى رافقوا العميرة، (١٢٥) ثم أقبل بعد ذلك نسلية بن عبد الملك في جنود
أهل الشام والجزيرة وهدتهم في سبعين ألفا وقتل ثمانون ألفا، (١٢٦) وكان يزيد على زعم
صاحب تاريخ العميون والحدائق قد قال حين خلع يزيد بن عبد الملك، اني لأرجو أن أهدم
دمشق حجرا على حجر، فردّ الفرزدق عليه بهذه الأبيات :

تخبرك الكهان أنك ناقص

دمشق التي كانت الجنّ عسرت

لها من الجبال الثلج صخرًا كأنه

قناص حتى أشرفت واسمحت

أنتك غيول الشام تخطر بالقنا

لها خرق كالطير لما استتقت

يتقود نواصيها إليك مسارك

إذا ما تصدى للكتيبة ولتت

من آل أبي العاصي حوالي لوائه

ثمانون ألفا كلها قد اطلت (١٢٧)

ولما سمع أصحاب المهلب بوصول سلعة وأهل الشام راعهم ذلك، فبلغ أمرهم
المهلب الذي تعجب لخوف أهل العسكر من مجيء أهل الشام وسلعة، وقال: "وما هم أهل
الشام؟ هل هم إلا تسعة أسياف سبعة منها إلى وسيفان طي"، (١٢٨) بمعنى أن النسبة
الكبرى من الجيش كانت تتألف من القبائل اليمانية، ولكن يزيد بن المهلب كما يبدو

(١٢٤) : المصدر السابق، ج ٦ ص ٥٨٥، العميون والحدائق، ص ٦٧، ٦٨.

(١٢٥) : الطبري، ج ٦ ص ٥٨٥، الأزدى، تاريخ الموصل، ص ٩٠.

(١٢٦) : ابن الأثير، ج ٥ ص ٧٣، ٧٤، النويري، نهاية الأرب، ج ٢١ ص ٣٧٨.

(١٢٧) : العميون والحدائق، ص ٦٧، ٦٨.

(١٢٨) : المصدر السابق، ص ٧٠، ابن الأثير، ج ٥ ص ٧٥.

قد أخطأ التقدير ، فهذه الأسياف لم تقف الى جانبه ، وانما بقيت الى جانب مسلحة ، واستمرت المواجهة بين يزيد ومسلحة ثمانية أيام حتى اذا كان يوم الجمعة لأربع عشرة خلت من شهر سنة ١٠٢ هـ بعثت مسلحة الى الوضاح أن يخرج بالوضاحية والسفن حتى يحسرق الجسر ، فلما دنا الوضاح من الجسر ، لهب فيه النار فلما رأى الناس ذلك ، وقيل لهم بأن الجسر قد أحرق انهزموا ، فلما سمع يزيد بانهزام الناس قال ، وم انهزموا ؟ هل كان قتال مهزم من مثله ؟ وخرج يزيد ومعه أصحابه ومواليه وناس من قومه وطلب منهم أن يضرروا وجوه من يهزم ، ثم لم يلبث أن توكلهم عندما رأى كثرة المنخلين . (١٢٩)

وهزم يزيد وقتل أخوه حبيب بن المهلب ثم قتل يزيد واحتزرت رأسه وروءوس من قتل معه من أهل بيته ، وبعث بها الى الشام الى يزيد بن عبد الملك ، فأمر أن يطاف بها في أجناد الشام . (١٣٠)

ونلاحظ في فتنة يزيد بن المهلب أنه لم يستطع استقطاب أهل الكوفة والبصرة وإشرافها اليه ، كما استطاع أن يفعل ذلك عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث . وربما يعود ذلك الى السياسة السلمية التي اتبعها ولاية عمر بن عبد العزيز في تأليف أهل البصرة والكوفة وإشرافها ، لا سيما وأن يزيد بن عبد الملك لم يعمد الى عزلها ، وقد قتل عدى بن أرطاة الفزاري والي البصرة من قبل معاوية بن يزيد بن المهلب مع ثلاثين أسيرا كانوا في سجنه ، كما كان لموقف الحسن البصري من فتنة يزيد أثر كبير في تثبيط الناس بحيث أن الذين اتفوا حوله ، حسب رواية الطبري كانوا من سقاط الأبله وطوج فرات البصرة . (١٣١)

ثورة زيد بن طي ودور أهل الشام في التثنية عليها :

إذا لم يعمد أهل العراق الى تأييد يزيد بن المهلب أو دفعه الى الشسورة ، فقد كانوا السرب في دفع زيد بن طي اليها سنة ١٢١ هـ وكان هذا ما يخشاه الخليفة

(١٢٩) : الطبري ، ج ٦ ص ٥٩٤ ، ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٥٥ .

(١٣٠) : العميون والحداثي ، ص ٢٤٠ .

(١٣١) : الطبري ، ج ٦ ص ٥٩٤ .

هشام بن عبد الحلك عندما توجه زيد بن علي الى الكوفة ليواجه يوسف بن عمر والى هشام
علي السراق الذي ادعى أن خالد القيسري قد أودع ستعائة ألف درهم عند زييد
بن علي ، وأن زييدا ينكر هذه الوديعة ، فلما أقسم زيد أغلظ الايمان أن لا علم له بها ،
طلب هشام بن واليه يوسف أن يجعل بلاشخاصه الى الحجاز وأن لا يسمح له بالاتمامة
فيها لأن أهل الكوفة معروفين بحبهم لأهل هذا البيت " فان أعاره القوم أساعهم فحشاهما
من لبن لنظف وحلاوة منطوقه مع ما يندلي به من القوابية برسول الله (صلعم) وجد هم مولا اليه
غير متتدة قلوبهم ولا ساكنة أعلامهم ولا بصونة عند هم أديانهم . وبعض التعامل طيبه
فيه أنى له واخراج ، وتركه مع السلامة للجميع والحقن للدماء والأمن ، أحب الي من أمر
فيه سفك دماهم وانتشار كفتهم (تفرقتها) وقطع نسلها ، والجماعة حبل الله المتين ،
ودين الله القويم وعروته الوثقى " . (١٣٢)

وألح يوسف بن عمر على زيد بن علي بالخروج من الكوفة حتى أنه شخص منها حتى
أتى القادسية ، فلحقته الشيعة واستمروا في اقتاعه حتى رده الى الكوفة ان أكدوا له أن مائة
ألف رجل من أهل الكوفة مستعدون لمساندته والقتال معه في حين أن أهل الشام في الكوفة
قلّة ، ولو أن قبيلة من قبائلهم نحو مذحج وهمدان أو تميم أو بكر نصبت لهم لكفتهم " . (١٣٣)
وقد حاول مسلحة بن كهيل اقتاع زيد بعدم الاعتماد على أهل الكوفة الذين
خذلوا بيده " بإيمه ثمانون ألفا وتقاتل معه ثلثمائة " ، (١٣٤) كما أن عبد الله بن حسن كتب
الى زيد يبين له أن أهل الكوفة ينطبق عليهم ما قاله علي بن أبي طالب فيهم ، " ان أهلتهم
خضتم ، وان حوريتهم خرتم ، وان اجتمع الناس على امام طعنتم ، وان أجهتم السسى
مشاقة نكصتم " . (١٣٥)

(١٣٢) : الطبريسى ، ج ٧ ص ١٧٠ .

(١٣٣) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ١٦٧ ، الأصفهاني ، مقاتل الطالبين ، دار المعرفة

ببيروت ، ص ١٣٥ .

(١٣٤) : الطبرى ، ج ٧ ص ١٦٨ .

(١٣٥) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ١٦٩ .

لم يستجد يوسف بن عمر بالخليفة هشام في القضاء على ثورة زيد بن علي بل اعتمد على أهل الشام الحقيقيين في الحيرة (١٣٦) التي اتخذها مركزا له ومقرا بدلا من واسط (١٣٧) وفي الكوفة مع يزيد بن عبد الرحمن على شرطة الكوفة (١٣٨) وازا أخذنا برواية سعيد بن هشيم نرى أن أهل الشام في العراق كانوا يبلسون حوالا
اثني عشر ألفا. (١٣٩)

وعند ما بعث الحكم بن الصلت والي الكوفة الى يوسف بن عمر فأخبره خبر زييد ،
أرسل يوسف جيسر بن النعمان الكندي في خمسين فارسا ، (١٤٠) والسياس بن سعيد المزني صاحب شرطة في أهل الشام ، فسار حتى انتهى الى زيد بن علي في دار الرزق ، (١٤١) ووزع أهل الشام بين جبانة الصيادين ، والكناسة وجبانة كنده ، (١٤٢) ومجرد أن رأى أصحاب زيد بن علي الذين بايعوه أن يوسف بن عمر قد بلغه أمر زيد حتى نكث قسم منهم بهمة ، (١٤٣) وعندما قرر زيد بن علي الخروج في اليوم الممتمق طمسه لم يوافه سوى مائتان وثمانية عشر رجلا ، ولما تساءل أين الناس ، قيل له أنهم في المسجد الأعظم محصورون . (١٤٤)

استطاع يوسف بن عمر أن يقضي على ثورة زيد بن علي دون مشقة كبيرة ، وانتهت الثورة بمقتل زيد سنة ١٢٢ هـ الذي أصيب بسهم في جبهته اليسرى . ونظرا للدور الذي لعبه أهل الكوفة في تحريض زيد على الثورة ، فان يوسف بن عمر بعد قضاءه عليها أقبل الى الكوفة وخطب بهم ، وندد بأهمل

(١٣٦) : الطبري ، ج ٧ ص ٢٧٢ .

(١٣٧) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ١٨٠ ، الأصفهاني ، مقاتل الطالبين ص ١٣٤ .

(١٣٨) : الطبري ، ج ٧ ص ١٨٠ .

(١٣٩) : الأصفهاني ، مقاتل الطالبين ، ص ١٤٠ .

(١٤٠) : الطبري ، ج ٧ ص ١٨٤ .

(١٤١) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ١٨٥ .

(١٤٢) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ١٨٥ ، مقاتل الطالبين ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ .

(١٤٣) : الطبري ، ج ٧ ص ١٨٠ ، ١٨١ .

(١٤٤) : كان يوسف بن عمر قد بعث الى الحكم بن الصلت أن يجمع أهل الكوفة في المسجد الأعظم ويحصرهم فيه ، فكان ذلك قبل يوم من خروج زيد (الطبري ، ج ٧ ص ١٨١) .

الكوفة المدرة الخبيثة ، وأنه سوف ينزل بهم الصفار والهبوان ، ويقطع عنهم أرزاقهم وعطاهم (١٤٥) أما البلاذري فيذكر أن يوسف بن عمر كتب الى هشام في أهل الكوفة ، فكتب اليه هشام : " ان أهل الكوفة أهل سمع وطاعة فمر لهم بأعطياتهم " . (١٤٦) ولكن يبدو أن يوسف حرم أهل الكوفة بينما كان يعطي مقاتلة الشام وقادتهم المقيمين في الحيرة عطاهم من أموال العراق ، (١٤٧) لأنه عندما جاء عبد الله بن عمر بن عبد العزيز واليا على العراق من قبل يزيد بن الوليد ، وأعطى الناس أرزاقهم وأعطياتهم ، نازحه قواد أهل الشام ، وقالوا : " تقسم على هؤلاء فيثناوهم عدونا " . فقال عبد الله لأهل العراق : " اني قد اردت أن ارد فيكم عليكم وعلست انكم احق به فنازمني هؤلاء فانكروه على " ، (١٤٨) ولكن قواد الشام لم يلبثوا أن اعتذروا من أهل الكوفة . وهكذا نرى أن مقاتلة الشام بشجاعتهم وصبرهم وطاعتهم لقادتهم قد حققوا الكثير في مجال توطيد الأمن والنظام في العراق ، وهذا ما ساعد الولاة على تحقيق تلك الفتوحات العظيمة في الجناح الشرقي ، وتحقيق المشاريع العمرانية والاقتصادية التي تحدثنا عنها مصادرها .

دور أهل الشام في دعم الحكم الأموي في المغرب :

بين عودة موسى بن نصير عام ٩٦ هـ / ٧١٥ م وانفجار ثورة الخوارج في المغرب سنة ١٢٣ هـ / ٧٤١ م انقضى سبع وعشرون سنة كان سلطان الخلافة الأموية فيها وطبعا بشكل عام ، واتسمت هذه الفترة بانتشار الاسلام انتشارا سريعا ، ولعل من المفارقات أن انتشار الاسلام في هذه البلاد التي كانت عسيرة الفتح شديدة المقاومة كان أسرع منه بكثير في البلاد التي تم فتحها بسرعة ، وكان من المفروض أن يؤدي ذلك الى تقوية الرابطة بين الخلافة والمغرب ، ولكن ما حدث هو العكس تماما ، إذ أن انتشار الاسلام بين السكان ،

(١٤٥) : العميون والحدائق ، ص ١٠٠ .

(١٤٦) : البلاذري ، أنساب ج ٣ ، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي ، بيروت ، الطبعة

الأولى ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ص ٢٥٩ .

(١٤٧) : الطبري ، ج ٧ ص ٢٧٢ .

(١٤٨) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٨٤ .

بدأ يتخذ شكلا يقرب طبيعته من رابطة بالخلافة في دمشق الى منفردتها ، وذلك بتلويحه على شكل مذهب الخوارج - الأباضية والصفوية - الذين أنهكوا في الشرق تحت ضربات الأيوبيين في العراق ، فابتعدوا من ذلك السكان القريب من المركز الى تلك البقعة القاصية البعيدة وهي المغرب ، واستطاعت هذه الفئة أن تجسم المظالم وتضعفها في أعين الناس وترسم لهم طريق تنوير الحكم القائم .

وفي سنة ١٢٢ هـ انطلقت ثورة الخوارج الصفوية من طنجة وشطت بعد ذلك المنطقة المغربية من ديار الاسلام ، إذ استغل الخوارج خروج ^{جيش} والي افريقيا لغزو صقلية فرموا راية المصihan في طنجة وتزعمهم ميسرة المطرفي الذي تمت الروايات المغربية بالحلمير ، واستنابوا تحقيق أول نصر لهم في مدينة طنجة بقتل عاملها ابن المرادي المعروف بجوره في فرض الضرائب على البربر ، وبن ثم اتجهوا نحو الجنوب للسيطرة على المغرب الأقصى واستنابوا احتلاله وقتل اسماعيل بن عبيد الله عامل والده على منطقة السوس ، وبما أن الثورة خارجية والخوارج لا يعترفون بأحقية الأيوبيين بالخلافة ، لذا اعتبرت انتفاضتهم ، انتفاضة على الحكم الأموي ، وهكذا خلع البربر طاعة الخليفة وبايعوا زعيمهم ميسرة كخليفة . (١٤٩)
لما بلغ عبيد الله بن الحبحاب مقتل عامله وولده كتب الى حبيب بن أبي عبده ، (١٥٠)
يأمره بالرجوع من صقلية ، وأرسل خالد بن حبيب الفهري (١٥١) على رأس جيش للقضاء ميسرة ، وانتصر خالد في المعركة التي تمت بالقرب من طنجة ، وانصرف ميسرة عائدا

(١٤٩) : د . أحمد بدر ، دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة ،

طبعة ١٩٧٢ ، ص ٤٦ .

(١٥٠) : حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري ، ولد ونشأ بمصر ودخل الأندلس

مع موسى بن نصير وبقي فيها مع وجوه القبائل الى أن خرج منها مع من خرج برأس

عبد العزيز بن موسى بن نصير ، ثم رجع بعد ذلك الى افريقيا (تهذيب ، ج ٤ ،

ص ٣١) .

(١٥١) : خالد بن حبيب هو ابن حبيب بن مسلمة الفهري الذي كان من كبار القادة الفاتحين

شهد اليرموك ودخل دمشق مع أبي عبدة ، وكان معاوية ينفذه الروم وكان يقال

له حبيب الروم .

الى طنجة حيث قتلته أتباعه لأمر أنكروها عليه من سوء سيره
وتغيره عما كانوا يابعوه عليه ما أدى للهزيمة على حد زعمهم ، وولوا أمرهم خالد بن حبيب
الزناتي ، وسار الخليفة الخارجي الجديد للقاء ابن حبيب فوجده في قتال مع جماعات
من البربر فداهه أثناء احتدام المعركة ، فتناثرت البربر على البربر وهزموهم ، وكسره
خالد بن حبيب أن يهرب فألقى بنفسه وأصحابه إلى الموت ، فقتل مع رجاله من القسواد
الأشراف ، ولذا سميت الواقعة بموقعة الأشراف ، (١٥٢) فلما بلغت هذه الأحداث
مسمع هشام بن عبد الملك ، قال : " والله لأغضبنّ لهم غصبة عربية ، ولأبعثنّ لهم جيشا
أوله عندهم وآخره عندي " ، (١٥٣) وندب هشام بن عبد الملك كلثوم بن عياض القشيري
لقتال البربر وولاه إفريقيا وبعث معه ثلاثين ألف فارس ، عشرة آلاف من صلب بني أمية
وعشرين ألفا من العرب ، (١٥٤) بينما يذكر ابن عذارى في رواية أخرى أنه بعث
كلثوم بن عياض إلى إفريقيا وعقد له على اثني عشر ألفا من أهل الشام وكتب إلى والي كل بلد
أن يخرج معه ، (١٥٥) وأوصى الخليفة أن تكون القيادة لكلثوم بن عياض القشيري أمير
دمشق وفي حال موته تنتقل القيادة إلى ابن عمه بلج بن بشر ومن بعده إلى ثعلبة بن سلامة
المالطي . (١٥٦)

كان من سوء الحظ أن وقعت المنافسة بين القواد ، حبيب بن أبي عبد القائد
الافريقي وابنه عبد الرحمن من جهة وكلثوم بن عياض وابن عمه بلج بن بشر من جهة أخرى ،
وكادت المنافسة تؤدى إلى الحرب بين الطرفين لولا المساعي التي بذلت للصلح ، فدارت
بينهم وبين البربر معارك انتهت بهزيمة جيش الخليفة بقسميه الافريقي والشامي ، وقتل كلثوم
وحبيب بن أبي عبد ، وصار أمر العرب بإفريقية إلى بلج ، ولجأ فئهم إلى سببة حتى ضاق

(١٥٢) : ابن عذارى ج ١ ص ٥١ ، ٥٤ ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٢١٨ .

(١٥٣) : ابن عذارى ج ١ ص ٥٥ .

(١٥٤) : المصدر السابق ج ٢ ص ٤٢ .

(١٥٥) : المصدر السابق ج ١ ص ٥٦ .

(١٥٦) : المصدر السابق ج ١ ص ٥٦ ، ج ٢ ص ٤٧ .

عليهم الأمر ضيقاً شديداً ، فكتب بلج وأصحابه عبد الطك بن قطن صاحب الأندلس وسأله
ادخاله وإدخال من معه من الجند وذكروا له ما صاروا إليه من الجهد ، فأبى عبد الطك ادخالهم
في بلاد الأندلس ، فلما نار المهزوم بالأندلس أرضاً وقاطنوا السرب وطردوهم من جليقية وشمر
عبد الطك بالخطر ، اضطر إلى ادخال بلج وأصحابه ، فكاتبهم وشرط عليهم مقام سنة
بالأندلس ثم يخرجون عنها فرضوا بذلك ، وأخذ منهم رهائن أنزلهم جزيرة أم حكيم ، ثم
أدخل بلج وأصحابه وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشام . (١٥٧) واستطاع عبد الطك بن
قطن بمساعدة بلج وجنده أن يهزموا البربر هزيمة عظيمة بوادي سليط . (١٥٨)
وفشلت ثورة البربر كذلك في أفريقيا ، فقد ولي الخليفة حنظلة بن صفوان الكلبسي
والي طلي أفريقيا ، فلم يكذب ينزل القيروان حتى توجه ضده . يشان للخوارج ، فتكن من هزيمة
كل جيش على حدة قرب القيروان ، في معركة الأصنام والقرن ، سنة ١٢٤ هـ هذا وان
الصورة التي يقدمها المؤرخون القديمة للهزيمة وخاصة لاعداد الجيوش وقتلها تدعو للظن
بوجود مبالغة فيها ، فابن عذارى يطلق على هذه الهزيمة بقوله : وقيل ما علم في الأرض
مقتلة أعظم منها ، وأراد حنظلة أن يعصي من قتل وأمرهم فما قدر على ذلك ، وأمر
بقصب فطرحت قصبه على كل قتيل ، ثم جمعت القصب وعدت فكان القتلى مائة وثمانين ألفاً ،
وكانوا صفرة يستحلون النساء ^{الرياء} ويسفكون . (١٥٩) وكان الليث بن سعد (١٦٠) يقول : ما من
غزوة كنت أحب أن أشهد ما بعد غزوة بدر أحب إلي من غزوة الأصنام والقرن . (١٦١)

(١٥٧) : ابن عسكراً ، ج ٢ ص ٤٣ .

(١٥٨) : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٣ .

(١٥٩) : المصدر السابق ، ج ١ ص ٦٤ .

(١٦٠) : الليث بن سعد (٩٤ - ١٧٥ هـ / ٧١٣ - ٧٩١ م) كان امام أهل مصر في عصره
حديثاً وفقهاً ، قال ابن تفردي ، كان كبير الديار المصرية ورئيسها وأمر من
بها في عصره ، بحيث أن القاضي والنائب من تحت أمره ومشورته ، أصله من خراسان ،
ومولده ببلقشندة ووفاته بالقاهرة ، (الأعلام ج ٦ ص ١١٥) .

(١٦١) : ابن عذارى ، ج ١ ص ٦٤ .

رغم كل ما قيل من أهمية نصر جيش الخلافة بقيادة حنظلة بن صفوان ، فان ما أسفر عنه لهيبه بارز ، تلبس المشرك الأدي أو افرقها من الخوارج ، أما بقية المغرب فقد بقي بأيدى الخوارج ، وكان الأمر يحتاج للاستمرار في بذل الجهود حتى يتم اعادة بسط سلطان الخلافة ، لكن مثل هذا الأمر لم يتحقق لأن المركز انشغل خلال عقد من السنين تقريبا من هذا الجزء المتطرف من دولة الخلافة ، ولم يستطع أحد فيه أن يفعل فعل هشام بن عبد الملك في الاصرار على ارسال الجيوش لاخضاع المتطرفين ، فقد توفي هشام في العام الذي تلا انتصار القرن والاصنام ، ودخلت الدولة الأموية منذ ذلك الوقت مرحلة الاحتضار التي استمرت قرابة سبع سنوات حتى تحطمت نهائيا تحت ضربات العباسيين الزاحفين من الشرق .

موقف أهل الشام من أحداث الفتنة الثالثة :

كان مقتل الوليد بن يزيد سنة ١٢٦ هـ سببا في ابتداء الفتنة الثالثة التي انتهت بمقتل مروان بن محمد سنة ١٣٢ هـ ، وسقوط الأسرة الأموية ، ان أن القائمين بها كانوا من أصل الشام أولا وأبوين ثانيا ، وكلا المنسرين كما رأينا أساس في تثبيت السلطان الأموي ، ولذا نجد محمد بن علي يختار خراسان مركزا للدعوة العباسية بالرغم من أنه كان قد حل بين أهل الشام ، ولكنه كان يعلم أن أهل الشام سفيانية مروانية ، (١٦٢) ويعلق دانييل ديبنت في رسالته عن مروان بن محمد بقوله : " ان نقطة الجدل في أطروحتنا هي أن سقوط الأمويين لم يكن نتيجة ثورة في خراسان بل نتيجة ثورة في الشام " . (١٦٣) ان مقتل الوليد الثاني الذي كانت له ببيعة في الأندلس وعلى أيدي رجال بني أمية أنفسهم كان نقطة البدء في تحدى فكرة الشريعة وسمارا ضخما في نعش الخلافة كمنصبه قدسيته وهيبته ، (١٦٤) وقد شعر كل من مروان بن محمد بأرمنية والعباس بن الوليد بسوء العاقبة ، وحاولا ردع

(١٦٢) : الميلاندي ، أنساب الاشراف ، القسم الثاني ، تحقيق د . عبدالمعز السدوري بيروت ١٩٧٨ م ، ١٣٩٨ هـ ، ص ٨١ ، وأخبار الدولة العباسية لمؤلف مجهول ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(١٦٣) : د . فاروق عمر ، طبيعة الدعوة العباسية ، ص ٢٧٦ .

(١٦٤) : د . نبيه عاقل ، خلافة بني أمية ، ص ٣٤٦ .

يزيد بن الوليد ، وقال المباس لأخيه : " يا أخي أخاف أن يكون بعض من حسدنا هذه
النعمة من عدونا أراد أن يفري بنا " . (١٦٥)

وقد اجتمع على قتل الوليد كما يذكر الطبري جماعة من قضاة واليمنية من أهل دمشق
خاصة ، (١٦٦) كما يشير إلى أن الذين اضطفونوا على الوليد بن يزيد آل الوليد بن عبد الملك
وآل هشام وآل القمقاع واليمنية بما صنع بخالد بن عبد الله القسري ، (١٦٧) إذ أنه دفع به
إلى يوسف بن عمر والي الخراسان مقابل بمسعين ألف درهم فقطه يوسف في العذاب . (١٦٨)
ويرى بعض الباحثين أن اليمانية بشكل عام اعتبروا مقتل خالد اهانة لهم واعتبروا الخليفة
ويوسف بن عمر وآل الحجاج سوءا ولين عنه ، ولكننا إذا دققنا في الروايات الواردة في مصادرنا
لوجدنا أن الذين أيّدوا يزيد بن الوليد كانوا من سكان جند دمشق من أهل المسرة ومن
السكاسك وأهل داريا ودوما وحرستا وأهل دير مرّان والأرزه وسطرا وأهل الحديدية ودير زكسي
(من قرى غولمة دمشق) ، (١٦٩) وأن أهل حمص وفلسطين والأردن وجلهم يمانية قضاة
قد خالفوا يزيد بن الوليد ، (١٧٠) بل إن أهل حمص أغلقوا أبواب المدينة عند ما بلغهم
مقتل الوليد وأقاموا النوايح عليه ، (١٧١) ورفض أهل حمص ما اقترح عليهم من قبل الوفاء

(١٦٥) : الطبري ، ج ٧ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، وقد كتب مروان إلى سعيد بن عبد الملك بأمره أن
ينهى الناس ويكفهم . . . وقد جاء في هذا الكتاب : " إن الله جعل لكل بيت
أركاناً يعتمدون عليها ويتقون بها المخاوف ، وأنت بحمد الله ركن من أركان أهل
بيتك . . . وقد بلغني أن قوماً من سفهاء أهل بيتك قد استنوا أمراً ، إن تمت
لهم رويتهم فيه على ما أجمعوا عليه من نقض بيعتهم ، استفتحوا بابها لن يخلقه الله
عليهم حتى يسفك دماً كثيرة منهم ، وأنا اشتغل بأعظم ثغور المسلمين فرجاً ،
ولو جمعيتي وإياهم لرميت فساد أمرهم بيدي ، ولساني ولخفت الله في ترك ذلك
لعلمي ما في عواقب الفرقة من فساد الدين والدنيا ، وأنه لن ينتقل سلطان قوم
قط إلا في تشييت كلمتهم ، وإن كلمتهم تشوشت طمع فيهم عدوهم . . . " (الطبري ،
ج ٧ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩)

- (١٦٦) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٣٣ .
(١٦٧) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٣٧ .
(١٦٨) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٣٤ ، الصيون والحداثق ، ص ١٢٨ .
(١٦٩) : الطبري ، ج ٧ ص ٢٤٢ ، الصيون والحداثق ، ص ١٣٧ ، النويري ، ج ٢١ ص ٤٧١ ،
٤٧٩ .
(١٧٠) : الطبري ، ج ٧ ص ٢٦٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ .
(١٧١) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٦٢ ، ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٩٢ .
.. / ..

الذي أرسله يزيد بن الوليد للتفاوض معهم على أنه لا يدعوهم الى نفسه وانما يدعوهم الى الرضى من الأمة وأن يكون أمرهم شورى بينهم ، وقال : نجتمع نحن وأنتم ونظراؤنا من أهل الشام فننظر لأنفسنا ونختار المسلمين ، ولكن الحمصيين رفضوا وقالوا : قتلتم خليفتنا ليس بيننا وبينكم إلا السيف ، (١٧٢) وكاتبوا الأجناد ، ودعوهم الى الطلب بدم الوليد فأجابوهم واتفقوا أن لا يطعموا يزيد . (١٧٣) ويبدو أن أهل دمشق لم يحذوا كهم فكرة الانتقاض على الوليد ، إذ نجد يزيد بن الوليد يطلب من عبد الميزب بن العجاج أن يقف بباب الجابية ويطلب من بني عبد الملك أن يتفرقوا في الناس ويحذوهم بأن من كان له عطاء فليأت لقبض عطاءه ، ومن لم يكن له عطاء فله ألف درهم معونة ، (١٧٤) وأن يزيد أمر فنودي ، من ينتدب للفاسق الوليد وله ألف درهم فاجتمع أقل من ألف رجل ، فنودي من ينتدب للفاسق وله الف وخمسمائة درهم فانتدب يومئذ ألف وخمسمائة ، ويقال انه ندبهم الى ألفين فأتاه ألفان ، (١٧٥) إذا صحت هذه الروايات فهي تظهر موالاته أهل الشام ولا سيما اليمانية منهم للوليد بن يزيد ورفضهم البيعة ليزيد في بادىء الأمر ، كما أن نصر بن سيار والي خراسان ومروان بن محمد عامل أرمينية والجزيرة رفضا الاعتراف بالأمر الواقع ، ولم يتقبلا بتسليم ما بأيديهما من صلاحيات لممثلي الخليفة الجديد ، ولم يتح للأمر أن تتمم أكثر من ذلك لأن يزيد الثالث مالئث أن توفي سنة ١٢٦ هـ بعد حكم لم يدم سوى ستة أشهر وكان قبل وفاته قد أخذ البيعة لأخيه ابراهيم ، (١٧٦) ولكن يبدو أن أمر الخلافة لم يتم لابراهيم فقد كان " يسلم عليه جمعة بالخلافة وجمعة بالامرة ، وجمعة يسلمون عليه لا بالخلافة ولا بالامرة " ، (١٧٧) ويذكر خليفة بن خياط في تاريخه أن أهل الشام بايعوا ابراهيم بن الوليد ما خلا أهل حمص فانهم أبوا أن يبايعوه ، (١٧٨) وفي هذا الجـ

(١٧٢) : عبد الجبار الخولاني ، تاريخ دارها ص ٦٦ :

(١٧٣) : ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٩٢ :

(١٧٤) : العمرون والحداثق ، ص ١٣٨ .

(١٧٥) : المصدر السابق ، ص ١٣٨ ، الطبرى ، ج ٧ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(١٧٦) : الطبرى ، ج ٧ ص ٢٩٥ .

(١٧٧) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٩٩ .

(١٧٨) : خليفة بن خياط ، تاريخ ، ج ٢ ص ٥٥٨ .

مضطرب يظهر مروان بن محمد والي أرمينية وأن ربيعان منذ سنة ١١٤ هـ ، وعن اسماعيل بن
إبراهيم ، أن مروان بن محمد عند ما بلغه وفاة يزيد بن الوليد دعا قيسا وربيعة ففرض
مئة وعشرين ألفا من قيس وسبعة آلاف من ربيعة فأعطاهم أعطياتهم وولى علي قيس اسحق
سليم العقيلي وعلي ربيعة المشاور بن عقبة ثم خرج يريد الشام واستخلف علي الجزيرة
فأهـ عبد العزيز بن محمد بن مروان فلقبه وجوه قيس في أربعة أو خمسة آلاف من قيس ، فساروا
عنه (١٧٩) حتى وصل الي قنسرين حيث مال اليه سكان هذه المدينة الذين كانت غالبيتهم
من القيسية وبايعوه ، وكان علي رأسهم يزيد بن عمر بن هبيرة الفزاري ، ثم سار بجيشه الي حمص
حيث انضم اليه أيضا بعض رجالاتها ، ومنها توجه الي عين الجربين دمشق ومعلبك ، حيث
تلقى بجيش أرسله ابراهيم بن الوليد بقيادة سليمان بن هشام بن عبد الملك وكانت عدة
بجيشه مئة وعشرون ألف فارس علي حد زعم الطبري ومعه حرسه الذكوانية ، (١٨٠) بينما يقدر
لرواة جيش مروان بثمانين ألف جندي ، وكان النصر حليف مروان الذي تابع السير بعد ذلك
لي دمشق ، حيث بايعه الناس في دمشق يوم الاثنين في ٢٩ صفر سنة ١٢٧ هـ ، وبعد أن أخذ
لبيعة لنفسه اقتص من الذين قتلوا الوليد ، (١٨١) إلا أن مروان حاول في الواقع اتباع
سياسة المسالمة ونسيان الماضي ، وحاول استرضاء العناصر العربية المختلفة ، ولا سيما رجالات
الأجناد الشامية في فلسطين والاردن ودمشق وحمص وأكثرهم من القبائل اليمانية ، وأظهر
حسن نية تجاههم بأن ترك لهم أمرا اختيار ولا تتم دون تدخل منه . (١٨٢)

(١٧٩) : خليفة بن شيبان ، ج ٢ ، ص ٥٦٤ ، الأزدي ، تاريخ الموصلي ،

ص ٦١ .

(١٨٠) : الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .

(١٨١) : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٣١١ ، خليفة ، ج ٢ ، ص ٥٦٦ .

(١٨٢) : الطبري ، ج ٧ ، ص ٣١٢ .

بعد أن تم الأمر لعروان بالشام انصرف الى منزله بحرّان بالجزيرة وجعل مستقره فيها ،
از أنه كان قد نشأ فيها وعرف الناس هناك وعرفوه ، وحيث كان للقيسية الخليفة والنفسون
وقد أعطى مروان بمطبه هذا ، ان أن دمشق كانت العاصمة الرسمية للدولة الاموية بمسند
موت معاوية ، وانا كان عدد من الخلفاء قد أقاموا في مواقع مختلفة لأسباب صحية أو عسكرية
أو ادارية فانهم جميعا لم يفكروا بنقل العاصمة من دمشق ، أما مروان فقد تركها وأقام فسي
حرّان ، التي انتقلت اليها وائر الدولة بماني ذلك بيت المال ، (١٨٣) وكانت عملية نقل
العاصمة الى حرّان اساءة ضخمة الى أهل الشام عامة ، فقد خسر أهل الشام بانتقال العاصمة
من دمشق المركز الممتاز الذي كان لهم والخبرات العميمة التي كانت تتدفق عليهم بسبب قربهم
من الخليفة واتصالهم به ، واعتماده عليهم وتقديمه لهم على غيرهم ، (١٨٤) فاذا أضفنا الى
نقل العاصمة اعتماده على القيسية في الجزيرة وقنسرين ، وعدم اتفاق كلمة أمراء بني أمية ،
أدركنا أسباب قيام الفرقة بين اناس وانقسامهم الى شيخ وأحزاب وبالتالسي ظهور روح التمرد
واشاعة الفوضى .

بدأت الثورة في نلسلمين منذ مطلع سنة ١٢٧ هـ وثار أهل الفوطه وتد مروا امتدت
الثورة حتى وصلت الى حمص المدينة التي أظهر أهلها من قبل ميلا الى الوليد الثاني
ومخالفة لقلته ، وتأييدا لمروان في مسيرته الانتقامية للخليفة المقتول ، ولكنهم الآن انقلبوا
على مروان وطلبوا المدد من بني كلب في تدمر ، فجاءهم منها نحو من ألف فارس ، (١٨٥)
ومع ذلك استطاع مروان أن يقضي على هذه الثورات جميعا ، ثم قطع على أهل الشام
بمنا ، وولى على كل جند منهم قائدا منهم وأمرهم بالتحاق بوزيد بن عمرو بن هبيرة ، وكان مروان
قبيل مسيره الى الشام وجهه في عشرين ألفا من أهل قنسرين والجزيرة

(١٨٣) : الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ٦٨ .

(١٨٤) : نبيه عاتل ، خلافة بني أمية ، ص ٣٥٨ .

(١٨٥) : الطبري ، ج ٧ ص ٣١٢ ، ٣١٣ ، خليفة ، ج ٢ ، ص ٥٦٦ ، ٥٦٧ .

وأمره أن ينزل دورين الى أن يقدم وذلك لمحاربة الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي البحروري. (١٨٦) ولكن هذا كبيرا من الجند الشامي الذي كان قد وجهه لحرب الخوارج ، خرج من طائفة وانضم الى سليمان بن هشام بن عبد الملك ، وطلب هو^{١٠} من سليمان أن يطالب بالخلافة لنفسه لأنه أرضى عند أهل الشام من مروان ، فاستدله الشيطان وأجابهم ، وخرج اليهم باخوته وولده ومواليه ، (١٨٧) وهكذا نجد أن الجزيرة والشام اللتين كانتا تولفان وحدة ادارية واحدة بحيث أن القوم اذا ذكروا أهل الشام ذكروا أهل الجزيرة ، (١٨٨) انقسم مقاتلتها ، فقد انضم أهل الشام الى سليمان واعتد مروان على مقاتلة الجزيرة وقنشرين والصقالبة. (١٨٩)

ان هذا الانقسام في صفوف مقاتلة أهل الشام وفي صفوف المائلة الحاكمة وانضمام سليمان بن هشام الى الضحاك الخارجي بعمد هزيمته مع أشرف من أهل الشام ، يعطى صورة واضحة من تأزم الوضع في الشام ، ومع ذلك استطاع مروان خلال ثلاث سنوات أن يقهر أعداءه جميعا ويحقق ما لم يستطعه أحد من قبل في ظروف مثل ظروفه ، ولكن ما أن عاد الى حرّان طلبا للراحة ولتجميع قواه ، حتى ظهر ما لم يكن بالحسبان ، فقد رفعت آذناك الرايات السوداء ، وتقدم أبو سلم الخراساني باسم الدين واسم آل البيت ظاهرا ليديك آخر آمال مروان وآخر آمال بني أمية في عرش بدأت أسسه تتزعزع منذ آمد ليس بالقصير ، (١٩٠) ولكنني أعتقد أن أهل الشام لو وقفوا كهم متحدين متكاتفين الى جانب مروان لاستطاع الانتصار عليهم بالرغم من المناداة بأبي العباس خليفة في الكوفة ، ذلك أن الوضع كان لا يزال حرجا بالنسبة اليهم . فقد كان مروان كما يقول الطبري في حرّان في أهل الشام والجزيرة ، وشيخ العرب يزيد بن عمر بن هبيرة بالعراق في واسط في حلبة العرب ، (١٩١) ولكن

(١٨٦) : الطبري ج ٧ ص ٣١٤ .

(١٨٧) : المصدر السابق ج ٧ ص ٣٢٤ .

(١٨٨) : البلاذري ، أنساب ، القسم الثالث ص ١٥١ .

(١٨٩) : الطبري ج ٧ ص ٣٢٧ ، خليفة ج ٢ ص ٥٦٩ .

(١٩٠) : نبيه عاقل ، خلافة بني أمية ، ص ٣٧٢ .

خذلان أهل الشام ولا سيما القبائل اليمانية والقضاعية لمروان في معركة الزاب كان عاملاً هاماً من العوامل التي أدت إلى هزيمته ، (١٩٢) وعندما اجتاز مروان ببلاد قنسرين وخصاه أوقعت تنوخ القاطنة بقنسرين بساقته ، ووثب به أهل حمص ، وسار إلى دمشق فوثب به الحارث بن عبد الرحمن الحرشي ، ثم أتى الأردن فوثب السكم بن ضيفان بن ربح بن زنباع به لما رأوا من ادبار الأمر منه ، (١٩٣) وعندما كتب أبو العباس إلى عبد الله بن علي يأمره باتباع مروان ، لم يجد مقاومة تذكر إذ بايعه أهل منبج وقنسرين وحمص وحلبك ، أما في دمشق التي كان واليها الوليد بن معاوية بن مروان بن السكم ، فقد أرسل عبد الله بن علي وصالح بن علي الذي قدم مدداً عليه أن يحاصرها ، (١٩٤) ويورد في الطبري ، أن الناس تمصبوا بالمدينة فقتل بعضهم بعضاً ، وقتلوا الوليد وفتحوا الأبواب في العاشر من رمضان سنة اثنتين وثلاثين ومائة . (١٩٥) وأقام عبد الله بن علي بدمشق خمسة عشر يوماً ثم ارتحل إلى الأردن ، فأتوه وقد سودوا ، ثم وجه صالح بن علي في طلب مروان الذي نجح في القضاء عليه ببوصير من أرض مصر . (١٩٦)

تلاحظ أن أهل الشام لم يحاولوا الوقوف إلى جانب مروان أثناء تراجعهم ، بل انهم وشرباه وأضعفوه ، كما أنهم لم يقاوموا عبد الله بن علي في سيره في أرض الشام ،

(١٩١) : الطبري ، ج ٧ ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .
(١٩٢) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، يذكر الطبري رواية عن شيخ من أهل خراسان ، أن مروان قال لقضاعة ، انزلوا فقاتلوا ، فقالوا : قل لبني سليم فليمنزلوا ، فأرسل إلى المكاسك ، أن احطروا فقالوا : قل لبني عامر فليحطوا ، فأرسل إلى السكون أن احطروا ، فقالوا : قل لخطفان فليحطوا ، فقال لصاحب شرطته ، انزل ، فنقال : لا والله لا أجعل نفسي غرضاً .

(١٩٣) : المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٤٩ .

(١٩٤) : الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(١٩٥) : الطبري ، ج ٧ ص ٤٤٠ .

(١٩٦) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٤٤٠ .

بينما أظهر أهل الجزيرة بعض المقاومة ، فقد رفض المنذر بن الزبير بن عبد الرحمن والسي قرقيسيا أن يدخل في طاعة أبي جعفر المنصور الذي عينه أبو العباس واليا على الجزيرة ، وأرمينية ، وأذربيجان سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، فخلف أبو جعفر طيها مالك بن الهيثم فقتل المنذر وصلبه في سنة ١٣٣ هـ ومضى المنصور الى الرقة فدعاهم فلم يجيبوه ، فخلف عليهم موسى بن كعب ففتحها وغلب طيها ، وسار المنصور في مدن الجزيرة بصالح من يدخل في طاعته ، ويخلف على من التوى عليه حتى فتحها فكان من صالح أهل الرها ونصيبين ودارا ، وهذا يعني أن معظم مدن الجزيرة رفضت الدخول في طاعة العباسيين وقاومت في بادئ الأمر وأذعن عندما وجدت أن لا فائدة من المقاومة . (١٩٧)

أما ابن هبيرة في واسط فقد قاوم العباسيين مدة أحد عشر شهرا ، وفي رواية البلاذري ، أن أهل الشام هم الذين وقفوا ضد الحسن بن قحطبة عندما أرسله أبو العباس الى ابن هبيرة ، وهناك تأكيد على أهل الشام ومقاومتهم ، وأن ابن هبيرة لم يقبل الدخول في مفاوضات الصلح الا بعد أن جاءه خبر مقتل مروان بن معاوية من أرض مصر ، أما الرواية التي يوردها الطبري ، فتشير الى أن الحصار عندما طال على ابن هبيرة وأصحابه ، تحسنى عليه أصحابه فقالت البيهقي ، لا يمين مروان وآثاره فيها آثاره ، وقالت النزاري لا تقاوم حتى تقاوم معنا البيهقي ، وكان إنما يقاوم معه الصالح والفتيان . (١٩٩)

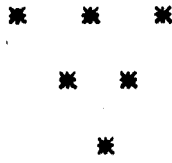
ان هذه الروايات المتعددة وان اختلفت فهي تشير الى امر بالغ الأهمية وهو دور الشعب في دعم حكم أو خذلانه ، ولقد لعب أهل الشام الدور الأكبر في دعم حكم بني أمية وفي خذلانه ، فهم الذين وقفوا الى جانب معاوية بن أبي سفيان وزيد بن معاوية وصعد الطيب بن مروان ، وهم الذين خذلوا مروان بن محمد ، ويهود ذلك الى فهم معاوية

(١٩٧) : الطبري ، ج ٧ ص ٤٤١ ، البلاذري ، أنساب ، القسم الثالث ص ١٥١ .

(٢٨٨) : البلاذري ، أنساب ، القسم الثالث ص ١٤٧ .

(١٩٩) : الطبري ، ج ٧ ص ٤٥٤ .

ومعظم خلفاء بني أمية لنفسية أهل الشام ، بينما كان مروان بعيدا عنهم وأتسرب
الى أهل الجزيرة . ولذلك فأنني أتفق مع ميشيل فوكو وهو أحد كبار أصحاب الفكر
المعاصرين في فرنسا والذي يرى أن السياسي الحقيقي الطاهر يستطيع أن يقيد الناس
بسلاسل أقوى من الحديد عن طريق أفكارهم هم أنفسهم .



الفصل الخامس

دور أهل الشام في الفتح

كان اهتمام العرب بتأمين فتوحاتهم هو الذي أدى بهم إلى بسط رقعتها توسيعاً لحماية أفضل ، فبعد أن تم فتح الشام كان لا بد من فتح الجزيرة ، فلما لا ارتباطها بالشام عن طريق نهر الفرات ، وضرورة تأمين الشام من الشرق ، ولأن القنوع بالشام كان معناه فقد ها بعد قليل ، وقد تم فتح الجزيرة في خلافة عمر بن الخطاب على يد عياض بن غنم الذي كان عمر بن الخطاب قد عينه والياً على حمص وقنسرين والجزيرة . (١)

وكما اتصلت فتوح الجزيرة بفتوح الشام اتصلت فتوح أرمينية بفتوح الجزيرة ، لكي يؤمن المسلمون ثغور الجزيرة في موقعها الحساس ، وعندما جمع عثمان معاوية ولاية الشام والجزيرة ، (٢) غدت مسائل الحدود تعالج بنشاط أكبر ، فأرسل معاوية بناءً على أمر من عثمان حبيب بن مسلمة الفهري في ستة آلاف وبيقال في ثمانية آلاف من أهل الشام والجزيرة ، (٣) فاستولى على قليقلا عاصمة أرمينية البيزنطية (تيودوبوليس) ، (٤) وجلا كثير من أهلها إلى بلاد الروم ، فأقام بها حبيب فيمن معه أشهراً ، فلما وجه بطريق بند أرمنياكس جيشاً كبيراً انضم إليه أهل اللان والخزر ، كتب إلى عثمان يستمه ، فكتب إلى معاوية يسأله أن يشخص إليه من أهل الشام والجزيرة قوماً ممن يرغب في الجهاد ، فأرسل إليه معاوية ألفي رجل أسكنهم قليقلا وأقطعهم بها القطنع وجعلهم مرابطة بها ، (٥) كما أرسل عثمان إلى سعيد بن العاص واليه على الكوفة يأمره بإمداد حبيب بن مسلمة ، فوجه

(١) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٧٧ .

(٢) : المصدر السابق ، فتوح ، ص ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٣) : المصدر السابق ، ص ٢٠٠ .

(٤) : نبيه هاتل ، خلافة بني أمية ، ص ٨٢ .

(٥) : البلاذري ، فتوح ، ص ٢٠٠ .

سلطان بن ربيعة الباهلي، (٦) في ستة آلاف من أهل الكوفة، ولكن سلمان وصل وقد فرغ المسلمون من حدهم، فطلب أهل الكوفة اليهم أن يشركوهم في الفدية فلم يفعلوا، (٧) وكتب إلى عثمان بذلك فكاتبه، "ان الفدية باردة لأهل الشام". (٨) بعد أن استولى حبيب على قتيلا، جرت بينه وبين الروم الميزنطيين على أرض أرمينية معارك عديدة، انتهت بسيطرة العرب على أرمينية الميزنطية، ثم تابع زحفه على القسم الفارسي حتى بلغ مدينة ديبيل، (٩) (دوين Dwin) (١٠) وأتم حبيب فتح أرمينية برصولة إلى مدينة تغليس حيث عقد صلحاً مع أهلها مقابل اعترافهم بالسيادة الإسلامية، وقده عثمان أن يولي حبيب بن مسلمة جميع أرمينية، ثم رأى أن يجعله غازيا لشفر الشام والجزيرة فعاد حبيب ونزل حصص (١١).

وحيث قامت التفتنة بين علي ومعاوية اضطر معاوية لسحب قوات المراقبة في أرمينية ليستغدها في صراعه ضد خصمه، وأدى انسحاب الجيش الإسلامي من أرمينية إلى حدود فراغ استغله الميزنطيون لاسترجاع سيادتهم على هذا الموقع الاستراتيجي الهام، ونجح الميزنطيون في تحقيق هدفهم وسقطت أرمينية مرة أخرى في يد الإمبراطورية الميزنطية لتعاود سياستها الجائرة في حكم الأرمن بسبب ما كان بين الطرفين من عداوة مذهبية، على أنه ماكادت الخلافة تؤول إلى معاوية حتى عاودته فكرة استعادة هذا الإقليم الهام واعادته إلى

(٦) :سلطان بن ربيعة الباهلي ، صحابي من القادة ، شهد فتوح الشام وسكن العراق ، واستنشاء عمر على الكوفة ، قال ابن قتيبة : هو أول قاض قضى لعمر بن الخطاب بالعراق ، وفي المعارف لابن قتيبة أنه قتل بهلنجير من أرض الترك أو من أرمينية ، (المعارف ص ١٩١ ، تهذيب ، ج ٤ ص ١٣٦) .

(٧) : البلاذري ، فتوح ، ص ٢٠١ .

(٨) : المصدر السابق ، ص ٢٠١ ، وقد نقل البلاذري هذه الرواية عن مشايخ أهل قتيلا ، كما كتب بها المطاف بن سفيان أبو الأصم قاضيها .

(٩) : المصدر السابق ، ص ٢٠٣ .

(١٠) : نبيه عاقل ، خلافة بني أمية ، ص ٨٢ . E.I. , Art. Arminiya .

(١١) : البلاذري ، فتوح ، ص ٢٠٧ .

التربية العربية ، وظلت كذلك طوال فترة الحكم الأموي . (١٢) وقد ولي أرمينية من قبل معاوية عبد الله بن حاتم بن النعمان الباهلي ، فلما توفي ، وليها أخوه عبد العزيز بن حاتم فبنى مدينة د بيل وحصنها ، وركب مسجدا لها وبنى مدينة النشوى ورمّ برزعة ، ويقال أنسه جدد بناءها ، (١٣) ويقال أن الذي جدد بناء برزعة محمد بن مروان في أيام عبد الملوك بن مروان ، وقد انتفضت أرمينية وخالف أحرارها وأتباعهم أثناء فتنة ابن الزبير ، فلما ولي محمد بن مروان أرمينية من قبل أخيه عبد الملك حاربهم وسيطر على البلاد . (١٤) وولي الخليفة يزيد بن عبد الملك الجراح بن عبد الله الحكيم من مذحج ، الدمشقي الأصل والسولد ، إمارة أرمينية وأذربيجان ، فنزل برزعة ، فلما رأى اختلاف مكابيلها وموازينها ، أقامها على العدل والوفاء ، واتخذ مكابلا يدعى الجراحي ، بقي أهلها يستعملونه حتى عهد البلاذري . (١٥) وغزا الجراح الخزر ، وافتتح حصن بلنجر وغيرها من الحصون ، فلما مات يزيد أقروه هشام بن عبد الملوك ثم عزله سنة ١٠٨ هـ ، وأعاد سنة ١١١ هـ ، وتابع الجراح بن عبد الله حروبه مع الخزر ، فلما هزمهم اجتمع الخزر والترك من ناحية الملان فواجههم الجراح فبمن سعه من أهل الشام فاقتتلوا قتالا شديدا ، وتكاثر الخزر والترك على المسلمين ، فاستشهد الجراح ومن معه بمن أورد بيل . (١٦) فدلمع الخزر بالصرب وأوغلوا في البلاد ، فولى هشام مسلمة بن عبد الملوك أرمينية ووجه على مقدمته سعيد بن عمرو بن أسود الحرشي مع العديد من أشرف الشام . (١٧)

ويذكر الطبري أن هشاما دبا سعيدا الحرشي وسأله رأيه فاقتراح عليه ارساله على أرمين دابة من دواب البريد ، ثم يبحث اليه كل يوم أرمينين رجلا ثم يكتب الي أمراء الأجناد

(١٢) : ابراهيم العدوي ، الامويون والبيزنطيون ، الطبعة الثانية ، الدار القومية

للطباعة والنشر ، ص ١٢٧ .

(١٣) : البلاذري ، فتوح ، ص ٢٠٧ .

(١٤) : المصدر السابق ، ص ٢٠٧ .

(١٥) : المصدر السابق ، ص ٢٠٨ .

(١٦) : ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ١٥٩ .

(١٧) : البلاذري ، فتوح ، ص ٢٠٨ .

بحوافاته ، ففعل ذلك هشام وسار الحرشي ، فكان لا يمر بمدينة الا ويستنهض أهلها فيجيبه من يريد الجهاد ، واستطاع الحرشي أن يصل الى خلاط وهي ممتعة طيبة فدسرها وفتحها ، ثم سار عنها وفتح الحصون والقلاع شيئا بعد شيء الى أن وصل برندة ، فنزلها كما استطاع أن يجبر الخزر على فك حصار مدينة ورتان ، وهزم الخزر هزيمة عند نهر البيلتان ، وجمع الحرشي الغنائم وهاج الى باجروان ، فقسمها وأرسل الخمس الى هشام بن عبد الملك وعرفه ما فتح الله على المسلمين فكتب اليه هشام يشكره ، ثم لم يلبث أن أمره بالمصير اليه ، واستعمل أخاه مسلمة بن عبد الملك ، (١٨) الذي استطاع بعد جهد بالغ أن يفتح مدينة ، لسباب والأبواب وكان في فتحها ألف أهل بيت من الخزر ، (١٩) فأسكن مسلمة بن عبد الملك مدينة الباب والأبواب أربعة وعشرين ألفا من أهل الشام على العطاء وبنى هربا لانطعام وللمشعر وخرانة للسلاح ورم المدينة ، وكان مروان بن محمد مع مسلمة وواقع معه الخزر ، فأبلى وقاتل قتالا شديدا ، لذلك ولاه هشام ذلك الثغر ، وكان له بلاء في قتال الخزر حتى أن عظيمهم عندما رأى كثرة ماوطى به مروان بلاده من الرجال وماهم عليه في ، تبهم وقوتهم قبل الاسلام وأظهره عندما خيموه مروان بين الحرب والاسلام ، فأقره في ملك نفسه وسار بخلق من الخزر الى اللكز وأرض السرير ، ويبدو أن مدينة الباب والأبواب أصبحت المركز الذي تنطلق منه جيوش المسلمين ، ونلاحظ أن المعاهدات التي عقدها مروان مع ملوك تلك المناطق كانت تنص كلها على تقديم أعداد من الفلحان والجواري وعلى كميات ضخمة من الأرزاق تصب كلها في أهراء الباب . (٢٠)

(١٨) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٧٠ ، ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ١٥٩ .

(١٩) : البلاذري ، فتح ، ص ٢٠٩ .

(٢٠) : المصدر السابق ، ٢١٠ ، ٢١٢ .

دور أهل الشام في فتح جزر البحر المتوسط :

بذل معاوية بن أبي سفيان في فتح المنطقة الساحلية من إقليم الشام
بجهود ذات بلاء عسك وأثر جميل ، كما شهد له بذلك قادة العرب في الشام ، وقد
خرج من تلك الحملات الحربية بنتيجة هامة ، هي أن بقاء العرب واحتفاظهم
بممتلكاتهم في الشام ومصر رهن باهتمام العرب بالأسطول ورهن بالاستيلاء على جزر
البحر الأبيض المتوسط التابعة للروم والتي كانت قواعد بحرية خرجت منها الاسداد
الى مدن الشام أثناء حصار العرب لها .

بدأ معاوية يعمل على تحقيق أهدافه البحرية منذ خلافة عمر بن الخطاب ،
وتجلت الخطوط الرئيسية للبرنامج البحري الذي رسمه معاوية بعين أرسل الى الخليفة عمر
بن الخطاب يستأذنه في فزو جزيرة قبرص مبينا له شدة خطورة هذا الممثل التامسح
للروم على سلامة المدن الشامية ، ان جاء في خطابه : " يا أمير المؤمنين ان بالشام
قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم وهم ثقاة ساحل من سواحل حمص " ، (٢١)
ثم ختم خطابه بطلب السماح له بفزو تلك الجزيرة ، وكان هذا الموضوع الذي أثاره معاوية
موضوعا جديدا لا يسد من عرضه على كبار رجالات العرب ، ووقف عمر الى جانب أولئك
الذين كان من رأيهم تجنب المخاطرات البحرية ، ان كان رائد الخليفة في اتقان هذا الموقف
هو الحرص على سلامة المسلمين حيث قال لمعاوية : " وتالله لصلح أحب الي ساحل
الروم ، فإياك أن تعرض لي ، وقد تقدمت اليك ، وقد طمت طلقي العلاء مني ولم أتقدم اليه
في مثل ذلك " (٢٢) . وفي رواية أخرى أنه كتب الى معاوية : " لا والذي بعثت
محمدا بالحق لا أعط في صلحا أبدا " . (٢٣) ولكن معاوية لم يكن بأقل من الخليفة
حرصا على سلامة المسلمين ، وانما كان أشد الولاة احساسا بالخطر الذي يلوح في الأفق
مهديا ولاية الشام وكذلك مصر بسبب وجود أسطول الروم قريبا من شواطئهما

(٢١) : الطبري ، ج ٤ ، ص ٢٥٩ ، رواية السري عن شعيب بن جنادة بن أمية الأزدي ،

ص ٢٥٨ ، رواية السري عن رجاء بن حيوة .

(٢٢) : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٥٩ .

(٢٣) : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٥٩ .

وافتقارها الى وسائل الدفاع ، وآثر معاوية أن ينفذ سياسته البحرية تدريجيا ازا* موقسف
المحارضة بالحرباء اللذين ظهرها بصدد رغبته في الهجوم على جزيرة قبرص ، فكتب معاوية
عرة أخرى الى الخليفة صر بن الخطاب يعرض عليه سوء حال سواحل الشام وما هي طوبه من
خراب وافتقارها الى وسائل الدفاع القوية ، فكان جواب الخليفة أن أمره بحرمة حصونها ،
وترتيب السقائبة فيها واقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواعد لها . (٢٤)

اكتفى معاوية بسياسة تقوية السواحل حتى رلي الخلافة عثمان بن عفان ، ان غطا
منذ قد خطوة ثانية في متابعة سياسته البحرية بتشجيع الناس على النزوح الى المناطق
الساحلية ، وساعد معاوية على تعقيب خطته أن الخليفة أمر بفتح كل راغب في الاقامة
في المدن الساحلية اقطاعات من الأرض يستفلها ويتمتع بخيراتها ، ويحطيمهم ما جلا عنه
أهله من المنازل ، وأن يبني المساجد ويكرر ما ابتغي منها ، فكان هذا سببا الى انتقال
الناس الى السواحل ، ثم لم يلبث أن ظفر من الخليفة عثمان بن عفان
بتمويه يروج له غزو قبرص شريطة أن لا يأخذ معه في غزوه هذه الا من اختار الفزرو
طائما ، (٢٥) فكتب معاوية الى أهل السواحل فأمرهم باصلاح المراكب وتقريبها الى
ساحل حصن عكا ، ليكون ركوب المسلمين من عكا الى قبرص ، فأصلحت المراكب وجمعت ،
ووضع معاوية الأرزاق للناس الذين أرادوا الاشتراك في هذه الحملة وأمرهم بالمسير
الى عكا ، (٢٦) وحرص معاوية على أن يصحبه عدد من كبار الشخصيات الاسلامية ،
لمكسب أولى حملات الأسطول العربي مظهر الجهاد . (٢٧) كما اتسمت هذه الحملة بخروج
النساء معها ، فاصاحب معه زوجته فاخرة بنت قرظة ، كما أخذ عبادة بن الصامت امرأته
أم حرام بنت طحان الأنصارية ، (٢٨) فلما وصل المسلمون قبرص بحث اليهم حاكمها

(٢٤) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٢٥) : الطبري ، ج ٤ ، ص ٢٦٠ .

(٢٦) : ابن الأثير ، فتوح ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

(٢٧) : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، والبلاذري ، فتوح ، ص ١٥٩ ، فراجع

مساوية أبو أيوب بن زيد بن كليب الأنصاري ، وأبو الدرداء* ، وأبو نذر الفخاري ،
وعباد بن الصامت ، وفضالة بن عبيد الأنصاري ، ووائلة بن الأسقع الكناني ، وعبد الله
بن بشر المازني ، وشداد بن أوس بن ثابت والمقداد بن الأسود وغيرهم .

(٢١) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٨ .

يطلب الصلح وقد أذن أهلها ، فصالحهم على سبعة آلاف ومائتي دينار ، وفي رواية أخرى سبعة آلاف دينار ، (٢٩) يؤدونها في كل عام ويؤدون إلى الروم مثلها ، وليس للمسلمين أن يعولوا بينهم وبين ذلك ، على ألا يهزؤهم ولا يقاتلون من ورائهم ممن أرادهم من خلفهم ، وعليهم أن يؤذّنوا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم ، وعلى أن يبترق إمام المسلمين عليهم منهم ، (٣٠) ويضيف الواقدي أنه في العهد الذي بين معاوية وأهل قبرص ألا يتزوج أهل قبرص من الروم إلا بانن العرب ، (٣١) كما يشير الواقدي إلى أن فتح قبرص لم يشترك فيه أهل الشام فقط سنة ٢٨ هـ وإنما غزاها أهل مصر وعليهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح حتى لقوا معاوية ، وكان معاوية هو القائد الأعلى . (٣٢)

وعندما أخذ أهل قبرص سنة ٣٢ هـ / ٦٥٣ م بشروط الصلح وأمدوا الروم بسفن ساعدتهم على مهاجمة الشواطئ المصرية بالشام ، عهد معاوية إلى غزوهم سنة ٣٣ هـ فسي خمسمائة بركب ، ففتح قبرص هنوة ثم أقرهم على صلحهم وبعث إليهم باثني عشر ألفا كلمهم أهل ديوان ، فبنوا بها المساجد ، ونقل إليها جماعة من بعلبك وبنى بها مدينة ، (٣٤) أي أن معاوية جعل من قبرص قاعدة للأسطول المصري في البحر الأبيض المتوسط ، ولا تشير الروايات إلى الأسباب التي دفعت يزيد بن معاوية إلى إقفال ذلك البعث ، بل إن رواية محمد بن مصطفى الحمصي تبين أن يزيد بن معاوية قد رشا مالا عظيما ذا قدر حتى ^{أقفل} جند قبرص ، وأن أهل قبرص هدوا مدبنتهم ومساجدهم ، (٣٥) إلا أن سيطرة المسلمين على قبرص استمرت وظل أهل قبرص على صلح معاوية حتى ولي عبد الملك بن مروان فزاد عليهم ألف دينار ، (٣٦) وعندما

(٢٩) : المصدر السابق ، ص ١٥٩ ، الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .

(٣٠) : الطبرى ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .

(٣١) : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .

(٣٢) : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .

(٣٣) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٥٨ .

(٣٤) : المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

(٣٥) : المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

(٣٦) : المصدر السابق ، ص ١٥٩ .

عقد جستنيان الثاني مع عبد الملك بن مروان ٦٩ ، ٧٠ هـ / ٦٨٨ ، ٦٨٩ م
أثناء ثورة الجراحمة وانشغال عبد الملك بثورة عبد الله بن الزبير ، نصت هذه المعاهدة على
أن يدفع عبد الملك ألف دينار وحسانا وسبعا من كل أسبوع في السنة ولسن اثنتي عشرة ألفا
ما يجيب من أرمينية وقبرص ، كما تعهد جستنيان بنقل المردة من لبنان فنقل اثني عشر ألفا
منهم ، وأدرك جستنيان ولكن بعد فوات الأوان أنه أخطأ بعمله هذا فعقد الى نقل سكان قبرص
رضية منه في أن يحرم الخليفة من أولئك الذين يدفعون له الجزية ، وكان معظم ضحايا
هذه الهجرة الاجبارية من النصارى الاغريق ، كما أخذ العرب المقيمين فيها كأسرى ، وغرق
قسم كبير منهم بسبب عاصفة قوية افترضتهم قبل وصولهم الى منطقة الهيليسبونت ، وعند ما
أصبح حاكم بند الكبرهايونت (Cybrrhaeotes) امبراطورا

باسم تيبيريوس الثالث (Tiberius Apsimarus) ، (٦٩٨ - ٧٠٥ م)

٧٩ - ٨٦ هـ) بعد ان ارسل ثلاثة من أشرف قبرص يرافقهم دوظف امبراطوري كبير طالبيين
اطاعة القبارصة الموجودين في رومانيا (Romania) وسيزيكوس ، وفي البنديين
الكبرهايونت وتراقيا (Thracia) لاعادة تأهيل قبرص . (٣٧) وفي خلافة
الوليد بن يزيد بن عبد الملك أجلى منهم خلقا الى الشام لأسر اتهمهم به ، فأنكر الناس
ذلك عليه فردهم يزيد بن الوليد الى بلد هم . (٣٨)

لم تكن قبرص الجزيرة الوحيدة التي غزاها معاوية ، ان عقد العزم كذلك على التخلص
من صخاوشه من جزيرة أرواد (Aradus) القريبة من الساحل الشامي بين مدينتي
جبله وطرابلس ، فأعد الأسطول لمهاجمتها بقيادة جنادة بن أمية وضم اليه أربعة آلاف رجل
في مشرين موكبا ، ويذكر ابن الأعمش أن غزو جزيرة أرواد كان في السنة التي قتل فيها عثمان
أي سنة ٣٦ هـ . (٣٩) بينما لا يذكر البلاذري سوى فتحها سنة ٤٥ هـ وعلى يد جنادة

Sir George Hill. The History of Cyprus. Vol. I : (٣٧)

The Cambridge University Press. 1940. PP. 288 - 289 .

(٣٨) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٩ .

(٣٩) : ابن الأعمش ، فتوح ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

بن أمية كذلك وان معاوية أسكنها المسلمين ، ولكنه يقول ان ارواد جزيرة بالقرب من القسطنطينية ، (٤٠) مما يجعلنا نتساءل ان كان هناك خطأ في تسمية تلك الجزيرة التي تم فتحها سنة ٥٤ هـ .

وفي سنة ٥٣ هـ فتح جنادة بن أمية الأزدي رودس فأنزلها كذلك قوما من المسلمين ، وكان معاوية يماقب بين الناس فيها ، وكان مجاهد بن جبر مقيما بها يقري الناس القرآن ، (٤١) وغزا جنادة أيضا جزيرة كريت ، ويروي ابن الأعمش أن معاوية فزا رودس فسي خلافة عثمان ، (٤٢) وأن نقطة الانطلاق كانت من صيدا وليس من هناك كما كان فسي فتح قبرص ، ويضيف أن معاوية بنى فيها مسجدا وشحنها بالمسلمين (٤٣) وقواهم بالأموال والسلاح وأمرهم بالزراعة .

لم يكف معاوية بفرو هذه الجزر القريبة من الساحل الشامي ، إذ فكر بفرو جزيرة صقلية ، (٤٤) وهو يحطه هذا انما يدل على بعد نظره في الشؤون السياسية والعسكرية ، إذ يعدد لأول وهلة أن هذه الجزيرة بعيدة كل البعد عن أن تكون موضع خطر مباشر على انظم مصر والشام ، ولكن مجريات الأحداث دلت على أن صقلية غدت قاعدة لأساطيل الروم (٤٥) التي انسحبت من قواعدها بالشام ومصر ومركزا تهجم منه على العرب بحيث تشل التعاون البحري بين أساطيلهم في مصر والشام ، وكانت صقلية بحكم موقعها الجغرافي تتحكم في المداخل الرئيسية الكبرى للبحر الأبيض المتوسط ، فهي تقسم البحر المتوسط عامة الى قسمين رئيسيين ، وتشرف على الاتصال بينهما من طريق مضيق مسينا ، ومضيق صقلية الواقع بين

-
- (٤٠) : البلاذري ، فتوح ، ص ٢٣٧ ، الطبري ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ ، ابن الأثير ، ج ٣ ، ص ٤٩٣ .
(٤١) : البلاذري ، فتوح ، ص ٢٣٧ .
(٤٢) : ابن الأعمش ، فتوح ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .
(٤٣) : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٧ .
(٤٤) : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .
(٤٥) : أحمد بدر ، تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٥٢ .

طرفي جزيرة صقلية الجنوبي وشمالى افريقيا ، (٤٦) وعندما عزم معاوية على غزوها كتب الى عثمان بذلك فأذن له واشترك أهل الشام في هذه الغزوة البحرية التي ضمت ثلاثمائة مركب ، (٤٧) وأغار المسلمون على أطراف صقلية ، ثم أخرجوا مجانبين كانت معهم فذهبوا على حصونهم وروهم رميا متداركا ، (٤٨) كما كانوا يغيرون على قراهم وحصونهم ، ثم يرجعون الى مراكزهم ، ولذلك اقترح بعضهم على ملك صقلية أن يستجد بملك الروم ، فلما بلغ ملك الروم عجزهم عن صد العرب جهّز ستائة مركب فيها المقاتلة والسلاح ، فقرر العرب عندما بلغهم ذلك الانسحاب فعادوا أدرابهم الى ساحل الشام ، وأرسل معاوية الخصم الى المدينة وقسم ما بقي بعد الخصم في المسلمين ، (٤٩) ولم يتابع معاوية أو خلفاء بني أمية جهودهم في سبيل الاستيلاء على صقلية ، وأصبحت الغزوات على صقلية توجه من قبل ولاية افريقيا لا سيما بعد أن تم فتح الحفرب سنة ٩٠ هـ .

ان سيطرة المسلمين على قبرص وأرواد ورودس وغاراتهم على كريت واحتلالهم فيها بعد جزيرة كوس (٥٠) هي التي هيأت وساعدت على غزو القسطنطينية برا وبحرا في خلافة معاوية ان اتخذ العرب من جزيرة سيزيكوس (Cyzicus) قاعدة لادارة حملاتهم ضد العاصمة. (٥١) فقد كانت الأساطيل الاسلامية تنقل الجنود من هذه الجزيرة الى البر لمحاورة أسوار القسطنطينية وتقف سفن الأسطول الاسلامي الأخرى مطوقة هذه المدينة من جهة البحر ، وصدت المدينة لهذا الحصار الذي دام أربع سنوات (٥٥ - ٥٩ هـ / ٦٧٤ - ٦٧٨ م) وانسحب العرب من وراء أسوار هذه المدينة متغلبن مؤقتا عن مشروعهم في فتحها لهماودوا المفاوضة في عهد الوليد بن عبدالمك وفي حلة القسطنطينية الأخيرة في خلافة سليمان بن عبدالمك .

Sample, E. The Geography of The Mediterranean Region p.72: (٤٦)

(٤٧) : ابن الاعثم ، فتوح ، ج ٢ ، ص ١٣٨ ، ١٣٩ .

(٤٨) : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٣ .

(٤٩) : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

(٥٠) : نبيه عاقل ، خلافة بني أمية ، ص ٨٧ ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٥ .

(٥١) : المصدر السابق ، ص ٨٧ .

دور أهل الشام في فتوح افريقيا :

لسميت الجيوش الشامية دورا كبيرا في فتوح افريقيا ، ففي سنة ٥٥ هـ أعان معاوية بن أبي سفيان معاوية بن حديج بجهيوش الشام وكان مراد الملك في ذلك الجيش ، وخربت جيوش الشام ومصر الى افريقيا واحتفروا الآبار التي تمسح اليوم آبار حديج بهاب تونس ، (٥٢) كما اشتركت الجيوش الشامية مع المصرية عند ما خرج أبو الصاهر دينار من مصر سنة ٥٥ هـ الى افريقيا فوصل الى قوطاجنة .

وإذا تركنا جانبنا انجازات عقبة بن نافع الذي بنى القيروان واجتاز المغرب الأوسط حتى طنجة في المغرب الأقصى ، فإن استشهاده في سنة ٦٥ هـ في مدينة تهود ، حيث فاجأه كسيلة زهير أوربة (وكان عقبة قد أساء معاملته) مع حلفائه الروم ، كان نكسة لم تقتصر على مقتله ومقتل من معه بل تعدى الى ماكبسه المسلمون من افريقيا ، إذ اتجه كسيلة وحلفاؤه نحو القيروان ، واضطر زهير بن قيس البلوي الى الانسحاب مع الكثيرين ، ولم يبق في القيروان " الا أصحاب العمال وكل مثقل من التجار وأهل الذممة " ، (٥٣) فطلب هؤلاء الأمان من كسيلة فنالوه ، ودخل مدينتهم ليبقى فيها أمرا قرابة أربع سنوات . واستناد كسيلة من فترة الاضطراب التي تلت وفاة يزيد ، وانتقال الخلافة من الأسرة السفينانية الى المروانية ، ولكن ما أن استقر الأمر نسبيا لعبد الملك بن مروان حتى أمر زهير بن قيس البلوي أن يسير ضد كسيلة الذي قتل في معركة جرت سنة ٦٩ هـ ، (٥٤) واستغل البيزنطيون غياب زهير ليفيروا على مقره في برقة ويهددوه من الخلف ، فماد بسرعة ولكن الروم تصدوا له في منطقة تقترب فيها الجبال من البحر ولا يسمح بمرور الجيش كسبه ، مما أدى لاستشهاده مع عدد كبير من جنوده ، (٥٥) ولم يستطع عبد الملك الخليفة

(٥٢) : الطالكي ، رياض النفوس في طبقات طحا* القيروان و افريقيا ، الطبعة الأولى ، ١٩٥١ م ، ص ١٩ .

(٥٣) : أحمد بدر ، تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٥ .

(٥٤) : ابن حذاري ، ج ١ ، ص ٢٠ .

(٥٥) : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢١ .

الأموي أن يرد على هذه الضربة بسرية لانشفاله بأمر منافسه على الخلافة عبد الله بن الزبير،
فما أن أتم القضاء على عبد الله بن الزبير حتى عمد إلى إرسال حسّان بن النعمان
الخصّاني .

ويهود فضل توطيد الفتح في الواقع في أفريقيا ثم اتجه إلى والييين شاميين ، هما
حسّان بن النعمان الخصّاني وموسى بن نصير ، وقد دخلها حسّان في . ألفا ، (٥٦)
أقام في مصر أولاً ثم أمره سيد الطك بالانطلاق إلى أفريقيا ، فقد مها كذا يقول ابن عذاري في
عسكر عظيم ، فلم يدخل المسلمون قط أفريقيا بمثل ما دخلها حسّان بن النعمان ، (٥٧)
وركّز حسّان هجومه أول الأمر على الروم وقاعدتهم البحرية والادارية قرطاجنقوا حنلها ولكنه
فشل أمام الخصوم الآخرين من بربر الأوراس بزعامة الكاهنة التي الحقت بحسّان وجيشه في
بادي الأمر هزيمة كبرى اضطر معها إلى التراجع إلى ما وراء حدود ولاية أفريقيا ، حيث
أقام متربصاً في برقة مدة خمس سنوات ، ويهود وفي كل عمل حسّان بن النعمان ما يروحي
وكانّ الفاتحين يسيرون وفق خط يستفيدون فيه من تجاربهم الماضية ، فتلك الاندفاهات
التي كان ينتصر فيها السفارية كانت أشبه بموجات أو عاصفة عاتية ، لا تلبث أن تهبط
بعد أمد قصير لأنها مبنية على تحالفات في وجه خطر مهدد ، فما أن يلوح زيادته حتى
ينفطر عقدها وتعود الأطراف المكونة لها إلى التصادم ، وهذا يتيح للفاتحين العودة
مستفيدين من ضعف خصومهم ، وقد حصل هذا مع الكاهنة إذ لجأت إلى تخريب القسري
والعمران حتى تزيل مطامع العرب في أفريقيا حسب رأيها ، وهذا ما وقع بينها وبين
المستقرين من أفارقة وروم ، وهذا ما ساعد على انتصار حسّان سنة ٧٩ هـ على الكاهنة
التي جابهته في مومتين قتلت في الثانية اثر هزيمة جيشها ومطاردتها . (٥٨)

(٥٦) : ابن عذاري ، ج ١ ، ص ٢٢ .

(٥٧) : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٣ .

(٥٨) : أحمد بدر ، تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٢٧ .

عاد حسّان بعد نصره الى القيروان ليقيم بتوطيد الفتح وتوطيد سلطان المسلمين
نهائيا في افريقيا ، فأدخل التحسينات على قواعدهم ، وأرسى أسس التنظيم للإدارة الحالية
والجيش الذي أدخل فيه البربر ، (٥٩) وتام حسّان بفتح قرطاجنة الحرة الثانية
وهدمها ، ولكي يضمن عدم عودتهم الى موقعها بنى مدينة جديدة بجوارها لتكون
قاعدة للمغرب الفاتحين ، وهي مدينة تونس ، (٦٠) وهكذا كان لحسان الفضل في
القضاء على النفوذ البيزنطي في ولاية افريقيا وفي القضاء على الكاهنة التي كان الروم يخشونها
والبربر مطيعين لها ، (٦١) كما أن انشاء ميناء تونس الذي ينعم ببخيرة واسعة محمية
من الأمواج وبعمدة عن قوات البيزنطيين البحرية أدّى الى اضمحلال شأن قرطاجنة
وانصراف الناس والسكان عنها ولم تعد مدينة يرغب البيزنطيون باستردادها . (٦٢)
واستطاع موسى بن نصير اتمام فتح شمالي افريقيا بين سنتي ٨٧ - ٩٠ وهو بذلك
قد اعتد ولا شك على القوات الشامية التي كانت قد دخلت افريقيا مع حسّان بالاضافة الى
القوات المصرية الموجودة في المنطقة والتي انضم اليها البربر الذين دخلوا فسي
الاسلام ، وكانت المراحل الاساسية لخط سيره هي عبوره المغرب الأوسط
من الداخل ثم تجاوزه له والوصول الى شمال المغرب الأقصى حيث احتل طنجة ،
وانحداره أخيرا نحو الجنوب حتى سجلماسة ودرعة ، وبذلك أتم موسى فتح الشمال
الافريقي كله باستثناء سبتة المفتوحة على البحر من جهاتها الثلاث ، بينما يفصل جانبيها
البري الوهيد من بر المغرب جبال ومرتفعات . (٦٣)

(٥٩) : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ٢٠١ ، ابن حذاري ، ج ١ ، ص ٢٩ .

(٦٠) : سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربي ، ص ٢٠٢ .

(٦١) : المالكي ، رياض النفوس ، ص ٣١ ، ٣٢ ، ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٧٣ ،

ابن حذاري ، ج ١ ، ص ٢٣ .

(٦٢) : ابراهيم المدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ٢٥٩ .

(٦٣) : ابن حذاري ، ج ١ ، ص ٣٣ ، ٣٢ .

يتوضح لنا ما تقدم أنه كان للشاميين دور كبير في فتوح أرمينية وفي مناطق السلان
والخز، وفتوح بعض الجزر في القسم الشرقي من البحر المتوسط وفتوح شمالي
إفريقيا، كما أنهم ساءلوا في بعض الفتوحات في المشرق، ذلك أن الفتوحات
في تلك الجبهة يعود الفضل فيها إلى مقاتلة العراق، ولم يشترك أهل الشام في فتوحات
هذه المداقة اللهم إلا في فتح السند مع محمد بن القاسم الثقفي حيث ضم إليه الحجاج
سنة آلاف من جند أهل الشام وغلقا من غيرهم. (٦٤) كما اشترك أهل الشام مع يزيد بن
المهلب في فتح منطقة جرجان ودهستان، بالإضافة إلى أهل الكوفة والبصرة والجزيرة
ووجه أهل خراسان والري. (٦٥) ويقال أن يزيد بن المهلب كان في عشرين ومائة ألف
معه من أهل الشام ٦٠ ألفا، (٦٦) وربما بقي قسم من المقاطعة في هذه المنطقة،
إن نجد إشارات لوجود جند من أهل الشام في بلخ (٦٧) وفي خراسان، (٦٨) وكان عددهم
يقارب ألفين وخمسة مائة في بلخ، كما أنه عندما نزل يحيى بن يزيد بن طي بأرض الجوزجان
بعد أن انتصر على عمرو بن زرارة عامل نصر بن سيار على أبرشهر، سرح إليه نصر بن سيار
والي خراسان سلم بن أموز في ثمانية آلاف فارس من أهل الشام وغيرهم. (٦٩)

* * *
* *
*

-
- (٦٤) : البلاذري، فتوح، ص ٤٢٤.
(٦٥) : الطبري، ج ٦، ص ٥٣٢.
(٦٦) : المصدر السابق، ج ٦، ص ٥٣٩، البلاذري، فتوح، ص ٣٣١.
(٦٧) : الطبري، ج ٧، ص ١١٠.
(٦٨) : المصدر السابق، ج ٧، ص ١٦٥.
(٦٩) : الأصبهاني، مقاتل الطالبين، ص ١٥٧.

=====

الباب الثاني

الفصل الأول

النظام الإداري

التقسيمات الإدارية :

ليست لدينا معلومات واضحة عن التقسيمات الإدارية التي كانت سائدة في الشام في الفترة السابقة للفتح الاسلامي ، ذلك أن الشام تعرضت لاجتياح الفرس ، فوصل كسرى أبرهيز الى القدس ، وكبرى مدن فلسطين ، سنة ٦١٥ م ثم تابع زحفه الى مصر واستولى على الاسكندرية عاصمة مصر سنة ٦١٧ م ، (١) وهذا وكان الفرس سيترجمون أمجاد الامبراطورية الاخمينية ، ولكن الفشل والهزيمة مالبتا طويلا حتى أخذوا بالزحف على الفرس الذين كتب لهم في هذه الحقبة من التاريخ أن يذوقوا مرارة ماذاقهم البيزنطيون من قبل ، ففي خلال السنين التي كانت فيها قبائل السلاف والافاريين تزحف على البلقان ، والفرس يسيطرون على المقاطعات الشرقية من الامبراطورية ، كان هرقل يقوم باصلاحات الجذرية البعيدة المدى ، التي أدخلت دما جديدا وحيوية جديدة الى جسد الامبراطورية ، فقد عمد الى تقسيم المقاطعات الى وحدات ادارية جديدة تختلف في الاسس من تقسيم ديوكليسيان ، الذي لم يعد يصلح لحاجات الامبراطورية وظروفها الجديدة . (٢) وقسمت اراضي آسيا الصغرى التي لم تحتلها قوى اجنبية الى مناطق عسكرية كبيرة وضمت تحت ادارة قواد عسكريين لهم صلاحيات الحكم الاداريين الذين كانوا يدبرون المقاطعات في السابق ، ويطلق عليهم اسم ستراتيجوس (Strategus) . وهكذا كان طابع الحكم الجديد طابعا عسكريا

(١) ؛ بتر ، فتح العرب لمصر ، ترجمة فريد حديد ، ص ٦٦ .

(٢) ؛ نبيه عاقل ، الامبراطورية البيزنطية ، دمشق ١٩٦٩ ، ص ٨٢ .

عنصره الأساسي إقامة وحدات عسكرية مستقرة في آسيا الصغرى التي كانت
الأخطار تتهددها ، (٣) وكان الجنود في هذه المناطق يمنحون اقطاعات سن
الأرض تصبح ملكهم ولهم حق توريثها إلى أبنائهم إذا انخرط أبناؤهم في سلك الجندية . (٤)
إذا كان هرقل قد طبق هذا التنظيم في آسيا الصغرى ، فإنه ليس لدينا اشارات
إلى أنه عمد إلى تطبيق هذا التنظيم في الشام ومصر ، اثر اعتمادتهما بموجب
السماحة التي عقدها هرقل مع الكسرى قيان سنة ٦٢٨ م / ٧ هـ ، ان لم تأت
سنة ٦٣٤ م / ١٣ هـ حتى كان العرب يشقون طريقهم في قلب ممتلكات الامبراطورية
البيزنطية ، هذه الممتلكات التي استرجعت حديثا ، وقد رأينا ان فتح دمشق ومركبة
البرموك التي انهزم فيها الجيش البيزنطي هزيمة منكرة أوقعت بلاد الشام بيد العرب ،
ان لم تثبت المدن ان استسلمت للعرب بما في ذلك أنطاكية العاصمة ، واما قتال شديد ،
وكانت المتناوبة في فلسطين أكثر عنفا ، ولكن القدس لم تثبت ان استسلمت وفتحت أبوابها
للخليفة عمر بن الخطاب .

عمد الخليفة عمر إلى تقسيم الشام إلى أجناد أربعة ، وهي جند حمص ، ودمشق ،
والأردن ، وفلسطين ، وهذه الأجناد الاسلامية : أقاليم استقرت فيها فرق من
الجيش اسلامية لحمايتها وقبض أعطياتهم منها . (٥)

هذه الأجناد كانت شبيهة بنظام الجنود البيزنطي الذي بدأ هرقل بتطبيقه
كما رأينا ، ولم تخف على السموذى أوجه الشبه بين الجنود البيزنطية والأجناد
الاسلامية حيث يقول : أرض الروم واسعة في الطول والعرض آخذة في الشمال بين المشرق

(٣) : المرجع السابق ص ٨٧ ، ستيف رونسيان ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبدالمعز

توفيق جاويد ، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص ٩٧ .

(٤) : نبيه طائل ، المرجع السابق ، ص ٨٨ .

(٥) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٧ .

والحزب مقسومة في قديم الزمن على أربعة عشر قسما ، أعمال مفردة تسمى بنود كما يقال
أجناد الشام ، وجند فلسطين ، وجند الأردن ، وجند حمص ، غير أن بنود الروم أوسع
من هذه الأجناد . (٦) كما أن معظم الجغرافيين المسلمين كاليعقوبي (ت ٢٨٨ هـ)
وابن رست ، (ت ٢٩٠ هـ) والاصطخري (ت ٣٢١ هـ) وقسامة بن جعفر (ت ٣١٠ هـ)
وحتى ابن شداد (ت ٦٨٤ هـ) يستخدمون كلمة الأجناد ، بينما نجد ابن خردادبه
(ت ٢٧٢ هـ) لا يستخدم كلمة الجند ويذكر فقط كبر الشام ، وكورة دمشق ، وكورة حمص ،
... الخ ، ويشير بإقوت الحموي الى أنه لم يبلده أن كلمة أجناد استسلت في خردادبه
الشام . (٧)

ولقد أوجبت الضرورات العسكرية على ما أعتقد تقسيم الشام الى هذه الأجناد ، فالساحل
الشامي طويل ، والشام كانت لا تزال مهددة برا وبحرا من قبل البيزنطيين ، فكان لا بد من
ايجاد مراكز عسكرية متعددة لكي يتمكن كل جند من الدفاع عن المدن الساحلية التابعة له ،
" فقد كانت مرقية وجبيل وصيدا وبيروت وطرابلس تابعة ويتصرف بها نواب من بلبيس
جند دمشق أيام بني أمية وصدرا من أيام بني العباس الى أن ملك الحميريون " ، (٨)
أما اللاذقية وجبلة وبنباس وانطرطوس فكانت تابعة لجند حمص ، (٩) وتيمت صور
وعكا وجند الأردن ، (١٠) وقيسارية ويافا وعسقلان وغزة جند فلسطين . (١١)

-
- (٦) : السعدي ، التنبيه والأشراف ، ص ١٥٠ .
(٧) : ياقوت الحموي ، ج ١ ص ٣٨ .
(٨) : ابن شداد ، الأطلاق الغطيرة ، ص ٩٤ ، ٩٦ ، ٩٨ ، ١٠١ ، ١٠٦ ، اليعقوبي ،
البلدان ص ٣٢٧ ، ابن خردادبه ص ٧٧ .
(٩) : اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٤ ، ابن النقيش ، البلدان ، ص ١١٠ ، ابن خردادبه ،
ص ٧٥ .
(١٠) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٢٤ ، اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٧ ، ابن شداد ،
ص ١٢٣ .
(١١) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٤ ، اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٩ ، ابن النقيش ،
البلدان ، ص ١٠٣ .

ونلاحظ أن المقاطعات التي انقسمت اليها الشام في العهد البيزنطي كان منها مقاطعات ساحلية وأخرى داخلية وأنها أكثر مطابقة للتقسيمات الجغرافية للمنطقة ، ونظرا لاعتقاد البيزنطيين على أسطولها فان أهم المراكز في العهد البيزنطي كانت المدن الساحلية ، وأن المراكز وصور وقيسارية ، أما أجناس الشام ، فكان كل جند يضم منطقة ساحلية وأخرى داخلية ، بحيث تستطيع كل منطقة أن تعتمد على الأخرى حربيا واقتصاديا ، وبما أنه لم يكن للمغرب في العهد أسطول قادر على حماية السواحل ، فان مراكز الأجناس كلها كانت مدنا داخلية ، حمص ، دمشق ، طبرية ، اللد ، وبقية المدن قصبة جند فلسطين حتى كانت خلافة الوليد بن عبد الملك الذي ولّى أخاه سليمان جند فلسطين ، فاهتس مدينة الرملة (١٢) وصورها وأختط مسجدها ، فصارت القصبة ونقل اليها الناس من لدن وأمرهم بهدم منازلهم فيها والبنيان بالرملة ، (١٣) وبقية الرملة قصبة لجند فلسطين حتى زمن ابن حوقل . (١٤) كان من نتائج اهتمام الأمويين بحماية الدولة البيزنطية برا وبحرا ، أن اتجهوا الى جعل قنسرين جندا مستقلا منفصلا عن جند حمص ، وكانت قنسرين وحلب مضافتين الى حمص ، فأصبحت حلب مضافة الى قنسرين حتى نهاية الدولة الأموية ، (١٥) ثم تدرجت حلب في العمارة وقنسرين في الخراب حتى صارت مضافة الى حلب في أيام بني العباس ، (١٦) واختطف المؤرخون فيما اذا كان معاوية هو الذي فصل قنسرين عن حمص أم ابنه يزيد ، (١٧) ويذكر البلاذري أن قنسرين وكورها كانت مضمومة الى حمص ، حتى كانت خلافة يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وأندلسية ومنهج جندا ، (١٨) فلما استغلف أمير المؤمنين هارون الرشيد أفراد قنسرين

(١٢) : اليعقوبي ، البلدان ، ص ٣٢٨ ، التلخشي ، صبح الأمل ، ج ٤ ، ص ٩٩ .

(١٣) : اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٩٣ .

(١٤) : ابن حوقل ، صورة الأوطى ، الطبعة الثانية ، القسم الأول ، ليدن ١٩٣١ م ، ص ١٧١ .

(١٥) : ابن رسته ، ص ١٠٧ ، الطبري ، ج ٤ ، ص ١٦١ ، ابن المديم ، زبدة الحلب

في تاريخ حلب ، ص ٤١ .

(١٦) : ابن المديم ، زبدة الحلب ، ص ٤١ .

(١٧) : المصدر السابق ، ص ٤١ .

(١٨) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٨ .

بكونها فصور ذلك جندا واحدا ، وأورد منيج ودلوك ورضبان وأنطاكية وسماها السواصم ، (١٩)
بينما يذكر ابن الأثير أن معاوية هو الذي جند قنسرين من أثناء من أهل العراقيين أيام طي ،
وإذا كانت قنسرين وسنقا من رساتيق حصص . (٢٠)

وكانت الجزيرة تابعة لارياضي بادى الأمازيغيين ، (٢١) فلما أصبحت قنسرين
جندا أصبحت الجزيرة تابعة لجنود قنسرين ، وقد نعت المتطلبات المسكرية عبد الملك بن مروان
الى فصل الجزيرة من قنسرين ، ويثقال أنه فعل ذلك بناء على طلب محمد بن مروان فجندها
عبد الملك ، فصار جندها يأخذون أعطياتهم من خراجها ، (٢٢) ثم ضم عبد الملك لمحمد
أذربيجان وأرمينية وأحيانا الموصل . (٢٣)

وإذا اعتمدنا الروايات التي ذكرها المؤرخون ، وقارناها بما ذكره عند الجغرافيين
الأوائل ، لوجدنا أن جنود دمشق كان أكبر الأجناد لاسيما بعد جعل قنسرين جندا منفصلا
من حصص ، أما أصغر الأجناد فكان جنود الأردن ، ولذلك فان معظم التصور الأيوبية في البادية
والمتواجدة في شرقي الأردن حالها انما بنيت في نطاق جنود دمشق . (٢٤) وكان كل جنود من
الأجناد يضم عددًا من الكورة ، (٢٥) والكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى

(١٩) : الرسائل الأثرية ، ص ١٣٨ ، ابن الفقيه ، البلدان ، ص ١١٠ .

(٢٠) : ابن الأثير ، الكامل ، ج ٣ ، ص ٣١ ، والرسائق اسم فارسي ، ويعنون كل موضع فيه

مزارع وقرى ، ولا يقال ذلك للحدن كالبصرة والكوفة وبغداد .

(٢١) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٧٧ .

(٢٢) : المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

(٢٣) : خليفة بن خياط ، ج ١ ، ص ٣٩٣ .

(٢٤) : من أجل معلومات أوفى عن أجناد الشام وكورها يمكن العودة الى كتاب الإدارة في

المصر الأموي ، ص ٣٩-٤٢ . الجزيرة ، ٤٤-٤٨ .

(٢٥) : يرى جاستون فييت (Gaston Wiet) أن لفظ كورة مشتق من الاسم

اليوناني (κούρα) كوره التي لم تكن شيئا آخر سوى الأقاليم المسروقة في

العهد البيزنطي باسم بجارشي (Pagarchie) وكان على رأس الكورة

صاحب الكورة ، وهذا اللقب ترجمة مضمبوطة للفظ اليوناني بجاركوس . Παγάρχης

أما ياتوت العموي ، فيذكر نقلا عن حمزة الأسنهاني أن الكورة اسم فارسي يمتد بقصع
على قسم من الأستان وقد استعمرتها العرب وجعلتها اسما للأستان ، فالكورة والأستان واحد

(Wiet, L'Egypte Musulmane, Précis de l'Histoire d'Egypte)

.../... t. II. p. 27.

من قسبة أو مدينة ، (٢٦) ولذلك نجد الجغرافيين عندما يتكلمون من الكور التي يتألف منها
جند دمشق بذكورين كورة دمشق وقسبتها دمشق ، وكورة البقاع ومد يمتها بمليك ، وكورة حوران
ومد يمتها بصرى . . . الخ .

وإذا كانت الضرورات العسكرية قد أوجبت جعل قنسرين جندا منفصلا ، وأوجبت
فصل الجزيرة عن قنسرين ، فإن هذه الضرورات هي التي أجبرت بيزنطة أيضا أن تصد
تقسيمها الإداري لمواجهة احتياجاتها الدفاعية ولا سيما المشروعات السلامية الكبرى لفتح
التسطنطينية ، (٢٧) إذ أوجد البيزنطيون الجند الأناضولي (Anatolikon)
الى جانب الجند الأرمني ، (Armeniakon) الذي تكون سنة ٦٢٩ م لمواجهة
خطر الغزو الفارسي ، وقد قلل من شأنه فتح العرب لسطية ، ويشغل جند أرمنية والأناضول
كل القسم الأوسط من آسيا الصغرى ، من حدود كيليكيا شرقا الى بحر ايجة غربا ، وكان سدا
منيعا للإمبراطورية أمام هجمات العرب . (٢٨) وأوجد البيزنطيون في القرن السابع كذلك جند
الأوسيكيون (Opsikion) ، (٢٩) واختصت هذه المنطقة بالحرس الإمبراطوري
لواجهتها لشواطئ التسطنطينية ، وضرورة انتقاء الجند المدافع عنها لصد العمـسـلات
الصاشرة عن العاصمة ، (٣٠) وكان هذا الاقليم الحربي يمتد من بحر مرمرة الى مسافة كبيرة
داخل آسيا الصغرى ، وأقامت في جهات الساحلية قرق بحرية (Peralic Themes)
لصد سفن المهاجمين من العاصمة طى حين استقر في جهات الداخلية فرق من الخيـمـالة
(Cavalieri) لمراقبة الزحف البري ، (٣١) وفي القرن الثامن الميلادي في عهد
الأسرة الإيسورية وبعد آخر حطة كبرى على العاصمة البيزنطية عدليون الثالثي اقتطاع

(٢٦) : ياقوت الحموي ، ج ١ ، ص ٣٦ ، ٣٧ .
E.B. The Byzantine Empire Vol. IV P. 524. (٢٧)

(٢٨) : فتحي عثمان ، الحدود الإسلامية بين الاحتكاك الحربي والاتصال الحضاري ، الدار
التوصية للطباعة والنشر ، ج ١ ص ٩٦ .

(٢٩) : Ostrogorsky, History of The Byzantine State, Tr. 6y
Joan Hussey, Oxford, 1956., P.119 .

رونسيان ، الحضارة البيزنطية ، ص ٩٨ .

(٣٠) : إبراهيم العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ١٧ .

(٣١) : المصدر السابق ، ص ١٧ .

الجانب الغربي من البند الأناضولي الواسع المدى ليشكل بند تراقيا ، (٢٢) كما أوجد بند الدوديكانيز (Dodecanese) ، وإذا كانت المواصل العسكرية هي التي فرضت على ليون خلق بنود أقل امتداداً وأوسع حماية ، فإن هذه المواصل العسكرية كانت تدعّمها اعتبارات سياسية . فقد أدرك ليون الثالث بناءً على تجربته الفاصلة الخطر الذي قد ينشأ من جعل بنود واسعة المدى تحت سيطرة الحكام العسكريين (Strategus) والأغرات التي قد تدفعهم إلى العرش الإمبراطوري ، (٢٣) وتابع قسطنطين الخامس سياسة والده فحد من مساحة بند الأوسيكويون وشكل بند البوكري (Bucellarian) وبند الابهماسيون (Optimacian) . وهكذا تم في عهد الأسرة الإيسورية التنظيم الإداري الذي وضعت خطوطه الأولى في القرن السابع ، وعمد كل من ليون وابنه قسطنطين من بعده إلى انتقاء القادة القديرين المخلصين لشخصهم ولسياستهم وتعيينهم كحكام لهذه البنود ، كما أن القانون العسكري الذي يعود إلى عهد ليون إنما وضع ليؤدّبهم لهؤلاء الحكام فرقا عسكرية جيدة التدريب لا هم لها سوى القتال ، ونهى بشدة انشغال الجند بالزراعة والتجارة ، (٢٤) وهذا ما كان عمر قد أمر به أمراء الأجناد بأن يتقدموا به إلى الرعية بأن عطاءهم قائم ، وأن رزقهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون . (٣٥)

الموظفون الإداريون :

١- الخليفة : ليس الخليفة إلا رجلاً اختارته الأمة ليكون مثلاً لها ويتولى الإشراف على أمورها وتدبير شؤونها ، والخليفة في نظر الإسلام ليس له أي صفات من صفات الألوهية ولو من بعيد ، وليس مقدساً ولا معصوماً في نظر المسلمين ، وليس له الحق وحده في بيان الدين وتفسير نصوصه ، وليس له سلطة دينية على أحد ، بل هو رجل وثقت الأمة به دينه وعدالته فولت أذنيه بيديرها بأمر الله ومقتضى شريعته ، ولأنه كذلك لا يسمى خليفة الله بل خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأنه إنما يستخلف من يموت والله جل جلاله حي لا يموت ، ولهذا الما قبل لأبي بكر رضي الله عنه

Ostrogorsky, OP. Cit. P. 119. : (٢٢)

Bury. T.B. A History of The Later Roman Empire , : (٢٣)
London, 1889, PP. 343 , 349.

The Cambridge Med. History Vol. IV pp. 3, 4 . : (٢٤)

: (٣٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٦٢ .

" يا خليفة الله " ، (٣٦) قال : " لست بخليفة الله ولكني خليفة رسول الله " . (٣٧)

ولعل أبا بكر خليفة المسلمين الأول هو أول من حدد الهبة الأساسية للنظام السياسي الجديد وعنه ما خاطب الصحابة بقوله : " لا بد لكم من رجل يلي أمركم ، ويصلي بكم ويقاتل عدوكم " ، (٣٨) فأوضح أن الخلافة نظام يتولى صاحبها رعاية أمور الدين والدنيا ، كما أن أبا بكر بخطابه حدد سلطة الخليفة بالرأى العام مع تفهيد ما أهدى ستور الاسلام ، وهو القرآن والسنة ، وأظهر أهمية الجهاد لاعلاء كلمة الله وضرورة إقامة العدل والسير على الطريق القويم وذلك في قوله : " أما بعد أيها الناس فاني قد ولدت طيكم ولمست بغيركم فان أحسنت فأعينوني ، وان أسأت فقوموني ، الصدق أمانة والكذب خيانة ، والضعيف فركم قوي حتى أربح طيه حقه ان شاء الله ، والقوى فركم ضعيف حتى أخذ الحق منه ان شاء الله ، لا بدع أحدكم الجهاد في سبيل الله ، فانه لا يدهه قوم الاضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة في قوم الا عصمهم الله ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فاننا مصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم " . (٣٩)

بالرغم من أن أبا بكر حدد سلطة الخليفة بالرأى العام مع تفهيد ما أيضا بدستور الاسلام وهو القرآن والسنة ، الا أن الخليفة لم يكن سو ولا قانونيا تجاه أى شخص أو مؤسسة دينية ، ولذلك كانت سلطات واسعة ، وصحيح أن الخلفاء ، ولا سيما عمر كانوا يستشيرون

(٣٦) : نرى تعبير " خليفة الله " قد استعمل في مواضع مختلفة ، منها قول عثمان حينئذ في الى الاستمعاء " أما أن أبا من خلافة الله فالقتل أحب الي من ذلك " (شرح نهج البلاغة ، ج ١ ، ص ١٦٥ . ومنها ما ورد في الطبري من أن مروان بن محمد كتب الى الوليد بن يزيد معين تولى الخلافة " أخبر أمير المؤمنين - أكرم الله - أنني قد ما انتهي الي من قيامه بولاية خلافة الله ، نهضت الي منبري . . . (الطبري ج ٣ ، ص ٢١٧)

وإذا كان الأخطل قد قال : (خليفة الله يستسقى به المطر ، فان أبا تام قسما للمعتصم : خليفة الله جازى الله سميك بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها من جرثومة الدين والاسلام والحسب تتال الا على جسر من التمسبب

(٣٧) : محمد يوسف موسى ، نظام الحكم في الاسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٤ م ، ص ٨٢ .

(٣٨) : ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ١ ، ص ٢٥ .

(٣٩) : ابن هشام ، ج ٤ ، ص ٣١١ .

في غالب الأحيان ، بعض الناس فيما يمرض لهم ، إلا أنهم لم يكونوا طريين بقول آراء
المستشارين فهتد ورهم أن يرفضوها ، أو يقبلوها حرفياً أو معدلة ، ويقتد ورهم عند
اختلاف آراء المستشارين اختيار ما يشاؤون من الآراء ، وطلبهم دون المستشارين ،
تحمل مسؤولية هذه التقرارات ، ولا نفس أن اختيار هؤلاء المستشارين يمتد على رغبة
الخليفة وأرادت لا على قانون معترف به ، فالخليفة يستطيع أن يستشير من يشاء ، متى
شاء ، وكيف شاء .

وللخليفة باعتباره رئيساً للدولة والمهيمن على أزمة النظام الإداري حق اختيار
من يشاء لتصرف شؤون الإدارة والحكم ، وهو المسؤول عن أعمال من يختارهم لأنهم
خاضعون له ويخضعون بأسسه ، وقد عمد عمر بن الخطاب رغبة منه بإحلال الحق والعدل
في كل منطقة دخلها الإسلام إليها إلى التدخل في شؤون كل ولاية لأنه كان يؤمن
إيماناً صريحاً أن المسؤولية أولاً وأخيراً هي مسؤولية الخليفة ، (٤٠) وقد ظهر ذلك بوضوح
في الحالة الذين كان ينتقاهم ونفي مراقبته الشديدة لهم ومحاسبتهم إياهم وفي ريد أكبر عدد
من الولاة مباشرة به ، (٤١) ولم يكن عمر يعين الولاة فقط وإنما كان يعين عمال الخراج
وكتّاب الدواوين والقضاة في الأقطار ، وسواء كانوا مسؤولين عن أعمالهم مباشرة
تجاه الخليفة الذي كان يراقبهم مراقبة شديدة ، فكان لا يخفى عليه شيء في عمله ، (٤٢) وكان
طمع بمن نأى عنه من عماله ورضيته كعلمه بمن بات معه في مهاد واحد وعلى وساد واحد . (٤٣)
كما أنه كان من سنة عمر وسيرته أن يأخذ عماله بموافاة الحج في كل سنة للسياسة ، وليحجزهم

(٤٠) : الطبري ، ج ٤ ، ص ٢١٠ ، ابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب ، ١٣٩٤ هـ ، ص ١٣٢ .

(٤١) : الطبري ، ج ٤ ، ص ١٤٤ ، ٢٤١ ، البلاذري ، فتوح ، ص ٣٢٢ ، ٣٢٧ ، خليفة
بن خياط ، ج ١ ، ص ١٥٦ ، ١٥٨ ، الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ١٨ ،
ابن سعد ، الطبقات ، ج ٦ ، ص ٣ ، الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ١٢٩ .

(٤٢) : الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٧ .

(٤٣) : الجاعظ ، التاج في أخلاق الطوك ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٠ م ، بيروت ، ص ١٦٨ .

بذلك عن الرعية ، وليكون لشكاة الرعية وقتا و غاية ينهونها فيه اليه " . (٤٤) ولذلك
كان الولاية والسدال في عهد عمر يحسبون حسابها للخليفة في كل اجراء يتخذونه ، وفي كل
خطوة يخطونها ، وكان مساوية بالرغم من ثقة عمر به ، وحسن سياسته وحكمته ود هائسه
" أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه " . (٤٥)

لم يستطع الخليفة عثمان أن يسير على نهج عمر بن الخطاب كما أنه وقع في سنوات
خلافته الأخيرة تحت تأثير أفراد عائلته الذين تولوا ادارة الولايات الكبرى في الدولة ،
فقد جمع الجزيرة والشام لصاوية ومصر وبرقة وطرابلس لعبد الله بن سعد بن أبي سرح ،
والبحيرة وخراسان وسجستان لعبد الله بن عامر ، والكوفة للموليد بن عقبة ثم لسعيد بن العاص ،
وغيرهم سلطات واسعة ، وهذا ما مهد للادارة اللامركزية في العصر الأموي ، ولكنه
كان سببا من الأسباب التي أدت الى الفتنة ومقتل الخليفة عثمان ، ولما كانت الفتنة
قد استنفرت أيام الخليفة طي أكثر من التنظيم والادارة ، فقد الاستقرار في البلاد
" بالرغم من أن هديه كان هدى أصحابه الثلاثة من قبله ، وما خالف طي عمر ولا غير شيئا
ما صنع " . (٤٧)

بمقتل الخليفة طي وتنازل الحسن ، انتقلت الخلافة الى معاوية بن أبي سفيان عام
٤١ هـ ، الذي تعارف المؤرخون على تسميته بعام الجماعة لا تفاق كلمة المسلمين بعد طول
نزاع ، وتصبح الشام هي الولاية المركزية ، ويتخذ معاوية دمشق عاصمة للدولة الاسلامية ،

(٤٤) : الطبري ، ج ٤ ، ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٤٥) : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٣٨ .

(٤٦) : البلاذري ، فتوح ص ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ابن سعد ، الطبقات ج ٧ ، قسم ٢ ،

ص ١٢٨ ، خليفة بن خياط ، ج ١ ، ص ١٩٤ .

(٤٧) : محمد كرد طي ، الاسلام والحضارة الاسلامية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ،

١٩٦٨ م ، ج ٢ ، ص ١٢٥ .

بسبب موقعها المتوسط ، وتقاليدها الحضارية ، (٤٨) وبقيت دمشق العاصمة الرسمية
للدولة الإسلامية حتى خلافة مروان بن محمد الذي نقل بيوت الأموال والشرايين
إلى الجزيرة . (٤٩) وقد دفن كل من معاوية ويزيد ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان
والوليد بن عبد الملك بدمشق ، (٥٠) أما سليمان فقد دفن بدمشق من أرض قيسرين ، (٥١)
بينما دفن عمر بن عبد العزيز بدير سمعان من أرض حمص ، (٥٢) ودفن هشام بن عبد الملك
بالرافضة . (٥٣)

ومن الواضح أن معاوية أقام في دمشق طيلة إمارته وخلفته ، ولم يكن يفارها إلا
لأسباب قاهرة ، وكذلك فعل عبد الملك ، أما بقية الخلفاء ، فيظهر أنهم كانوا يقيمون في
أماكن مختلفة ، وإن بقيت دمشق هي المركز الذي تتم فيه مهمة الخلفاء ، وما يتبع ذلك من مراسم . (٥٤)

-
- (٤٨) : يبدو أن دمشق في عهد المقدسي كانت لا تزال تحمل آثار بني أمية ، ووصفها
لدمشق ينفي بعض الضموم من وضعها آنذاك ، ان يقول : دمشق هي مصر الشام ،
و دار الملك أيام بني أمية وثم قصورهم وآثارهم ، بنيانهم خشب وطين ، أكثر أسواقها
مغطاة ولهم سوق طي طول البلد مكشوف ، وهو بلد قد خرقته الأنهار وأهدت به
الأشجار ، وكثرت به الشار مع رخص أسعار وثلج وأصداد ، لا ترى أحسن من حساباتها ،
ولا أعجب من فواراتها ولا أحزم من أهلها (المقدسي ، أحسن التقاسيم في معرفة
الأقاليم ، ص ١٥٦ ، ١٥٧) .
- (٤٩) : الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ٦٨ .
- (٥٠) : الفقيه أبي الحسن علي بن أبي عبد الله محمد بن أبي السرور ، بلنعة الظرفاء ، في ذكر
تواريخ الخلفاء ، الطبعة الأولى ، مصر ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م ، ص ١٨ ، ١٩ ، ٢٢ ، ٢٣ ،
السموردي ، سروج الذهب ، ج ٣ ، ص ١ ، ٥٣ ، ٨٩ ، ٩١ ، الطقشندي ، آثار الأناقة
في معالم الخلافة - الكويت ، ١٩٦٤ م ، ج ١ ، ص ١١١ ، ١١٢ .
- (٥١) : الذويري ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ، ص ٣٣٥ .
- (٥٢) : ابن أبي السرور ، بلنعة الظرفاء ، ص ٢٥ ، الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٦٥ .
- (٥٣) : المصدر السابق ، ص ٢٦ ، الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٠٠ .
- (٥٤) : هناك إشارات واضحة إلى أن بيعة يزيد ، ومروان بن الحكم ، وعبد الملك بن مروان ،
والزيد بن عبد الملك ، قد تمت في دمشق ، وكذلك سليمان لأنه هو الذي صلى على
أخيه ، فلا شك أنه يوقع في دمشق ، وبالرغم من أن المرند جاء بشارتي الخلافة ،
العصا والخاتم ، إلى هشام وهو بالزيتونة فإنه لم يلبث أن توجه إلى الرافضة شريك
من الرافضة حتى أتى دمشق ، فبويج بها في اليوم الأول من رمضان سنة ١٠٥ هـ .
(الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٥ ، العميون والسدائق ، ص ٨٢ ، ابن الوردي ، تاريخ
ابن الوردي ، النجف ١٩٦٩ م ، ص ٢٤٧) .

ان نجاح معاوية وتنازل الحسن عن الخلافة كان اقرارا بمبدأ الأمر الواقع المستند الى القوة في اختيار الخليفة ، هذا المبدأ الذي عبر عنه معاوية عند ما قدم المدينة عمام الجماعة ، وطفاء رجال قريش مهغنين ، فأجابهم ، " أما بعد فاني والله ما وليتها بمحرمة علمتها عنكم ، ولا مسرة هولائقي ، ولكنني جالد تكم بسيفي هذا مجالدة " . (٥٥) وصارت الحلاقة تقوم على مواكبة حسنة ومشاعر جميلة قرأها قول الخليفة لرجال قريش : " وان لم تجدوني أقوم بحقكم كنه ، فاقبلوا مني بعضه " ، (٥٦) فلما كان عهد عبد الملك الذي واجهه مشاكل كثيرة حتى استقامت له الأمور وقضى على ثورة عبد الله بن الزبير ، فإنه رأى أن المواكبة الحسنة لا مكان لها في سياسته وأنه لا تداوى أدراة هذه الأمة إلا بالسيف . (٥٧)

ونظرا لوصول معاوية الى منصب الخلافة بالقوة ، فإنه لم يبايع لمعاوية أحد الا أخذ عليه الأيمان ، فكان أول شخص استخلف على بيعته ، (٥٨) كما أن يزيد بن معاوية في كتابه الى عاتق على المدينة ، طلب منه أن يأخذ البيعة من الحسين ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الله بن جعفر ، ويخلفون على ذلك بجميع الأيمان اللازمة ويخلفون بمصدقة أموالهم غير عشرها ، وعزبة رقيقهم وطلاق نسائهم ، وبالشبث على الوفاء بما يعطون من بيعتهم ، (٥٩) ولما آل الأمر الى عبد الملك وأقام الحجاج بن يوسف على امارة العراق وعهد الى أخذ البيعة لعبد الملك في العراق ، رتب أيمانا مغلظة تشتمل على الحلف بالله تعالى والطلاق والعتاق ، والأيمان المحرجات ، واشتهر بين الفقهاء بايمان البيعة ، واطرد أمرها في الدولة العباسية ، وجرى مصطلحهم على هذا الأسلوب . (٦٠)

-
- (٥٥) : ابن مدينه ، المسند الشريف ، ج ٤ ، ص ٨١ ، ٨٢ .
(٥٦) : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٨٢ .
(٥٧) : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٠١ ، ابن كثير ، الهداية والنهاية ، القاهرة ، ج ٦ ص ٦٤ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، دار الثقافة ، بيروت ، ص ٢٣٩ ، وفي خطاب لعبد الملك ، أما انه كان من قبلي من الخلفاء يأكون ويؤكون واني والله لا أدراى هذه الأمة الا بالسيف .
(٥٨) : البيهقي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٠٧ .
(٥٩) : ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ١٧٥ .
(٦٠) : عبد الرحمن بن زيدان ، كتاب العز والصلوة في معالم نظم الدولة ، المطبعة الملكية ، الرباط ١٩٦٢ ، الباب الثاني من المقالة الخامسة ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢١٩ ، الطقشندي ، مآثر الأناقة ، ج ٢ ، ص ٢٦٠ .

وكان معاوية كذلك أول من لجأ إلى العهد بعد أبي بكر ولكن بمفهوم جديد ، إذ أن
أبا بكر عندما عهد بالخلافة إلى عمر فعمل ذلك لأن وجدته يتمتع بجميع الصناعات والامتيازات التي
تؤهلها لتكون خليفة للمسلمين ، وليس لمعاداة أو قرابة ، بينما عهد معاوية بالخلافة لابنه لأنه
أراد أن يحفظ الخلافة في آل سفيان ، كما أنه اتبع في نظام البيعة سبيلا جديدا ، إذ أنه
أخذ البيعة لابنه يزيد في حياته ، وأصبح العهد بعد معاوية الطريقة المتبعة على الأغلب
في تولي الخلافة ، (٦١) فاما عهد إلى الولد أو إلى أحد أفراد الأسرة لتلا يختر الحكيم من
أيديها ، بل أن المحيطة في بيت الخلافة بيد الأسرة الواحدة حملت مروان بن الحكم على أن
يباع حال حياته لولده عبد الملك وعهد العزيز ، (٦٢) ومضى عهد الملك على هذه السنة
فعهد إلى ابنه الوليد وإلى أخيه سليمان من بعده ، وتابع سليمان بن عبد الملك هذه الطريقة ،
فعهد إلى عمر بن عبد العزيز وإلى يزيد بن عبد الملك من بعده . واتبع الخلفاء طريقة معاوية في
أخذ البيعة لولادة عمردهم ، وفي حياتهم ، وكان الخليفة عندما يقرر من سيكون ولي عهد يرسل
بالكتب إلى من له نكح هذه الكتب على الناس ، ثم يباع الناس ويأخذون عليهم العهد
والصيثاق . (٦٣) فإذ مات الخليفة جددت البيعة ثانية تأكيدا للعهد ، فكانت البيعة
تأتي من الآفاق ويكتب إليه العمال وتجي الوفود . (٦٤)

وسكذاني أن الخلافة في عهد بني أمية قد أصبحت وراثية ، ووافق ذلك شهادات
وعلامات بدلا من البساطة التي كانت شعار الخلفاء الراشدين ، فقد اتخذ معاوية المقصورة
في السبيل ، (٦٥) ولكنه اتخذ ما حين طسده الخارجي ، (٦٦) وأقام الحرس والشرط والمواعين

(٦١) : سار خلفاء بني أمية جميعا على اختيار أولياء العهد في حياتهم ، فكلهم كان مختارا
من سلفه ، ما عدا رأس هذه الدولة معاوية ، ومروان بن الحكم ، ويزيد بن الوليد ،
ومروان بن محمد ، وهو لا أخذوا الخلافة بالقوة .

(٦٢) : الطبري ، ج ٦ ، ص ٦١ .

(٦٣) : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢١٨ ، ٢٢٣ .

(٦٤) : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢١٦ .

(٦٥) : المصنف ، تاريخ ج ٢ ، ص ٢٣٢ ، ابن قتيبة ، المعارف والطبعة الثانية ، ص ٢٤١ ،
السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢١٩ .

(٦٦) : ابن خلدون ، المقدمة ، منشورات مؤسسة الاقليمي ، بيروت ١٩٧١ م .

وأرخص الستور، (٦٧) وشي من يديه بالحرايب وجلس على السرير والناس تحته، (٦٨) ولكن ابن خلدون يضيف الى ذلك "أنة استأذن الناس وقال لهم : اني قد بدنت ، فأذنوا له ، فاتعذه واتبه الطوك الاسلاميون فيه" . (٦٩)

وبالرغم من أن القلقشندی يذكر في كتابه صبح الأعيان أن معاوية كان أول من نهى عن الكلام بحضرة ، وكان الناس قبل ذلك يردون على الخليفة ويمترضونه فيما يقول ، (٧٠) فانه يذكر في كتابه مآثر الأناقة ، أن عبد الملك بن مروان كان أول من نهى عن الكلام بحضرة الخليفة وأن الوليد بن عبد الملك هو أول من أقام تاموس الملك ومنع من دعا الخليفة باسمه ومراجعت في الكلام . (٧١) وأعتقد أن ما يذكره القلقشندی في مآثر الأناقة أدق ، لأن الروايات المتعلقة بمعاوية كثيرا ما تشير الى أن الناس كانوا يراجعونه فيما يقول ويمترضون عليه فيما يفعل . ومع أن معاوية وخلفاء بني أمية باستثناء عمر بن عبد العزيز يتهمون باهتمامهم بالمصالح

(٦٧) : يقول الجاحظ بأن خلفاء بني أمية تأثروا بقوانين الملك والمملكة عند المصم فيما يتعلق بترتيب الخاصة ، والعامية ، وسياسة الرعية ، والزام كل طبقة حفظها ، وأن كل طوك الأماجم كانت تحتجب عن الندما ، بستارة ، وكذلك فعل معاوية ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام ومروان بن محمد ، إذ كان بينهم وبين الندما ستارة ، وكان لا يظهر أحد من الندما على ما يفعله الخليفة ، إذا طرب للمغني والتذنه ، أما يزيد بن عبد الملك ، فقد أفسد أقسام المراتب ، وغلب عليه اللهو ، فأذن للندما في الكلام والضحك والهزل في مجلسه ، والرد عليه ، ولم يكن الوليد بن يزيد بأفضل منه ، أما عمر بن عبد العزيز فلم يكن يسمع الفناء منذ أفضت الخلافة اليه ، الى أن فارق الدنيا ، فأما قبلها وهو أمير المدينة فكان يسمع الفناء ولا يظهر منه الا الأمر الجميل . (الجاحظ ، التاج في أخلاق الملوك ، ص ٣١ ، ٣٥ ، ٣٩) .

(٦٨) : الهمقوي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٦٩) : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ١ ، ص ٢١٧ .

(٧٠) : القلقشندی ، صبح الأعيان ، ج ١ ، ص ٤١٤ .

(٧١) : القلقشندی ، مآثر الأناقة ، ج ٣ ، ص ٣٤٤ ، ٣٤٦ .

السياسية ، وتقدمها على الاعتبارات الدينية ، وقول ابن طباطبا : " أن معاوية كان معروف المهمة إلى تدبير أمور الدنيا ، يهملون عليه كل شيء " إذ انتظم أمر الملك ، (٧٢) فان خلفاء بني أمية كانوا يولون إمامة الصلاة اهتمامهم ، فخلفاء بني أمية كالخلفاء الراشدين كانوا يؤثرون المسلمين في المساجد العظيمة في السلوات الخمس والجمعة ، والمعيد بين والخسوفين والاستسقاء ، ولا يقلدونها لغيرهم من الناس استثناءا بها واسمها ظاناً لرتبتها ، حتى أن عهد الملك أمر حاجبه ألا يحجب عنه ثلاثة ، الموزن للصلاة ، فانه راعي الله ، وصاحب البريد فان في تأخيرها فساد القاصية ، وصاحب الطعام لئلا يفسد . (٧٣)

وكخليفة المسلمين أصبح لمعاوية الحق في اختيار من يشاء لإمارة الأمصار ، فهو الذي يعينهم أو يمز لهم من شاء ، وهو المسؤول عن أعمالهم فهم إذا غاضبون له ويعطون باسمه ، وساداموا في الحكم فكل تروا أو سبوا عليهم يستبر وكان وجبه ضد الخليفة ، وقد كان الخليفة مسؤولاً عن تنفيذ القانون في كافة أنحاء الدولة الإسلامية ، ولكن نظراً لسميتها ولصعوبة المواصلة أصبح تنفيذ القانون والاشراف على الشؤون الإدارية في الأمصار بيد الأمير الذي يتمتع خلال اثنائه منصبه ^{بشبه} استقلال ذاتي ، (٧٤) إلا أنه مسؤول تجاه الخليفة ويحمل باسمه ، (٧٥) إلا أنه لم يكن له الصلاحية في أن يسير أي الخليفة وترك أمر ولايته إلا بأذنه . (٧٦)

بالإضافة إلى المشاكل المتعلقة بأمور إدارة الدولة ، كان الخلفاء يخصصون أوقاتاً للنظر في حوائج الرعية ، فكان معاوية يخرج إلى المسجد ويطلب من فلامه أن يضع له كرسيًا يسند ظهره إلى المقصورة ، فيقوم إليه الضعيف والأرامل والصبي والمرأة ومن لا أعسده له فينظر في أمرهم ، (٧٧) ثم يخصص وقتاً لأشرف الناس الذين يرفعون حوائجهم

(٧٢) : ابن طباطبا ، الفخرى في الآداب السلطانية ، ص ٢٩ .

(٧٣) : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ، ص ٢٣٦ ، ٢٧٥ .

(٧٤) : عرف الفقهاء المسلمون في وقت متأخر هذا اللون من الإدارة اللامركزية للولايات

بأنها إمارة استكتنا (الإدارة في العصر الأموي ، ص ١٠٦) .

(٧٥) : البديهي ، الوزير ، الكتاب ، ص ٢٤ .

(٧٦) : الطبري ، ج ٧ ، ص ١٤٩ .

(٧٧) : المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٢٩ ، ٣٠٠ .

من لا يستطيع الوصول الى الخليفة . (٧٨)

وفاق عمر بن عبد العزيز معاوية في الاهتمام بالمظالم ، فكان يعتمد لسواج الرعية
 بيوم ، فاذا أسمى وفيه بخية بن عواثبه وصله بلعنته ، (٧٩) أما عهد الحكم فقد أشرد
 للمظالمات يوما مدينا (٨٠) كل أسبوع ، بينما عند هشام بن عبد الملك الى تخصيص مستر
 يوطا وليلة للناس لا يهتم فيها بشي ، سوى رد المظالم والأخذ على يد المظالم من جميع الناس
 وأطراف البلاد ، فكان يصل الى مخاطبتك بذلك الموضوع راعي السواج ، والأمة السوداء ، فما
 د ونهما ، وكان يركل رجلا لانا أدب وعقل بادننا الضعفاء والنساء والعتاق منهم وبأمره باقصاء
 أهل القوة والكفاية منه حتى يأتي على آخر ما يكون من أمره . (٨١) وبالرغم من أنه كان لكخطيئة
 نهجه في النظر في المظالم وفي معاملته للناس ، فان السمودي يرى أن خلفاء بني أمية ، الرغم
 من أنهم حاولوا أن يسبروا على هدى معاوية الا أنهم " لم يدركوا خلقه ولا اتقانه للسياسة
 ولا الثاني للأمر ولا سدارة الناس على منازلهم ورفقهم بهم على طبقاتهم " . (٨٢)

٢- الجزء الثاني والمستشارون :

لا ريب أن كلمة وزير عرفت قبل الاسلام ، ذلك أنه من السام به منه ، كلمة الخدمة
 العربية أن القرآن الكريم يمثل من الناحية اللغوية نهاية العصر الجاهلي . (٨٣) وقد
 وردت الكلمة فيه مرتين ، (٨٤) أما في السنة النبوية وفي أقوال كبار الصحابة ، فنقد وجد

(٧٨) : السمودي ، ج ٣ ، ص ٣٠ .

(٧٩) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٩ .

(٨٠) : الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ٧٨ .

(٨١) : ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ١٠٧ .

(٨٢) : السمودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ، ص ٣١ .

(٨٣) : طاهر القاسمي ، نظام الحكم في الشريعة والاسلام ، دار الفنايس ، بيروت

١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م ، ج ١ ، ص ٤١١ .

(٨٤) : في سورة طه ، الآية ٢٩ وما يمد لها في : تعالى على لسان موسى عليه السلام :

" واجعل لي وزيرا من أهلي ، ها ، غي ، أشد به أزي ، وأشركه في أمري ، " وفي
 سورة الفرقان الآية ٣٥ : تعالى : " ولقد آتونا موسى الكتاب وجعلنا معه

أخاه هارون وزيرا " .

لفظ الوزير ، والوزاره والوزراء في مواضع متعددة وفي مناسبات مختلفة . (٨٥) ويتبين من
دراستنا للمعوس أن الوزارة قد تميزت عن غيرها من التسميات التي وردت في القرآن الكريم .
فالوزير في القرآن شريك في العمل وفي الصو والبيعة وفي كل شيء أما في أقوال الرسول نظم تعن
الآن الوزير مستشار أو مشير ، والفرق بينهما أن المستشار لا يبدى رأيه إلا إذا سئل أم لا
المشير فله أن يقول وان لم يطلب منه القول . (٨٦)
وبالرغم من أن أبا بكر قد أكد على أنه " لا فضل لأمرطي بأمر كالخوصة إذا شقت
نصفين متساويين " ، فإنه أبي إلا أن يكون القرشيون أمراء ، وأن يكون الأنصار وزراء ، وهذا
يدعوننا لأن نعتبر الوزارة مرتبة أدنى من الإمارة في مفهوم الخلفاء ، بعد وفاة الرسول .
فإذا أتينا إلى العصر الأموي فإنا نصل إلى القول بأن الوزارة وجدت ، (٨٧) وان لم تعط

(٨٥) : من أبي سعيد الخدري ، أن رسول الله (صلعم) قال : لي وزيران من أهل السماء
جبرائيل وميكائيل ووزيران من أهل الأرض ، أبو بكر وعمر ، وعن أنس بن مالك ، أن رسول
الله (صلعم) قال : وزيراي من أهل السماء جبرائيل وميكائيل ، ووزيراي من أهل
الأرض أبو بكر وعمر ، (ابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب ، ص ٤٧) وفي خبر
رواه الطبري أن زيد بن ثابت أثبت أحباب غطيب ، بني تميم بمشهور الرسول (صلعم) فكان
ما قال : " نحن أنصار الله ووزراء رسوله " (الطبري ج ٣ ، ص ١١٦) وكان اجتماع
السقيفة يوم وفاة الرسول (صلعم) فكان ما قاله أبو بكر فيه مخاطبا الأنصار : " نحن
الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تفتنون بحشورة ، ولا نقضي دونهكم الأمر (الطبري ج ٣ ، ص ٢٢٠)
وفي كلام لطلحي بعد مقتل عثمان عند ما عرض الصحابة الوجود في المدينة الإمامة على علي ،
قال : " التمسوا غيري ، فأنا لكم وزيراً خير مني لكم أمراً " (الطبري ج ٤ ، ص ٤١٧) ، وهناك
أمثلة أخرى كثيرة .

(٨٦) : ظافر القاسمي ، المصدر السابق ، ص ٤١٥ .

(٨٧) : يورد عند السمودي أن معاوية كان يجتمع أول ما يجتمع بخاصته ووزرائه لكي يتباحثوا
في شؤون الدولة ، ثم يهود فيجتمع بهم ثانية بعد صلاة الظهر ثم يهود فيجلسوا
احتاجوا إليه بقية يومهم ، ثم يجتمع بهم ثالثة بعد صلاة المشاء ليبدأوا وأصدروا
من ليبتهم ، (السمودي ، مروج الذهب ص ٢٩ - ٣١) ويورد عند ابن الحكم ،
أن الخلفاء كانوا يتخذون رجلاً من حيوة وزيراً ومستشاراً وقيماً على أعمالهم وأولادهم
(سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١١٨) . وفي الطبري ج ٤ ، ص ٢٥٥ حول سخط أهل
افريقيا وحضور وفد منهم إلى دمشق في خلافة هشام بن عبد الملك للاحتجاج على تصرفات
أبيهم أنه لم يكن لهم مقابلة الخليفة ... فكتموا أسماهم في رثاع وبنوا إلى الوزراء ، وفي
أحداث سنة ١٢٦ هـ نقرأ أن حسبان النبطي أخير يوسف بن عمر أن الوليد فازم على تولية
عبد الملك بن الحجاج وأنه لا بد ليوسف إذا أراد أن يحتفظ بمنصبه من إصلاح أمر وزراء
الخليفة (ج ٦ ، ص ٤١٢) .

هذا الاسم دائما ، لأننا اذا نظرنا الى ما كتبه الطبرى في أحداث سنة ٥٨ هـ عن قبيصة بن ذؤيب لوجدنا أنه كان يجمع كل صفات الخزير في المصدر العباسي ، وان لم يسمّ وزيراً ، جاء في النص : " أن عبد الطك بن مروان تقدّم الى حجابيه أن لا يعجب حقه قبيصة بن ذؤيب بسب أى ساعة جاء من ليل أو نهار ، اذا كان غائبا أو عنده رجل واحد ، وان كان عند النساء ، أدخل المجلس وأطم بمكانه ، وكان الغاتم وكانت المسكة اليه ، وتأثره الأخبار قبل عبد الطك ، وقرأ الكتب قبله ويأتي بالكتاب الى عبد الطك مشورا " ، (٨٨) ومن الطبيعي أن يكون هناك وزراء الى جانب أكثر الخلفاء ، يشاركونهم في تحمل أعباء الحكم ، اذ لا يستل أن تقوم دولة مترامية الأطراف ، وأن لا يكون فيها وزير أو وزراء ، وأن يكون الخليفة وحده ، المهيم على كل صغيرة وكبيرة ، وانما كانت الوزارة كما قال ابن طباطبا لم تتمد قواعد ها وتقرر قوانينها الا في دولة بني العباس ، فأما قبل ذلك ، فلم تكن متينة القواعد ، ولا مقررة القوانين ، بل كان لكل واحد من الطغاة أتباع وسامية ، فاذا حدث أمر استشار ذوى العصبى والآراء السائبة ، نكل عنهم ببسوسى مجرى الوزير ، فلما طك بنو العباس ، تقررت قوانين الوزارة ، وسمي الوزير وزيراً وكان قبل ذلك يسمى كاتباً أو مشيراً ، (٨٩) ويستخدم كل من اليمقوي والجهشيارى تعبيراً بصير عسبن وضع هو الأكتاب الذين كانوا بمنزلة الوزراء ، فيذكر اليمقويسي أن قبيصة بن ذؤيب وروح بن زنياع الجذامسي كانا يكتبان لعبد الطك وكانا غالبين عليه ، (٩٠) وكان يكتب لهشام بن عبد الطك سميد بن الوليد بن عمرو بن جبلة الأبرش ركان غالباً عليه ، (٩١) كما كان عبد الحميد غالباً على مروان . (٩٢)

وكان هو الأكتاب المستشارون على درجة عالية من الثقة في الدين ، يتقنون اللغة ويجيدون الخط ، ويروون الأشعار ، ويمرغون غريب مسانيمها ، وأيام السرب والمجسم وأحاد يشها

(٨٨) : الطبرى ، ج ٦ ، ص ٤١٢ .

(٨٩) : ابن طباطبا - الفخرى في الآداب السلطانية ، ص ١٢٠ ، ١٢١ .

(٩٠) : اليمقوي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ .

(٩١) : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٣٨ ، الجهشيارى ، الوزراء ، والكتاب ص ٥٩ ، ويحدثنا

الطبرى أن هشام رفض أن يوافق على شروط الصلح بين السفند والمسلمين التي فقد ها نصر بن سيار والى خراسان ، فلما كلمه الأبرش بذلك وافق على تلك الشروط (الطبرى

ج ٢ ، ص ١٩٢) .

(٩٢) : الجهشيارى ، ص ٣٣ .

وكان عبد الملك يمتدح روح بن زنباع بقوله : انه شامي الطاعة عراقى الخط ، عجمازى الفقه ، فارسي الكتابة . (٩٣) أما قبيصة بن ذؤيب فيدوه الذهبي ، الامام الكبير الفقيه . الخزامي المدني ثم الدمشقي الوزير . (٩٤)

٣- السؤلة :

كان من عادة الخلفاء الراشدين اذا أرسلوا قائدا لفتح بلد ، ولوه عليه قبيل خروجه لفتحه ، فقد روى الواقدي أن أبا بكر وأبي عمرو بن العاص نلسطين ، وشرحبيسل الأردن ، ونزير دمشق ، وأنه اذا حدث قتال فأمرهم هو الذي يكونون في صلته . (٩٥) كما روى أنه أمر عمروا مشافهة أن يصلي بالناس اذا اجتمعوا ، وانا تفرقوا صلى كل أمير بأصحابه ، فلما جاء خالد مددا ، نلاحظ توحيدا للقيادات استمرت في خلافة عمر بن الخطاب الذي جمع أمر الشام كله وامرة الأمراء في الحرب والسلام لأبي عبيدة بن الجراح لمكانته وعظم ثقته به ، (٩٦) وعند أبو عبيدة أثناء عملية الفتح الى تميمين والى كل مدينة صالحة أهلها ، (٩٧) وضم جماعة من المسلمين اليه ، وكانت مهجة هذا الروائي بالدرجة الأولى أن ينجع أهل المدينة وأن يجبي الجزية والخراج ، (٩٨) وبقي لروساء أهل كل مدينة مكانتهم في ادارة شؤون رعائهم من أهل الذمة ، (٩٩) وفي رواية سريانية لمؤلف مجهول أن الخليفة أمر قواده أن ينصوا على أهل المدن المفتوحة بيتقون اذاشاؤوا ويواصلون حياتهم حسب قوانينهم وتقاليدهم قبل الفتح ، (١٠٠) وقد اتبع أبو عبيدة هذه السياسة لكي يتألف الناس ، ولمسمع به غيرهم من أهل المدن التي لم يطلب أهلها الصلح فيسارعوا الى طلبه ، (١٠١)

(٩٣) : الجبهشباري ، ص ٣٥ .

(٩٤) : الذهبي ، سير اعلام النبلاء ، ج ٤ ، ص ٢٨٢ .

(٩٥) : البلاذري ، فتوح ، ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٩٦) : المصدر السابق ، ص ١٢٣ ، خليفة بن غياط ، ج ١ ، ص ١٥٧ ، ابن سعد ، الطبقات ،

ج ٧ ، قسم ٢ ، ص ١١١ ، ١١٢ .

(٩٧) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٦٦ .

(٩٨) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٥ .

(٩٩) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٦٦ ، ابن الأثير ، ج ٢ ، ص ٤٩٥ .

(١٠٠) : Chronicum Anonymus ad. annum Christi 1234. pertinens : XIV P. 188.

(١٠١) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ٨١ .

يتمين لنا من النصوص التي بين أيدينا أن أبا عبيدة كان يتمتع بصلاحيات واسعة عسكرية ومدنية ، فهو الذي يوجه القادة ، ويدين المحال على الذكور ، (١٠٢) ، ويأمر على عقود المصلح التي يبرصها قواده ، (١٠٣) كما يهيأ أمر القضاء ، (١٠٤) وقد استمرت امرت على انشام حتى وفاته في طاهون همواس سنة ١٨ هـ . (١٠٥)

بالرغم من كل هذه الصلاحيات التي منحها عمر بن الخطاب لأبي عبيدة فان هذا لم يكن يمنعه من التدخل في أمور كثيرة ، ان يذكر الطبري أن عمر أتى الشام سنة ١٧ هـ " فقسّم الأرزاق وسوّى الشواتي والصوائف ، وسدّ فروج الشام ، وأخذ يدور بها ويسمي ذلك في كل كورة واستعمل على الساحل عبد الله بن قيس " ، (١٠٦) وسند ما آمن عمر أهل ايليا ، واكتبروا منه على ايليا ، وحيّزها ، وصارت فلسطين نصفين ، نصف مع أهل ايليا ، ونصف مع أهل الرملة ، يفرّق عمر فلسطين على رجلين ، فجعل طلقمة بن حكيم على نصفها وأنزله الرملة ، وعلقمة بن مجزر على نصفها الآخر وأنزله ايليا . (١٠٧)

ولم يجمع عمر بن الخطاب انشام لعامل واحد بمد وفاة أبي عبيدة سنة ١٨ هـ ان عين عياض بن غنم على حمص وقنسرين والجزيرة ^{ولم تكن الجزيرة} فتحت بمد ، وانما كان من سادة الخلفاء كما رأينا أنهم اذا أرسلوا قائدا لفتح بلد وابوه نظيره قبل خروجه لفتحه . (١٠٨) وولى معاوية دمشق وسمليك والبلقاء ، وعمر بن العاص فلسطين والاردن . (١٠٩) وكان ولاية الشام عند وفاة عمر ، معاوية على دمشق والاردن ، وطلقمة بن مجزر على فلسطين ، وعمر بن سعد على حمص وقنسرين والجزيرة . (١١٠)

(١٠٢) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٧ ، ١٥٢ .

(١٠٣) : المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

(١٠٤) : أبو يوسف الخراج ، ص ١٤٠ .

(١٠٥) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٧ ، قسم ٢ ، ص ١١١ ، ١١٢ .

(١٠٦) : الطبري ، ج ٤ ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

(١٠٧) : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦٠٨ .

(١٠٨) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٧٧ .

(١٠٩) : خليفة بن خياط ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

(١١٠) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٧٨ ، الطبري ، ج ٤ ، ص ٢٨٩ .

وكانت صلاحية الوالي تتوقف على ما يرد في صك التعميين من ولاية على الصلاة أو الحرب أو الخراج ، أو ثلاثهم معا ، ولم يتبع الخليفة من نهجا معينسا ، إذ يبدو أن ذلك كان يتوقف على شخصية الوالي وعلى المصر . (١١١) واستمر تدخل مصر في تعيين الشمال ضمن المنطقة التي يحكمها الوالي ولكن بطريقة غير مباشرة ، أي بإيعاز من الخليفة ، فقد ولي عمر مثلا طهمة بن علاثة بن موف حوران ولكنه جعل ولايته من قبل معاوية ، لأن معاوية كان هو الوالي على جند دمشق وحوران تابعة له . (١١٢) كما أن تعيين القضاة كان يتم من قبله ، فقد ولي أبا الدرداء قضاة دمشق وصلاتها وولي عبادة قضاة حمص وقنسرين وصلاتها . (١١٣)

بعد وفاة عمر جمع عثمان لمعاوية الشام والجزيرة وشفورهما ، (١١٤) وأصبح معاوية يتمتع بصلاحيات واسعة جدا فأصبح واليا على الصلاة والحرب والخراج ، وكانت ائمة الوالي في الصلاة نيابة عن الخليفة تدل على عظم سلطة الوالي وعلى رئاسته العليا السياسية في الدولة ، وبما أن الإدارة المالية جمعت له كذلك فإنه أصبح مطلق التصرف في ولايته ، وكان تعيين الولاة على الأجناد عائدا إليه ، (١١٥) وهو الولاة بدورهم ^{كانوا} ولسوا ولدين أئمة .

إن هذه الصلاحيات هي التي مكّنت معاوية خلال هذه الفترة من تثبيت سلطانه ، ومن ثم فإنه عندما بدأت الفتنة ووفد معاوية على عثمان سنة ٣٤ هـ مع سائر ولاة بني أمية وغيرهم للتشاور في أمر الفتنة التي انتشرت في أرجاء

(١١١) : الطبري ، ج ٤ ص ١٤٤ ، الدينوري ، ص ١٢٩ ، ابن سعد ، ج ٦ ، ص ٣٠ .

(١١٢) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٥ .

(١١٣) : المصدر السابق ، ص ١٤٦ .

(١١٤) : المصدر السابق ، ص ١٨٣ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ابن سعد ، الطبقات ، ج ٧ ،

قسم ٢ ، ص ١٢٨ .

(١١٥) : الطبري ، ج ٤ ص ٤٢١ .

الدولة ، اقترح معاوية على عثمان أن ينطلق معه الى الشام ، (١١٦) وكانت نصيحة معاوية لعثمان بالانتقال الى الشام وماظهاره أهمية اعتماد البيت الأموي على هذا التنظيم ، تمثل مفهوما جديدا في التطور السياسي الذي شهدته الدولة الاسلامية انذاك ، فقد أثبتت الحوادث أن بلاد الحجاز لم تعد المركز الذي تدار منه شؤون الدولة الاسلامية بمعد أن اتسمت رقعتها ، وهاجر القسم الأعظم من القبائل منها ، ان لم نقل قبائل هامة برمتها ، وأقامت في المعسكرات التي تحولت الى مدن زاهرة في الأقاليم المفتوحة ، وتناقصت أهمية الحجاز ولم تعد المصرا الأبعد الذي تقرر منه سياسة الدولة ، ومن ثم فان طليان نفسه خرج الى العراق واتخذ من الكوفة مركزا له عندما أيقن أن الخلاف بينه وبين معاوية لن ينتهي الا بالحرب ، واستطاع معاوية بالاعتماد على أهل الشام كما رأينا أن يقف نسي وجهه على وأن يصبح خليفة للمسلمين .

بانتقال الخلافة الى معاوية أصبحت الشام هي الولاية الوحيدة التي وقعت تحت الادارة المباشرة للخليفة ، وكان يساعد الخليفة في ادارة هذه الولاية عدد من الولاة ، فكان لكل جند بما في ذلك جند دمشق وال أو نائب عن الخليفة ، ولم يجمع خلفاء بني أمية جندين لوال واحد كما حدث في خلافة عمر بن الخطاب ، كما أن صلاحياتهم كما يبدو لم تكن واسعة وانما كانوا على حد تعبير ابن العديم بمنزلة الشرط لا يستقلون بالأمر والحروب ، (١١٧) أي أن مهنة الوالي الرئيسية كانت حفظ الأمن والنظام في المنطقة ، بالإضافة الى تعيينه العمال على المداخن والقسرى ومراقبتهم بحيث يجزى مخصصاتهم ويستبدل المسي منهم . (١١٨) وقد يكون الوالي أحيانا سوءولا عن الادارة المباشرة في منطقتة فيكون أكثر حرية واستقلالا في التدابير التي يتخذها ، ذلك

(١١٦) : الطبرى ، ج ٤ ، ص ٣٤٥ .

(١١٧) : ابن السديم ، زبدة الملب في تاريخ حلب ، ج ١ ، ص ٤١ .

(١١٨) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٦٩ .

أن عامل الخراج كان بإمكانه أن يحد كثيرا من سلطة الوالي بما يوردى الى النزاع بينهما ، (١١٩) وكان من مهمة الوالي كذلك الاهتمام بأمر المسجونين وأهلها ، وبمعرض ابن سعد لأوضاع المسجون وتنظيمات عمر بن عبد العزيز الذى أمر ولايته أن ينظروا بأمر المسجون وأن يستوثقوا من أهل الدعارات ، وأن يكتب لهم برزق الصيف والشتاء . كما أمر أن لا يجمع بين قوم حبسوا في دين وبين أهل الدعارات في بيت واحد ولا حبس واحد ، وأن يجعل للنساء عرس طسى حدة ، وأن يوكل أمر المسجون السى شخص يثق به ولا يرتشى . (١٢٠)

ليست لدينا نصوص واضحة تشير الى مهمات عمال النواحي والقرى ، ومع ذلك فان النص الذى يورده الجهشيارى يجعلنا نعمل الى الاعتقاد بأن مهمته الأولى والأساسية كانت كما في العهد الراشدى جباية الأموال ، لأن الأمور المتعلقة بأهل الذمة ، كانت تدار من قبل رؤسائهم ، ان عندما استشار عبد الملك بن مروان ربيعة الجرشي في أمر الوليد ، عندما هزم طى تقليده العهد قال له : " اني قد علت طى توليت شيئا من النواحي أولا ، فاذا مرت له مدة قلده ، فقال له : يا أسير السومنين ، انك لو بمثت الوليد يتقسم الأموال بين الناس مارضوا عنه فكيف تهمنه جابيسا ، ان احتياط ذم وان رفق عيّنز ، ولكن ولّه المماون والصوائف يكن له ذلك شرفا وذكرنا . (١٢١)

كان ولاية الأجناد مسوولين مباشرة تجاه الخلفاء ، كما كان عاملهم طى الصدن والقرى مسوولين تجاههم ، ومن ثم نرى الخليفة اذا أراد أن يصدر أمرا الى عامل فى ناحية ، كلف الوالى السى أن يكتب الى عامله ، فنرى مروان بن محمد مثلا يكتب الى

(١١٩) : المصدر السابق ص ١٢٩ ، الطبرى ج ٧ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(١٢٠) : ابن سعد ، الطبقات ج ٥ ، ص ٣٢٢ .

(١٢١) : الجهشيارى ، الوزراء والكتاب ، ص ٣٧ .

معاوية بن الوليد بن عبد الملك عامله على دمشق بأمره أن يكتب الى عامله على البلقاء. (١٢٢)
وكان ولاية الأجناس يمينون تميمينا من قبل الخلفاء ، وأحيانا ولكن نادرا كان للوالي
يقيم في المركز ويعين خليفة له ، جاء في أنساب الاشراف عن المدائني عن مسلمة وغيره ،
أن مروان ولي عبد الملك فلسطين وجعل روح بن زنباع خليفة لعبد الملك عليها . (١٢٣)
ولم ينتخب أهل الشام ولاية أجناسهم إلا مرة واحدة عندما هويج مروان بن محمد بالخلافة
ان طلب من أهل الشام أن يختاروا لولاية أجناسهم . (١٢٤)

نلاحظ أحيانا ولا سيما في أوقات الفتن والاضطراب أن السلطة الفعلية
لم تكن للوالي وإنما لأشراف المنطقة ، فقد كان مروان بن عبد الله بن عبد الملك
عاملا للوليد بن يزيد على حمص ، وكان من سادة بني مروان نبلا وكرما وعقلا
وجمالا ، ولكن أمر حمص كان لمعاوية بن يزيد بن حصين وليس لمروان بن عبد الله
من أمرهم شيء . (١٢٥) أما في فلسطين فقد كان سعيد بن عبد الملك واليها
من قبل الوليد بن يزيد ، وكان رأس أهل فلسطين يومئذ سعيد بن روح
بن زنباع ، فلما قتل الوليد كتب سعيد بن روح الى الوالي أن يرتحل
عنهم ، وطلب من يزيد بن سليمان سيد ولد أبيه أن يتولى أمر فلسطين ، ان أن
أهل فلسطين كانوا يحبونهم لجوارهم . (١٢٦) وفي رواية للطبري أن ابن هبيرة
سأل يوما من هبيرة قيس ؟ قالوا الأمر ، قال : دعوا هذا ، سيد قيس الكوثر بن زفر
لو يوق بليل لوافاه عشرون ألفا لا يقولون لم دعوتنا ولا يسألونه . (١٢٧)

(١٢٢) : البلاذري ، أنساب ، القسم الثالث ص ١٢١ ، الدينوري ، ص ٣٥٩ .

(١٢٣) : البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ١٤٩ .

(١٢٤) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٣١٢ .

(١٢٥) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٦٣ .

(١٢٦) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٢٦٦ .

(١٢٧) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ١٦ .

كان الكتاب في العهد الأموي على أصناف ، منهم كاتب للرسائل ، وآخر للنسراج ، وثالث للجنود ورابع للتضام والمظالم ، (١٢٨) ولقد ازدادت أعدادهم وازدادت اختصاصاتهم مع ازدياد عدد الدوابين ، إلا أن أرفسهم سكاثة كان صاحب ديوان الرسائل وكان يدعى أحيانا في خلافة بني أمية بستولي ديوان الرسائل ، أو صاحب ديوان المكاتب ، لأنه كان موثقا على أمور الدولة وأسرارها ، (١٢٩) وينظر في أمر البريد ومتملقاته ، (١٣٠) ويقرأ الكتب الواردة على الخليفة ، وكان هذا الواجب هو واجب الخليفة نفسه ، ولما كان هذا متعذرا لكثرتها واتساع الدولة وكثرة المكاتبين فوض الخليفة هذا الأمر إلى صاحب ديوان الرسائل ، واضطر هذا بدوره عندما ازدادت أعباءه لانشغاله بقراءة الكتب بحضور الخليفة والاجابة عليها مع انشغاله بمراقبة ما يكتب في الديوان والمقابلة به اضطر أن يعتمد على كاتب يقوم مقامه ، يتصفح ما يكتب في الديوان من الولايات والحناشير والمكاتب . (١٣١) واستمر الأمر في الأندلس على ما كان عليه في الشام ، فقد كان لكاتب الرسائل المقام الأول ، أو كما يقول المقرئ ، له حظ في القلوب والصيرون عند أهل الأندلس ، وأشرف أسماءه الكاتب ، وهذه السمة يخصصه من يحفظه في رسالته . (١٣٢) وما أن أصحاب ديوان الرسائل كانوا يدجون الكتب على السنة الخلفاء والسولاة ، فكانوا يحكم وظيفتهم يتم اختيارهم من أرباب الكلام وأصحاب اللسن والبيان ، وكان كل منهم يحاول أن يظهر براعة ومهارته وحذقه في تصريف الألفاظ وصياغة المعاني ، وتكونت على هذا النحو طبقة كبيرة من كتاب محترفين ، إن لم تختص بهم دمشق فقط ، لأنه كان لكل والوقائد كاتب (١٣٣) وأحيانا كان الوالي في الولاية الكبيرة يتخذ طائفة من الكتاب ، (١٣٤) وكثيرا ما كسبان يمتطسح كـ

(١٢٨) : الجبهشباري ، ص ٥٥ ، أبو زمة ، تاريخ ، ج ١ ص ٣٧٣ .

(١٢٩) : التلقشندی ، صبح الأمشی ، ج ١ ص ١٠٣ .

(١٣٠) : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٤ .

(١٣١) : المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٠٣ .

(١٣٢) : المقرئ ، نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب ، ج ١ ، ص ٢١٧ .

(١٣٣) : الطبري ، ج ٦ ، ص ١٨٠ - ١٨٢ .

٠٠/٠٠

(١٣٤) : اليعقوبي ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

الولايات أن يلفتوا بهلاغتهم من يكتبون المهم من الخلفاء حتى يعينوهم في دواوينهم ، واشتهر الحجاج بأنه كان كثير التعمد لرسائل قواده ، وحتى اذا لفتته رسالة بهلاغتها ، سأل عن كاتبها وطلب مشراه بين يديه ، (١٣٥) وكان اذا أسجبه كاتب رسلأ نفسه رسلأ أرسل به الى عبد الملك ليرسله بين كتابه ، على نحو ما صنع محمد بن يزيد الأنصاري ، ان كتب الحجاج الى عبد الملك يشير عليه أن يستكتب محمد بن يزيد ، وكتب اليه " اذا أردت رجلا مأمونا فاضلا ، عاقلا ودعما مسلما كتوما تتخذه لنفسك وتضع فنده سرك وما لا تحب أن يظهر ، فاتخذ محمد بن يزيد " ، فكتب اليه عبد الملك أن يعمله اليه ، واتخذه كاتبا وكان ذلك سنة ٨٥ هـ . (١٣٦) وعند ماتوني عبد العزيز بن مروان ، أخذ عبد الملك رأى محمد بن يزيد فيمن سيتولى الخلافة من بعده ، فأشار عليه بالوليد سيد الناس ، وأرضاهم وأفضلهم ، ولسليمان فتى الحرب من بعده ، فطلب عبد الملك منه أن يكتب عهدا للوليد ولسليمان من بعده . وغضب الوليد عليه فلم يوله شيئا لأنه أشار أن تكون الخلافة من بعده لسليمان ، (١٣٧) فلما كانت خلافة سليمان أرسله سنة ٩٧ هـ واليا على افريقيا فكانت ولايته سنتين وأشهرها ، لأن عمر بن عبد العزيز مرله ، وعندما قتل أهل افريقيا يزيد بن أبي مسلم والي الخليفة يزيد بن عبد الملك لأنه أساء السيرة فيهم ، ولوا على أنفسهم محمد بن يزيد وكتبوا الى الخليفة مبينين أنهم لم يخلصوا أهد بهم من الطاعة ، ولكن يزيد بن مسلم ساءهم مالا يرضاه الله والمسلمون فقتلوه وأعدوا محمد بن يزيد ، فأقره يزيد ثم لم يلبث أن أرسل بشر بن صفوان الكلابي . (١٣٨)

وانا دققنا في الروايات المتعلقة بكتاب الرسائل في العصر الأموي ، لوجدنا أن صاحب ديوان الرسائل كان من الحرب في خلافة معاوية ويزيد ومروان وعبد الملك ، (١٣٩) ثم لم تثبت هذه المكانة أن انتقلت الى الموالي ، (١٤٠) وكان أشهرهم على الاطلاق عبد الحميد بن يحيى

(١٣٥) : الطبرى ، ج ٦ ، ص ٣٨٧ .

(١٣٦) : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤١٥ .

(١٣٧) : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٤١٥ .

(١٣٨) : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٦١٧ .

(١٣٩) : الجبهشباري ، ص ٢٤ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٤٣٠ .

(١٤٠) : خليفة بن خياط ، ج ١ ، ص ٤١٨ - ٤٣١ ، ج ٢ ، ص ٤٦٨ .

بولس البلا بن وهب السامري ، (١٤١) والذي تتلمذ على سالم بن سوي ، وعبد الحميد بن عبد الملك كاتب
الرسائل في خلافة هشام بن عبد الملك ، (١٤٢) ان ابن عبد الحميد التمتع بد يوان هشام بن
عبد الملك وأعجب به سالم فأصدر اليه ، وما زال حتى خرجته كاتبا لا يبارى ، ومروان بن محمد ،
وكان حاملا لهشام على أرمينية ، فاتخذته كاتبا له ، ولم يلبث ان يضطرب في الحكم اذا ظننا
أن ما أشبه الطبري من رسائل مروان في ولايته الى هشام ومن تلاه من الخلفاء والى ابنه
عمومنا كان يتلمذ عبد الحميد ، وعند ما تولى مروان الخلافة أصبح عبد الحميد الكاتب
والمستشار والخالب عليه ، وعند ما هزم مروان في موقعة الزاب ، ولّى وجهه معه السى مصر
حيث قتل مما في بومصر ، (١٤٣) ولعل ما يدل على أنه قتل في مصر أننا نجد ابنه واحفاده
وقد استخدمهم بعض الولاة في دواوينهم . (١٤٤)

وعبد الحميد ولا ريب أبلغ كتاب هذا العصر وأبرههم ، وقد سناه الجاحظ في بيانه
عبد الحميد الأكبر ، (١٤٥) ولا نطقتا كما يقول الدكتور شوقي ضيف براءة الأدبية في صنع رسالته
فحسب ، وإنما بلفتنا أنه تحول بطفافة منها الى رسائل أدبية بالصحن الدقيق لهذه الكلمة
محاكيا في ذلك ما كان يعرفه من رسائل الفرس الأدبية التي أثرت عن الساسانيين والتي يقال
أنه كان أحد نقلتها الى العربية ، (١٤٦) فقد كان ملوك الفرس يتقدمون الكتاب ويعرفون
فضل صناعة الكتابة ، ويعتبرونهم الألسنة الناطقة عن الملوك ، وخران أموالهم ،
وأمناءهم على رعيتهم وبلادهم بحيث أنهم كانوا اذا أنفذوا جيشا أنفذوا معه وجهها من وجوه
كتابهم ، وأمروا صاحب الجيش ألا يحل ولا يرتحل الا برأيه ، يبتغون بذلك فضل رأى الكاتب
وحزمه (١٤٧) وتشير رسالة عبد الحميد الى الكتاب الى الكيان والحكامة الهامة التي أصبحت لهم ،

(١٤١) : الجهمشيارى ، ص ٧٢ ، الطبري ج ٧ ص ١٨٢ ، وعبد الحميد فارسي الأصل ويقول
أكثر من ترجموا له أنه من أهل الأنبار بالمراق .

(١٤٢) : خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٥٤٥ ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٦ ، ص ٥٧ .

(١٤٣) : ابن خلكان ، وفيها الأمان ، ج ١ ص ٣٠٧ .

(١٤٤) : الجهمشيارى ، ص ٨٢ .

(١٤٥) : الجاحظ ، البيان والتبيين ، تحقيق حسن السندوبي ، دار الفكر ، بيروت ،

ج ٢ ، ص ٢٣١ .

(١٤٦) : شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الاسلامي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٣ ،

ص ٤٧٤ .

٠٠/٠٠

(١٤٧) : الجهمشيارى ، ص ٤ .

اد أن رسالته لم تكن موجهة إلى شخص معين
أو كاتب بعينه ، وإنما هي موجهة إلى طائفة الكتاب ، وقد وصف فيها
عبد الحميد صناعة الكتابة وأهمية الكتاب في تدبير الحكم ، وما ينبغي أن يتحلوا به
من آداب ثقافية وأخرى خلقية وسياسية ، تتصل بالخلفاء والولاة والرعية ، (١٤٨) وتحسن
لا نقرنها التي ما استهل به الجهمشياري في كتابه "الوزراء والكتاب" من وصايا كان يوصي
بها ملوك الفرس ووزراءهم الكتاب حتى نحس أن عبد الحميد تأثر بهذه الوصايا
في رسالته التي تعد دستوراً دقيقاً لوظيفة الكاتب. (١٤٩)

ازدادت مكانة الكتاب منذ خلافة هشام بن عبد الملك ، الذي كان يوكل إلى سالم
بانكتابة عنه إلى ولاته في الشؤون التي تعرض له ، (١٥٠) أي أن الخليفة لم يعد يمسلي
كتبه على كتابه ، كما كان الشأن في القديم ، بل أصبح الكاتب يكتب الرسالة ثم يعرضها
عليه ومن ثم لم يعد الضمير في الرسالة ضمير متكلم بل أصبح ضمير غائب ، وكان سالم عظيم
القدر عند هشام ، (١٥١) ونظراً لمكانته فانه كان يتجاوز مركزه أحياناً ، فقد سار في موكب
فمنه هشام ، (١٥٢) كما كان يسير مع هشام في الموكب ، فاذا جاء الرجل الغريب يوقفه
سالم ويسأله حاجته كأنه هو أمر هشام ، (١٥٣) كما أنه كان يقرأ الكتب لهشام ، فلا
يدخل منها عليه إلا ما يسره ، وإذا أخفى سالم أمراً وطم به هشام كان ذلك بالطبوع
مدعاة لفضبه ، (١٥٤) ولكنه لم يمد إلى عزله بل استبقاه ، وعند ما توفي هشام بن عبد الملك
كان سالم هو الذي أرسل إلى الوليد بن يزيد يعلمه فيه بموت هشام وتوليته الخلافة ، (١٥٥)
ولذلك أصبح سالم في خلافة الوليد الثاني ليس صاحب ديوان الرسائل فقط ، وإنما كان يكتب
له على خاص أمره ، (١٥٦) وعند ما مرض هشام وصار إلى الحسد الذي لا ترجى منه الحياة ،

(١٤٨) : المصدر السابق ، ص ٧٣ - ٧٥ .

(١٤٩) : شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، ص ٤٧٤ ، ٤٧٥ .

(١٥٠) : الجهمشياري ، ص ٦٢ .

(١٥١) : الميلاندي ، أنساب ومخطوطة بمكتبة الدراسات العليا ، كلية الآداب - جامعة
بغداد ، ذات الرقم ١٦٤٠ ، ج ٧ ، ص ٥٥٩ .

(١٥٢) : الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٠٢ .

(١٥٣) : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٠٢ .

(١٥٤) : الكندي ، الولاة والقضاة ، ص ٧٩ ، ٨٠ .

(١٥٥) : الطبري ، ج ٧ ، ص ٢١١ .

(١٥٦) : الجهمشياري ، ص ٦٨ .

أرسل عياض بن مسلم مولى عبد الملك بن مروان وكاتب الوليد بن يزيد الذي خلفه في الرصافة بعد شخوصه منها ، (١٥٧) إلى الخزان ان يحتفظوا بما في أيديهم حتى لا يصل أحد إلى شي* ، ولما توفي هشام ، خرج عياض من السجن ففتح أبواب الخزائن ، فلم يجدوا لهشام قمطا يسخن فيه الماء حتى استماروه ، ولا وجدوا كفننا من الخزائن فكفنه غالب مولى هشام . (١٥٨)

٥- صاحب الشرطة :

من الموظفين الذين كانت لهم أهميتهم صاحب الشرطة ، ويمتاز بالمعقوبي معاوية أول من أقام الشرط ، (١٥٩) غير أن الكندي يذكر وجود صاحب الشرطة في ولايته عمرو الأولى على مصر صلاتها وخراجها ، منذ أن افتتحها حتى صرف عنها ، أي في خلافة عمر بن الخطاب ، وكان على شرطة مصر ، خارجة بن حذافة ، (١٦٠) بينما يذكر خليفة بن خياط أن عثمان كان أول من اتخذ الشرط ، وكان على شرطه عبد الله بن قنفذ من بني تميم قرين ، (١٦١) ويذهب المقرئ إلى أحمدة من ذلك عندما يذكر أن الخليفة الأول أبا بكر عد لأول مرة في الإسلام إلى تعيين عامل يقوم بالطواف في الليل ، وهكذا كان عبد الله بن مسعود أول من سار بالليل ، عندما أمره أبو بكر الصديق بمس المدينة ، (١٦٢) ويمدأبي بكر كان الخليفة عمر بن الخطاب يقوم بنفسه بالعسس ومعه مولاة أسلم وأحياناً الصحابي عبد الرحمن بن عسوف ، ويبدو وكأن المقرئ يريد أن يظهر أن من أهم مهام صاحب الشرطة المحافظة على الأمن ليلاً ، ولذلك نجده يطلق اسم العسس على الشرط بشكل عام ويسمي صاحب الشرطة بصاحب الليل وهو لقب نجده كذلك في الأندلس كما يقول

(١٥٧) : أمر الوليد بن يزيد كاتبه عياض أن يكتب إليه بالأخبار ، فكتب عليه هشام فضره وحبسه وألبسه المسوح .

(١٥٨) : الطبري ، ج ٧ ص ٢١١ ، العميون والحدائق ، ص ١٠٦ .

(١٥٩) : المعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ص ٢٢١ .

(١٦٠) : الكندي ، الولاة والقضاة ، ص ١٠ .

(١٦١) : خليفة بن خياط ، ج ١ ص ١٩٥ ، الكلبى ، جمهرة النسب ، ص ٢٩-٢٧ .

(١٦٢) : المقرئ ، الخطط ، ج ٣ ص ٦٦ .

المقرى ، فكان صاحب الشرطة يعرف في السنن العامة بصاحب الليل (١٦٣) .
من دراستنا للنصوص التي تشير الى اختصاصات أو مهام صاحب الشرطة ، نلاحظ
بعض الفروق بين هذه المهام في الولايات وبين المركز ، إذ نجد أن صاحب الشرطة كان
يعتبر الرجل الإداري الثاني بعد الوالي ، فهو يوم الناس في الصلاة إذا مرض الوالي ،
وينوب عن الوالي في حكم البلاد عند خروجه الى الخليفة ،^(١٦٥) أو يولى أعيانا إذا ما عزل
الوالي أو مات أو تنحى عن أمور الولاية ، (١٦٦) بينما نرى أن صاحب الشرطة يرافق الخليفة
دائما في حله وترحاله في حالة السلم والحرب ويمسك بزمام الأمور في حالة وفاة الخليفة ،
فمنذ ما حضر الموت معاوية سنة ٦٠ هـ ، وكان يزيد غائبا ، دعا معاوية الضحاك بن قيس
الفهري وكان صاحب شرطته (١٦٧) وسلمته بن عقبه المقرى فأوصى اليهما أن يئلفا يزيد
وصيته ، (١٦٨) وعندما مات معاوية كان الضحاك بن قيس هو الذي صعد المنبر وأكفان
معاوية بين يديه تلوح ، ليبلغ الناس خبر موت معاوية الذي كان عود العرب ، وجد العرب ،
وأنه من كان يريد (أن يشهد دفته فلمحضر عند الأولى) ، وبعت البريد الى يزيد بوجع
معاوية . (١٦٩) وكان كعب بن حامد طي شرط سليمان مرافقا له في دابق ، فلما ثقل
سليمان كتب كتابا وخته ولم يدر أحدا ما كتب فيه وطلب من كعب أن يجمع اليه اخوته وعمومه
وجميع أهل بيته وعظماة أجناد الشام ، وأن يحطهم على البهجة لمن سقى في ذلك الكتاب
وأن يضرب عنق من يأبى منهم أن يبائع ، (١٧٠) والرواية التي يوردها الطبري

(١٦٣) : المقرى ، نفع الطيب ، ج ١ ص ٢١٨ .

(١٦٤) : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٠٥ ، الكندي ، الولاية والقضاة ، ص ٣١ ، ٣٢ .

(١٦٥) : الكندي ، ص ٣٩ .

(١٦٦) : المصدر السابق ، ص ٧٤ ، ٧٥ .

(١٦٧) : تشير بعض الروايات الى أن الضحاك عند وفاة معاوية كان طي شرطه (الدينوري

ص ٢٢٦ ، الطبري ، رواية عوانه ، ج ٥ ص ٣٢٧ ، تهذيب تاريخ دمشق ،

ج ٧ ، ص ٨) أما الذهبي فيذكر أن معاوية ولي الضحاك طي دمشق ،

بعد أن عزله من الكوفة فبقي الضحاك طي دمشق حتى هلك .

(١٦٨) : الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٢٣ .

(١٦٩) : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣٢٨ .

(١٧٠) : الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٢٢٦ .

شبيهة بتلك الواردة عند الدينوري ، فقد أمر سليمان صاحب شرطته كعب بن حامد أن يأمر أهل بيته للاجتماع ففعل ، ثم طلب سليمان من رجاء بن حيوة أن يذهب بكتابه المهم وأن يأمرهم بمبايعة من سمى في كتابه ، فلما توفي سليمان ، وخشسي حيوة الفتنة أرسل الى كعب بن حامد العبسي ، فجمع أهل بيت أمير المؤمنين ، فاجتمعوا في مسجد دابق وطلب منهم أن يبايعوا ثانية لمن سمى في ذلك الكتاب المختوم ، فلما بايعوا رجلا رجلا ، قرأ حيوة الكتاب عليهم ، فنادى هشام بن عبد الملك ، لا نبايعه أبدا ، فقال حيوة : " أضرب والله عنقك قم فبايع " فقام يجر رجليه ، ولم يكن حيوة ليجرأ على مثل هذا الموقف لولا وجود صاحب الشرطة الى جانبه والذي يسيطر على عدد كبير من الشرط ، بحيث يستطيع أن يمنع حدوث فتنة أو اضطراب. (١٧١)

وكان صاحب الشرطة يرافق الخليفة في الحرب والسلام ، فقد رافق الحجاج عبد الملك ، وكان على شرطه آنذاك الى العراق لقتال مصعب ، (١٧٢) وكان مع مروان بن محمد في معركة الزاب صاحب شرطه كذلك ، وعندما تقاعست قضاة والسكون والسكاسك ، طلب من صاحب شرطه أن ينزل . (١٧٣) وعندما كان هشام بن عبد الملك في الرصافة ، كان كعب بن حامد صاحب شرطه معه ، وكان والي دمشق ان ذاك كلثوم بن عياض القشيري ، وكان الولاة في الشام كما قال ابن المديم بمنزلة الشرط ، (١٧٤) ولذلك نجد أن كلثوم بن عياض هو الذي كتب الى هشام يذكر له أمر الحريق الذي ظهر في دير دمشق ، ويتهم بهذا العمل والي خالد بن عبد الله القسري وبأنهم يريدون الوثوب على بيت المال ، فكتب اليه هشام بأسره أن يحبس آل خالد الصغير منهم والكبير ومواليهم والنساء ، ففعل ثم كتب الوليد بن عبد الرحمن عامل خراج دمشق الى هشام يخبره بأخذ أبي العمرس ومن كان معه سائر رجلا رجلا

(١٧١) : الطبري ، ج ٦ ص ٥٥٢ .

(١٧٢) : ابن المبري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١١٢ .

(١٧٣) : الطبري ، ج ٧ ص ٤٣٤ .

(١٧٤) : ابن المديم ، زبدة الحلب ، ج ١ ص ٤١ .

ونسبهم الى قباظهم وأمصارهم ، ولم يذكر فيهم أحدا من موالى خالد ، فكتب هشام الى كثوم يشتمه ويحنفه ، ويأمره بتخلية سبيل جميع من حبس منهم ، (١٧٥) وعند ما علم مروان بن محمد ، أن ابراهيم بن محمد يكتاب أهل خراسان ويكاتبونه كتب مروان الى عامله علي دمشقي أن يكتب الى عامله علي اليلقا في الحسير الى كداد أو الهميمة وأخذ ابراهيم بن محمد بن علي وشده وثاقا وحمله اليه في خيل كثيفة ، (١٧٦) أي أن والي دمشق وعامله علي اليلقا قاما بالمهمة التي كان يقوم بها صاحب الشرطة في العراق ، إذ عند ما كان الأمر يتعلق بدعوة شخص أو احضاره أمام الأمير ، كان رجال الشرطة يتولون ذلك ، فقد أرسل المنيرة بن شعبه قهصة بن الدمون وكان علي شرطته الى منزل حيسان بن طبيان السلمي ، عند ما أخبره قهصة أن السوان يبتسمون في منزل سيان ، فسار قهصة في الشرطة وفي كثير من الناس والناس القبيض علي حيسان ومن كان معه ، (١٧٧) وعند ما تخلف حجر بن عدى عن تلبية دعوة زياد بن أبيه اليه أمر زياد الشرط باحضاره بالقوة وكان هيثم بن شداد أمير شرطته . (١٧٨) ونظرا لأن صاحب الشرطة كان مرافقا للخليفة دائما ، فانه كان يوكل اليه أمر تنفيذ العقوبات التي يفرضها الخليفة ، فهذا عمر بن عبد العزيز يأمر صاحب الشرط أن يطبق العقوبة على كهول من قنسرين شهيدوا زورا على الفرات بن مسلم صاحب خراج قنسرين ، (١٧٩) وعند ما توجه روح بن الوليد رجلا حمصيا كان عمر بن عبد العزيز قد قضى بإرجاع حوانيت اليه وكان الوليد بن عبد الملك قد أقطعها لروح ، طلب عمر بن عبد العزيز من صاحب شرطته أن يتوجه الى روح ، فإن سلم اليه حوانيته فله ذلك ، وان لم يفعل فليأت برأسه . (١٨٠)

(١٧٥) : الطبرى ، ج ٧ ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(١٧٦) : البلاذرى ، أنساب ، القسم الثالث ، ص ١٢١ ، المسمودى ، مروج الذهب ،

ج ٣ ، ص ٢٤٣ .

(١٧٧) : الطبرى ، ج ٥ ص ١٨٢ .

(١٧٨) : الطبرى ، ج ٥ ص ٢٥٨ .

(١٧٩) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٣٠ .

(١٨٠) : المصدر السابق ، ص ٥١ .

وكان يوكل الى صاحب الشرطة أحيانا مهام أخرى ، كما مر الغاتم والخزائن
و«ت الأموال» (١٨١) كما يذكر ابن عساكر أن خالد بن اللجلاج ، أبو إبراهيم العامري ،
ولي الشرطة بدمشق ، وكان على بناء مسجد دمشق ، (١٨٢) أي ربما كان مراقبا لحسن سير
بناء المسجد نظرا للمدد الكبير من الفعلة الذين ساهموا في بنائه ، وكان يساعد صاحب
الشرطة في أداء عمله شرطة وحرس ، و«س» (١٨٣) و«س» (١٨٤) وأعوان للشرط . (١٨٥)
هذه الروايات المتفرقة تعطينا فكرة عن الدور الذي لعبه أصحاب الشرط فسي
الأزمات بالإضافة الى دورهم في توطيد الأمن والنظام وتنفيذ العقوبات واشتراكهم فسي
الحروب الى جانب الخلفاء ، ولذلك قيل ان الشرط أول كتيبة تشهد الحرب وتتهيأ للموت ،
وقيل هي طائفة من خيار أعوان الولاة . (١٨٦)

ويتبين ما ذكره الرواة من الأشخاص الذين كلفوا بهذا المنصب في الشام ، أنهم
كانوا من الشخصيات المرموقة ، فزبل بن عمرو بن عمرو الذي استسلمه معاوية على شرطته (١٨٧)
كانت له وفادة على رسول الله (صلعم) وعقد له رسول الله لواء على قومه . (١٨٨) أما الضحاک
بن قيس فمداه في صفار الصحابة ، حدث عنه معاوية ووصفه بالعدالة ، وسعيد بن جبهر
والشمسي وغيرهم وكان من شهد فتح دمشق ، (١٨٩) وكان خالد بن معدان بن أبي كرب
الذي تولى شرطة يزيد بن معاوية تابعا ثقة روى عن أبي عبيدة ، ومسان بن جبيل ،

-
- (١٨١) : خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٥٥٥ .
(١٨٢) : تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٥ ص ٨٨ .
(١٨٣) : وكهيع ، أخبار القضاة ، تحقيق عبد العزيز مصطفى العراقي ، الطبعة الأولى ،
١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م ، ج ١ ص ١١٩ .
(١٨٤) : تهذيب ، ج ٤ ص ٧٧ .
(١٨٥) : البلخي ، كتاب الهدى والتاريخ ، باريس ، ١٩١٩ م ، ج ٦ ص ٥١ .
(١٨٦) : ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج ١ ص ٤١ .
(١٨٧) : تهذيب ، ج ٥ ص ٣٨٦ .
(١٨٨) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٨٦ .
(١٨٩) : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٣ ص ٢٤١ .

وعبادة بن الصامت ، وأبي الدرا ، وكانت اذا عظمت حلقتة ، قام كراهية الشهرة ، وكان اذا أمر الناس بالفضو يجعل نسطاطه أول فسطاط يضرب ، وقال عبيد بن صالح ما خلفنا أحدا من الناس سخانة خالد . (١٩٠) وكان خالد بن الجلاج أبا إبراهيم المعاصري صاحب الشرطة في خلافة الوليد ناسن وصلاح ، جرى اللسان من الملوك والفلظة عليهم ، ثم ان كعب بن حاهد المبسي بقي صاحباً للشرطة في خلافة سليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك ومهشام ، وأقوه هشام ثلاث عشرة سنة ثم ولاه أرمينيا ، وان شخصاً يحتل هذا المنصب فترة طويلة كهذه ثم يعهد اليه بولاية أرمينيا ، لا بد أن يتجلى بصفات توهله لذلك . (١٩٢)

وماد منا في صدر الحديث عن الشرطة ، فلا بد من أن نتبعه بالحديث عن الحرس ، ويتفق اليعقوبي وخياط بأن معاوية أول من اتخذ صاحب حرس ، (١٩٣) واذا كان معاوية أول من اتخذ صاحب حرس ، فقد كان زياد بن أبيه كذلك أول من أنشأ لنفسه حرساً خاصاً عدد أفراده خمسمائة رجل . (١٩٤) وكانت مهمة الحرس ، وحراسة الخليفة بشكل خاص ، (١٩٥) أو الأسير في مصره ، (١٩٦) كما كان يعهد اليه بحراسة المسجد ، (١٩٧) ولكننا نجد الكندي يذكر أنه كان للمسجد في القسطنطينية شرطة يذهبون عنه . (١٩٨) وهنا قد نتساءل اذا كان هناك من تدخل في استخدام هذين التمييزين ان نجد وكيفا في صدر الحديث عن مروان بن الحكم وتوليته مصعب بن عبد الرحمن شرطته في المدينة ، أن مصعب يقول لمروان : اني لأضبط المدينة بحرس المدينة ، فابغني رجالا من غيرها ، فأعانه بما تاتي رجل

(١٩٠) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، تهذيب ، ج ٥ ص ٨٩ .

(١٩١) : تهذيب ، ج ٥ ص ٨٨ .

(١٩٢) : خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٤٣١ ، ج ٢ ص ٤٨٧ ، ٥٤٤ .

(١٩٣) : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٧٦ ، اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ص ٢٢١ .

(١٩٤) : البلاذري ، أنساب ، ج ٤ قسم ١ ص ١٦٢ ، الطبري ، ج ٥ ص ٢٢٤ .

(١٩٥) : المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٢٩ ، ٣٠ ، تهذيب ، ج ٢ ص ٣٧ .

(١٩٦) : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٢٣٨ .

(١٩٧) : الطبري ، ج ٧ ص ٢٤٠ ، العميون والحدايق ، ص ١٣٦ .

(١٩٨) : الكندي ، ص ٦٢ .

من أهل ايله فضبطها ضبطا شديدا ، (١٩٩) ومن تتبعنا لمايرد في مصادر أخرى ، أن الحرس لم يكونوا شرطة بالمعنى الدقيق للكلمة ويتضح ذلك من أن المؤهلات أو الصفات المطلوبة من صاحب الحرس كانت غير تلك المطلوبة من صاحب الشرط ، اذا كان يفضل أن يكون صاحب الحرس مسنا حفيفا مأونا ، (٢٠٠) أما صاحب الشرطة فكان يفضل أن يكون شديدا الصولة قليل الغفلة ، سمين الاطانة ، أعجم الخيانة . (٢٠١) وكان للحرس في الشام نوب ، و على كد نوبة عامل ، (٢٠٢) ويبدو أن الحرس في الشام كان معظمه يتألف من الموالي ، (٢٠٣) ولذلك نلاحظ أن صاحب الحرس في الشام كان دائما من الموالي منذ عهد معاوية وحتى نهاية الدولة الأموية ، فكان على حرس معاوية ، ابو المختار مولى لحمير ، (٢٠٤) وعلى حرس عبد الملك ، عدي بن عياش مولى لحمير كذلك ، ثم ابي الزهريفة مولى عبد الملك ، ثم خالد بن الريان مولى بني محارب (٢٠٥) الذي ولي الحرس لعبد الملك والوليد وسليمان ، (٢٠٦) وفي خلافة عمر بن عبد العزيز كان عمر بن المهاجر مولى الأنصار على الحرس ، (٢٠٧) وعين هشام نصير مولاة على الحرس ، ثم ولي الربيع بن شهور مولى بني الحرث مع الخاتم . (٢٠٨)

ولم يكن للخليفة وسعده حرس ، وانما كان لوالي دمشق ولولاة الأجناد أحراسهم كذلك ، (٢٠٩) ويذكر ابن قتيبة أن عمرو بن سميد صالح عبد الملك بعد أن حاصر أهل دمشق أشهرها على أنه الخليفة من بعده ، ففتح دمشق ثم أرسل عبد الملك الى عمرو ، وكان بيت المال في يده ، أن يخرج للحرس أرزاقهم ، فقال عمرو : ان كان لك حرس فان لنا حرسا ، فقال عبد الملك أخرج لحرسك أرزاقهم ، (٢١٠) بمعنى أن حرس الخليفة وحرس أمراء الأجناد كانوا يأخذون أرزاقهم من بيت

(١٩٩) : وكيف ، أخبار القضاة ، ص ١١٩ .

(٢٠٠) : اليمتوي ، تاريخ ، ج ٢ ص ٢٣٤ .

(٢٠١) : ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، ج ١ ص ١٦ ، ابن عدي ، المقدم الفريد ، ج ٥ ص ١٩ ،

الكلي ، ج ٨٤ ص ٨٤ .

(٢٠٢) : الطبري ، ج ٧ ص ٥٧٥ .

(٢٠٣) : خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٥٧٤ ، باقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٣٢٤ .

(٢٠٤) : خليفة ، ج ١ ص ٢٧٦ .

(٢٠٥) : المصدر السابق ، ج ١ ص ٣٩٥ .

(٢٠٦) : المصدر السابق ، ج ١ ص ٤١٩ ، ٤٣٢ ، تهذيب ، ج ٢ ص ٣٧ .

(٢٠٧) : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٤٦٩ .

(٢٠٨) : المصدر السابق ، ج ٢ ص ٥٤٥ .

(٢٠٩) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٦٩ .

(٢١٠) : ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ص ٢١ .

مال المسلمين ، أما اذا كان لبعض الشخصيات حراسهم فانهم يدفعون أرزاقهم من أموالهم .

صاحب البريد :

من الوظائف الرئيسية الهامة وظيفة صاحب البريد ، ولم تكن هذه الوظيفة قائمة في

عهد الخلفاء الراشدين بالرغم من أن نظام البريد كان معروفاً في الاطوار البيزنطية

والساسانية ، (٢١١) فلما استقرت الخلافة لعمارة بن أبي سفيان قرر وضع البريد ليكون أداة ربط

بينه وبين عماله في الولايات المختلفة ، فأمر باحضار رجال من دهاقين الفرس وأهل أعمال الروم ،

وعرفهم مايريد ، فوضعوا له البريد . (٢١٢) ولم يكن البريد في عهد بني أمية نظاماً يستعمله الشعب

كما هو في الوقت الحاضر ، وإنما كان نظاماً رسمياً حكومياً ، وقد استعمل الخلفاء نظام البريد

في أول الأمر لنقل الأخبار بسرعة من مقر خلافتهم الى الولايات المختلفة ، ولتلقى الأخبار ،

ولكن ليس معنى هذا أن البريد كان ينقل المراسلات فقط بين العمال والولاة من جهة

والخلفاء من جهة أخرى وإنما كان باستطاعة أي فرد من أفراد الشعب أن يرسل الى الخليفة

مايريد من طريق بريد ، وكان حامل معاوية طي المدينة اذا أراد أن يرصد بريداً ، أمرئاديه

فنادى : " من له حاجة فليكتب الى أمير المؤمنين " . (٢١٣) وكان يرصد عمر بن عبد العزيز

لا يخطيه أحد من الناس اذا خرج كتابها الا حمله . (٢١٤) وكان للبريد شخص خاص يتولى أمره ،

بتنفيذ ما يصدر ، وتلقي ما يراد بمرهته بصاحب البريد ، (٢١٥) وكان عبد الملك يأمر حاجبه أن يدخل

عليه صاحب البريد متى جاء في ليل أو نهار " فرما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة " . (٢١٦)

ولم يكن من مهام صاحب البريد عرض الرسائل والتقارير المتراكمة لديه فقط ، وإنما

كان من مهامه تعيين الموظفين المحليين في المدن المختلفة ، والأشخاص المناسبين في

المحطات على الطريق وتعيين السعاة ، (٢١٧) والاهتمام بدفع المرتبات والأرزاق لهم ،

وتدبير أمر الدواب وبرانها ، ومن يتولى عنايتها ، (٢١٨) ويقول قدامة بن جعفر في صدر

E. I. New Edition, Art., Barid.

: (٢١١)

: (٢١٢) القلقشندی ، صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ٣١٧ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢١٩ .

: (٢١٣) الطبري ، ج ٥ ص ٣٣٥ .

: (٢١٤) ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٥٦ .

: (٢١٥) القلقشندی ، صبح الأعشى ، ج ١٤ ص ٣٧١ .

: (٢١٦) المصدر السابق ، ج ١٤ ص ٣٦٧ .

: (٢١٧) Levy, The Social Structure of Islam, Second edition. P. 301.

: (٢١٨) الكندي ، ص ٣٨٤ .

كلامه عن ديوان البريد : " والذي يحتاج اليه صاحب هذا الديوان أن يكون ثقة اما في نفسه او عند الخليفة القائم بالأمور في وقته ، لأن هذا الديوان لو لم يثق فيه من العمل ما يحتاج معه الى الكافي المتصفح وانما يحتاج الى الثقة المحفوظ " (٢١٩) وأتد لاحظنا عند الكلام عن الكتاب أن صاحب ديوان الرسائل كان اليه أمر البريد أي هو المسؤول عن قراءة هذه الكتب والاجابة عليها وليست هذه من مهام صاحب البريد .

٧- القاضي :

أدخل العرب الى الشام كما أدخلوا الى كل الولايات التي دخلت ضمن نطاق الدولة الاسلامية ، نظاما قضائيا جديدا يقوم على أساس الشريعة الاسلامية ، ويختص السرب المسلمين او الذين أسلموا من أهل البلاد ، أما أهل الذمة فكان لهم قضاؤهم الآ اذا احتكوا الى القاضي المسلم ، فله أن يحكم بينهم بالعدل ، قال تعالى : " فان جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ، وان تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ، وان حكمت فاحكم بينهم بالقسط ان الله يحب المقسطين " . (٢٢٠) ويذكر الكندي أن القاضي خير بن نعيم الحضرمي (١٢٠ - ١٢٨ هـ) كان يقضي بين المسلمين في المسجد ، ثم جلس على باب المسجد بعد العصر فيقضي بين النصارى ، وأنه كان يقبل شهادة النصارى على النصارى ، واليهود على اليهود ، ويتحقق من عدالة هؤلاء الشهود بين أهل دينهم . (٢٢١) ويرى الماوردي أنه لا يجوز تقليد نسي القضاة على أهل الذمة ، ولكنه يورد قول أبي حنيفة أنه يجوز تقليده بين أهل دينه ، وهذا وان كان حرف الولاية بتقليده جاريا فهو تقليد زمامة ورئاسة وليس بتقليد حكم وقضاة ، وانما يلزمهم حكمه لالتزامهم له ، ولا يلزمهم ، ولا يقبل الامام قوله فيما حكم به بينهم ، وانما امتنعوا من تحاكمهم اليه ، لم يجبروا عليه وكان حكم الاسلام عليهم أنفتر . (٢٢٢)

(٢١٩) : قدامه بن جعفر ، نيزد من كتاب الخراج وصنعه الكتابة ، لندن ، بريل ، ١٣٠٦ هـ ،

ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٢٢٠) : سورة المائدة ، آية (٤٥) .

(٢٢١) : الكندي ، ص ٣٥١ .

(٢٢٢) : الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ٦٦ .

كان القضاء في الدولة الإسلامية من الأمور الخاصة بالخلافة ، (٢٢٣) إذ أن الرسول الكريم تجسست في شخصه السلطات التشريعية ، والتنفيذية ، والقضائية ، وأصبح تأضيبي المسلمين الأعلى ، بعد أن نزل قول الله تعالى : " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم " . (٢٢٤) كما أصبح حكمه طزما للاماس كافة سواء أكان بوحى من اللهب أو باجتهاد اجتهده ، فأصبح بعد ذلك سنة طزمة أيضا . (٢٢٥)

وثبت أن رسول الله (صلعم) استعمل قضاة طى الاقاليم التي اعتقت الاسلام وكانت بميدة من المدينة ، وتكاد كتب السيرة والحديث تجمع على أن القضاة الذين عهد اليهم الرسول بالقضاء ثلاثة ، هم طى بن أبى طالب ، وممان بن جبل ، وأبو موسى الأشعري ، (٢٢٦) والذي يسترعى الانتباه هو أن هؤلاء الثلاثة ذهبوا الى اليمن ، ولم تذكر معظم المصادر أسماء قضاة آخرين ، الا أن الطوردي في كتابه أدب القاضي يذكر أن الرسول استخلف عتاب بن أسيد على مسكة بعد الفتح والبا رقاضا ، (٢٢٧) وأنه قد رحية الكبي قضاء ناحية اليمن . (٢٢٨) وحتى لا تحرم قبائل وأقوام ومناطق من قاض يفصل بين الناس وفقا لأحكام الشريعة بعد اعتناقهم الاسلام فقد

(٢٢٣) : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٧٣٦ ، ٧٣٧ .

(٢٢٤) : سورة النساء ، آية (٦٤) .

(٢٢٥) : سورة النساء ، آية (٦٤) ، " فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم

ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ، ويسلموا تسليما " .

(٢٢٦) : وكيع ، أخبار القضاة ، ج ١ ص ٨٤ - ١٠٢ ، أحمد بن حنبل ، المسند ، الطبعة

الثالثة ، دار المصارف بمصر ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م الجزء الثاني ،

الفقرات ٦٦٦ ، ٦٩١ ، ٧٤٥ ، ٨٨٢ ، ١١٤٥ ، ١٢١٠ ، ج ٣ ، الفقرة

٢٠٧١ ، الذهبي ، سيرة أعلام النبلاء ، ج ١ ص ٤٤٨ .

(٢٢٧) : الطوردي ، أدب القاضي ، بغداد ، ١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م ، ص ١٣١ .

(٢٢٨) : المصدر السابق ، ص ١٣١ .

(٢٢٩)

كان الرسول (صلعم) اذا أسلم قوم ، أقام عليهم من يعلمهم الشرائع ويقضي بين المتنازعين .
ان ثبوت تولي ثلاثة من الصحابة القضاة في أيام الرسول ، يدل على أن التنظيم
القضائي في الدولة النبوية بدأ حين الشورى بال حاجة اليه خلافا لما ذهب اليه بعض المؤرخين
من أن أبابكر كان أول من استعمل القضاة في الاسلام ، (٢٣٠) بل ان هناك من ذهب
الى أن معاوية هو أول الخلفاء الذين اتخذوا القضاة ، (٢٣١) وهو قول منسوب الى مالك بن أنس ،
والظاهر أنه مراد من ذلك أن معاوية كان أول من اتخذ قاضيا في قاعدة الخلافة ، لأن
تتمة عبارة مالك بن أنس ، " أن الخلفاء قبل ذلك كانوا يباشرون كل شي من أمور الناس
بأنفسهم " ، وسبقها قول وكيع " ولا يعلم أن عثمان استعمل قاضيا بالدينونة " ، مع أن
هذا الرأي ينتقض ما ثبت أن عمر كان قاضيا لأبي بكر ، (٢٣٢) وما رواه الطبري من أن زيد
بن ثابت كان على قضاء عثمان . (٢٣٣)

وفند ما اتسعت رقعة الدولة الاسلامية اتساعا كبيرا ، منذ أيام الخليفة عسر
بن الخطاب ، نجد في تعيين القضاة في الأمصار والأجناد الى جانب الولاية ، فقد عهد عسر
الى تعيين القضاة في البصرة والكوفة ، (٢٣٤) كما أنه جعل قضاء دمشق وصلاتها لأبي الدرداء
وقضاء حمص وقنسرين وصلاتها لحمادة بن الصامت ، (٢٣٥) وفي رواية أخرى أن عمر ولي
قضاء حمص لحامس بن سعد بن الخضر ، (٢٣٦) وعهادة قضاء فلسطين ، (٢٣٧) وكرب
بن سيف الأنصاري على قضاء الأردن ، (٢٣٨) ولا تهبنا الأسماء هنا قدر اهتمامنا بأن

-
- ٠١٢٣ : (٢٢٩) : السوردي ، أدب القاضي ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، ١٩٧١ ، ج ١ ص ١٢٣ .
٠٤٢٦ : (٢٣٠) : خليفة ج ١ ص ١٠٨ ، الطبري ، ج ٣ ص ٤٢٦ .
٠١٠٥ : (٢٣١) : وكيع ، ج ١ ص ١٠٥ .
٠٤٢٦ : (٢٣٢) : خليفة ج ١ ص ١٠٨ ، الطبري ج ٣ ص ٤٢٦ ، السوردي ، أدب القاضي ،
ص ١٣٢ - ١٣٥ .
٠٤٢٢ : (٢٣٣) : الطبري ، ج ٤ ص ٤٢٢ ، السوردي ، أدب القاضي ، ص ١٣٥ .
٠١٥٦ : (٢٣٤) : خليفة ج ١ ص ١٥٦ .
٠١٣٦ : (٢٣٥) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٦ .
٠٣٧٣ : (٢٣٦) : ابن خزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٧٣ .
٠٢٠٩ : (٢٣٧) : ابو زرعقة ، تاريخ ، ج ١ ص ٢٢٤ ، تهذيب ، ج ٧ ص ٢٠٩ .
٠٢٢٤ : (٢٣٨) : ابو زرعقة ، تاريخ ، ج ١ ص ٢٢٤ .

صر قد عهد الى تعيين قضاة في أجناد الشام الأربعة ، وسار عثمان طلي نهج عمر في تعيين القضاة في الأمصار في مصر والكوفة ، والبصرة ، أما في الشام فنجد أن معاوية يستشير أبا الدرداء فيمن يرشح لهذا المنصب فيشير عليه بفضالة بن عبيد . (٢٣٩)

عندما أصبح معاوية خليفة ، نراه يتوك أمر تعيين القضاة في الأمصار لا مراكبها أحيانا ، ويحمد أحيانا أخرى الى تعيين القضاة فيها ، (٢٤٠) وتابع خلفاء بني أمية نهجه ، (٢٤١) وان كنا نجد ابتداء من خلافة سليمان هودة الى جمل تعيين القضاة أمرا دائرا الى الخليفة ، (٢٤٢) وهذا مما يزيد في سلطة القاضي ويجعله أكثر استقلالاً إذ لا يستطيع أمير مصر التأثير عليه في أحكامه ، ولا يستطيع عزله ، اذا كان تعيينه صادرا من الخليفة الأبا مرته . (٢٤٣)

من الطبيعي أن يعهد الخلفاء الى تعيين قضاة في العاصمة ، ولكن من المؤسف أن المصادر لا تشير الى القضاة في مراكز الأجناد المختلفة ، وان كانت هناك اشتمالات تدفع المرء الى الاعتقاد بأن الأمويين تابعوا النهج الذي طبقه عمر بن الخطاب ، عندما عين قضاة في دمشق وحمص وفلسطين والأردن ، ان لا يعقل أن يعهد المتخصصون الى اللجوء الى العاصمة لحل قضاياهم ومشكلاتهم ، وقد جاء في تاريخ ابن عساکر أن عبادة بن نسي الكندي الأردني كان قاضي طهريه ولاء عبد الملك وعمر بن عبد العزيز الأردن ، (٢٤٤) بينما يذكر انه ولي قضاة الأردن لعبد الملك ، ثم ولي نائبا لعمر بن عبد العزيز ، (٢٤٥)

(٢٣٩) : ابو طولون ، الثغر البسام فيمن ولي قضاة الشام ، ص ٢ .

(٢٤٠) : الكندي ص ٣٠٣ ، ٣١١ .

(٢٤١) : خليفة ، ج ١ ص ٣٨٩ ، ٤٢٠ ، الكندي ، ص ٣١٥ ، البلاذري ، أنساب ، ج ٤ ،

قسم ٢ ، ص ٢٠٥ ، وكيع ، ج ١ ، ص ١١٤ ، ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٣٤ .

(٢٤٢) : خليفة ، ج ١ ص ٣٨٩ ، الكندي ، ص ٣٠٩ ، ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ٣٤٠ .

(٢٤٣) : الكندي ، ص ٣٤٠ ، ٣٤١ .

(٢٤٤) : تهذيب ، ج ٧ ص ٢١٧ .

(٢٤٥) : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٥ ، ص ٣٢٤ .

وما يذكره الذهبي يتفق مع ماورد في تاريخ خليفة بن غياط ، أن والسي الأردن في خلافة عمر بن عبدالعزيز كان عبادة بن نسي ، (٢٤٦) ثم اذا رأينا ابن طولون يذكر أن عبدالرحمن بن الحسحاس المندري من بني هاجر بن هند بن عذرة ولي قضاء دمشق ، (٢٤٧) زين عمر بن عبدالعزيز ونرى خليفة يذكره واليا على دمشق في خلافة عمر بن عبدالعزيز ، (٢٤٨) جاز لنا أن نتساءل اذا كان عمر بن عبدالعزيز قد أسند الولاية والقضاء لعبادة بن نسي وعبدالرحمن بن الحسحاس ، لاسيما أننا نجد ذكرا لهلال بن أبي الدرداء كقاض على دمشق في خلافة عبدالملك ، وأنه كان كذلك أسيرا على دمشق أي أنه جمع بين الولاية والقضاء ، (٢٤٩) ونفهم من كتاب وجهه عمر بن عبدالعزيز الى أمراء الأجناد أن القضاء كان يوكل اليهم بالاضافة الى مهامهم الأخرى . (٢٥٠)

احترم معاوية وخلفاء بني أمية منصب القضاء وأهله وحفوه بكثير من الاجلال والاكبار ، فقد كان معاوية يهاب أبا الدرداء ويتأدب معه . (٢٥١) كما ولي قاضيه فضالة بن عبيد الغزو ، فكان أمير الجيش ، وكان الولاية يتقيدون بأوامره ، (٢٥٢) وعندما خرج معاوية الى صفين استخلف فضالة بن عبيد ، (٢٥٣) وعن سعيد بن عبدالعزيز أن القاضي كان خليفة الأمير اذا غاب . (٢٥٤) وكانت منزلة أبي ادريس الخولاني عظيمة عند عبدالملك ، (٢٥٥) فكان اذا نظر في المظالم ردّ الى قاضيه أبي ادريس ما يقف منها على مشكل أو يحتاج الى حكم منفذ ، فكان أبو ادريس هو المباشر ، وعبدالملك هو الامر ، أي أن أبا ادريس

(٢٤٦) : خليفة ، ج ٢ ص ٤٦٥ .

(٢٤٧) : ابن طولون ، الثغر البسام ، ص ٧٠ .

(٢٤٨) : خليفة ، ج ٢ ص ٤٦٥ .

(٢٤٩) : ابن طولون ، ص ٤٠ .

(٢٥٠) : ابن عبدالحكم ، سيرة عمر بن عبدالعزيز ، ص ٦٨ ، ٦٩ .

(٢٥١) : ابن طولون ، ص ٢٠ .

(٢٥٢) : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٣ ص ١١٥ .

(٢٥٣) : أبو زرعة ، تاريخ ، ج ١ ص ٢٢٣ .

(٢٥٤) : المصدر السابق ، ج ١ ص ٢٢٣ ، الذهبي ، ج ٣ ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٢٥٥) : عبد الجبار الخولاني ، تاريخ داريا ، ص ٥٦ .

يمطي حكمه وعهد الطك بأمر بتنفيذ الحكم ، (٢٥٥) كما جعل عبد الطك لأبي ادريس
القصاص والرعظ ، (٢٥٦) وبقي قاضيا لعهد الطك حتى وفاته سنة ٨٠ هـ ، (٢٥٧) فولي
القضاء عبد الله بن طاهر بن شبيب الذي بقي في منصبه حتى خلافة الوليد ، فكان على بناء مسجد
دمشق ، (٢٥٨) وكان رئيس أهل المسجد زمن الوليد بن عبد الطك ويحده ، لا يرى فيه
بعدة الأغيرها . (٢٥٩) ونلاحظ في خلافة يزيد بن عبد الطك وجود قاضيين في دمشق
سليمان بن حبيب والزهري ، هذا على عياله وهذا على عياله . (٢٦٠) وما يثير الانتباه
وجود ما يسمى قاضي الخلفاء ، فقد ورد في تاريخ داريا أن سليمان بن حبيب كان قاضي
الخلفاء ، كان قاضيا لعهد الطك والوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز وليزيد وقضى لهشام
أبنا ، (٢٦١) بالرغم من أننا نقرأ من قصة آخرين في دمشق في عهد هؤلاء الخلفاء ،
وكذلك ورد في تاريخ دمشق لابن عساكر عن كثوم بن زياد المحاربي ، أن سليمان بن حبيب
كان قاضي الخلفاء وأنه أقام بالشام ثلاثين سنة يقضي باليمين مع الشاهد . (٢٦٢) وهذا
ما يدفنا للتساؤل فيما إذا كان هذا اللقب يعني رتبة رسمية أم كان هذا الخلع من الناس
كدليل على عتو كعبه في العلم والقضاء .

بتبين لنا من دراستنا لسير قضاة دمشق أنهم كلهم بلا استثناء كانوا من الفقهاء
المحدثين ومن القراء والعباد والزهاد . وكان الأواطل من الصحابة والبقية من التابعين ،
وكان القضاة يحملون الناس قراءة القرآن بالإضافة الى عطيهم كقضاة ، فكان أبو الدر

(٢٥٥) : الناوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٧٨ .

(٢٥٦) : الخولاني ، تاريخ داريا ، ص ٥٦ ، ١١٢ .

(٢٥٧) : ابن طولون ، الشفر البسام ، ص ٤ .

(٢٥٨) : الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ .

(٢٥٩) : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ .

(٢٦٠) : الخولاني ، تاريخ داريا ، ص ٦٨ ، الذهبي ، ج ٥ ، ص ٣٣١ .

(٢٦١) : الخولاني ، ص ٦٨ .

(٢٦٢) : تهذيب ، ج ٦ ، ص ٢٤٩ ، ابن حنبل ، المسند ، ج ٤ ، فقرة ٢٩٦٩ - ٢٩٧٠ .

كان القضاء باليمين مع الشاهد متبعا في حل قضايا الشراء والبيع وأشباهه ، وهذا
يدل على أن معظم القضايا الموكلة الى القضاة كانت بالدرجة الأولى متعلقة
بالمعاملات والأموال .

بقريء أهل دمشق وعالمهم ، (٢٦٣) ورأى يزيد بن عبيد بن أبي أدريس زمن عبد الملك
يتوسط حلق المسجد بدمشق ، يقرءون القرآن يدرسون جميعا ، وأبو أدريس جالس
إلى جنب المنبر ، فكلمت حلقه بآية سجدة ، بعثوا إليه يقرأ بها ، وانصتوا له
ويسجد بهم جميعا ، وربما سجد بهم اثنتي عشرة سجدة ، حتى إذا فرغوا من قراءتهم قسام
يقص . (٢٦٤) واتخذ أهل الشام عبد الله بن عامر قاضي دمشق بعد أبي أدريس أما ما في
قراءته ، (٢٦٥) وكان محمد بن عبد الله بن يزيد الأسدي قاضي دمشق في خلافة مروان بن
محمد ممن يحضر الناس دراسته في جامع دمشق . (٢٦٦)

وبينا نرى أن القضاة في الشام كان يعهد اليهم بامارة دمشق أو بالفرز ، وإن جهدهم
الأكبر كان موزعا بين القضاة وتفقيه الناس وتدريسهم ، نجد أن عددا من القضاة في الولايات
كان يجمع لهم القضاة والشرطة ، (٢٦٧) فكان أول قاض في مصر جمع له القضاة والشرطة
عائس بن سعيد البرادي من قبل الأمير مسلمة بن مخلد ، (٢٦٨) وجمع عبد العزيز بن مروان
لبرونس بن عطية القضاة والشرطة سنة ٨٤ هـ . (٢٦٩) كذلك كان أول قاض قضى طمس
المدينة في خلافة معاوية لمروان بن الحكم ، عبد الله بن نوفل ، وقد ضم منصب الشرطة
مع القضاة ، كما ضم مروان لمصعب بن عوف هذين المنصبين معا سنة ٥٣ هـ . (٢٧٠) وجمع
خالد بن عبد الله القسري ، الصلاة والقضاة والشرطة والأحداث ، لبلال بن أبي بردة ، (٢٧١)
أي أننا نجد حالات متعددة في الولايات من جمع مناصب القضاة والشرطة

(٢٦٣) : ابن طولون ، الثغر البسام ، ص ٢٠ .

(٢٦٤) : الذهبي ، ج ٤ ، ص ٢٧٢ .

(٢٦٥) : ابن طولون ، ص ٥٥ .

(٢٦٦) : المصدر السابق ، ص ١١ .

(٢٦٧) : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٨ .

(٢٦٨) : المصدر السابق ، ص ٢١٤ ، الكندي ، ص ٣١١ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ،

ج ١ ، ص ٤١٨ .

(٢٦٩) : الكندي ، ص ٣٢١ .

(٢٧٠) : وكيع ، ج ١ ، ص ١١٤ ، ١١٨ .

(٢٧١) : خليفة ، ج ٢ ، ص ٥٣٥ ، الطبري ، ج ٨ ، ص ٢٠٣ .

لشخص واحد، بينما لا نجد مثالا واحدا على ذلك في الشام، مما يشير إلى أن المهام التي كان يكلف بها القاضي في المركز كانت تختلف قليلا عن تلك التي تصهد إلى القضاة في الولايات، وقد رأينا كذلك أن مهام صاحب الشرطة في دمشق اختلفت عن تلك الموكلة إليه في الأمصار الأخرى.

كان القاضي في الاسلام يتولى جميع الاختصاصات التي تعرض عليه، ويطلب منه فصل الخصومة فيها سواء أكان الخلاف كما نقول بلفظة اليوم مدنيا أم جزائيا أم اداريا أم متعلقا بالأحوال الشخصية أم خلافا بين الجند أو غير ذلك، مما يمكن أن يعرض على القضاة، (٢٧٢). أي ليس في الاسلام ذلك التمييز بين ماهو مدني وماهو ديني، كما هو الأمر في الدولة البيزنطية حيث وجدت محاكم دينية وأخرى مدنية، وحيث لمب الأساقفة دورا كبيرا في القضاء. (٢٧٣).

نلاحظ أن القضاء في المسائل الجزائية كان من اختصاص الخلفاء والولاة في صدر الاسلام، وان كانت لا توجد في ذلك العصر حدود دقيقة واضحة بين الاختصاصات القضائية لكل من الولاة والقضاة، فنجد مثلا أن معاوية بن أبي سفيان كان أول من أمر بالنظر في الجراح إذ كتب إلى قاضيه سليم بن عتر في مصر يأمره بالنظر في الجراح، وأن يرفع ذلك إلى صاحب الديوان، فكان الرجل إذا أصيب فجح أتى القاضي وأحضر بينة على الذي جرحه، فيكتب القاضي بذلك الجرح قصته على عاقله الجراح، ويرفعها إلى صاحب الديوان، فاذا حضر العطاء، اقتص منه أعطيات مشيرة الجراح ماوجب للمجروح، وينجم ذلك في ثلاث سنين، فكان الأمر على ذلك، (٢٧٤) كذلك نقرأ في كتيب التراث أن فلانا تولى قضاء الأحداث، فقد جاء في أخبار وكيع أن عثمان عندما استخلف، أقر أبا موسى الأشعري على قضاء البصرة وأحداثها، (٢٧٥) وجاء في الطبري

(٢٧٢): ظافر القاسمي، نظام الحكم في الشريعة والاسلام، السلطة القضائية، الطبعة الأولى، ١٩٧٨، بيروت، ص ٢٥٥.

(٢٧٣): Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization P. 291.

(٢٧٤): الكندي، ص ٣٠٩.

(٢٧٥): وكيع، ج ١، ص ٢٨٣.

حين التحدث عن عمال عمر بن الخطاب أن عامل الكوفة عمار بن ياسر كان اليه الاحداث ، (٢٧٦)
وجميع خالد بن سديد القسري لبلال بن أبي هريرة القضاء والشرطة والاحداث ، (٢٧٧)
ويستخرج الاستاذ ظافر القاسمي بالاستناد الى نص يورده وكيع متملق بشريك قاضي المهدي مع
المثال الذي يتقدمه لسان العرب في حديث بني تميملة أن المراد من كلمة الأحداث ، الجرائم
الكبرى ، (٢٧٨) فاذا كان النظر في المسائل الجزائية قد أوكل أمرها الى القضاة في الأمصار
أحيانا ، فهل كان قاضي دمشق ينظر في هذه الأمور أم أنها تركت للخلفاء ؟ أغلب الظن
أن النظر في القضايا الجزائية بقي من اختصاص الخلفاء في الشام ، فعندما قتل خالد بن
السهلج ومولاه نافع ابن أثال النصراني ، أمر معاوية بضرب نافع مائة سوط وألزم بني مخزوم
دية ابن أثال اثني عشر ألف درهم ، (٢٧٩) وعندما طلب أسما بن خارجة الفزاري الس
عهد الملك بعد أن فرغ من قتال مصعب أن يقيد هم من حميد بن حربث بن محمد الكبي الذي كان
قد أوقع ببني فزارة ، أين معتلا أنهم كانوا في فتنة ، والفتنة كالجاهلية لا قود فيها وفرض لفزارة
الديات من أعطيات قضاة وحمير بالشام . (٢٨٠)

ليس بين أيدينا سجلات تساعدنا على معرفة نوع القضايا التي كان يتولى النظر فيها
قضاة الشام ، وان كان المرء يميل الى الاعتقاد أن القاضي في الشام كالقاضي في الولايات
الأخرى قد أضيفت اليه مهام أخرى بالاضافة الى الفصل بين الخصوم ، كاستيفاء بعض
الحقوق العامة للمسلمين ، بالنظر في أمر المحجور طيبهم من السجانين واليتامى ، والسفلسين
(٢٨١)

(٢٧٦) : الطبري ، ج ٤ ص ١٤٥ .

(٢٧٧) : الطبري ، ج ٨ ص ٢٠٣ ، خليفة ، ج ٢ ص ٥٣٥ .

(٢٧٨) : ظافر القاسمي ، السلطة القضائية ، ص ٢٥٧ .

(٢٧٩) : ابن أصبحة ، صيون الأبناء في طبقات الأطباء ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

(٢٨٠) : البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ٣١٠ .

(٢٨١) : الكندي ، ص ٣٢٥ ، ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٧٤٠ .

وفي وصايا المسلمين وأوقافهم ، (٢٨٢) والنظر في مصالح الطرقات والأبنية ، (٢٨٣)
وتصفح الشهود والأمناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ، ليحصل
له الوثوق بهم ، (٢٨٤) وكان قاضي دمشق بلال بن أبي الدرداء الأنصاري لا يضررب
شاهدا ، يزور بالسوط ولكن يوقفه بين عهد الدوح ويقول : " هذا شاهد زور فاعرفه " . (٢٨٥)
كان القاضي يجلس في المسجد ، (٢٨٦) أو في داره ، (٢٨٧) أو في السوق ،
ورحبا ركب وتجول في البلد فوقف حيث يطلب ، (٢٨٨) وقد كره الشافعية القضاء فسي
المسجد ، وكان لرأيهم في آخر الأمر بعض الأثر في غيرهم من أصحاب المذاهب ، فأخذ
القضاة يتحولون إلى رحاب المساجد ثم إلى المدارس أو إلى دور خاصة بالقضاة . (٢٨٩)
ونلاحظ في الواقع أن القضاة في أواخر العصر الأموي كانوا لا يقضون في المسجد ، فقد ورد عند
ابن طولون أن سالم بن عبدالله أبو عبيد المحاربي من قضاة دمشق كان يجلس عند باب
البريد ، وأن محمد بن عبدالله بن لبيد الذي ولي القضاء بعده في خلافة مروان بن محمد
الجمعي كان يقعد عند باب الساعات . (٢٩٠)

كان للقاضي كاتب يعاونه ويقوم بنفس الوقت بمهمة المساعد والمشير ، فقد كان مسلم
بن مشكم كاتب أبي الدرداء من التابعين ، روى عن أبي الدرداء ومداوينة

-
- (٢٨٢) : الكندي ، ص ٤٣٦ ، ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ، ص ٧٤٠ .
(٢٨٣) : ابن طولون ، الشجر البسام ، ص ٦ ، الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، ج ٥ ، ص ٢٩٢ .
ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ، ص ٧٤٠ .
(٢٨٤) : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ، ص ٧٤٠ .
(٢٨٥) : ابن طولون ، ص ٣ .
(٢٨٦) : عبد الحسي الكتاني ، الترتيب الادارية والمصالحات والصناعات . . .
فاس ١٣٤٩ هـ ، ص ٢٧٣ .
(٢٨٧) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٦ ، ص ١١٨ .
(٢٨٨) : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٩٥ .
(٢٨٩) : منبر المجلاني ، عمقيرة الاسلام في أصول الحكم ، الطبعة الأولى ، ص ٣٢٥ .
(٢٩٠) : ابن طولون ، ص ١٠ ، ١١٤ .

وزرى عنه عبد الله بن العلاء . (٢٩١) وكان كلثوم بن زياد الصعاري كاتباً لسليمان بن حبيب الصعاري ، (٢٩٢) وكان عمر بن يزيد النعمري كاتباً لعمير بن أوس قاضي دمشق في عهد سعيد هشام بن عبد الملك . (٢٩٣) وقد تترواح لنا أهدية الكاتب بالنسبة للقاضي من أن السجل عمن سعيد بن جبير كاتباً ووزيراً للقاضي أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، وأمره أن لا يقطع أمراً دونه ، (٢٩٤) ولا شك أنه كان هناك كتاب مهمتهم تدوين القضايا وتسجيلها ، إذ على القاضي أن يحسن الاستماع والتفكير والمقارنة والتحليل ، واستحضار النصوص وغير ذلك من الأحوال العقلية ومن الانتباه ، وعلى الكاتب أن يهتم بتدوين أقوال الطرفين والمشهود والقاضي ، ولا بد للكاتب من أن يتمتع بصفات منها العدالة ، كما يجب أن يكون عاقلاً وفقيراً ليعلم صحة ما يكتب من فساد ، وأن يكون نزيهاً بعيداً عن الطمع لئلا من أن يرتشى فيحابي ، (٢٩٥) وقد أورد فضالة بن الفضل أن كتاب يحيى بن ميمون الذي رتب القضاء سنة خمس ومائة في مصر كانوا لا يكتبون قضية إلا برشوة ، وأن يحيى كتم في ذلك فلم ينكره ، ثم كتم مرة بعد مرة ، فلم يميزل منهم أحداً من كتابته ، ثم لم يأت الخليفة هشام أن عزله . (٢٩٦)

كان القضاء يعتبر من الأعمال الشاقة والخطرة لما فيها من تحمل التبعيية فيما قد يخطئ به القاضي فيحكم على صاحب الحق فيظلمه ، وهو مسؤول عنه وهناك أحاديث كثيرة تشير إلى خطورة المسؤولية الطقاة على عاتق القاضي . (٢٩٧) وعند ما استعمل أبو الدرداء على القضاء في دمشق ، وأصبح الناس يهنتونه ، قال : اتهنئونني بالقضاء وقد جعلت على رأس مهواة ... ولو علم الناس ما في القضاء لأخذوه بالمدلول ، ورغبة

-
- (٢٩١) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٧ ، قسم ٢ ، ص ١٥٨ .
(٢٩٢) : عبد الجبار الخولاني ، تاريخ داريا ، ص ٤٢ .
(٢٩٣) : أبو زرعة ، تاريخ ، ج ١ ، ص ٣٧٣ .
(٢٩٤) : ابن قتيبة ، صيون الأخبار ، ج ١ ، ص ٦٢ ، البلاذري ، أنساب ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٣٩ .
(٢٩٥) : الماوردي ، أدب القاضي ، ج ٢ ، ص ٥٨ .
(٢٩٦) : الكندي ، ص ٣٤٠ .
(٢٩٧) : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ .

منه وكراهية له . (٢٩٨) وعند ما عزل عبد الملك أبا دريس من القصر وأقره على القضاء
قال : عزلوني من رغبتي وتكوني نبي رهيبي . (٢٩٩)

وكان بعض القضاة لا يأخذون على القضاة أجرا ، لأن القضاء نظم ، والمنملا يباع
وانما يتجرع به لوجه الله ، ويقال أن الوليد ألح على قاضي دمشق وزوجة بن ثوب ، حتى
أعطاه مزرعة مع خدمها وأكثها وعلف أنها من صلب مائه . فقال : اقبلها منك وأشهدك
أن ثلثا منها في سبيل الله والثلث الثاني لربما في قومي ومساكينهم ، والثلث الثالث لرجل
صالح يقوم عليها ويؤدى فيها ، ثم أنا أحب أن تأخذ مني ما أجريت علي من الرزق فأنه
في كوة النبيت فخذته فردته في بيت المال ، فقال له الوليد : ولم ذلك ؟ قال : لا أحب أن
أخذ على ما علمني الله أجرا . (٣٠٠) ومن خالد بن يعفر أن عبد الله بن يزيد بن خذامر
لم يقض على القضاء درهما ولا ديناراً . (٣٠١) ذلك ما كان ينفعله بعض القضاة ، أما القادة
فهو أن يكون للقاضي رزق يجرى عليه من بيت المال ليخرج من هم الصبيشة إلى هم القضاء . (٣٠٢)
وقد فرض عمر لشريح مائة درهم في الشهر . (٣٠٣) ويقال ان طبا رزق شريحا خمسمائة درهم (٣٠٤)
وعند ما حاول زياد بن أبيه أن يزيد في رزقه أبي ، فاقترح أن يوليه عملاً يجرى عليه رزقه
فقبل ، فولاه بيت المال وأجرى عليه ألفاً ، (٣٠٥) كما رزق ابن حجرية الأكبر في مصر من
القضاء مائتي دينار في السنة ، (٣٠٦) وفي رفع الأصر وثيقة أموية جاء فيها : وجدت في
ديوان مروان بن محمد ورقة فيها ، بسم الله الرحمن الرحيم : " من عيسى بن أبي
عطاء إلى خزان بيت المال ، فأعطوا عبد الرحمن بن سالم القاضي رزقه لشهر ربيع الأول
وشهر ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين ومائة عشرين ديناراً ، واكتبوا بذلك برائة . كتبت

(٢٩٨) : ابن سعد ، ج ٧ ، قسم ٢ ص ١١٧ .

(٢٩٩) : عبد الجبار الخولاني ، تاريخ داريا ، ص ٥٦ .

(٣٠٠) : ابن طولون ، ص ٧٦٦ .

(٣٠١) : الكندي ، ص ٣٣٩ .

(٣٠٢) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ٢٢٢ .

(٣٠٣) : الطرطوشي ، سراج الطوك ، ص ١١٦ .

(٣٠٤) : ابن سعد ، ج ٦ ص ٩٥ .

(٣٠٥) : البلاذري ، انساب ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٢٠٥ .

(٣٠٦) : الكندي ، ص ٣١٧ ، ابن عبد الحكم ، فتح مصر ، ص ٢٥٣ .

يوم الأربعاء للماتين خلنا من شهر ربيع الأول* ، (٣٠٧) أى أن رزق ذلك القاضى كان عشرة دنانير في الشهر ، بونما نجد أن عمر بن عبد العزيز عندما هو من أميراً طلمسى المدينة أمر رجلاً يقضي بين الناس ، فأجرى له في الشهر دينارين ، (٣٠٨) مما يستدل على أن أرزاق القضاة كانت تختلف وفقاً للأعمار وأهميتها والمهام التي توكل إلى القاضى . إلى جانب هؤلاء الموظفين الذين كانت لهم أهميتهم في إدارة شؤون الدولة كان هنالك بالطبع الخزان والجباة وعمال الصدقة والعرفاء وولاة المقاسم وغيرهم . وقد أخذ عدد الموظفين يزداد نتيجة للحاجة الطمعة الحاصلة من تطور المجتمع ومن تمعد الإدارة ، وكلما ازدادت إدارة الدولة تعقيداً كلما ازداد عدد الموظفين ، وتعددت صلاحياتهم وهذا يتضح عندما ترى ذلك التدرج في ازدياد عدد الدواوين في الدولة ، ابتداءً من العهد الراشدى حتى نهاية العصر الأموى .

دواوين الدولة في الشام :

أتيح للأمويين من الاتصال بالفرس والبيزنطيين أكثر مما أتيح للراشدين ، فاتسعت في عصرهم مرافق الدولة ، واحتاجت إلى دواوين جديدة تنظم ادارتها وتساعد الخليفة في الواجبات المعقدة التي فرضها السلم ، وهذه الدواوين عبارة عن دوائر رسمية أو وزارات حسب المفهوم الحديث . (٣٠٩) وبينما يذكر المؤرخون العرب الديوان بشكل عام في خلافة عمرو عثمان وعلي ، كذكرهم لديوان المدينة أو الكوفة أو البصرة ، نلاحظ ابتداءً من خلافة معاوية بن أبي سفيان تأسيس دواوين ، لكل ديوان اختصاصاته ، (٣١٠) ولم تثبت أن تفرقت عنها دواوين أخرى بزيادة الحاجة إلى الاختصاص والتنظيم الإدارى ، وهنا يجب أن نشير

(٣٠٧) : طاهر القاسمى ، السلطة القضائية ، ص ٢١٢ .

(٣٠٨) : وكيع ، ج ١ ، ص ١٣٤ .

(٣٠٩) : Levy. Op. Cit. P. 298.

(٣١٠) : الجبهشيارى ، ص ٤٧ .

الى أن الداوين بمعنى السجلات كانت كلها حتى عهد خالد بن برمك صحفاً درجة فجلها
د فاطر. (٣١١)

ومنذ أن أسس عمر بن الخطاب ديوانه في المدينة ، وجد في الكوفة والبحرة والشام
ومصر ديوانان ، أحدهما بالعربية لاحتصاء الناس وأهليانهم ، والآخر لوجوه الأموال بالنارسية
بالمراق ، وبالرومية في الشام ، والقبطية في مصر. (٣١٢)

ديوان الخراج :

كان هذا الديوان من أهم ديوان الدولة ، لأنه مصدر جميع الأموال للأقاليم والدولة ،
وقد استطاع معاوية بمعاونة زياد بن أبيه في الحشرق ، وسرجون بن منصور في الشام ، وانثناس
في مصر أن ينشئ وزارة حقيقية للحالية كما نفيسها بالوقت الحاضر. (٣١٣) ومعاوية هو أول
من أمر بتسجيل أو حفظ سجلات بمقادير الجزية والخراج لكل منطقة أو إقليم ، وميز تميزاً واضحاً
بين دخل أرض الخراج ودخل الصواني ، وأنشأ مبدأ وضع الصواني عموماً تحت سلطة البيست
الحاكم. (٣١٤)

اتبع خلفاء بني أمية القاعدة التي سار عليها الفرس ، بتسجيل كل ما يرد في ديوان
الخراج ، (٣١٥) فكان يسجل في ديوان الخراج كل ما يرد من أموال النبي ، كما كان يسجل
في ديوان الخراج مساحات الأراضي الخراجية ، وكذلك من في كل بلد من أهل الذمة ،
وما استقر عليهم في عقد الجزية ، فان كانت مختلفة باليسار والاعسار سموها في الديوان
مع ذكر عدد هم ليختبر حال يسارهم واعسارهم ، وان لم تختلف في اليسار والاعسار
جاء الاقتصار على ذكر عدد هم ، ووجب مراعاتهم في كل عام لتثبيت من بلغ واستقطب من
دخل في الاسلام أو من مات. (٣١٦) كما أن كل أرض خراجية اذا تحولت الى مشربة ،
يثبت ذلك في الديوان حتى يسقط الخراج من تلك الأراضي ومن أهل قراهم. (٣١٧)

(٣١١) : أبو هلال العسكري ، الأوائل ، ج ٢ ، ص ٩١ .

(٣١٢) : الجبهشيارى ، ص ٣٨ ، الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ٢٠٢ ، المقرئى ، الخطط ،
ج ١ ، ص ١٨١ .

(٣١٣) : Irving Washington, Lives of The Successors of Mohammet :
London, 1859 Vol. II P. 487.

(٣١٤) : D. Dennette, Poll Tax in Early Islam, Cambridge, 1950,
P. 64 .

(٣١٥) : الجبهشيارى ، ص ٣ .

(٣١٦) : الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ٢٨ .

(٣١٧) : ابن عساکر ، تاريخ دمشق ، المجلد الاول ، ص ٥٩٦ .

عندما تولى معاوية الخلافة كان العرف السائد أن ينفق على أمور الولاية ممظم ما اجتبي منها ، وكانت بعض الولايات تتمتع باستقلال ذاتي كامل من الناحية الطائفية ، ولم يهكسب أمام معاوية من دخل يعتمد عليه سوى دخل الشام ، ولذلك أمر أن تسبغ كل ولاية بإرسال الفاضل إلى بيت المال بدمشق ، (٣١٨) وكان ديوان الخراج في الحماق من أشهر الدواوين في الدول كما كان يدره سواد الحماق من أموال خراجية اعتدت عليها الخلافة الأموية فسي توطيد سلطانها ، فقد قال معاوية : " للشام رجال العراق وأموالها " (٣١٩) وأبى عبد الملك إلا الخروج لقتال مصعب بن الزبير بنفسه قائلا : " الشام بلد قليل المال ولا آمن نفاذه " (٣٢٠) كان في دمشق ديوان مركزي للخراج ، كما وجدت دواوين الطيفية ، مقرها حواسر الولايات ، وكان الديوان المركزي في دمشق يضم على الأرجح دواوين خراج قنصرين وعمص وفلسطين والأردن كذلك ، يذكر الجهمشيارى أنه كان يكتب لمعاوية على ديوان خراج حمص ابن أثال النصراني وأن مهاجر بن عبد الرحمن بن خالد قتل ابن أثال عند ما خرج من ديوانه في دمشق . (٣٢١) وكان يتولى شؤون الخراج في الشام كما هو الأمر في الحماق وعمص وخراسان موظفون من أبناء المنطقة يتننون /بالإضافة إلى السامم بالعربية ، ويشرف على أولئك الموظفين رئيس يعرف بكتاب الخراج أو صاحب الخراج ، ويستج بعنزة طائفة لى الخليفة والأمراء ، وقد اشتهر في الشام سرجون بن منصور الرومي الذي كان مسو ولا عمن دواوين الخراج كلها بالشام . (٣٢٢) ثم أصبح ابنه منصور المتولي لأمر الخراج ، حتى نقل سليمان بن سعد كاتب الرسائل الديوان إلى العربية ، وذلك عند ما

-
- (٣١٨) : ابن الأعمش ، فتوح ، ج ٤ ص ١٨١ ، الطبرى ، ج ٥ ص ٤٠٣ ، ٥٠٩ ، ج ٦ ، ص ٤٣ ، ٤٤ ، ١٠٥ ، ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٠٢ ، المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٤٥ ، ساويرس ، ج ٥ ، ص ١٨٩ .
- (٣١٩) : ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ١ ، ص ٦٣ .
- (٣٢٠) : البلاذرى ، أنساب ، ج ٥ ص ٣٣٥ .
- (٣٢١) : الجهمشيارى ، ص ٢٨ ، ابن أبى أصيعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص ١٧٣ ، ١٧٤ .
- (٣٢٢) : خليفة بن خياط ، ج ١ ص ٢٧٦ ، المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ١٨٢ .
- (٣٢٣) : الجهمشيارى ، ص ٣١ ، المقرئى ، الخطط ، ج ١ ص ١٨٢ .

رأى عبد الملك بن مروان من منصور تونانيا ، وولاه عبد الملك جميع دواوين الشام ولم يزل
سلطان بن سعد على ذلك حتى خلافة عمر بن عبد العزيز ، (٣٢٤) ويتتبع دواوين
الخراج أجمع بما كان المنهية أن يشرف اشرفا ، باشرا ، هذا الديوان الهام . (٣٢٥)
وتبرز هشام بن عبد الملك ، يتشدده أكثر من غيره بأموال الأموال ، ورجوه صرفه ودقة دواوينه ، إذ
يذكر عبد الله بن طي ، " جمعت بين دواوين بني مروان ، فلم أر ديوانا أصح ولا أصلح من
ديوان هشام في أمر الخاصة والحامة والسلطان " ، (٣٢٦) وكان هشام يراقب بنفسه هذه
الدواوين ومجالات صرف الأقطيات ، فيذكر غسان بن عبد الحميد : " لم يكن أحد من بني
مروان أشد نظرا في أموره وأصحابه ودواوينه ولا أشد مبالغة في الفحص عنهم من هشام " . (٣٢٧)

ديوان الصدقات :

وهو الديوان الذي كان يتم فيه تسجيل ما يدفعه المسلمون من زكاة ظاهرة ، كالزكاة
من الزرع والثمار والمواشي ، (٣٢٨) وما يؤخذ من مال تجارتهم وهو ربع العشر من النصاب ،
واسم هذا الديوان مأخوذ من آية الصدقات في قوله تعالى : " إنما الصدقات للفقراء
والساكنين . . . " . (٣٣٠) ويقول الفقه شندي : " إذ اصح ما ذكره القاضي في تاريخه " عيون
المعارف " بأن الزبير بن العوام وجهيم بن الصلت كانا يكتبان المنهي أموال الصدقات ،
أمكننا القول بأن هذا الديوان قد وضع في زمنه . (٣٣١)

وما أن أرض الشام كان منها ما هو خراجي ، ومنها ما هو عشري ، كان لا بد من
تفصيل ما كان منه عشرا في ديوان العشر ، وما كان منه خراجا في ديوان الخراج ، (٣٣٢)
إذ أن الأراضي التي رفضها أهلها فأقطعت للعرب والتي أسلم عليها أهلها

(٣٢٤) : الصولي ، أدب الكاتب ، تحقيق محمد بهجت الأثرى ، المطبعة السلفية ، القاهرة

١٣٤١ هـ ، ص ١٩٣ .

(٣٢٥) : الأزدي ، تاريخ الموصل ، ص ٢١ .

(٣٢٦) : الطبري ، ج ٧ ، ص ٢٠٣ .

(٣٢٧) : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٠٣ .

(٣٢٨) : الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١١٣ .

(٣٢٩) : أبو عبيد ، الأموال ، ص ١٦ .

(٣٣٠) : سورة التوبة ، آية ٦١ .

(٣٣١) : الفقه شندي ، ج ١ ، ص ٩١ .

(٣٣٢) : الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٢٠٧ .

وأرض الموات التي أحياها المسلمون اعتبرت أراضي عشيرة ، (٣٣٣) وكان يسجل في الديوان نوع الرزق وحال سقيه ببيع أو في الدائرة لا اختلاف حكمه ليستثنى بموجبيه ، (٣٣٤) ولا بد لجمع مال الصدقة من مال ، انه لا يجوز أن يتولاها عمال الخراج ، ولعمال الصدقة رزقهم من مال الصدقة طى أن لا يستغرق أكثر الصدقة ، (٣٣٥) وقد عين الرسول منذ البدء عمالا على الصدقات على كل قبيلة أو قبيلتين عامل ، (٣٣٦) وكانت الزكاة تؤخذ في خلافة الراشدين من المسلمين السجلين في العطاء ، (٣٣٧) وكذلك فعل معاوية الذي سن أخذ الزكاة من الأقطبية . (٣٣٨) أما بالنسبة للميمنية فكان عامل الصدقة يحمل كتاب أمير المؤمنين وعهد إلى القبيلة التي سيجبى صدقاتها ، ويضرب الفسطاط ، ويدخل أفراد القبيلة لدفع صدقاتهم . (٣٣٩) بينما يرد عند ابن عساکر أنه كان لكل قوم صنف منهم يجمع الصدقات من أموالهم ، وأغلب الظن أن الرواية الأولى تنطبق على القبائل في البادية بينما تنطبق الثانية على المقيمين في المدن والحاضرة .

ديوان الجند :

هو نفس الديوان الذي أسسه عمر بن الخطاب لتسديد الديارات لجميع العرب والجنود الاسلامي ، (٣٤١) وكان يعرف باسم الديوان ، لأنه لم يكن يوجد غيره ، ولم يحتاجوا إلى تمييزه بلفظ آخر يضاف إليه ، وقد وجدت دواوين للجند منذ البدء في مراكز

-
- (٣٣٣) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٨٤ ، باقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٤٥ .
 - (٣٣٤) : الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ٢٠٧ .
 - (٣٣٥) : ابو يوسف ، الخراج ، ص ٩٥ .
 - (٣٣٦) : البلاذري ، أنساب ، ج ١ ص ٥٣٠ .
 - (٣٣٧) : ابو حنيفة ، الاموال ، ص ٣٥٩ .
 - (٣٣٨) : اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ص ٢٠٧ .
 - (٣٣٩) : البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ٣١٠ ، الأغاني ، ج ١٢ ، ص ٢٠١ .
 - (٣٤٠) : تهذيب ، ج ٦ ، ص ١١٧ .
 - (٣٤١) : مولوى حسيني ، الادارة الاسلامية ، ص ١٦٨ ، منير الصجلاني ، عبقرية الاسلام في أصول الحكم ، ص ٢٩٢ .

الاتالميم كذلك ، وكان المقاتلة في الشام يسجلون حسب مكان انتمهم ، فكان لكل جنس مقاتلة الذين يأخذون أهلياتهم من مراكز أجنادهم ، ويتم تسجيل المقاتلة وفقسالاتهم ، وان كانوا عسكرا لا يجتسبون على نسب أجدادهم ، أحيانا يدورون توبة من القبائل ويختارونهم ، فعندما دون عمر الدواوين في الشام ، سأل بلال عمر أن يجعل ديوانه مع أبي ربيعة العنسي ، وقال : فاني غير منارته أبدا ، فقد آخى رسول الله (سلم) بني وبينه ، فضم ديوان العنسي الى خشم ، فلم يبدق بالشام حبشي الا صار ديوانه مع خشم . (٣٤٢) كما أن الخليفة عمر كان يحاول قدر الامكان عند التسجيل أن لا يفرق بين الولد وأبيه ، فقد أهلى السبط بن الأسود الكندي بالشام ، وكان ابنه شرحبيل بن السبط بالكوفة ، فعزل عمر شرحبيل الى الشام فنزل حمص مع أبيه ، (٣٤٣) وما أن التسجيل في الديوان يعني للشخص الإقامة في البلد الذي به ديوانه ، فان الأمويين كانوا لا يفرضون بكر بن وائل ولتهم ديوان الشام مغافة استقرارها في الشام ، (٣٤٤) ولذا نجد عهد انطك يرفض نقل اسم شبيب بن يزيد الشيباني من ديوان الجند في الكوفة الى ديوان الجند نسبي الشام ، غونا بن أن يكثر المنتسبون الى بكر وتم فيها . (٣٤٥) وعندما يتوفى الشخص المسجل في ديوان المطاء ، كانت وفاته تسجل ازا اسمه وذلك لرفع العطاء عنه أو تحويله الى ورثته ، فقد روى يزيد بن عدي ، قال : قرأت في ديوان المطاء ، مات خالد بن معدان سنة أربع ومائة ، ومات عبد الأعلى بن عدي سنة أربع ومائة . (٣٤٦) وهكذا نرى أن الدواوين كانت لها أهميتها في التكوين الاجتماعي ، ان أنها تحوى السجلات الرسمية التي حفظ العرب بها أنسابهم بالاضافة الى أهميتها في مدنا بمعلومات عن التنظيم المالي للمقاتلة .

(٣٤٢) : البلاذري ، أنساب ، ج ١ ص ١٩٢ .

(٣٤٣) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٣ .

(٣٤٤) : بطال محمد داود محمد جوده ، الحرب والأرض في العراق في صدر الاسلام ،

رسالة ماجستير منسوخة ، بإشراف الدكتور عبد العزيز الدوري ، ١٩٧٧ ، ص ١٧٤ ،

البلاذري ، أنساب ، القسم الثاني من نسخة استانبول ، السليمانية ، رقم ٥٩٧ ،

ص ٥٩٨ ، ص ٨٩ .

(٣٤٥) : احسان صدقي الصمد ، الحجاج بن يوسف الثقفي ، حياته وآراؤه السياسية ، دار

الثقافة ، بيروت ١٩٧٣ ، ص ٤١٣ ، البلاذري ، أنساب ، ج ٧ ، ص ٨٩ .

(٣٤٦) : أبو زينة ، تاريخ ، ج ١ ص ٢٤٣ . وقد توفي يزيد بن عدي سنة ٢٢٤ هـ ، وهذا دليل على أن السجلات القديمة كانت لا تزال موجودة في أوائل القرن الثالث الهجري .

لا بد أن نشير أثناء الكلام من ديوان الجند في الشام إلى ديوان الذراري بالرغم من أن هذا الاسم لا يرد صراحة إلا فيما يتعلق بالعراق في عهد زياد بن أبيه و عهد الله بن زياد ، ففي خطبة عهد الله حين جاءه نواب موت يزيد بن معاوية يقول : " لقد وليتكم وما أحصي في ديوان مقاتلتكم إلا أربعين ألفاً ولا في ديوان هيالاتكم إلا سبعون ألفاً ، ولقد أحصي إلى اليوم في ديوانكم ثمانون ألف مقاتل وفي ديوان هيالاتكم مائة وعشرون ألفاً " . (٢٤٧) أي يمكن القول أن ديوان المعطاء الذي أوجده عمر بن الخطاب انقسم إلى ديوان للجند وديوان للذراري ، فكان ديوان الجند يضم أسماء المقاتلة ومقدار أعطياتهم وكان مكاتبهم ، ويسجل في ديوان الذراري الأفراد الذين يحق لهم المعطاء من طائفة المقاتل ، لأننا نستطيع أن نستنتج من النص الذي أورده البلاذري أن السفينيين لم يفرضوا المعطاء لجميع ذراري المقاتلة ، فقد ذكر عهد الله أن عدد المقاتلة في البصرة كانوا ثمانين ألفاً وذراريهم مائة وعشرين ألفاً وأن مقاتلة الكوفة كانوا ستين ألفاً وذراريهم ثمانين ألفاً ، (٢٤٨) ومن المتوقع أن يكن لهؤلاء المقاتلة ذراري أكثر من هذه الأعداد ، مما يؤكد أن التسجيل اقتصر على ميل أو اثنين ، أي أن الأمر الأمر اختلف في عهد السفينيين عما كان متبعاً في العهد الراشدي عندما فرض عمر النساء والذرية في المعطاء . (٢٤٩)

وبعد أن كان عمر قد فرض مائة درهم للأولاد سوا الذكر أو الانثى بمعد الفطام ، (٢٥٠) لم يلبث أن قرر فرض المعطاء للمولود حال ولادته عندما تبين له أن الكثيرين يهضمون أولادهم قبل الموعد المحدد كي يستحقوا المعطاء مكرماً ، (٢٥١) ويذكر البلاذري أن معاوية طبق نظم عمر بن الخطاب في المعطاء ، إلا أنه فرض للفطيم دون المولود ،

(٢٤٧) : البلاذري ، أنساب ج ٤ قسم ١ ص ١٩٠ ، ج ٤ ، قسم ٢ ص ١١٦ ، فتوح ص ٣٤٤ ، ٢٤٥ .

(٢٤٨) : المصدر السابق ، ج ٤ ، قسم ١ ، ص ١٩٠ ، ج ٤ ، قسم ٢ ص ١١٦ .

(٢٤٩) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٦١٤ ، ٦١٥ ، المقرئ ، الخطط ، ج ١ ص ١٧١ .

(٢٥٠) : البلاذري ، فتوح ، ص ٤٤٥ ، الطبري ، ج ٣ ، ص ٦١٥ ، ج ٤ ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٢٥١) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٣ ، قسم ١ ص ٢١٥ ، البلاذري ، فتوح ، ص ٤٤٥ .

فلما تولى عبد الملك قطيع ذلك كله إلا هتمن شاء ، (٣٥٢) فيذكر أبو صنف أنه لما جاء أبو الجهم بن كنانة برأس قطوى بن الشبابة الشاربي إلى عبد الملك ، أنصق في أفهين وأسطي فطيحا . (٣٥٣) ولكن يبدو أن وضع أشل الشام كان أفضل من وضع أهل السراق فيما يتعلق بعطاء الذراوى ، إذ أننا نجد عبد الملك يمرض على أهل السراق مقابل تراجعهم عن موقفهم مع ابن الأشعث بالإضافة إلى عزل الحجاج ، أن يجرى عليهم أهلياً تهم وأهلياً ذراوى كما تجرى على أهل الشام ، (٣٥٤) وفي هذا دلالة على أن عطاء الذرية بقي مستمرا في الشام في خلافة عبد الملك ، وأن بقي الصدا الذي سار نظيمه مساوية في فرض العطاء للفظيم دون المولود هو السطيق ، لأننا نرى عمر بن عبد العزيز يورد فيفرض لكل نفوس ديناراً . (٣٥٥) ويورد الطبرى رواية عن المجاشعي يذكر أن عمر بن عبد العزيز طلب منه أن يقرع بمن ذراوى الرجال الذين في السطايا ، فن أصابته القرعة جعله في الحائفة ، ومن لم تصبه القرعة جعله في الأرمحين ، (٣٥٦) أى أنه جعل السطيا لكل الذرية ولكن بنسب مختلفة ، ومن ياتحق بعد ذلك بيدوان الجند يعطى عطاء المتانلة ، ويبدو أن ولاية بني أمية كانوا أحيانا يفرضون لابن أربع عشرة سنة في القتال ، فضع عمر بن عبد العزيز في كتابه إلى الممال أن يفرضوا لابن أربع عشرة سنة في القتال وأن يفرضوا لابن خمس عشرة سنة . (٣٥٧)

استمر عطاء الذرية أيام هشام بن عبد الملك ، إلا أنه اتبع سياسة

(٣٥٢) : البلاذرى ، فتوح ، ص ٤٤٥ .

(٣٥٣) : الطبرى ، ج ٦ ، ص ٣١٠ .

(٣٥٤) : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٢٤٧ ، مؤلف مجهول ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢٨٤ .

(٣٥٥) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ٢٥٥ .

(٣٥٦) : الطبرى ، ج ٦ ، ص ٥٢٠ .

(٣٥٧) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ٢٥٨ .

السفيايين في عدم الحاق كل الذرية في العطاء ، فقد بين نصر بن سيار بن حصين
دوقف الخليفة منه " وزيد في عطاءك ، وفرض لأهل بيتك وبلغت الدرجة الرفيعة " . (٣٥٨)
ووند طيا ، بن منظور النيثي على هشام بن عبد الملك فأشده شعرا ، فأمره بنمسائة
درهم وألحق له عيلا في العطاء ، (٣٥٩) ووند ما دخل مروان بن محمد دمشق أسير
للسنائة بالعطاء وقد هم وقت هربهم ، (٣٦٠) وكان لا بد من القسام باحصاء بين الحين
والآخر ، لأن الناس في كثير من الأحيان كانوا يكتبون موتاهم ، وهذا ما دفع
عسر بن عبد العزيز الى أن يرسل كتابا يقرأ على الناس : " انه لا يحل لكم أن تأخذوا
لموتاكم ، فافرحوهم اليها واكتبوا لنا كل نفوس نفرض له " . (٣٦١) وكان لا بد من ارسال
موظفين خاصين بين الثرة والأخرى من المركز الى الأنصار للتحقيق من عدم تلاعب العرفاء
الذين كان يوكل اليهم ابلاغ الديوان من كل تغيير يحدث ضمن القبيلة . (٣٦٢)

ديوان الرسائل :

كان لهذا الديوان كما كان للديوانين السابقة فروع في الولايات ، ولكن العلاقة
بين هذا الديوان وفروعه كشفت عن تفوق الديوان المركزي وعظمة نشاطه
واتساعه ، يقول القلقشندي عن هذا الديوان الذي سماه ديوان الانشاء :
" لم يكن لديوان الانشاء بالديار المصرية في هذه المدة صرف عناية تقاصرا عن التشبيه
بديوان الخلافة ، ان كانت الخلافة يومئذ في غاية العز ورفعة السلطان
ونهاية مصر بل سائر النيابات مضمحلة في جانبها ، والولايات الصادرة عن النواب في نياباتهم

(٣٥٨) : الطبري ، ج ٧ ، ص ١٢٥ .

(٣٥٩) : المصدر السابق ، ج ٧ ، ص ٢٠٦ .

(٣٦٠) : الازدي ، تاريخ الموصل ، ص ٦٥ .

(٣٦١) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ٢٥٥ .

(٣٦٢) : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٥٤ ، مصعب الزبيرى ، نسب قرين ، تحقيق

ليفى بروفنسال ، ص ١٥٤ ، الحقيزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٢٤ .

منصافرة متضاغة بالنسبة الى ما يصدر من أبواب الخلافة ، ولذلك لم يقع مآكثب منها
ما تتوافر الدواعي على نقله ولا تنصرف المهم الى تدوينه " . (٣٦٣)

ولعل ديوان الرسائل هو أول ديوان وضع في الاسلام ، ذلك أن النيسابوري

(صلعم) استعمل كتابا يكتبون عنه الى أمراء وأصحاب سراياه ، والى من قرب من طبرك

الأرض يدعوسم الى الاسلام ، كما كتبوا له اليهود والاقطاعات والامانات الى غير ذلك ،

فهو " لا " وان لم يطلق عليهم اسم الديوان ، فقد كانوا يتسببون بشي " من ممتلكات ديوان

الرسائل . (٣٦٤) فلما جاء العصر الأموي ، برز اسم ديوان الرسائل كديوان له اختصاصاته ،

يتولى المكاتبات في الدولة ، ولا سيما اصدار النشرات والرسائل التي تشتغل على التسليمات

الصادرة للولاة وللرعايا عامة . (٣٦٥) وكان الخلفاء في العهد الراشدي والأموي يختارون

للمنصب " صاحب ديوان الرسائل " من يثقون بأمانتهم واخلاصهم من خاصتهم أو من عظام

القبائل ، فلما فسد اللسان وصارت الكتابة صناعة أصبحت هذه المهمة تسند الى من يحسن

الكتابة . (٣٦٦) وكانت المراسلات السياسية والادارية في عهد الخلفاء الراشدين قصيرة

جدا ومقتصرة على ما يراد منها ، واستمر الأمر كذلك في الدولة الأموية الى أن ولي الوليد

بن عبد الملك " فجوّد القراطيس وجلل الخطوط وفخّس المكاتبات " . (٣٦٧) وكان يأمر أن

تكون كتبه والكتب اليه خلاف كتب الناس بعضهم الى بعض ، وجرى الأمر على سنة الوليد بن

عبد الملك ، باستثناء فترة خلافة عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد ، الى أن صار الأسر

الى مروان بن محمد ، وكتب له عبد الحميد بن يحيى فأطال الكتب وأطنب بها . (٣٦٨)

(٣٦٣) : القلقشندي ، ج ١ ص ٣٨ .

(٣٦٤) : المصدر السابق ، ج ١ ص ٩١ .

(٣٦٥) : بولدرى حسني ، الادارة العربية ، ص ١٦٨ .

(٣٦٦) : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ١ ص ٧٨٨ .

(٣٦٧) : القلقشندي ، ج ٦ ص ٣٩١ .

(٣٦٨) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٣٩١ .

ديوان الخاتم :

من الدواوين التي ظهرت في العصر الأموي ، ديوان الخاتم ، وكان معاوية
أول من اتخذ ديوان خاتم ، (٣٦٩) لضبط المعاملات الحالية وصيانة الوثائق الهامة ، (٣٧٠)
وأنشأ الخليفة معاوية هذا الديوان بعد أن اكتشف تزويراً في أمر مالي يمت به إلى والسي
العراق ، فصار ديوان الخاتم يتولى تسجيل الأوامر الصادرة عن الخلافة ، ثم ختم الأصل
والرسالة ، ولم يكن السواد من الختم أن يوضع في أدنى الرسالة ، وإنما كانت الرسالة
تطوى ويلصق طرفها بالشمع والطين الأحمر الذي يطبع عليه وهو طوى خاتم الخلافة ، ويترك
حتى يجف ، فإذا فتحت الرسالة قبل أن تصل إلى مرجعها عرف ذلك ، إذ لا سهيل إلى
فتحها إلا بتزويق الخاتم . (٣٧١) وكان لكل خليفة نقش خاص لخاتمه ، فكان نقش خاتم
معاوية " لا قوة إلا بالله " ، ونقش خاتم عبد الملك بن مروان " آمنت بالله مخلصاً ، أما خاتم
الوليد فكان نقشه " يوليد أنت ميت " ونقش خاتم عمر بن عبد العزيز " لكل عمل شراب " ،
ونقش خاتم هشام بن عبد الملك " الحكم للحكيم " . (٣٧٢)

لم يقتصر حفظ النسخ الإدارية وختم الأوامر قبل إصدارها على الحكومة المركزية
وحدها ، وإنما اتبع الولاة نفس الطريقة ، وإن كانت الروايات التي بين أيدينا متعلقة
بالعراق فقط ، فقد اعتاد زياد أن يحفظ نسخاً من جميع أوامره ، وعن المدائني أن زياد
بن أبي سفيان كان أول من اتخذ من العرب ديوان زمام وخاتم امتتالا لما كانت الفرس
تفعله . (٣٧٣) وكان خلفاء بني أمية لا يولون ديوان الخاتم إلا أوثق الناس عندهم . (٣٧٤)
وكان ديوان الخاتم يمتد من الدواوين الهامة في الدولة ، واستمر هذا الديوان
إلى أواسط الدولة العباسية ، (٣٧٥) وسما يشير إلى أهميته ، أن كل أمر من الفلانة يمنح

(٣٦٩) : الطبري ، ج ٥ ص ٣٣٠ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢١٦ .

(٣٧٠) : مولوى حسيني ، الإدارة العربية ، ص ١٦٩ .

(٣٧١) : ضير الصجلاني ، ص ٣٠٢ .

(٣٧٢) : السعدي ، التنبيه والاشراف ، ص ٢٦٢ - ٢٧٢ .

(٣٧٣) : البلاذري ، فتوح ، ص ٤٥٠ ، أنساب الأشراف ، ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ١٧٦ ، وقد كان

للأكاسرة أربعة خواتيم ، فكان على خاتم الحرب والشرط . " الأناة " وعلى خاتم

الخراج والمطارة " التأييد " ، وعلى خاتم البريد " الوعاء " (المجلة والاسراع) ،

وعلى خاتم المظالم " العدل " الجبهشباري ، ص ٢ .

(٣٧٤) : الصولي ، أدب الكاتب ، ص ١٤١ .

(٣٧٥) : ابن طباطبا ، ص ٧٩ .

مال أو اقطاع يدور في الدواوين حتى ينتهي الى ديوان الخاتم ، وكان سليمان بن عبد الملك قد أمر لعنيسة بن سعيد بن العاص بمشرفين ألف دينار ، فدارت في الدواوين حتى انتهت الى ديوان الخاتم ، فلم يبق الا قبضها ، فتوفي سليمان قبل أن يقبضها ، فوفد عمر بن عبد العزيز أن يدفعها له ، وقال : " عشرون ألف دينار تخفي أربعة آلاف بيت من المسلمين وأدفعها الى رجل واحد " . (٣٧٦)

ديوان البريد :

الى جانب ديوان الخاتم ظهر ديوان البريد في العصر الأموي ، أنشأه معاوية بن أبي سفيان عندما استقرت له الخلافة لكي تسرع اليه أخبار بلاده من جميع أطرافها ، ونظرا لاهتمامه على دهاقين من الفرس وأهل أعمال الروم في تنظيم البريد ، (٣٧٧) اختلف في كلمة البريد ، فيرى بعض المستشرقين أن كلمة بريد مأخوذة من اللاتينية فيريسدوس (VERRIDUS) وهو حصان البريد ، (٣٧٨) وهو حصان البريد ، (٣٧٨) بينما يرى البعض الآخر أن الكلمة فارسية معربة وأصلها الفارسي " بريد ديم " (٣٧٩) ومعناها مقصود الذئب ، لأن الفرس كانوا يستخدمون في نقل البريد دوابها مقصوصة الذئب تميزا لها عن غيرها من الدواب ، وقيل ان البريد كلمة عربية مشتقة من برد ، بمعنى أرسل ، وكان البريد يطلق كذلك على الرسول . (٣٨٠) ولما كانت مهمة البريد الأولى وصول الأخبار بسرعة كانت أهم معالمه انشاء محطات للبريد (٣٨١) تصل المركز بكل الولايات المرتبطة به ،

(٣٧٦) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٤٩ .

(٣٧٧) : القلقشندي ، ج ١٤ ص ٣٦٧ ، السيوطي ، تاريخ الخلفاء ، ص ٢١٩ .

(٣٧٨) : LEVY . P. 299 , E. I., ART., BARID.

(٣٧٩) : القلقشندي ، ج ١٤ ص ٣٦٧ ، لسان العرب ، طبعة ١٣٨٨ هـ ، مادة البريد .

(٣٨٠) : المصدر السابق ، ج ١٤ ص ٣٦٧ ، لسان العرب ، مادة البريد .

(٣٨١) : محطات البريد كانت تعرف باسم السكة ، والسكة موضع كان يسكنه الفيوج

المرتبطون من بيت أو قبة أو رباط ، وكان يرتب في كل سكة بغال أو خيول ،

لسان العرب ، مادة البريد .

بدأت الدولة الإسلامية في عهد خلفاء بني أمية انقسمت الى ولايات ارتبط بعضها بالمركز مباشرة ، وأرتبط القسم الآخر بأمرائها تلك الولايات ، فمماوية مثلا جمع لزيد بن العاصم في الكوفة والبصرة (٣٨٢) وصفاً كان يتحصنها من ولايات المشرق ، وسار على هذا النظام أكثر خلفاء بني أمية حتى كان عدد الأمراء الذين تولوا العراقين اثني عشر أميراً ، (٣٨٣) وكانت سلطة الحجاج تمتد من قم الرقة الى خجند بخراسان والى السند والهند . (٣٨٤) فأسير العراقين كان مسوء ولا من سرعة وصول الأخبار اليه من كل ولايات المشرق ، (٣٨٥) بينما كان ديوان البريد المركزي مسوء ولا عن محطات البريد التي تصل الشام بالبصرة والكوفة والجزيرة وأرمينيا ومصر والحجاز ، وكانت محطات البريد تبعد الواحدة عن الأخرى فمسرخين في ايران وأربعة فراسخ في الولايات الغربية ، وذلك لاستخدامهم العدائين في ايران والخيول والجمال في الولايات الغربية . (٣٨٦)

وكانت توجد في هذه المحطات الدواب التي تستخدم في البريد ، من البنغال ، والخيول والابل ، حسب طبيعة الطرق التي تربطها ، ذلك فضلا عن وجود أماكن للراحة ، وتوفير أسباب الحصول على الماء والطعام والملف لدواب البريد ، كما كان من الضروري عمارة الطسوق ، ووضع حدود على كل مسافة قدرها ميل حتى يعرف الرسول المسافة التي قد اجتازها ، وقد وصلت اليها نقوش معاصرة لعبد الملك بن مروان اكتشفت بالقرب من بيت المقدس ، وتشير الى أوامره بصنع الأميال وبعمارة أربع طرق تخرج من ايلياء ومن دمشق . (٣٨٧) ويبدو أن الوليد ساهم في بناء الأميال وعلى نطاق واسع مما دفع القلقشندی الى القول بأن الوليد هو أول من بنى الأميال . (٣٨٨)

- (٣٨٢) : الطبري ، ج ٥ ص ٢٣٤ ، ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٤٨ ، ابن الغدادي ، المستدر في تاريخ البشر ، ج ١ ص ١٨٥ .
- (٣٨٣) : ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٤٨ .
- (٣٨٤) : البلخي ، كتاب اليد والتاريخ ، باريس ١٩١٩ م ، ج ٢ ص ٢٧ .
- (٣٨٥) : خليفة ، ج ١ ص ٣١٩ ، ٤١٥ ، ٤٤٣ ، ج ٢ ص ٥٣٨ .
- (٣٨٦) : E.I. Art., Barid.
- (٣٨٧) : Van Berchem, Materiaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum, Jerusalem, t.I. P. 20. Repertoire Chronologique d'epigraphie Arab, t.I. PP. 13, 16.
- (٣٨٨) : القلقشندی ، مآثر الأتاق ، ج ١ ص ١٣٦ ، بلغة الظرفاء في ذكر تواريخ الخلفاء ، ص ٤٣ .

استخدم عمال الدولة البريد للرحلات السريعة ، (٣٨٩) وفي أيام الطواريء كان البريد يستخدم في نقل القوات العسكرية على وجه السرعة ، كما حدث أثناء ثورة ابن الأشعث ، عندما جهز عبد الملك الجند على البريد فكانوا يملون من مائة ، ومن خمسين وأقل من ذلك أو أكثر . (٣٩٠) كما أرسل هشام بن عبد الملك المدون سعيد الحارثي إلى أرمينيا ومنطقة اللان على أربعين دابة من دواب البريد فكان يبعث إليه كل يوم أربعين رجلا . (٣٩١) أما الوليد بن عبد الملك فكان يحل عليه الفسيفساء من القسطنطينية إلى دمشق (٣٩٢) خطا نظام البريد خطوات واسعة في خدمة النظام الإداري الأموي ، ودعم سلطانه بما يتفق وطبيعة اللامركزية التي سار عليها هذا النظام ، إلا أن البريد حقق أهمية الكبرى في ظل الحكم العباسي حيث أصبح عبارة عن دائرة استخبارات ، (٣٩٣) وأنشئت المحطات على مراحل مناسبة على كل الطرق المؤدية للماصمة ، كما أنشأ المهدي طريقتا جديدة مزودا بالمحطات من اليمن إلى مكة وبن ثم إلى بغداد ، وكان ولاية البريد في الآفاق كلها يكتبسون إلى المنصور أيام خلافته ، في كل يوم سمر القمح والحبوب والأدم وبسعر كل ما كُول ، ويكسل ما يقضي به القاضي في نواحيهم وما يعطى به الوالي وما يرد بيت المال من المال وكل عدت . (٣٩٤) وبدأ اختلال نظام البريد في عهد سيطرة البويهيين الذين رأوا في منع وصول الأسفار إلى الخلفاء وسيلة لا يحكم سيطرتهم عليهم ، (٣٩٥) وألقى السلطان السلجوقي الب أرسلان (١٠٦٣ - ١٠٧٢/م - ٤٥٦/هـ - ٤٦٥هـ) نظام البريد في الولايات الشرقية بالرغم من معارضة وزيره المشهور نظام الملك ، الذي كان يرى في هذه المؤسسة وسيلة قيمة فعالة لحفظ

-
- (٣٨٩) : الطلقشندی ، صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٧ ، E.I. Art., Barid.
- (٣٩٠) : النويری ، نهاية الأرب ج ٢١ ص ٢٣٦ .
- (٣٩١) : البلاذري ، فتوح ، ص ٢٠٨ ، الطبري ، ج ٧ ص ٧٠ ، ابن الأثير ، ج ٥ ص ١٥٩ .
- (٣٩٢) : الطلقشندی ، صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٦٧ ، E.I. Art., Barid.
- (٣٩٣) : Levy, P. 300 .
- (٣٩٤) : الطبري ، ج ٧ ص ٩٦ .
- (٣٩٥) : E.I. Art., Barid.

النظام والأمن في الدولة. (٣٩٦)

ديوان المستغلات :

بالإضافة إلى هذه الدواوين التي ذكرتها ظهرت دواوين أخرى بالشام فقط ،
كديوان المستغلات الذي يرد اسمه لأول مرة في خلافة الوليد بن عبد الملك ، (٣٩٧) وكان
على المستغلات نعيم بن زويب مولى الوليد ، واسمه كان مكتوباً في لوح في سوق السراجين
بدمشق ، وديوان المستغلات هو الديوان الذي تسجل فيه أجور أراضي الدولة وأملاك الحكومة ،
كذلك نقرأ في تاريخ دمشق لابن عساکر من تأسيس ديوان للزمن ، إذ يذكر أن اسحاق بن قبيصة
بن زويب الخزامي كان على ديوان الزمن بدمشق ، وهو من أهلها ، وأن الوليد قال له
لما ولاه : " لأدمن الزمن أحب إلى أهله من الصحيح . " (٤٠٠) وأغلب الظن أن هذا الديوان
قد ظهر في الشام فقط ، إذ أن اهتمام الوليد كان مركزاً على الشام . فقد ذكر القلقشندي
بأن الوليد هو أول من اتخذ الهميارستان بالشام للمرض ، وأول من اتخذ الهميارستان
بمصر أحمد بن طولون ، (٤٠١) كذلك يشار في عهد سليمان بن عبد الملك إلى ديوان النفقات . (٤٠٢)
وإذا افترضنا تأثر الأمويين بالفرس الذين كان لهم ديوانان ، ديوان الخراج وديوان
النفقات ، وأن ديوان النفقات يسجل كل ما يتفق في جيش أو في غيره ، (٤٠٣) فإنه يمكننا
القول أن هذا الديوان كان يقوم بتسجيل كل ما يتفق على مرافق الدولة من أموال صادرة
من بيت المال في دمشق ، وبدلاً من أن تكون هذه المسؤولية طاعة على طاق ديوان واحد
هو ديوان الخراج ، ويبدو أن هذا الديوان كان مركزياً ، وقد بقي كذلك في العصر العباسي ،

E.I. Art., Barid .

: (٣٩٦)

: (٣٩٧) الطبري ج ٦ ص ١٨١ .

: (٣٩٨) الجهمشيارى ص ٤٧ .

Levy, P. 299.

: (٣٩٩)

: (٤٠٠) تهذيب ج ٢ ص ٤٥٢ .

: (٤٠١) القلقشندي ، صبح الأعشى ج ١ ص ٤٣٢ .

: (٤٠٢) خليفة ج ١ ص ٤٣٢ ، الجهمشيارى ص ٧٢ ، وكان يكتب لعزوان على النفقات

زياد بن أبي الورد الأشجعي واسمه مكتوب على مينا صور وعكا .

: (٤٠٣) الجهمشيارى ص ٣ .

(٤٠٤) عند ما كانت أكبر مهمة القيام بنفقات دار الخلافة وحاجاتها ونفقات الدواوين المركزية ،
بينما كانت دواوين الخراج في الولايات تقوم مقام ديوان النفقات فيها بالإضافة الى تسجيلها
لما يجبي من خراج وضرائب أخرى ، فكانت تستوفي من تلك الأموال النفقات الراضية وأعطيات
الجند وترسل الباقي الى العاصمة. (٤٠٥)
اذا كانت هذه الدواوين كلها ترد أساساً في المركز فان هنالك بعض الدواوين
التي تسمع عنها في مصر مثلا كديوان الأحماس أو الاوقاف الذي أوجده توبة بن نصر ، والذي
يقول الكندي عنه أنه أصبح ديواناً عظيماً سنة ١١٨ هـ (٤٠٦) كما ظهر في المراق في العصر
الأموي ما يسمى بدار الاستخراج ، (٤٠٧) وهي الدار التي كانت تصدر فيها أموال الموظفين
الذين يختصون أموال الجبايات ولا يروءونها للدولة ، وكذلك الدهاقين الذين يقصرون في
الجبایات المقررة عليهم ، كما صودرت فيها أموال الخارجين على الدولة أو الذين يشتبه
بمساعدة تهم الثائرين ، (٤٠٨) واستمر هذا الجهاز حتى زمن الدولة المباسية حيث تحول
الى ديوان كبير عرف باسم ديوان المصادرين ، (٤٠٩) ولما كان أصل الشام/ وولا^{أهل طاعة} فلم يظهر
مثل هذا الديوان في الشام ، فاننا لانقرأ عن مصادرات للأموال فيها في هذه الفترة من تاريخنا .

* * *
* *
*

-
- (٤٠٤) : الصابي ، تحفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ،
١٩٥٨ ، ص ١٥ ، ٢٧٠ .
(٤٠٥) : ابن مسكويه ، تجارب الأمم ، ج ٥ ، ص ١٩٣ ، ١٩٤ ، التنوخي ، الفرج بعد الشدة ،
الطبعة الأولى ، القاهرة ، ج ١ ، ص ٥١ ، الخسوارزي ، مفاتيح العلوم ،
القاهرة ١٣٤٢ هـ ، ص ٤٠ .
(٤٠٦) : الكندي ، ص ٣٤٦ .
(٤٠٧) : الجاحظ ، البيان والتبيين ، دار الفكر ، بيروت ، ج ٢ ، ص ٤٢ .
(٤٠٨) : البلاذري ، أنساب ج ٤ ، قسم ٢ ، ص ٩ ، ٨١ ، أنساب ج ٤ ، قسم ١ ، ص ١٥٩ ،
ابن قتيبة ، المعارف ، ص ١٩٣ ، المبرد ، الكامل في اللغة والأدب ، مكتبة المعارف ،
بيروت ، ج ٢ ، ص ٢٥٥ .
(٤٠٩) : حسام السامرائي ، المؤسسات الادارية في الدولة المباسية ، ١٩٧١ ، ص ٢٨٦ .

الفصل الثاني

النظام المالي في الشام

قبل البحث في النظام الحالي الذي طبق في بلاد الشام ولا بد من ملاحظة بعض النقاط التي تتعلق بالنظام الحالي بشكل عام في صدر الاسلام ، فهذه الضرائب والتدابير العملية مثل الجزية ، فردية أو مشتركة ، والعشر والزكاة ومعاملة الأراضي العربية فرضت في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكان لها أثرها على نظام الضرائب. (١) كما أن نظامي الضرائب اللذين وجدتهما العرب في الأراضي المفتوحة استعملتا مصطلحات لم يدخل بعضها من داخل ، مثل خراج في المشرق وجزية في مصر ، وقد أثر هذا في استعمال المصطلحات في صدر الاسلام ، إذ أن ما يبدو من داخل في استعمال كلمتي خراج وجزية لم يكن نتيجة عدم التمييز بين الضريبتين ، وإنما هو من بقايا الارث المحلي ، (٢) ولم تكن هناك سابقة واضحة للخراج بمعنى ضريبة الأرض في فترة الرسالة ، إذ أن الرسول قرر أن الأراضي العربية في الجزيرة لا تدفع الا المشرى بينما قرر الخليفة عمر فرض ضريبة الخراج على الأرض المفتوحة عنوة كالسواد وأرض الشام ، (٣) وترك الأرض بيد أصحابها فتكون فرما للمسلمين . (٤) ومن الغرب أن عددا كبيرا من المستشرقين ، أمثال فلهوزن Wellhausen وبيكر Becker وكايتاني Caetani وأدولف جروهمان Adolf Grohman ومارتن هارتمان Martin Hartman وغيرهم ، متفقون على أن المصادر الاسلامية تميل الى أن تنسب الى عمر بن الخطاب كثيرا

(١) : د . عبد العزيز الدوري ، نظام الضرائب في صدر الاسلام ، ملاحظات وتقييم ،

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق ، فيصلة من مجلة مجمع اللغة العربية ، ج ٢ ،

م ٤٩ ، دمشق ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م ص ١٠١ .

(٢) : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٣) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ٢٨ ، ٢٩ . محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق ، السياسية

للمهد النبوي والخلافة الراشدة ، ص ٣٧٦ .

(٤) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ٣٠ .

من التنظيمات التي تمت في وقت متأخر لمكبسوا هذه التنظيمات قوة ، وأن العرب لم يكونوا
يجهزون بين ضريبة للرأس وأخرى للأرض ، وأن الجزية والخراج كقمتان مترادفتان
تستخدمان بمعنى اثارة ، وأن هذا التمييز قد حدث في وقت متأخر ، وأن لم يكونوا
متفقين في تحديد ذلك الوقت ، ففلمهوزن يعتبر سنة ١٢١ هـ السنة التي ظهر فيها هذا
التمييز في خراسان ، بينما يرى بيكر أن ذلك حدث سنة ١٠٦ هـ أو ١٠٧ هـ في مصر
ويجعل جروهطان ذلك في منتصف القرن الثاني للهجرة ، (٥) ويتساءل دانييل دينيت ،
Daniel Denette ، لماذا نتمم الفقهاء بأنهم ينسبون إلى الخلفاء الأوائل
تنظيمات ظهرت في عهدهم وهم يذكرون أسوأ تم تطبيقها في عهد الخلفاء الراشدين
ولكنها لم تكن مطبقة في فترة متأخرة ؟ فكيف يتاني مثلا يرفض الرواية التي تقول بأن جزية
تقدر بدينارين قد فرضت على كل مصري عند الفتح ، في حين أن جزية الدينارين لم تكن
مطبقة في الفترة التي كان يعيش فيها ابن عبد الحكم ، فما هي خاية ابن عبد الحكم من أن ينسب
ذلك إلى عمر بن الخطاب ؟ ويذكر البلاذري أن عمر قد وضع الخراج في السودان وأنه جعل ذلك
ضريبة ثابتة على كل جريب من الأرض ، (٦) في حين أن نظام المقاسمة هو الذي كان مطبقا
منذ عهد المهدي العباسي ، (٧) فلما لم ينسب البلاذري هذا النظام/ كان مطبقا في عهده إلى
عمر ؟ (٨) ثم ان المصادر الاسلامية في الواقع تذكر بوضوح كامل أن العرب اتبعوا أسلوبها
معينا في مصر ، وآخر في الشام ، وثالثا في العراق ، ورابعا في خراسان ، فجزية
الدينارين لا تذكر سوى في مصر ، في حين تذكر الروايات أن عمر أمر بمسح السواد
فوضع الجزية على الروم وس والخراج على الأرض ، (٩) فلم يكن هناك من نظام ثابت

(٥) : Daniel Denette. Conversion and The Poll Tax in Early Islam, pp. 4 - 6.

(٦) : البلاذري ، فتوح ص ٢٦٨ .

(٧) : المصدر السابق ص ٢٧١ .

(٨) : D. Denette. Op. Cit. P. 11.

(٩) : البلاذري ، فتوح ص ٢١٦ ، ٢٧٠ .

للجزية والخراج ، ولا نجد فقيها مسلما واحدا يؤكد أو يدمي وحدة التطبيق في كل
أطراف الدولة الإسلامية ، بل ان الروايات تشير الى العكس من ذلك وتداول أن تظهر
الاجراءات التي طبقت في الولايات المختلفة ، ولا تتناول مطلقا تقديم صورة لنظام موحد ،
في كل أجزاء الدولة الإسلامية ، فالاجراءات التي تمت أثناء الفتح لم تكن واحدة لأنها
تأثرت بالأوضاع المحلية ، فالوضع في خراسان لم يكن مشابها للوضع في السواد أو الشام
أو مصر ، ومن ثم فان التنظيمات التي أجراها نصر بن سيار في خراسان لا يمكن فهمها
الآن في نطاق ولايته ولا تلقي ضوءا على الأوضاع المالية في ولاية أخرى ، ثم ان المصرب
مميزا منذ البدء بين ضريبة الرأس وضريبة الأرض بالرغم من التبادل بالألفاظ كقول
أبي يوسف مثلا خراج على الروم ، (١١) وكقول البلاذري أرض الجزية ، (١٢) لأن
القرينة قد حددت المعنى المقصود وأكدت وجود ضربتين متميزتين منذ البدء ، ثم ان سجال
الاعفاء من ضريبة أو أخرى يساعد بدوره على تأكيد التمييز بين الضريبتين ، فهناك روايات
متممة ومتملقة بأرض المنوة ، تشير الى طرح الجزية من من أسلم ، (١٣) بينما تبقى الأرض
خراجية لأنها في المسلمون . (١٤)

لا يمكننا فهم النظام الضريبي في الشام الا بالعودة الى النظام المالي البيزنطي
الذي كان مطبقا فيها ، ودراسة بعض أحداث الفتح حتى يختفي ذلك التناقض الذي
قد يبدو لأول وهلة عندما تدرس الروايات المختلفة بمجهود الصلح التي عقدت

(١٠) : من أجل التنظيمات التي قام بها نصر بن سيار في خراسان يمكن العودة الى

" الادارة في العصر الاموي " ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(١١) : أبو يوسف ، الخراج ، ١٤٦ ، ١٥٤ ، ١٥٧ .

(١٢) : البلاذري ، فتوح ص ٣٢٦ .

(١٣) : ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٥٤ ، يحيى بن آدم ، الخراج ، ص ٧ .

(١٤) : ابن عبد الحكم ، ص ١٥٤ ، يحيى بن آدم ، ص ٧ ، البلاذري ، فتوح ، ص ٢٦٨ ،

أبو عبيد الأموال ، ص ٧٢ .

مع بعض المدن الشامية .

ان معلوماتنا عن النظام الحالي البيزنطي قليلة جدا ، تعتمد كما يقول دانيل
د بنيت على استنتاجات مبنية بشكل خاص على دراسة مجموعة القوانين السورية البيزنطية ،
الا أن الطامح الأساسية للمؤسسات البيزنطية في الشام تعود الى عهد قسطنطين
Constantine وديوكليسيان Diocletian واصلاحاتها ، فقد أمر ديوكليسيان
باجراء احصاء للأرض والناس أدى الى تقسيم المنطقة الى وحدات لا تتساوى بالمساحة
وانما في قيمة المحصول ، وكانت هذه الوحدة يطلق عليها اسم - iugum - وكانت
كل وحدة تدفع نفس الضريبة الثابتة ، وأخذ الاحصاء بحين الاعتبار عدد الوحدات التابعة
لكل مدينة ذات حكومة محلية Municipality وما يتبعها من أرض وقرى وضباع ،
وفي كل سنة عند اعلان الضريبة الأساسية عن الوحدة ، كان على موظفي المدينة ذات الحكم
المحلي (Curials) أن يقوموا بجمع مقدار من المال يساوى مقدار الضريبة الأساسي
عن الوحدة مضروبا في عدد وحدات كل مدينة . (١٥) ومن الواضح أن الاساس في هذا البناء
المالي كان المدينة ذات الحكومة المحلية ، الامر الذي يفسر لنا كثرة المعاهدات التي عقدها
المرب في الشام ، ان هذه الضرائب التي كانت تفرض على الوحدة لم تكن ثابتة بقدر ما كانت
تختلف تبعاً للظروف ، وكانت قيمة الضريبة تعتمد على قرارات السلطات العسكرية أو المدنية ،
وكان هذا بسبب الاجفاف لدافعي الضرائب وللخزينة في نفس الوقت . (١٦)

الى جانب الأراضي العامة في المدينة والقرى ، كانت هناك ضباع امبراطورية
وأخرى خاصة لها امتيازات معينة ، وأراض صغيرة يملكها مزارعون أحرار ، (١٧) أما العمل
الزراعي الأساسي فكان يقوم به بشكل واسع عبيد الأرض - Coloni - ، ثم ان الدولة

D. Dennette, Op. Cit. P. 51 . : (١٥)

Andre M. Andreades, Public Finances, Byzantium, II : (١٦)
P. 48.

Dennette, Op. Cit. P. 52. : (١٧)

كانت قد اعتادت أن تمنح أراضي بمقود طويلة الأمد ، ولذلك ظهر في القرن الخامس
عادة منح أرض الموات لمن يريد احياها مما مكاهل دفع أجر ثابت ، وكان هذا الاجراء يطلق
عليه اسم - Emphyteusis . (١٨)

كان النظام البيزنطي سببا في صنف كثير كان ينعكس أثره خاصة على موظفي الحكومة
المحلية ، (١٩) الذين ألقيت على عاتقهم مسؤولية جمع مقدار معين من المال كل عام ، فاذا
حدث لسبب من الأسباب أن خرجت عن سلطتهم أرض من مجموع الأراضي التي كانوا مسؤولين
عن جمع ضرائبها ، فإن الحيب على بقية الجماعة كان يزيد بذلك المقدار ، (٢٠) كما أن بعض
أصحاب الضياع كان يطالب حق دفع الضرائب مباشرة للحكومة الامبراطورية وليس من طريق موظفي
المدينة وكان هذا الحق يسمى أوتوبراجيا *autopragia* وكانت هذه الضياع تسمى
Agri Excepti - وكانت ملكا للأشرف والكنيسة ، هذه الأراضي لم تكن سفاة

من الضرائب ولكنها كانت خارج سلطة موظفي الحكومة المحلية ، وكان لها وضع متميز ، دفع عددا
كثيرا من الملاكين الصغار أن يلحقوا أراضيهم بهؤلاء الأشرف لمحصلوا على عايتهم ، وهكذا
ازدادت أراضي هؤلاء الحماة من الأشرف وخف العبء الضريبي عن أكتافهم ، وازدادت
أعباء الموظفين المحليين حتى أصبحوا عاجزين من مواجهة مسؤولياتهم . وبالرغم من التشريعات
كان الامبراطور عاجزا عن القضاء على هذه الحركة ، لاسيما وأن هذه التشريعات تسمى هؤلاء

Bury, History of Later Roman Empire, Vol. I pp. 57 - 59 . : (١٨)

Ostrogorsky, George, History of The Byzantine State, Tr.
Joan Hussey, Oxford, 1956, P. 39.

Bury, Op.Cit. Vol. I pp. 46 - 48 . : (١٩)

Francis de Zulueta, De Patrocinii Vicorum, Oxford : (٢٠)

Studies in Social and Legal History; Paul Vinogradoff.
ed. 1909. pp. 10 - 11 .

بتمديدات مستطرفة ، (٢٠) يستثنى أن هيرولا لم يكونوا يمثلون الفلاحين المرتبطين بالأرض فقط ، وإنما كل الطبقات . وليس في مقدور الباحث أن يتقدم في اتساع الأراضي العامة والشعبية والخاصة والامبراطورية ، ولكن كإتاني يحيل إلى الاعتقاد أن أراضي المدينة ذات الحكومة المحلية كانت واسعة المدى ثم تلحقها الأراضي التابعة للمكتسبة ثم الممتلكات الامبراطورية والخاصة ، وقد بنى استنتاجه هذا على ما فعله الأمويون عند ما منحوا الاقطاعات لتابعيهم فقد تبين له أن معظم هذه الاقطاعات كانت في العراق ، بينما كانت الاقطاعات السياسية في الشام ، وكانت هذه الاقطاعات تغطي من أرض الصوافي وهي الأراضي التي كانت ملكا للامبراطور والأشراف ، (٢١) ولكن دانيل دينيت يبين أن الروايات المتعلقة بالشام قليلة اذا ما قيست بالروايات المتعلقة بالعراق ، وهذا يفسر جهلنا بالاقطاعات في بلاد الشام ، كما أن الأمويين ، لمصالحتهم السياسية ، كانوا يفضلون منح اقطاعات لتابعيهم المخلصين في العراق ، ولذلك لا يمكن اطلاقاً ، كما يقول ، أن نتقدم ولو تقديراً مهدئاً نسبة هذه الأراضي ، ونسبوية الطبقات المختلفة بعضها إلى بعض . (٢٢)

بالإضافة إلى ضريبة الأرض ، وجدت ضريبة الرأس ، إلا أن الاختلاف بين المؤرخين كبير حول هذا الموضوع ، كما أن الجدل حول هذه النقطة يلقي ضوءاً على الجسدال الذي قام حول قضية جزية الرأس الاسلامية .

يتفق الجميع على وجود ضريبة رأس في أوائل عهد الامبراطورية ، وأن هذه الضريبة

(٢٠) : Coloni, Vicani, agricolae, possessores, homologicoloni, metrocomiae, (George Mclean Harper, Village Administration of The Roman Province of Syria, Princeton, 1908. pp. 58, 62.

Caetani, Annali, Vol. V pp. 438 - 439 : (٢١)

D. Dennette Op. Cit. P. 53. : (٢٢)

كانت تجبى حسب رأى أولمبيان Ulpian من كل الذكور من ١٤ - ٦٥
ومن الاناث كذلك ، (٢٣) أما بيجانول - Piganiol - وشيبولت - Thibault
فشيران الى أن ضريبة الرأس Tributum capitis قد ألغيت في عهد
قسطنطين ، في حين يحاول فرديناند لوت Ferdinand Lot أن يبرهن
على وجود ضريبة للرأس في فترة الفتح الاسلامي ، وقد بنى استنتاجه على ماورد في مدونة
جستيان ، وعلى دراسة للقوانين التي صدرت في سنوات مختلفة سنة ٣٦٨ م ، ٣٧٠ م ،
٣٧٤ م ، ٣٧٥ م ، وأماكن مختلفة كانت تعني دهماً المدن والنساء غير المتزوجات والأولاد
والمسنين وذوي الماهات من جزية الرأس ، ويضيف لوت شواهد اضافية تبرهن على أن الطبقة
الارستقراطية في المدن والتجار والمحال الذين يدفعون ضريبة
aurumnegotiatorum وضريبة chrysargyron
لم يكونوا يدفعون ضريبة الرأس ، واستنتج لوت أن ضريبة الرأس أصبحت بعد القرن الرابع
الميلادى تجبى فقط من الفلاحين وأصبحت سمة لهذه الطبقة من المجتمع ، (٢٤) ودلالة
على الذلة كما يتبين من التمييز Plebaiae Capitationis injuria (٢٥)
اذا أخذنا هذه الأمور بعين الاعتبار ، أمكننا الآن أن نتبع أحداث الفتح
الاسلامي للشام مرتين بحسب حيث نلاحظ مجموعة من الروايات التي قد تبدو متناقضة
لأول وهلة عندما نخفل الفترة الأولى قبل استقرار التنظيم وبسفل التطور الحاصل ،
فقد أورد البلاذري رواية أبي مخنف التي تذكر أن أهل حمص صالحوا المسلمين على مائة
الف وسبعين ديناراً ، (٢٦) ثم يورد رواية الواقدي " بأنه بينما كان المسلمون على أبواب
مدينة دمشق إذ أقبلت خيل للمد وكثيفة ، فخرجت الميعة جماعة من المسلمين فلقوهم بين بيت

(٢٣) : Ibid., p. 53. Harper, Op. Cit., p. 60 .

(٢٤) : Denette, pp. 54 - 55. Ostrogorsky, Op. Cit., 37, 38-39.

Hodgson, Marshal. G.S. The Venture of Islam, Conscience
and History in a World of Civilization, The University of
Chicago Press. p. 242.

(٢٥) : Denette, Op. Cit., p. 55

(٢٦) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٦ .

لها والثنية ، فولوا منهزمين نحو حمص ، على طريق قارة ، واتهموهم حتى وافوا حمص ،
فلقوهم قد عدلوا عنها ، وراهم الحصيون وكانوا منخوبين لهرب هرقل عنهم ، وما كان
يبلغهم من قوة كيد المسلمين وبأسهم وظفرهم ، فأعطوا بأيديهم وهتفوا بطلب الأسيان ،
فأمنهم المسلمون ، وكان على المسلمين السبط بن الأسود الكندي ، (٢٧) فلما فرغ أبو عبيده
من أمر دمشق استخلف عليها يزيد بن أبي سفيان ثم قدم حمص على طريق بعلبك ، فصالحه
أهل حمص على أن آمنهم على أنفسهم وأموالهم وسور مدنتهم وكنائسهم وأرحائهم
واستثنى عليهم ربح كنيسة يوحنا للمسجد ، واشترط الخراج على من أقام بينهم ، (٢٨) ثم
ينقل رواية عن أبي حفص الدمشقي بأنه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين أقبالهم
المهم وقالوا : قد شغلنا عن نصرتك والذبح عنكم فأنتم على أمركم . . . فلما هزم الله الكفرة
وأظهر المسلمين فتحوا مدنتهم وأدوا الخراج . (٢٩)

ويورد الطبري في أحداث سنة ٥١٥ هـ حول فتح حمص وعن أشياخ من غسان
ويلقين أن أهل حمص صالح بعضهم على صلح دمشق على دينار وطعام على كل جريب أهدا
أسروا أو أسروا ، وصالح بعضهم على قدر طاقته ان زاد ماله زيد عليه وان نقص نقص ، وكذلك
كان صلح دمشق والأردن بعضهم على شي * ان أسروا وان أسروا وبعضهم على قدر طاقته ،
ولوا معاطة ماجلا طوكهم عنه . (٣٠)

ان هذه الروايات المتعددة اذا اقترنت بمراحل اليفتح زال عنها هذا التضارب ،
اذ ان رواية الواقدي تعطي تفسيراً لرواية أبي مخنف ، بأن أول حملة وجهت الى حمص
كانت قبل فتح دمشق لرد تلك القوة التي وجهت للمغرب المحاصرين لدمشق وكان قائدها
السبط بن الأسود الكندي الذي آمن أهل حمص مقابل دفعهم لمائة ألف وسبعين ديناراً ،

(٢٧) : الهلاندري ، ص ١٣٦ ، ١٣٧ .

(٢٨) : المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(٢٩) : المصدر السابق ، ص ١٤٣ .

(٣٠) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٦٠٠ ، ابن السديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ص ٢٧ .

فقد كان العرب بحاجة الى الأموال من جهة ، وكان أهل حمص بحاجة الى أن يشعروا بالأمان ، وكان هذا الوضع شبيهاً بصلح الحيرة ، ولكن هذا الصلح جدد بعد أن انتهى أبو عبيدة من فتح دمشق ، ويورد أبو حفص أن أبا عبيدة صالحهم على نحو صلح بعلي بن أبي طالب ، ففرض على من أقام من أهل حمص الجزية والخراج ، (٢١) فلما تقدم هرقل اضطرب العرب الى سحب قواتهم من حمص وأعادوا الخراج لأنهم لم يكن بإمكانهم نصرته أهل حمص والدفاع عنهم ، وبعد معركة اليرموك دخل العرب حمص مرة أخرى ، واتبع العرب وفق رواية الطبري أسلوبيين في الشام ، فبعضهم صالح على أساس دفع ضريبة ثابتة تقدر بدينار وطمع من كل جريب سواء أسسوا أو أسسوا في حين صالح بعضهم على قدر طاقتهم ان زاد مالهم زيد عليه ، وان نقص ، نقص . (٢٢)

استناداً الى هذه الرواية يبيّن Becker استنتاجه بأن العرب قد احتفظوا

بالنظام الميزنطي حيث كانت أراضي الدولة والأراضي ذات الامتيازات الخاصة

- Autopraet - تدفع ضريبة تتناسب مع المحصول ، في حين كانت الأراضي العامة التابعة للمدينة ذات الحكومة المحلية تدفع ضريبة ثابتة . (٢٣) ويمكن اعتبار فرضية بيكر مقبولة لاسيما أننا نلاحظ فرض جزية ثابتة مؤلفة من دينار وجريب في صلح أنطاكية ومنيح ودلوك ورحمان ، (٢٤) وفي صلح دمشق (٣٥) و حلب (٣٦) ، و صلح طبرية وبيسان ، (٣٧) و صلح بصرى ، (٣٨) ومن الطبيعي أن يعتمد العرب على المسؤولين عن الإدارة المحلية للبلد في المعاهدات وعقود الصلح التي عقدوها معهم وأن يتخذوهم وكلاء عنهم في اجتهاد الضرائب ، (٢٩) فهل تبنى العرب كذلك النظام الميزنطي القائم على أساس الوحدة المتساوية في قيمة المحصول

أى - Jugum ؟ .

(٢١) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٧ .

(٢٢) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٦٠٠ .

(٢٣) : Denette, Op. Cit., p. 58

(٢٤) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٢-١٥٠ ، ودلوك بليدة من نواحي حلب ورحمان مدينة بالشفور بين حلب وسجسط قرب الفرات .

(٢٥) : المصدر السابق ، ص ١٣١ .

(٢٦) : المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

(٢٧) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٤٤ .

(٢٨) : البلاذري ، ص ١٢٠ .

(٢٩) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٦٠٠ .

Denette, Op. Cit., p. 59.

انه افتراض مغر أن نرى في ضريبة الدينار العربية على كل رجل وضريبة الدينار عن كيل وحدة التي قدرها الامراطور في المنشور السنوي delogatio شربا واحسدا ، وقد يوهد هذا القول ، أن هذه الوحدة نظريا تساوي مساحة الأرض التي يستطيع رجل واحد القيام بزراعتها ، (٤٠) ولكن ليست من دليل واحد لسوء الحظ يوهد هذه النظرية ، كما أننا لا نستطيع تجاهل الاجماع في الروايات على أن الضريبة كانت على الفرد ، هذا الذي أن الادارات المحلية ذاتها في المدن كان لديها من الحوافز القوية ما يدعوها الى التخلص من الطريقة المعقدة المتبعة في النظام البيزنطي ، في حين أن جمع مبلغ سنوي يساوي عدد الذكور البالغين من السكان أمر يسهل ادراكه وتنفيذه ، وقد تنسى العرب هذا العهد في الجزيرة ونصر ، وبالرغم من ابقاء العرب على ضريبة الأرض والرأس وضريبة الفسلال Embolè في مصر ، إلا أن الطريقة التي اتبعت في جباية وجمع الضرائب تحسنت نتيجة لتبسيطها ، فاذا لم يحافظ العرب على النظام البيزنطي كما هو في مصر ، فمن الصعب أن نفترض ابقاءهم لهذا النظام في الشام ، (٤١) وبينما نجد شواهد كثيرة عن تبني العرب للنظام الساساني في الشرق ، فإن الاشارات المتعلقة بهذا الخصوص بالشام غير متوافرة ، بل ان الرواية السريانية المجهولة المؤلف تنص على العكس ، ان تذكر أن الخليفة قد أمر قواده عند اجراء الصلح أن ينصوا على أن أهل المدن المفتوحة " يبقون اذا شاؤوا ويواصلون حياتهم حسب قوانينهم وتقاليدهم قبل الفتح ، ولكن عليهم أن يؤدوا الضريبة حسبما فرضت عليهم " (٤٢) ولذلك يرجح أن يكون فرض الضرائب على أساس

(٤٠) : " كانت الدولة تحرض على أن يكون لكل وحدة فلاح ، وقد أصبح هذا العمل صحيحا

نتيجة لانخفاض نسبة السكان الماملين في الارض من جهة وقلة عدد الفلاحيين الذين كانوا كثيرا ما يهربون نتيجة للفقر وللأوضاع غير المستقرة في المنطقة ، ولذلك كانت الدولة تسعد بكل وسيلة ممكنة أن تربط الفلاح بمساحة الأرض التي عهدت اليهم

(Ostrogorsky, Op.Cit., p. 38 .)

Dennette, p. 60 . .

: (٤١)

" Vivent Secundum Leges Corum et secundum quos

: (٤٢)

habebant ante tempus nostrum; sed tributum secundum definitionem

inter vos statum solvant " Dennette p. 60.

الوحدة Jugum قد انتهى بالفتح العربي ، وأن موظفي الإدارة المحليين جيمسوا بدلا من ذلك مهلفا من المال على أساس عدد السكان من الذكور ومساحة الاراضي . ان أول تغيير في النظام البيزنطي حدث عندما قرر عمر فرض ضريبة الرأس على الجميع ، (٤٣) إلا العيد المسيحي فلم يكن عليه جزية سوا . أكان سيده مسلحا أو من أهل الذمة ، (٤٤) وذلك ألغى الامتيازات التي تتمتع بها بعض الطبقات والتي كانت معفاة منها ، ويشير ميخائيل السرياني الى أن عمر أمر باجراء احصاء من أجل ضريبة الرأس التي فرضت على النصارى في سنة ٩٥١ من الحكم البيزنطي اي ٦٣٩ ، ٦٤٠ م / ٢٠ هـ ، ويذكر ثيوفانس أنه في السنة الثلاثين من حكم هرقل عند عمر الى اجراء احصاء للرجال والاراضي والحيوانات وأشجار النخيل . (٤٥)

والروايات التي تتحدث عن جيلة بن الأيهم ، بالرغم من اختلافها في بعض النقاط ، فانها تتفق بأن عمر عرض الاسلام على جيلة مع أداء الصدقة أو البقاء على دينه ودنسيته الجزية ، فأنف منها ، (٤٦) لانه عربي والجزية لا يدفعها الا الملحون ، وهذه الرواية تؤكد ما ذكر سابقا أن ضريبة الرأس كانت مفروضة على الفلاحين في العهد البيزنطي ، وكانت دلالة على المهانة والمذلة ، ومن الواضح أن الملك الفسائي لم يكن يدفع هذه الضريبة للبيزنطيين ، وأنف من هذا الصغار هو الذي دفعه الى ترك الشام ودخول بلاد الروم . (٤٧) نلاحظ أن كل المشاهدات التي فقدت مع مدن الشام والجزيرة تنص على وجوب جزية وخراج ، (٤٨) وان كان التركيز في المرحلة الأولى كما سيبين لنا هو على الجزية ، فقد كانت الجزية في الشام في بادئ الأمر جريها ودينارا على كل جمجمة ، (٤٩) وذكر بعض الرواة أن خالد بن الوليد صالح أهل دمشق فيما صلحهم أن ألزم كل رجل من الجزية دينارا

(٤٣) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣١ .

(٤٤) : ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل الذمة ، ج ١ ص ٥٥ .

(٤٥) : Dennette, Op. Cit. p. 61 .

(٤٦) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٢ .

(٤٧) : المصدر السابق ، ص ١٤٢ .

(٤٨) : المصدر السابق ، ص ١٢٢ - ١٢٤ - ١٢٧ - ١٢٦ .

(٤٩) : المصدر السابق ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

وجرب حنطة وخلا وزيتا لقوت المسلمين ، (٥٠) ونجد ذكرا لهذه الجزية التي قيمتها ديناراً وجرب طعام في رواية سيف المتعلقة بصلح بيسان وطبرية وأن هذا الصلح كان على صلح دمشق ، (٥١) ويشير البلاذري الى أن صلح بصرى كان أيضاً ينص على أداء الجزية عن كل حالم ديناراً وجرب حنطة ، (٥٢) وكذلك صلح حلب ، (٥٣) وفرض عياض بن غنم على سكان الجزيرة جزية واحدة في المدن والقرى ، فالزم كل رجل منهم ديناراً في كل سنة وأخرج النساء والصبيان ووظف عليهم مع الدينار أقمصة من قمح وزيت وخل وعسل ، (٥٤) هذه الجزية الموحدة المولفة من دينار وأرزاق لم يلبث أن أصابها التمدد يسيل ، إذ أن رواية أبي عبيد تشير الى أن عمر عد بعمد ذلك الى جعلها أربعة دنانير على أهل الذهب وأربعين درهماً على أهل الوراق وجعلهم طبقات لغنى الغنى وإقلال السفل وتوسط المتوسط . (٥٥) وتتفق رواية عمرو الناقد عن أسلم مولى عمر مع رواية عمرو بن حساد بن أبي حنيفة عن أسلم مولى عمر ، بأن عمر بن الخطاب كتب الى أمراء الأجناد بأمرهم أن يضربوا الجزية على كل من جرت عليه الموسيقى ، على أهل الوراق ، على كل رجل أربعين درهماً وعلى أهل الذهب أربعة دنانير ، إلا أن الرواية الأولى تضيف : " وأن عليهم من أرزاق المسلمين من الحنطة والزيت ، مدان حنطة وثلاثة أقساط زيتاً كل شهر لكل انسان بالشام والجزيرة وجعل عليهم ودكا وسلا ، " أما في الرواية الثانية فيذكر أرزاق المسلمين وضيافة ثلاثة أيام . (٥٦)

(٥٠) : البلاذري ، ص ١٣١ .

(٥١) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٤٤ .

(٥٢) : البلاذري ، مفتوح ، ص ١٢٠ .

(٥٣) : المصدر السابق ، ص ١٥٢ .

(٥٤) : المصدر السابق ، ص ١٧٧ ، ١٧٩ .

(٥٥) : المصدر السابق ، ص ١٣٠ - ١٣١ .

(٥٦) : المصدر السابق ، ص ١٣١ ، أبو عبيد ، الأموال ، ص ٣٩ - ٤٠ .

ويبدو أن الارزاق فرضت على أهل الريف فقط دون أهل المدن ، وذلك لأن
الأرضين لهم وبما كانوا دفعوها ، فهذا ذكر أبو يوسف : " أنهم إنما فعلوا ذلك لأن أهل
الرياحين هم أصحاب الأرضين والزرع وأعمالهم إنما ليسوا كذلك " . (٥٧)
كانت الجزية في عهد الخلفاء الراشدين تجبى علينا ونقدا ، فكان أهل الذممة
إذا جاؤوا بمعرض قبل منهم مثل الدواب والمتاع وغير ذلك يؤخذ منهم بالقيمة ، ولم يكن
يؤخذ منهم في الجزية مائة ولا غنم ولا خمر ، (٥٨) لأن عمر بن الخطاب كان قد نهى
عن أخذ ذلك منهم في جزيتهم ، وطلب من أهل الذمة أن يولوها أربابها ليعمها ،
وأن يأخذ حامل الخراج أثمانها إذا كان هذا أرفق بأهل الجزية . (٥٩)
ويبدو أن معاوية منذ بدء خلافته قد عمد إلى جعل جباية الجزية نقدا ،
هذا ما فهمه من الرواية التي يوردها البلاذري عندما يذكر صلح حياض مع أهل الرها
وأنه الزم كل رطل منهم ديناراً في كل سنة ووظف عليهم مع الدينار اقفة من قصب وشيئا من زيت
وخل وعسل ، فلما ولي معاوية جعل ذلك جزية عليهم ، (٦٠) بحيث أن قيمة هذه الارزاق
أصبحت تدفع نقدا . ولد لنا نص آخر يورد البلاذري يوضح ذلك الاتجاه إلى جباية الجزية
والخراج نقدا في عهد الامويين من أن أبا عبيدة بن الجراح صالح السامرة بالأردن وفلسطين
وكانوا ضيونا وأدلاء للمسلمين على جزية رؤسهم وأطمعهم أرضهم ، فلما كان عهد يزيد بن
معاوية ، وضع الخراج على أراضي السامرة بالأردن وجعل على رأس كل امرئ منهم دينارين
ووضع الخراج على أرضهم بفلسطين وجعل على رأس كل منهم خمسة دنانير ، (٦١)
وفي خلافة عبد الملك جرى التعمير الذي يحدثنا عنه أبو يوسف ، إذ أن عبد الملك
استقل ما كان يؤخذ من أهل الجزيرة ، فأرسل الضحاك بن عبد الرحمن الأشعري
فأبى الجباية من أهل الناس كهم مالا بأيدهم وحسب ما يكسب السائل سنته كلها ثم طرح

(٥٧) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ٤٨ .

(٥٨) : الصولي ، أدب الكاتب ، ص ٢١٥ .

(٥٩) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ٦٩ .

(٦٠) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٧٨ .

(٦١) : المصدر السابق ، ص ١٦٢ - ١٦٣ .

من ذلك نفقته في طعامه وكسوته وطرح أيام الأعياد في السنة كلها ، فوجد الذي يحصل بعد ذلك في السنة لكل واحد أربعة دنانير فألزهم ذلك جميعا ، أي أن جزية موحددة وثابتة قدرها أربعة دنانير فوضت على كل فرد ، ويشير النص إلى أن هذا انتمد على طبق في الجزيرة وليس ثمة إشارة إلى أنه طبق في الشام . (٦٢)

أخذت الجزية في الشام والجزيرة كما في عهد الرسول من أهل الذمة ، فقد أسرى الرسول أن يقاتل أهل الكتاب من العرب وغير العرب حتى يعطوا الجزية ، وقد قبضه الرسول الجزية من العرب وفقد قبيلها من أهل اليمن وهم عرب إذ كانوا أهل كتاب ، وقبيلها أبو بكر من أهل الحيرة حين افتتحها خالد بن الوليد صلحا وهم أخلاط من أفناء العرب من تميم وطي و غسان وتلوح . (٦٣) إلا أن قادة العرب واجهتهم في الشام والجزيرة قضية العرب الذين رفضوا دفع الجزية أنفة فقد رفض جيلة بن الأيهم كما رأينا دفعها وغادر بلاد الشام إلى بلاد الروم ، ما دفع عباده بن الصامت إلى معاتبة عمر قائلا له ، " لو قبلت منه الصدقة ثم تألفت " (٦٤) ولذلك اضطر عمر أن يضيف الصدقة على نصارى تغلب إذ عندما أراد أن يأخذ الجزية منهم انطلقوا هاربين ، فقال له زعبة بن النعمان أو النعمان بن زعبة التغلبي : " أنشدك الله فيهم ، فأنهم قوم عرب بأنفون من الجزية وهم قوم لهم نكابة ، فلا تمن عدوك عليك " . فأضعف عليهم أن لا ينصروا أولادهم ، (٦٥) أي أن تؤخذ الصدقة مضافة على صدقة المسلمين من كل شيء . على المسلمين فيه الزكاة ، من الإبل والبقر والغنم والزرع والثمار ، ولا يؤخذ من أقل مما تجب فيه الزكاة على المسلم في خمس من الإبل شاتان ، وفي أربعين من الغنم شاتان ، وفي ثلاثين من البقر تبيعان . الخ ، (٦٦) وما أن ما فرض على بني تغلب هو صدقة مضافة فالمرأة والرجل من بني تغلب في الصلح سواء لأنه ليس

(٦٢) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ٤٩ .

(٦٣) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٧٨ ، أبو عبيد ، الأموال ، ص ٢٨ ، ابن قتيبة المعارف ، ص ٢٣٩ .

(٦٤) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٢ .

(٦٥) : المصدر السابق ، ص ١٨٧ ، أبو عبيد ، الأموال ، ص ٢٨ ، ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٤١ .

(٦٦) : يحيى بن آدم ، الخراج ، ص ٦٧ ، بقرة ٢١٠ ، ابن قيم الجوزية ، أحكام أهل

الذمة ، ج ١ ، أحكام بني تغلب ، ص ٧٥ - ٨٦ .

على رؤوسهم وإنما هو على أرضهم ، وكذلك من كان عليه دين ومن لم يكن عليه دين فهو سواهم
يوخذ منهم جميعا . (٦٧) واختلف الفقهاء في صبيان من بني تغلب ، فقال البعض أنه
لا يؤخذ من أرضهم شيء ، ولا من مواشيهم لأنه لا يؤخذ من صفار المسلمين العشر ، بينما
قال البعض الآخر يؤخذ منهم لأن اليتيم الصغير يزكي ماله . (٦٨) وبالرغم من أن ما فرض
على نصارى تغلب هو ضعف الصدقة التي تؤخذ من أرض المسلمين ، إلا أن سبيل ما يؤخذ
من أموال بني تغلب سبيل مال الخراج ، لأنه بدل الجزية وفي هذا إجماع . (٦٩)

وكان للجراجمة وضمهم الخاص كذلك ، لأن حبيب بن مسلمة الفهري عند ما غزى
الجرجومة ، لم يقاتل أهلها ، ولكنهم بدروا بطلب الأمان والصلح ، فصالحوه على أن يكونوا
أهوانا للمسلمين وهيوناً وسالح في جبل اللكام وأن لا يؤخذوا بالجزية ، وأن ينقلوا أسلاب
من يقتلون من أعداء المسلمين إذا حضروا معهم حرباً في مغازيهم ، ودخل كل من كان في
مد ينتهم من تاجر وأجير وتابع من الانباط وغيرهم من أهل القرى في هذا الصلح ، فسحوا
بالرواديف لأنهم ظوهم وليسوا منهم . (٧٠) أي أن حبيب بن مسلمة وضع الجزية عن الجراجمة
مقابل استمارة المسلمين بهم ، وقد اتبع قادة العرب ذلك في عهدهم المختلفة ، نجد ذلك
في معاهدة جرجان ، ومعاهدة عبدالله بن عامر مع عظيم هواة وبوشنج وبانغيس (٧١) وفي
معاهدة عتبة بن فرقد مع أهل انزهبجان ، ومعاهدة سراقة بن عمرو مع شهر بزاز وأهل أرمينية ،
ان نجد تكراراً لهذه العبارة ، " ومن استمنا به منكم فله جزاؤه في معونته عوضاً عن جزائه " .
ومن الخريب أن الأميين بالرغم من موقف الجراجمة المتقلب " ان أنهم كانوا يستقيمون للولاية
مرة ويخرجون أخرى " فانهم لم يفرضوا عليهم الجزية ، وعند ما طلب الوليد بن عبد الملك

(٦٧) : يحيى بن آدم ، الخراج ، ص ٦٦ ، فقره ٢٠٩ .

(٦٨) : المصدر السابق ، ص ٦٧ ، فقره ٢١٠ .

(٦٩) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٨٢ .

(٧٠) : المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(٧١) : محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق ، ص ١٦٧ ، ص ٣٦١ .

(٧٢) : المرجع السابق ، ص ٣٦٣ ، ٣٧٤ .

من قائد، مسلحة بن عبد الطك سنة ٨٩ هـ أن يخرب مدنتهم الجرجومة سمح لهم أن ينزلوا حيث أحبوا من الشام وأن يجرى على كل امرئ منهم ثمانية دنانير، وعلى ميلاتهم القسوت من القمح والزيت، وأن لا يؤخذ من ارلا دهم الجزية، على أن يخربوا مع المسلمين، فينفلوا أسلاب من يقتلونه مبارزة وعلى أن يؤخذ من تجارتهم وأموال مؤسريهم ما يؤخذ من مال. (٧٣)

الطكية العقارية وضريبة الأرض أو الخراج :

يتضح من الروايات المتعلقة بما هددت الصلح في الشام ذلك التمييز الواضح بين الجزية والخراج، فنجد عمرو بن العاص يخطب الامان في خلافة ابي بكر لفرقة ثم سبسطية ثم نابلس على " أن يؤدوا الجزية طوقاً بهم والخراج على أرضهم "، (٧٤) وأن أهل ايليا طلبوا الصلح على مثل ما صلح عليه أهل مدن الشام من أداء الجزية والخراج، (٧٥) وسأل أهل فحل الامان على اداء الجزية على رؤوسهم والخراج عن أرضهم، (٧٦) وصالح ابو عبيدة أهل حماة على الجزية على رؤوسهم والخراج عن أرضهم، (٧٧) وكذلك فعل أهل مصرية حمص واقاميه، (٧٨) كما نلاحظ التركيز وما على أن المدن صولحت بالرفق من مقاومتها في بادئ الأمر وأن الأرض أخذت عنوة، ففي رواية الهيثم بن عدي أن شرحبيل بن حسنة فتح مدن الاردن وحصونها على صلح طرية فتحا يسيراً بخير قتال وأنه قلب على سواد الاردن وجميع أرضها، (٧٩) وأن المسلمين افتتحو جميع أرض كورة حوران وقلبوها طيها. (٨٠) وأن جميع أرض البثنية أرض خراج، (٨١) وأن يزيد قلب على أرض البلقاء، (٨٢) وعندنا

(٧٣) : البلاذري، فتوح، ص ١٦٥ - ١٦٦.

(٧٤) : المصدر السابق، ص ١٤٤.

(٧٥) : المصدر السابق، ص ١٤٤.

(٧٦) : المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٧٧) : المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٧٨) : المصدر السابق، ص ١٣٧.

(٧٩) : المصدر السابق، ص ١٢٣، باقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٦٤٧.

(٨٠) : المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٨١) : المصدر السابق، ص ١٣٢.

(٨٢) : المصدر السابق، ص ١٣٢.

صالح عياض بن غنم بطريق أهل مدينة الرها وأمنهم ، وضع له بأن الأرض للمغرب * الأرض لنا قد وطنناها واحرزناها * (٨٣) وفتح عياض الرقة ، وحران ، والرها ، ونصيبين ، وميافارقين ، وقرى الخرات وباداتها صلحا وأرضها منوة . (٨٤)

ويبدو أن المسألة في مدلول صلح و منوة لدى الفقهاء هي تعبیر عن الطريقة التي كانت تؤخذ فيها الضرائب ابتداءً ، فان كانت جزية رأس فقط فهي صلح ، وان كانت خراجا فهي منوة ، وهذا ما حصل أثناء الفتح وقبل بداية التنظيم الضريبي سنة ٢٠ ، ٢١ هـ ، فقد عقدت معهود صلح مع المدن أخذت منهم فيها الجزية ، بينما لم يحدث ذلك في الريف حيث وضعت عليهم الجزية الى جانب الرزاق عن الارض ابتداءً ، ثم سحبت الاراضي بعد استقرار الاوضاع ، ووضع الخراج عليها ، وعلى هذا فقد قال الفقهاء ، ان مدن الشام والجزيرة والحيرة وبانقيا وأليس صلحا وباقي الأرض أي الريف منوة . (٨٥) والأرض التي تفتح منوة تكون في حكم المنعمة وتقسم بين الفاتحين طبقا للائحة الكريمة * واعلموا ان غنتم من شي * ، فان لله خصه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، * (٨٦) أما الباقي فيقسم بين الجند من أهل الديوان وغيرهم . (٨٧) وحسب رواية هشام بن عمار ، أن عمر لما قدم الجابية أراد قسمة الأرض بين المسلمين لأنها فتحت منوة ، فقال معاذ بن جبل * والله لئن قسمتها ل يكونن مانكرو ، ويحصر الشئ * الكثير في أيدي القوم ثم يبيدون فيبقى ذلك لواحد ثم يأتي من بعدهم قوم يسدون الاسلام

(٨٣) : المسائل الخيرية ، ص ١٧٧ .

(٨٤) : المصدر السابق ، ص ١٧٩ .

(٨٥) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ٨٢ ، أبو عبيد ، الأموال ، ص ٤٠٠ .

(٨٦) : سورة الانفال ، آية ٤١ ، أبو يوسف ، ص ٢٨ .

(٨٧) : أبو يوسف ، ص ٢١ ، يحيى بن آدم ، ص ٣ ، ابن تيمية ،

مسدا فلا يجدون شيئا ، فانظر أمرا يمسح أولهم وآخرهم ، فصار الى قول معاز * (٨٨) ونجد روايتين حول موضوع أرض الشام الاولى تشير الى أن بلالا وأصحابه سألوا عن من الخطاب قسمة ما أفاء الله عليهم من العراق والشام ، وأن يقسم الأرض بين الذين اذنتهموما كما تقسم غنيمة المسكر ، وأن عمر أبى ذلك وتلا هذه الآيات * ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم * (٨٩) وأن أبا عبيدة كتب بعد فتح الشام الى عمر بن الخطاب أن المسلمين سألوه أن يقسم بينهم الحدن وأهلها والأرض وما فيها من شجر وزرع وأنه أبى ذلك عليهم حتى يبحث اليه عمر برأيه ، (٩٠) وكان من رأى عمر أنه * اذا قسمت أرض المسراق بسلوحيها وأرض الشام بسلوحيها فما تمد به الثفور وما يكون للذرية والارامل بهذا البلد وغيره من أهل الشام والعراق * (٩١) واستشار عمر المهاجرين الاولين فاختلفوا ثم أرسل الى عشرة من الانصار خصمة من الاوس وخصمة من الخزرج من كهوائهم وأشرفهم ، وشرح لهم الموتى وفائدة ترك الأرض لأصحابها مقابل وضع الخراج على أرضهم والجزية على رؤوسهم فتكون فينا للمسلمين * المقائلة والذرية ولعن يأتي بعدهم * (٩٢)

رأينا أن كل الروايات المتعلقة بالفتح تشير الى الارزاق الى جانب الجزية ولا توجد اشارات واضحة الى ما فرض في الخراج ، وربما كانت هذه الارزاق تشكل الضريبة على الأرض في هذه الفترة المبكرة ، كما أن الروايات المتعلقة بما فرض من خراج بعد ذلك غير متوفرة ، ولكن استنادا الى الروايات التي يوردها أبو يوسف

(٨٨) : البلاذرى ، ص ١٥٦ .

(٨٩) : أبو يوسف ، ص ٢٩ ، والبلاذرى ، فتوح ص ١٦٥ ، ابن الجوزى ، تاريخ

عصر بن الخطاب ، ص ١١٢ .

(٩٠) : محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق ، ص ٣٢٦ .

(٩١) : أبو يوسف ، ص ٣٠ .

(٩٢) : المصدر السابق ، ص ٣٠ .

والتي تتعلق بالتعديل الذي حدث في عهد همدانك ، (٩٣) نستنتج أن الاجراءات التي تمت في الشام قد تكون شبيهة بتلك التي تمت في سواد العراق ، من مسح للأراضي واختلف فيها فرض على الأرض باختلاف نوع الحقل ، وطريقة الري ، والعمد والتسرب من الأسواق ، وأن هذه الامور لم تتم مرة واحدة وإنما تدريجياً ، وتشير رواية ثيوفانس ، (٩٤) بأنه في السنة الثلاثين من حكم هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) عهد عمر الى اجسرا احصاء للرجال والأراضي والحيوانات والاشجار والنجيل ، والسنة الثلاثين من حكم هرقل هي سنة ٦٤٠ م / ٢٠ هـ وهي السنة التي تم فيها السيطرة على الشام والجزيرة ، وانحسر فيها الخطر الفارسي عن العراق تقريبا فأصبح بالامكان تنظيم النواحي الادارية والمالية ، لاسيما وأن ما يذكره ثيوفانس يتفق مع ما يذكره الطبري ، وخليفة بن خياط من أن الخليفة عمر بن الخطاب بحث ابن حنيفة سنة ٢١ هـ لمساحة السواد مع عمر بن ياسر ، وعبدالك بن مسعود ، فربما بدأ مسح بلاد الشام والجزيرة أولاً ، وبعد أن زال الغطس الفارسي المباشر اثر معركة نهاوند سنة ٢١ هـ عهد الى مسح العراق ، (٩٥) ولذلك فان نظرة سريعة الى ما تبع في العراق قد تلقي ضوءاً على ما طبق في الشام .

نلاحظ أن ابتداء الخراج في العراق كان درهماً وقفيزاً من القمح والشبس على كل جريب عامر او غامر دون النظر الى ما يزرع فيه من المحاصيل الأخرى . (٩٦) ومن المتوقع أن ضريبة القفيز والدرهم لا تجسد قبولا عند بعض الفلاحين ، ذلك أن بعض الأراضي تزرع فيها الأشجار المثمرة وبعض المحاصيل التي لها ميزة على غيرها فالذي يزرع القمح في أرضه يدفع كالذي يزرع الأشجار المثمرة ذات الوارد الأكبر . فكان لا بد من فرض خراج حسب

(٩٣) : أبو يوسف ، الخراج ص ٤٩ .

(٩٤) : Dennette. Op. Cit., p. 61. Theophanes, p. 552.

(٩٥) : خليفة ، ج ١ ص ١٤٦ ، الطبري ، ج ٤ ، ص ١٤٤ .

(٩٦) : أبو يوسف ، ص ٤٠ ، ٥١ ، أبو عبيد الاموال ، ص ٥٨ ، البلاذري ، فتوح ،

ص ٢٦٩ ، الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ١٧٥ ، ابن قيم الجوزية ،

احكام أهل الذمة ، ج ١ ، ص ١٨ ، ابن الجيسري ، تاريخ عمر بن الخطاب ،

ص ٦٦ .

نوع المحصول ، ويوضح ذلك قول محمد بن عبدالله الثقفي (ت سنة ١١٦ هـ) " كتب
المغيرة بن شعبة وهو طي السواد ، ان قبلنا أصنافا من الغلة لها مزيد طي الحنطة
والشعير ، فذكر الحاش والكروم والرطوبة والسماسم ، قال فوضع طيها ثمانية ، ثمانية
والخي النخل . (٩٧)

ويورد البلاذري مجموعة من الروايات كلها تنسب الى عهد عمر بن الخطاب ، تشير
الى فرض الخراج على كل جريب حسب نوع المحاصيل ، (٩٨) كما أن الروايات المتعلقة
بالخراج عند أبي يوسف وأبي عبيد تشير الى اختلاف في مقدار الخراج على الجرب حسب
الواحد من المحصول نفسه ، وقد يعود ذلك الى اختلاف خصوبة الارض من مكان لاخر ،
ومد المناطق من الاسواق وقربها منها ، ويوضح ذلك رواية يحيى بن آدم عن الحسن
بن صالح ، قال : " قلت للحسن ما هذه الطسوق المختفة ؟ فقال : كل قد وضع
حالا بمد حال طي قدر قرب الارضين والخرض من الاسواق ومد ما . " (٩٩) وكذلك
فان عهد الطك عندما أراد أن يحدد تقدير الخراج اعاد طي الغلات الرئيسية الثلاث
في منطقة الشام والجزيرة وهي الحنطة والكروم والزيتون ، فجعل على كل مائة جريب
ما قرب ديناراً وعلى كل مائتي جريب ما بمد ديناراً وعلى الزيتون ، على كل مائة
شجرة ما قرب ديناراً وعلى كل مائتي شجرة ما بمد ديناراً ، وكانت غاية المد عنده
سيرة اليوم او اليومين واكثر من ذلك ، وطردون اليوم فهو من القرب . (١٠٠) ومن الواضح
أن هذه الفريضة ليست هي الخراج لأنها متواضعة بل هي اضافة نقدية محددة ، ويؤيد
ذلك عبارة أبي يوسف ، وحطت الشام مثل ذلك وحطت الموصل مثل ذلك . (١٠١)
أما فيما يتعلق بالوقت المحدد لاجتباء الخراج من أهل الريف فليس لدينا سوى

(٩٧) : البلاذري ، فتوح ، ص ٢٦٩ .

(٩٨) : المصدر السابق ، ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ .

(٩٩) : المصدر السابق ، ص ٢٧١ . يذكر البلاذري أنه عمر بن الخطاب راعى في كل أرض ما تحمله
في الشام - الأحكام السلطانية ، ص ١٤٨ .

(١٠٠) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ٤٩ .

(١٠١) : المصدر السابق ، ص ٤٩ .

روايتان تصوران الى عهد الفتح ، ترد الاولى عند الطبرى في الحديث عن صلح ايليسا :
" أن لا يرخذ منهم شي " حتى يحصد حصادهم " . (١٠٢) والثانية يورد ها أبو هيب في كتابه
الأموال عن أبي مسهر بن سعيد بن محمد العزيز ، عندنا سأل حمزة بن الغائب مالك سعيد بن
عادر بن حذيم (والي حمص سنة ٢٠٥ هـ) عن سبب تروا طوره في ارسال الخراج ، فبين له
أنه انما يؤخرهم الى غلاتهم ، فقال حمزة : لا عزلتك طاعتهم ، قال أبو مسهر ، ليس لأهل
الشام حديث في الخراج غير هذا ، ويحلق أبو هيب : " وانما وجه التأخير الى النقلة ، الرقيق بهم ،
ولم نسمع في استيفاء الخراج والجزية وقتل من الزمان يجتمع غير هذا " ، (١٠٣) ولم يتبع عمرو
بن الحاص هذا النظام مثلا في مصر ، اننا نبيده في كتاب الصلح الذي كتبه لأهل مصر
بين أن عليهم ما عليهم أثلاثا في كل ثلث جهاية ثلث ما عليهم ، (١٠٤) وهو في هذا متأثر
كما يبدو بالنظام الساساني حيث كان الخراج يجبي في ثلاثة أجم . (١٠٥)

وكما كان أهل انذمة يعفون من الجزية أعيانا ، مقابل مساعدتهم المصلحين كذلك
نلاحظ أن أبا هيبدة أطعم أهل السامرة أرضهم عندما صالحهم بالاردن وفلسطين ، على
أن يكونوا عيونا وأدلا لهم ، وفرض عليهم الجزية فقط ، واستمر هذا الوضع حتى خلافة
يزيد بن معاوية الذي وضع الخراج على أرضهم ، (١٠٦) أما أرض بني تغلب فقد وضع
عليها العشر مضاعفا (١٠٧) ولذلك قال بعض الفقهاء ان اشتراها مسلم فعليها العشر
مضاعفا بينما قال حسن بن صالح " من اسلم من بني تغلب فأرضه أرض عسر لأن الذي على
أرضه ليس خرابجا وليس عليهم الجزية " . (١٠٨)

أما أرض الخراج في الشام فمن اسلم رفعت الجزية عن رأسه ، وصار ما كان يسده

(١٠٢) : الطبرى ، ج ٣ ، ص ٦٠٩ .

(١٠٣) : أبو هيب ، الأموال ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

(١٠٤) : الطبرى ، ج ١ ، ص ١٠٩ .

(١٠٥) : الدينورى ، ص ٧١ .

(١٠٦) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٢٤ .

(١٠٧) : يحيى بن آدم ، ص ١٢ .

(١٠٨) : المصدر السابق ، ص ١٢ .

من الأرض بين أصحابه من أهل قريته يومون عنها ما كان يومونى من خراجها ، ويسلمون له ماله ورقبته وحرمانه ، (١٠٩) وصار من المسلمين له مالهم وعليه ما عليهم ، ولا يرون أنسه وان أسلم أولى بها كان في يديه من أرضه من أصحابه من أهل بيته وقربته ، لا يجعلونها صافية للمسلمين ، فسموا من ثبت منهم على دينه وقريته ذمة المسلمين ، ويرون أنه لا يصلح لأحد من المسلمين شراء ما في أيديهم من الأرضين كرها . . . وكرهوا للمسلمين شراؤها طوعا لما كان من إيقاف عمر وأصحابه الأرضيين محبوسة على آخر هذه الأمة من المسلمين المجاهدين . (١١٠)

ونفهم من نص زيورده ابن عساكر أن القرية كانت مسوؤلة عن دفع مبلغ الخسراج مضامنة فإذا أسلم الذمي اسقطت الجزية عن رأسه وبقيت الأرض لأهل القرية يقومون بزراعتها ويدفع الخراج عنها . (١١١)

(١١٢) وقد استقر خراج الشام في عهد معاوية كما يذكر المصنفون على :

٤٥٠	ألف دينار	خراج فلسطين
١٨٠	ألف دينار	خراج الأردن
٤٥٠	ألف دينار	خراج دمشق
٣٥٠	ألف دينار	خراج حمص
٤٥٠	ألف دينار	خراج قنسرين والمواصم
٥٥	ألف درهم	خراج الجزيرة وديار مصر وبيجة ، وكانت الجزيرة تابعة

لوالى قنسرين كما رأينا حتى أفردها عبد الملك ، وتشير رواية ابن المديم أن معاوية عند ما نصر قنسرين وأفردها من حمص وظف عليها الخراج أربع مائة ألف وخمسين ألف دينار . (١١٣)
فإذا قارنا بين ما استقر عليه الخراج في خلافة معاوية مع ما استقر عليه في خلافة

(١٠٩) : ابن عساكر ، تاريخ دمشق ، المجلد الأول ، ص ٥٩٣ .

(١١٠) : المصدر السابق ، ص ٥٩٣ .

(١١١) : المصدر السابق ، ص ٥٩٦ .

(١١٢) : المصنف ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٣٣ .

(١١٣) : ابن المديم ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ص ٤١ .

عهد الطك تلاحظ انخفاضاً قد يعود الى دخول بعض أهل الذمة في الاسلام من ناحية
وتحول بعض الاراضي الخراجية الى أراضٍ عشيرة ، كما سرتبين لنا في صدد الحديث
عن الاقطاعات في العهد الاموي ، وقد استقر خراج الشام في عهد عهد الطك كما نص
عليه البلاذري : (١١٤)

٣٥٠ ألف دينار	خراج فلسطين
١٨٠ ألف دينار	خراج الاردن
٤٠٠ ألف دينار	خراج دمشق
٨٠٠ ألف دينار	خراج حمص مع قنسرين .

أما قبرص فان معاوية صالحهم بعد فزوه الثانية على سبعة آلاف دينار ولم يزل أهل
قبرص على صلح معاوية حتى ولي عهد الطك بن مروان فزاد عليهم الف دينار ، فجرى ذلك الى
خلافة عمر بن عبد العزيز فحطها عنهم ، ثم لما ولي هشام بن عبد الطك ردها ، فاستمر الأمر
على ذلك حتى خلافة أبي جعفر المنصور الذي ردهم الى صلح معاوية . (١١٥)

بالإضافة الى أراضي الخراج ، وجدت في الشام والجزيرة أراضٍ كان يدفع عنها
أصحابها العشر ، وهي ما أسلمت عليه العرب أو عمرت من الموات ، (١١٦) الذي ليس لأحد
ويرفضه النصارى فمات وغلب عليه الدغل فأقطعه العرب . (١١٧) كما أن كل أرض أسلم عليها أهلها
وهي أرض العرب أو أرض المجمع فهي لهم وهي أرض عشر ، وكل أرض قسمت بين الذين
فتموها فهي أرض عشر . (١١٨) ومن مكحول أن كل عشري بالشام ، هو من جلا عنه أسلمه
فأقطعه المسلمون فأحيوه ، وكان مواتاً لا حق فيه لأحد فأحيوه باذن الولاة . (١١٩)

-
- (١١٤) : د . محمد ضياء الدين الرئيس ، الخراج والنظم الجالية للدولة الإسلامية ، الطبعة
الثالثة ١٩٦٩ ، ص ٢٧٥ .
(١١٥) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٩ .
(١١٦) : اذا لم يكن في الأرض أثر بناء ولا زرع ولم تكن فينا لأهل القرية ، ولا مسجداً
ولا موضع مقبرة ولا موضع محتطهم ولا موضع مرضى دوابهم وأغنامهم ، وليست بملك
أحد ، ولا في يد أحد فهي موات (ابو يوسف ، ص ٧٥ - ٧٦) .
(١١٧) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٤ .
(١١٨) : ابو يوسف ، الخراج ، ص ٨٢ .
(١١٩) : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٣٢٨ .

الصواني :

تذكر الروايات عموماً أن الأراضي التي كانت تابعة لقيصر وآله ولرجال الدين أو الأشراف ضمها عمر إلى بيت مال المسلمين وعرفت بالصواني ، لأنه استصفها أي جعلها خالصة للمسلمين وسميت أيضاً بالقطائع لأنها اقتطعت فيها بعد لمن يتشهدونها ، وكان عمر بن الخطاب يقطع هذه لمن أقطع . (١٢٠) ويعتبر أبو يوسف الصوفي بمنزلة المال الذي لم يكن لأحد ولا في يد وارث فلامام العادل أن يجيز منه ويعطي من كان له غناء في الإسلام ، ويضع ذلك موضعه ولا يحابي به ، (١٢١) وأن أرض القطائع قد يؤخذ منها العشر أو يؤخذ منها الخراج إذا كانت تشرب من أنهار الخراج ، (١٢٢) وهذا يعود إلى رأى الإمام ويؤخذ العشر من أصحابها إذا اضطر إلى حفر الأنهار وبناء البيوت وعمل الأرض لأن في ذلك مشقة عظيمة على صاحب الاقطاع . (١٢٣) ويبدو أن أبا يوسف اعتمد في قوله على ما كان متبعه في العصر الأموي ، إذ أن روايات سيف التي يوردها الطبري كلها تشير إلى أن عمر بن الخطاب قد أوقف الصواني على الفاتحين فقط ، فرواية سيف الأولى تشير إلى " أن سعد بن أبي وقاص ومقاتلة استصفوا ما كان لكسرى ومن لج/ فيئاً لمن أفا الله عليه ، ولا يجاز بيع شيء من ذلك فيما بين الجبل إلى الجبل من أرض العرب إلا من أهله الذين أفا الله عليهم ، ولم يجيزوا بيع ذلك فيما بين الناس . . . يعني فيمن لم يفقه الله تعالى عليه ، فأقره المسلمون لم يقتسموه ، لأن قسمته لم تتأت لهم ، فمن ذلك الأجسام ومفويض المياه وما كان لبيوت النار ولمسك الهرم ، وما كان لكسرى وأتباعه ، وما كان لمن قتل والأرحاء ، فكان بعض من يرق يسأل الولاة قسم ذلك ، فيطمعهم من ذلك الجسر ، أبوان ذلك ، فانتهاوا إلى رأيهم ولم يجيزوا . (١٢٤) أما رواية سيف الثانية عن طلحة عن ماهان ،

(١٢٠) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ٦٨ - ٦٩ ، يحيى بن آدم ، ص ٢٥ ، البلاذري ،

فتح ، ص ١٥٠ (عسقلان) .

(١٢١) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ٦٩ .

(١٢٢) : المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(١٢٣) : المصدر السابق ، ص ٦٩ .

(١٢٤) : الطبري ، ج ٤ ، ص ٣١ .

قال : كتبوا الى عمر في الصوافي فكتب اليهم ، ان اعدوا الى الصوافي التي اصفاكموها
الله ، فوزعوها على من افاها الله عليه ، أربعة أخماس للجند وخمس في مواضعه التي ،
وان احبوا أن ينزلوها فهو الذي لهم * فلما جعل ذلك اليهم رأوا أن لا يفترقوا في بلاد
المعجم ، وأقربوها حبسها لهم يولونها من تواضوا عليه ثم يقتسمونها كل عام ، ولا يولونها
الا من اجسوا عليه بالرضا ، وكانوا لا يجسمون الا على الامراء ، كانوا بذلك في السدان
والكوفة حين تحولوا الى الكوفة ، (١٢٥) ورواية سيف الثالثة تذكر أن عمر كتب الى
المقاتلة ان يجتازوا فيهم فانهم ان لم يفعلوا فتقدم العهد يلحق ، وأنه قد قضى الذي
عليه ، (١٢٦) فاذا أتينا الى رواية سيف الرابعة فانه يشير الى أن الفتي الذي يتداه
أهل الأمصار فهو ما كان للملوك نحو كسرى وقبصر ومن تابعهم من أهل البلاد فأجلس
منه فأتاهم شي * مرفوه . (١٢٧)

نستنتج من روايات سيف هذه أن الصوافي تركت للمقاتلين ، وأن عمر سح لهم بتوزيعها
على من افاها الله عليه أربعة أخماس للجند وخمس للدولة ، وأن ما ذكر في العراق ينطبق
على الشام ، وأن الصوافي كانت متفرقة في مناطق عدة في العراق ، لذلك اتفق رأى المقاتلة
على عدم اقتسامها ، وترك ادارتها للامراء لفاك تهم ، وعدم بيع هذه الأراضي . وبالرغم من
أنه ليست بين أيدينا روايات أخرى تؤكد ما ذكره سيف أو تنفيه ، الا أن التطورات التي حدثت
في الكوفة قد تدل على أن تقرير سيف صحيح من حيث الأساس ، ان أن أول انفجار
في الكوفة كان ضد أميرها سميد بن الناص (٣٠ - ٣٤ هـ) بسبب اشارة في مجلسه
فهيها الاشراف بأنها تطوي على نية الحكومة في الاستحوان على الصوافي . وقد منع عثمان
بعض الاقطاعات من الصوافي ، بل انه في الواقع سمح للمعز أن يبادلوا حصتهم فيها
بأراض في الجزيرة العربية ، (١٢٩) ويهد وأن ضم الصوافي الى بيت المال عصل أغيرا

(١٢٥) : الطبري ، ج ٤ ، ص ٣٢٢ .

(١٢٦) : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٣٢٢ .

(١٢٧) : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ .

(١٢٨) : الطبري ، ج ٤ ، ص ٣١٨ ، ٣٢٣ ، البلاذري ، انساب ، ج ٥ ، ص ٤٠ .

(١٢٩) : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٨٠ .

زمن معاوية بن أبي سفيان، (١٣٠) إذ يذكر اليمقوي، بأن معاوية استصفى ما كان للملوك من الضياع بالشام والجزيرة والعراق وصيرها خالصة لنفسه وأقطعها أهل بيته وأتباعه وخاصة، (١٣١) وبذلك لم تعد أرض الصوافي في العراق تابعة للقاتحين وإنما أصبحت تحت تصرف الخلافة في دمشق، وصار واردها كل سنة يحمل إلى دمشق، (١٣٢) وبلغت قيمة الصوافي زمن معاوية ٥٠ مليون درهم سنويا وفقا لرواية اليمقوي الذي يذكر أن معاوية قام باستصفاة أراض جديدة وذلك بالرجوع إلى ديوان الفرس، (١٣٣) وهذا يعني أن عمر بن الخطاب لم يرجع إلى هذا الديوان في استخلاص الصوافي، فكانت الفرصة متاحة للمزارعين والدهاقين بحيازة أراض فيها سواء الذين هرب أصحابها أو التي كانت للفرس، (١٣٤) فقام معاوية باستخلاص هذه الأراضى بالرجوع إلى سجلات الفرس. لا تصرف رد فعل القبائل على هذا الاجراء، ولكن ما حدث بعد حوالي أربعين عاما يدل على تسك الكوفيين بمنظرتهم، ذلك أنهم أحرقوا سجل الأراضى (الديوان) أثناء ثورة ابن الأشعث وأدعى كل قوم ملكية ما يليهم (١٣٥) وقد أمر عمر بن عبد العزيز في خلافته عامله على الكوفة أن يعطي أرض الصوافي لأناس يعمرونها على المزارعة، (١٣٦) ويظهر أن هذا الاجراء وما جرى بعد دير الجماجم من حيازة الناس لكثير من هذه الأراضى يفسر لنا ما قام به يزيد بن عبد الملك من النظر في الملكيات والاقطاعات في العراق، ففي رواية العباس بن هشام عن أبيه عن بعض آل الأهم قال : كتب يزيد بن عبد الملك إلى عمر بن هبيرة :

(١٣٠) : اليمقوي، تاريخ، ج ٢، ص ٢٣٤.

(١٣١) : المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٣٣.

(١٣٢) : الصولي، أدب الكاتب، ص ٢١٩.

(١٣٣) : اليمقوي، ج ٢، ص ٢١٨.

(١٣٤) : Lokkegaard, Islamic Taxation in the Classic Period, Copenhagen, 1950, p. 111.

(١٣٥) : البلاذري، فتوح، ص ٢٧٢، الطوردي، الاحكام السلطانية، ص ١٨٥.

أبو يوسف، ص ٦٨.

(١٣٦) : يحيى بن آدم، ص ٥٩، ابن رجب، الاستخراج لاحكام الخراج، تحقيق عبد الله

الصديق، القاهرة، ١٩٣٤م، ص ١٤.

انه ليس لأمر المؤمنين خروسة ، فسر على القطار ، فخذ فضولها لأمر المؤمنين ، فبجعل
عدياتي القطيعة فيسأل عنها ، ثم يمسحها ، حتى وقف على أرض ، فقال ، لمن هذه ؟
فقال صاحبها : لي فقال : ومن أين هي لك ؟ قال :

ورثناها عن آباء صدق ونورثها إذا متنا بنينا .

قال : ثم ان الناس ضجوا فأمنك . (١٣٧)

أما فيما يتعلق بالشام ، فاننا نلاحظ أن القادة العرب منذ البدء كانوا يسكنون

المقاتلة في كل مروض جلا أمه أو مساحة متروكة ، (١٣٨) وعندما توجه أبو عبيدة نحو

بالس (١٣٩) وقاصرين وكانت لأخوين من أشرف الروم أقطما القرى التي بالقرب منهدسا

وجعلا حافظين لما بينهما من مدن الروم بالشام - جلا اكثرهم الى بلاد الروم وأرض الجزيرة -

فعد أبو عبيدة الى ترتيب المقاتلة فيها كما أسكنها قوما من العرب الذين كانوا بالشام ،

فأسلموا بعد قدوم المسلمين ، وتضيف الرواية الى أن بالس والقرى المنسوبة اليها في عدد سا

الاهل والايوسط والاسفل عشيرة ، (١٤٠) كما أنهم أقطموا المقاتلة الاقطاعات في منطقة الساحل

لتشجيعهم على البقاء فيه ، وقد حدث ذلك في آخر خلافة عمر بن الخطاب أو أول خلافة عثمان

عندما هاجم الروم الساحل وظلوا على بعض مناطق ، فأخرجهم مساوية وشحن المناطق المعرضة

للخطر بالمقاتلة وأعطاهم القطار (١٤١) وقد فعل معاوية ذلك أيضا بانطربوس التي مصرها

فأقطع بها القطار وبقية ولنياس ، (١٤٢) وكانت انطاكية عظيمة الذكر عند عمر وعثمان

ولكن عثمان هو الذي أمر معاوية أن يلزمها قوما وأن يقطعهم القطار ، (١٤٣) أي أننا

نلاحظ كثرة القطار التي وزعت على المسلمين في فترة خلافة عمر وخاصة في خلافة

(١٣٧) : البلاذري ، فتوح ، ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(١٣٨) : المصدر السابق ، ص ١٣٧ .

(١٣٩) : بالس بلدة بالشام بين الرقة وحلب ، وكانت بوليس وقاصرين وهابدين وصفين قرى

منسوبة اليها ، (معجم البلدان ج ١ ص ٣٢٨) .

(١٤٠) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٥٥ .

(١٤١) : المصدر السابق ، ص ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ .

(١٤٢) : المصدر السابق ، ص ١٣٩ .

(١٤٣) : المصدر السابق ، ص ١٥٣ .

عشان بن عفان (١٤٤) ومن المؤكد أن هذه الاراضي التي اقطعت لم تكن من أرض الخراج ، وانما هي من الاراضي التي جلا عنها أهلها من الروم (والاشارات في هذا الصدد كثيرة في الساحل خاصة) أو بلفظ آخر من الصوافي ، ولذلك فانه يمكننا أن نعتبر الرواية التي يورد ها ابن عساكر عن الصوافي في الشام متعلقة بأراضي الصوافي التي كانت للدولة بحكم الخمس الذي يؤول اليها لاسيما وأننا سنرى وفقا لهذه الرواية أن أراضي الصوافي في الشام كانت محدودة . يذكر ابن عساكر أن القطائع في الشام كانت في البدء من أرض الصوافي ، وأن الصوافي هي الاراضي التي كانت لبطارقة الروم واشرافهم عندما كانوا مسيطرين على الشام ، فلما هزم الروم وهرب البطارقة والاشراف أو قتلوا ، أصبحت هذه المزارع والقرى صافية للمسلمين موقوفة بقبليها (١٤٥) والي المسلمين كما يقبل الرجل مزروعة ، كما أن الأموال التي تصل بيت مال المسلمين من الصوافي كانت تخرج نفقة مع ما يخرج من الخراج ، حتى كتبت معاوية في

(١٤٤) : السيلاندرى ، ص ١٥٠ ، ١٢٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٩ .

(١٤٥) : نلاحظ أن ابن عساكر يستعمل في نصه لفظ الثقيل ، والتقبل هو أن يجعل شخص قبيلًا والتقبل هو الكفيل ، والعريف الضامن ، أى أن يقوم شخص بتحصيل المال وأخذه لنفسه مقابل قدر معلوم يدفعه ، وهو ما عرف فيما بعد باسم نظام الالتزام ، فيستفيد السلطان تعجيل المال ويستفيد المتقبل الفرق بين ما يدفعه وما يحصله (الفيروزبادى ، القاموس المحيط ، الطبعة الثانية ١٩٥٣ . مادة (قبل) الخضرى ، معاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية ، ١٣٤٨ هـ ص ٦٩٩) وكلمة التقبل لا ترد إلا بشكل نادر عند التكلم عن العصر الاموى وربما استخدم ابن عساكر لفظًا كان شائعًا في عصره ، فقد وردت اشارة له في عهد هشام عندما تقبل فروخ بن المثنى من ضياع هشام بن عبد الملك بموضع يقال له رستاق الرمان أو نهر الرمان ، ثم زاد عليه حسان النهطي ألف ألف درهم فسلمت اليه ، ويبدو أن هذا النظام سيأخذ في الانتشار في العصر العباسي لأن أبا يوسف ينصح الخليفة هارون الرشيد أن لا يقبل شيئًا من السواد وغيره ، لأن المتقبل لا يبالي بهلاك أهيل الخراج بصلاح أمره في قبائله (الطبرى ج ٧ ص ١٤٢ ، أبو يوسف الخراج ، ص ١٢٥ ، ١٢٦) .

في امرت على الشام الى عثمان ، أن الذي اجراه عليه من الرزق في مطبه لا يكتفيه
لاستقبال من يذهب عليه من وفود الابدان ، ويرسل المراسيم ، ومن يقدم عليه من رؤساء
الديار ووفودها ، ووصفها هذه المزاج الصافية وسماها له ، بسائده أن يقتطسه اياها
ليحتطع القرية بواجبات تجاه تلك الوفود ، وأكده مساوية لمدن انما ايجت من قري أهل
الذمة ولا الخراج ، فكتب اليه عثمان بذلك كتابا ، ويضيف ابن حساكر بأن هذه
الأراضي بقيت بيد معاوية حتى قتل عثمان ، فلما أصبح معاوية غلبته أقرها على حالها
ثم جعلها من بعده عبسية على فقراء أهل بيت المسلمين ، وأقطع معاوية أناسا من قريش
وأشراف العرب قطائع من بقايا تلك الخراج التي لم يكن عثمان أقطعها اياها ، فلما أفضى
الأمر الى عبد الملك بن مروان منع القطائع من تلك المزاج التي بقيت والتي لم يكن معاوية
قد أقطع منها أحدا شيئا ، ولكن يبدو أن أرض النواحي هذه كانت معدودة ، ذلك أن
رواية ابن حساكر تشير الى أن عبد الملك سئل القطائع فوجد أن لم يمسق شيء من أرض
الصوافي يمكن منحها كقطائع ، فنظر الى أرض من أراضي الخراج وقد باد أهلها ، ولم
يتروا عقبها فاقطعهم منها ، ورفع ما كان عليها من خراجها عن أهل الخراج ، ولم يحطه
أحدا من أهل القرى ، وجعلها مشرا ، أي أن عبد الملك منع القطائع من أرض الخراج
التي باد أهلها ، ولكنه رفض أن يمنع القطائع من أرض القسري التي باد أهل
الذمة ، وطبق ذلك كل من الوليد وسليمان ، ولكنهما أدنا للناس في شراء الأرض منهم
مقابل ادغال أثمانها بيت المال ، وإطاعة أهل الخراج على دفع خراج سنتهم اذا لم
تكن لديهم القدرة على دفعه وثبتت ذلك في الدواوين ، واستقطب الخراج عن تلك
الأراضي وعن أهل قراهم وأصبحت هذه الأراضي تدفع المشسر ، ولذلك فإنه عندما
أصبح عمر بن عبد العزيز خليفة ، لم يتعرض لهذه الاقطاعات والاشسريرات
فلم يردا الى ما كانت عليه صافية ، ولم يجعلها خراجا ، وأمضاها لأهلها تؤدى العشر
لاختلاط الأصور فيها لما وقع فيها من الموارث ومهور النساء . وقضاء الديون ، ثم
كتب بذلك كتابا قسري على الناس سنة مائة ، وأعلمهم أنه لا خراج عليها وأنها أرض مشر ،

وكتب أنه من اشترى شيئاً بعد سنة مائة فان بيحه مردود وسوى سنة مائة المدة ، فساها
المسلمون بعد المدة ،^(١٤٦) ولذلك فانه عند ما كتب اسحق بن مسلم وكان حاطلاً لعمر بن
عبد العزيز على خراج الاردن بأنه وجد أرضاً من أهل الذمة بأيدي ناس من المسلمين ،
طلب منه عمر بن عبد العزيز أن يوقف ذلك البيع ،^(١٤٧) وطبق يزيد بن عبد الطك هذا
القانون ، كما طبقه هشام بن بعده ، بل ان هشام حسب رواية أبي زرعة كان يعاقب
البائع والمشتري وعامل المنطقة ، فعند ما بلغه أن خالد بن عبد الله انقضى
اشترى أرضاً من أرض الفوطية بخيرازنه ، أمر سالماً أن يكتب الى كعثوم بن عباس
والسي دمشقي أن يخبر الوليد بن عبد الرحمن حاطه على الفوطية أربع مائة دينار
ترسل الى هشام لأنه اشترى أرض بخيرازنه ، وكتب الى كعثوم أن يضرب وكسلي
القسري مائة مائة ويطلق بهما ويأمر من ينادى عليهما ، هذا جزاء من اشترى
أرضاً بخيرازن أمير المؤمنين ، ويوضح ابن عساکر أن هشاماً انما فعل ذلك لأنه وجد
فيها وضع عمر بن عبد العزيز حين استخلف أنه سأل اذا كان الولاية قبله قد نهوا
عن شراء الارض من أهل الذمة ، فسا قيل له بأنهم لم ينهوا ، قال : " فاني قد علمت
لن اشترى ، ولكن من اليوم أنهي عن بيعها ، انها أرض المسلمين دفعت الى أهل الذمة
على أن يأكلوا منها ويؤدوا خراجها ، وليس لهم بيعها ، وأن من يشتري بعد ذلك يعاقب
البائع والمشتري ، وترد الأرض الى النبطي ، ويؤخذ الثمن من المسلم فيجعل
في بيت المال ، " أي يدخل المال الذي أخذه النبطي بيت مال المسلمين .^(١٤٨) ونتيجة لتطبيق
هذا القانون في خلافة عمر بن عبد العزيز ويزيد وهشام ابني عبد الطك توقف الناس عن
شراء هذه الاراضي ، ولكن يبدو أن الوضع اختلف بعد اضطراب الوضع في المنطقة ، فساد

(١٤٦) : ابن عساکر ، تاريخ دمشق ، المجلد الاول ، ص ٥٩٦ .

(١٤٧) : المصدر السابق ، ص ٥٨٧ .

(١٤٨) : المصدر السابق ، ص ٥٨٧ .

الحرب المسلمون الى شرائها ، ودفع العشر عنها ، فلما أصبح أبو جعفر عبد الله بن محمد خليفة
رفعت اليه تلك الاشربة وانها توردى العشر ولا خراج عليها ، وأن ذلك آخر بانفسه خراج
وكسره ، فأراد ردها الى أهلها ، فقول له أنها قد وقعت في الحوانيس والمهسور والغنم
أمرها ، فبعث الصائلين الى كور الشام سنة أربعين أو احدى وأربعين ومائة ، وأمرهم
أن لا يضمنوا على شيء من الشطاع القديمة ولا الاشربة خراجا وأن يعضوها لأهلها عشيرة
ويضمنوا الخراج على ما بقي منها بأيدي الانباط وعلى الاشربة المحدثه بمدة سنة مائة ،
بمعنى أن أبا جعفر المنصور ، طبق نظام عمر بن عبد العزيز ، ولكن الأراضي الخراجية وفقسا
لهذه الرواية قد أصبحت تدفع الخراج سواء بقيت في يد أصحابها أو اشتراها المسلمون .
(١٤٩)

الضرائب الاضافية :

بالاضافة الى الجزية والخراج ، فرض على التجار العشر وسعى أشد به
بما نسجه اليوم بالضرائب الجمركية ، وكان عمر بن الخطاب أول من عسور سن
أهل العرب عندما كتب قوم من أهل الحرب الى عمر طالبين منه أن يسمح لهم بدخول
أرض المسلمين كتجار مقابل أن يدفعوا العشر ، فشاور عمر أصحاب رسول الله (صلعم)
في ذلك فأشاروا اليه أن يفصل ^(١٥٠) أما فيما يتعلق بالتجار المسلمين والمجاهدين فان يحيى
بن آدم يورد روايتين ، الاولى تذكر أن عمر بن الخطاب كتب الى أبي موسى الأشعري
أن يأخذ من تجار المسلمين من كل مائتين خمسة دراهم ، وما زاد على المائتين فن كل
أربعين درهما درهم ، ومن تجار أهل الخراج نصف العشر ومن أهل الحروب
العشر ، وهذه الرواية تتفق مع ما يذكره أبو يوسف ^(١٥١) أما الرواية الثانية فهي عن عبد الله
بن مفضل عن زياد بن جبر قال : ما كنا نعشر مسلحة ولا معاندا ، وإنما كنا نعشر تجسار
أهل الحرب كما يعشروننا اذا أتيناهم ، ^(١٥٢) وقد يفسر هذا الاختلاف في الروايتين قول

(١٤٩) : ابن عسار ، ص ٥٩٦ - ٥٩٧ .

(١٥٠) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٦١ ، المقرئ ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٥٠٨ - ٥٠٩ .

(١٥١) : أبو يوسف الخراج ، ص ١٦١ ، يحيى بن آدم ، ص ١٢٦ .

(١٥٢) : يحيى بن آدم ، ص ١٢٦ .

مالك رحمه الله : والسنة أنه ما أقام الذمة في بلادهم التي صالحوا عليها فليس عليهم فيها الا الجزية ، الا أن يتجروا في بلاد المسلمين ويختطفوا فيها فيؤخذ منهم العشر فيما يدبرون من التجارة ، وانا اتجر الذي في بلاده من اطلاقها الى استئجارها ولم يخرج منها الى غيرها ، فليس عليه شيء . . . مثل أن يتجر الذي الشامي في جميع الشام أو الذي المصري في جميع مصر أو الذي العراقي في جميع العراق (١٥٣) ويبدو أن أخذ العشر مرة واحدة من التاجر طبق في عهد الخلفاء الراشدين وفي خلافة عمر بن عبد العزيز ، أما في العصر الاموي والمصري الاخرى فكان العشر يؤخذ منهم وان اختلفوا في العام الواحد مرارا الى بلاد المسلمين . ويعلق المقرئ بأن أخذ العشر مرة واحدة من التاجر لم يطبق الا في عهد عمر بن عبد العزيز فيقول : وليس الحمل عندنا على قول عمر بن عبد العزيز وانما الحمل على أن يؤخذ منهم العشر وان خرجوا في السنة مرارا من كل ما اتجروا به قسلا أو كسرا (١٥٤) وكان سبيل ما يؤخذ من المسلمين من العشر سبيل الصدقة ، وسبيل ما يؤخذ من أهل الذمة جميعا وأهل العرب سبيل الخراج . (١٥٥)

ونلاحظ في بعض شروط الصلح التي عقدت مع أهل الذمة في الشام والجزيرة أنه فرضت عليهم ضرائب أخرى غير تلك التي ذكرناها ، ويمكننا اعتبار واجب الضيافة على أهل البلاد للجنود المسلمين الذين يهرون من هذه الضرائب ، فقد اشترط قادة العرب واجب الضيافة التي كانت أقصى مدة لها ثلاثة أيام (١٥٦) ومن أسلم مولى عمر أن عمر بن الخطاب لما قدم الشام شكى اليه أهل الذمة قاطنين : يا أمير المؤمنين انهم يكفوننا ما لانطبق بكفوننا الدجاج والشاة ، فقال : لا تطعموهم الا ما تأكلون ، مما يحل لهم من طعامكم . (١٥٧) وعمر بن الخطاب اشترط على أنباط الشام للمسلمين أن يصيبوا

(١٥٣) : المقرئ ، الخطوط ج ٢ ص ٥٠٨ .

(١٥٤) : المصدر السابق ج ٢ ص ٥٠٨ .

(١٥٥) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٦٠ .

(١٥٦) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣١ ، ١٥٦ ، ١٧٨ ، ابن عساکر ، تاريخ دمشق ،

المجلد الأولى ، ص ٥٦٣ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ .

(١٥٧) : ابن عساکر ، المصدر السابق ، ص ٥٧٣ .

من ثمارهم ونبتهم ولا يحطوا . (١٥٨) وفي تاريخ الرقة المحافظ القشيري عن الملا بن أبي عائشة طالب عمر بن عبد العزيز طلى الرها ، أنه جاء في شروط صلح هياض بن غنم لأهل الجزيرة ... وأن تقروا شعوبهم بولاية ، وعلى أن تحطوا وأجلهم من رستاق ابن رستاق ، وعلى أن نشاطركم سائرلكم ينزلها المسلمون ، (١٥٩) كما اتفق مع السكان في الهداية أن يتوسوا باصلاح الطرق والجسور والقناطر . (١٦٠)

وليس بين أيدينا روايات تشير الى أنواع أخرى من الضرائب فرضت في الشام في العصر الأموي ، وربما نستنتج من نصوص وردت في كتاب الخراج لأبي يوسف وكتاب الأموال لأبي سعيد وفي تاريخ اليعقوبي أن الامويين لم يكتفوا بالجزية والخراج والعشور من التجارة بل فرضوا أنواعا من الضرائب الاضافية التي جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز فالغاهسا ، وهذه الضرائب في الواقع تتعلق بالولايات الشرقية ، منها فرض ضرائب موحدة على الاراضي المزروعة وغير المزروعة ، وتحصيل ضرائب اضافية بعضها كان احياء لرسوم تقليدية ساسانية كهدايا النبروز والمهرجان ، (١٦١) وأول ذكر لهذه الهدايا في أثناء الفتح كان في عهد عثمان ، وذلك أنه في سنة ٣٢ هـ صالح الاعنف بن قيس أهل بلخ طلى أرمحاثة الف ، وأتاب ابن عمه وهو أسيد بن المتشمس لما أخذ منهم ما صلحوا عليه ، وقد قبض أسيد ذلك ، ووافق وهو بجيبهم المهرجان ، فأمدوا اليه نديا من آنية الذهب والفضة ودنانير ودراهم ومتاع وثياب . (١٦٢) فسألهم أسيد اذا كان ذلك ما صلحوا عليه ، فبينوا له أن هذا شيء يقدمونه في هذا اليوم لمن ولهم ، يستمطفونه به ، فقبرضه وعزله ، حتى قدم عليه الاعنف فأخبره فسألهم عنه ، فقالوا مثل ما قالوا لابن عمه ، فمعه الى ابن عامر وهو الامير فأخبره ، فقال : اقبضه يا أبا بصير فهو لك ، قال : لا حاجة لي فيه ، فأخذ ابن عامر

(١٥٨) : ابن سائر ، ص ٥٧٤ .

(١٥٩) : المحافظ القشيري ، تاريخ الرقة ، ص ٦ ، ٧ .

(١٦٠) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٧٨ .

(١٦١) : يقول الجاحظ في التاج ، ومن حق الطلح هدايا المهرجان والنبروز ، والملة في ذلك

أنهما فسلا السنة ، فالمهرجان دخول الشتاء ، وفصل البرد ، والنبروز ان يدخل

فصل الحر ، ص ١٤٦ .

(١٦٢) : الطبري ، ج ٤ ، ص ٣١٣ .

قال الحسن وهو يقص الحادث ، فضمه القرشي وكان مضمناً (١٦٣) وفي سنة ٤٣ هـ عزل
عبد الله بن عامر قيس بن المهيثم من خراسان لانه استهبط قيسا بالخراج ولانه أسسك عنده
الهدية ، ويبدو أن الهدية أصبحت واجبة فيما بعد ذلك حتى جاء مصر بن عهد العزيز
فأمر بإبطالها ، (١٦٥) و عهد الولاة كذلك الى تحصيل ثمن الورق المستخدم في الطلبات الرسمية
والاجور التي تدفع للمعال المشغطين في دور ضرب النقود ، واشترط المعامل تحصيل الضرائب
لمعامل ذات وزن معين بدلا من العملات المتوفرة لدى الاهالي والاستيلاء على فروق النقد .
وفي ذلك كتب مصر بن عبد العزيز الى عامله " . . . وأمرتك أن لا تحبل خرابا على عامر ، ولا عامرا
على خراب ، ولا تأخذ من الخراب الا ما يطيق ولا من العامر الا وظيفة الخراج في رفسق
وتسكين لأهل الارض ، وأمرتك ألا تأخذ في الخراج ، الا وزن سبعة لير لها أس ولا أجور
الضرائب ولا اذابة الفضة ، ولا هدية النوروز والمهرجان ، ولا ثمن الصحف ، ولا أجور الهبوت
ولا دراهم النكاح . (١٦٦)

وكتاب مصر بن عبد العزيز يتعلق بالضرائب الاضافية التي فرضت في الولايات الشرقية ،
فهناك ذكر لضرائب اضافية في مصر ، لا يتكلم المؤرخون العرب الذين يبحثون في تاريخ
مصر عن ضرائب اضافية انما يشيرون الى مساومات الامويين في زيادة نسبة الجزية والخراج ، (١٦٧)
الا أن ساويرس في كتابه سير البطارقة يشير مثلا أن قرّة بن شريك قد فرض على البلاد مائة
ألف دينار سوى خراجها المعروف ، (١٦٨) فاذا كان ما ذكره ساويرس صحيحا فان هذا يدل على
وجود ضرائب أخرى قد فرضت وان لم يشر اليها .

وانا ما درسنا أوراق البردي المتعلقة بالضرائب بين عامي ٨٠ و ١٠٠ فانها
تمطينا قوائم مما كان يدفعه الاشخاص ، وانذارات بدفع الضرائب والطلبات المالية

(١٦٣) : الطبرى ، ج ٤ ص ٣١٤ .

(١٦٤) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٠٩ .

(١٦٥) : الصولي ، أدب الكاتب ، ص ٢٢٠ .

(١٦٦) : ابويوسف ، الخراج ، ص ١٣٠ ، أبو عبيد ، الأموال ، ص ٤٦ ، ٤٧ ، اليحوقسي

تاريخ ، ج ٢ ص ٣٠٥ .

(١٦٧) : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٨٦ ، المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ١٤٥ .

(١٦٨) : ساويرس ، سير الابهة البطارقة ، ج ٥ ص ٦٤ .

التي تقتضيها المصلحة العامة من الأفراد ، كما أن بعض هذه الاوراق تعطى صورة عن
 الاثنان والاجور التي هي خير دليل على تقدير القيمة الفعلية للنقود .^(١٦٩) كما تشير اوراق
 البردي الى ان في سنة ٨٠ هـ مثلا دفعت بوسيط سبعين دينارا وواحدا وعشرين قيراطا
 ثم دفعت سنة ٩٢ هـ مبلغ مائة وأربعة دنانير وثلاثي دينار ، وفي سنة ٩١ هـ طلب اولسو
 الامر سبعين قيسما ، كل واحد يبيع دينار جزية لأمر المؤمنين^(١٧١) وكان الوالي يحتاج
 الى مواد مختلفة " لاعالتنا وللمحال الذين معنا من العرب والنجاري على السواء ولغيرهم"^(١٧٢)
 كما أن الاساطيل كانت بحاجة الى كثير من البحارة الذين يلتزم لهم دافعو الضرائب
 بأجورهم ، وكذلك الحال ازاء العمال الذين كان لابد من اتخاذهم للمصل في بيت المقدس
 وفي دمشق ،^(١٧٣) أي تلاحظ ازديادا في نسبة الخراج بين سنة ٨٠ هـ - ٩٢ هـ من ناحية ،
 وفرض طلبات معينة كانت تتطلبها مصلحة الدولة .

بيوت الاموال في الشام :

ابتداءً من خلافة عبد الملك بن مروان نجد ذكرا لبيوت الاموال في دمشق بدلا من كلمة
 بيت المال ،^(١٧٤) ما يشير الى أن عبد الملك ومن جاء بعده من الخلفاء قد جعلوا لكل نوع من المال
 بيت^{بيت} / بيت خاص ، فبيت مال للفي ، وآخر للصدقات ، وفي الطبقات لابن سعد عن اسحاق بن
 يحيى أنه قدم على عمر بن عبد العزيز في خلافته ، فوجده قد جعل للفي بيت مال على حدة ،
 وللصدقة بيت مال على حدة ، وللخمس بيت مال على حدة .^(١٧٥) ونحن نعلم أن الخمس في عهد
 الرسول كان يوزع وفقا للآية الكريمة " وأطموا انما غنمتم من شيء فان لله خمسة وللرسول

Greek Papyri in the British Museum, Vol. IV 1893. : (١٦٩)
 No. 1433 pp. 282 - 307. No. 1434. pp. 307 - 322.
 No. 1420 . pp. 231 - 241. No. 1424. pp. 254 - 256.
 Op. Cit. No. 1412, pp. 81 - 103. : (١٧٠)
 Op. Cit. No. 1362, p. 1 : (١٧١)
 Op. Cit. No. 1375, . : (١٧٢)
 Op. Cit. No. 1413. : (١٧٣)
 : (١٧٤) خليفة ، ج ١ ص ٣٩٥ ، ٤١٩ ، ٤٣٢ ، ج ٢ ص ٤٨٧ ، ٥٤٥ ، ٥٥٥ ،
 : (١٧٥) ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٢٩٥ . . . / . . .

ولذي القربى واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ،^(١٧٦) وهناك أمثلة كثيرة من ارسال
الخمس الى المدينة في العهد الراشدي والى دمشق في العصر الأموي ،^(١٧٧) وقد اختلف
الناس بعد وفاة الرسول الكريم في سهم الله ورسوله وذوى القربى ، ان كان
الخمس يوزع على خمسة أسهم ، لله وللرسول سهم ، ولذوى القربى سهم ، ولليتامى والمساكين
وابن السبيل ثلاثة أسهم ، ثم قسمه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم على ثلاثة
أسهم وسقط سهم الرسول وسهم ذوى القربى ، وقسم على الثلاثة الباقيين .^(١٧٨) وقد رأى البعض
ان سهم الرسول للخليفة من بعده ، وبعضهم رأى ان سهم ذوى القربى لقراءة الرسول
عليه السلام ، بينما قالت طائفة منهم ان سهم ذوى القربى لقراءة الخليفة من بعده ، ثم
أجمعوا على ان جعلوا هذين السهمين في الكراع والسلاح .^(١٧٩) وورد في الجامع الصحيح
للبخارى ، ان قول الله عز وجل ، فان لله خمسة وللرسول ، يعني للرسول قسم ذلك ، قال
رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " انما أنا قاسم وخازن والله يعطي " .^(١٨٠) ويبدو ان البعض كانوا يرون ان
سبيل الخمس سبيل النبي ، يكون حكمه للامام ان رأى ان يجعله لمن سقى الله جملة ، وان
رأى ان الأفضل للمسلمين والأوفر لحظهم ان يضعه في بيت مالهم لنائبة تنوؤ بهم ومصلحة تمن
لهم ، مثل سد ثغر ، واعداد سلاح وخيل وارزاق أهل النبي من الحقاتين والقضاة وغيرهم
من يجري لجراهم فعل .^(١٨١) ويبدو ان الامويين طبقوا هذا المبدأ ، بل ان هناك روايات تشير
الى ان الخمس في العصر الاموي كان يسوغ للولاة أحياناً ،^(١٨٢) فلما جاء عمر بن عبد العزيز
جعل للخمس بيت مال خاص ، وجعله لمن سقى الله ، ومن عطاء بن السائب ان عمر
بن عبد العزيز بعث سهم الرسول وسهم ذوى القربى الى بني هاشم ،^(١٨٣) كما ان عمر

(١٧٦) : سورة الانفال ، آية ٤١ .
(١٧٧) : ابن الاثم ، فتوح ، ج ٢ ، ص ١٢٣ ، ج ٧ ، ص ١٨٢ ، ١٨٨ ، ١٩٣ ، ابن الاثير
ج ٥ ، ص ١٥٩ ، وتلاحظ ان قتيبه في فتوحاته يوجه الخمس الى الحجاج ، ابن الاثم ،
فتوح ، ج ٧ ، ص ٢٢١ ، ٢٢٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٤٧ .

(١٧٨) : أبو يوسف ، الخراج ، ص ٢٣ .

(١٧٩) : المصدر السابق ص ٢٤ ، ٢٥ ، الصولي ، أدب الكاتب ص ٧٠٣ .

(١٨٠) : البخارى ، الجامع الصحيح ، ج ٢ ، ص ٢٧٨ ، كتاب فرض الخمس .

(١٨١) : ياقوت الحموى ، معجم البلدان ج ١ ، ص ٤٢ ، ويؤكد ذلك ماورد في صحيح

البخارى ، ان هناك أمثلة عديدة تعود الى عهد الرسول تشير الى ان الرسول

(صلى الله عليه وسلم) كان يستخدم الخمس لنواب المسلمين ، وان الخمس للامام ، ج ٢ ، ص ٢٧٣ ، ٢٨٧ .

(١٨٢) : الطبرى ج ٦ ، ص ٥٤٤ .

(١٨٣) : أبو يوسف الخراج ، ص ٢٥ .

ابن عبد العزيز طالب يزيد بن المهلب بخمس ما أنسا الله عليه عند فتحه جرجستان وطبرستان ، وكان يزيد قد كتب الى سليمان بأن الخمس قد بلغ ستة آلاف الف الف (١٨٤) فلما طالب الخليفة بالمبلغ أخبره أنه فضل ذلك لكي يسمع الناس به ، (١٨٥) فانظر عمر بن عبد العزيز الى سجنه لأنه حيز عن دفع المبلغ الذي هو حق من حقوق المسلمين . (١٨٦) وكسبان ما يرد بيت المال من خمس افريقيا ضخما حتى شاع لدى المشاركة أن هذا البلد أغنى بلاد الله طرا (١٨٧) وما ذلك الا لأن القادة العرب نظرا لمقاومة الهير الشديدة وكثرة انتقاضهم عدوا الى اعتبار الهير المقاومين لهم غنمة يأخذ بيت المال منها الخمس من أرض ونعم وأموال ، وبالرغم من أن الأراضي في اسبانيا قسمت قسمة الغنمة ، فان الوقت لم يسمح لموسى بن نصير أن يأخذ هذا الخمس كله ، فبقيت بعض الأراضي دون تخميس ، وكان في هذا اجحاف بحق بيت المال ، ولذلك أرسل عمر بن عبد العزيز السج بن مالك الخولانسي من دمشق كوال للأندلس وكلفه القيام " باكمال التغميس وتميز أرض العنوة عن أرض الصلح ليصح التخميس " وكان معه عدد من البند يبلغ الخمسائة حسب قول احدى الروايات ، وفي هذه الاوامر المحطاة له ما يفسح المجال للاعتقاد بأن عمر يرى أن بعض أراضي الأخطاس كانت في أيدي الفاتحين ، كما أن بعض أراضي الخراج اختلطت بغيرها ، أي ربما اشتراها الفاتحون من أصحابها ، فانقلبت من أرض خراجية تدفع نسبة عالية من الضرائب (مثالثة ، او مراهمة) الى أرض عشيرة ، وقد رأينا أن عمر بن عبد العزيز قد منع هذا العمل في المشرق ، وربما أراد أن يطبقه على المغرب ، وفي كلا المطين ما يعرض مصالح النازلين في الاندلس ، فلجؤوا الى تملكتهم المعروفة ، وهي الرغبة في العودة الى المشرق ، كما أظهروا خوفهم من أن يشاركونهم

(١٨٤) : الطبرى ، ج ٦ ، ص ٥٤٤ .

(١٨٥) : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٥٥٧ .

(١٨٦) : المصدر السابق ، ج ٦ ، ص ٥٥٧ .

(١٨٧) : د . أحمد بدر ، دراسات في تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٤٤ .

القادمون الجدد في أراضيهم ، فأقرهم عمر على ما بأيديهم وعلى ما سجله لهم الوليد وموسى بن نصير ، وأسر والده أن يقر القرى بأيدي أربابها ، وأن يقطع السجون المرانيتين له بن أراضي الأخصاس .^(١٨٨) أما بيت مال النبي ، فكان يوضع فيه ما يرد من مال الجزية والخراج وعشور التجارة من أهل الذمة والحرب وصدقة بني تغلب ، كما أن الفائض من الولايات في العصر الاموي كان يرسل الى بيت المال بدمشق .

يذكر اليعقوبي " أن خراج مصر استقر في عهد معاوية على ثلاثة آلاف الف دينار ولم يكن عمرو بن العاص يحمل منها اليه الا الشيء اليسير ، فلما مات عمرو حمل المال الى معاوية ، فكان يفرق في الناس اعطياتهم ويحمل اليه الف الف دينار .^(١٨٩) أما ابن عبد الحكم والمقريزي فيشيران الى أن مقدار المال الذي أرسله سلطنة بن مخلد والي معاوية على مصر (٤٧ - ٦٢ هـ) بعد أن أعطى أهل الديوان اعطياتهم واعطيات عيالهم وأرزاقهم ونوائبهم ونوائب البلاد من الجسور وأرزاق الكتبة وحملان التمح الى الحجاز كان يبلغ ٦٠٠ ألف دينار فضلا ،^(١٩٠) بينما يذكر ساويرس أن ما كان يحمل الى بيت المال يقدر بمائتي الف دينار بعد النفقة على الجند وما تحتاج اليه البلاد .^(١٩١) وهذا الاختلاف في الارقام قد يشير الى أن فضول الاموال التي ترسل كانت تختلف من فترة الى أخرى تبعاً لزيادة أو نقصان النفقات في الولاية . الا أنه من الثابت أن مصر كانت ترسل الفائض الى بيت المال في دمشق ، أما في العراق فقد اختلف الوضع ، إذ أن قبائل كل من البصرة والكوفة كانت ترى أن لاحق للخلافة بالتصرف بأموال النبي خارج نطاق مصر ، وحاول عمر بن الخطاب مراعاة النظرة القبلية والتمشي معها ، وأوصى قبل موته بأهل الأمصار خيراً . . . وأن لا يؤخذ منهم الا فضلهم

(١٨٨) : احمد بدر ، المرجع السابق ، ص ٤١ ، ٤٤ .

(١٨٩) : اليعقوبي ، تاريخ ، ج ٢ ، ص ٢٣٤ .

(١٩٠) : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٠٢ ، المقريزي ، الخطط ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(١٩١) : ساويرس ، ج ٥ ، ص ١٨٩ .

من رضى منهم ، (١٩٢) وعندما كتب عمر الى حذيفة " ان اعط الناس اعطياتهم وارزاقهم فكتب اليه انا قد فسلنا وفي شي كثير ، وكتب اليه عمر انه فيهم الذي انا الله طمهم ليس هو مصر ولا لال عراقسه بينهم " (١٩٣) وبالوفم من سياسة هو هذه فان اهل الكوفة كانوا دوما يطالبون الا يحمل فضل فيتهم عندهم وان يسار فيهم بسيرة علي بن ابي طالب التي سار فيها في البلاد ، ولقد رأت القبائل العربية في انتصار معاوية واهل الشام تهديدا لحقوقها في الفي ، لذا خطب الحسن بن علي القبائل العربية عند تنازله عن الخلافة لمعاوية وقال : " وقد اخذت لكم طر معاوية عهد الله وميثاقه بأن يمدل بكم ويوفر فيكم : (١٩٥) وبقيت هذه النظرة طيلة الفترة الاموية ، (١٩٦) واتهمت القبائل معاوية باسئثاره بفيثها حين كان يأخذ فضول بيت المال . (١٩٧)

ويمكننا ان ناخذ فكرة عن فضول الاموال التي كانت ترسل ، مما يذكره البلاذري عن المدائني عن سلحة بن محارب ان زيادا كان يجبي من كور البصرة ستين الف الف ، ويحطى الذرية ستة عشر الف الف درهم ، وينفق في نفقات السلطان الفي الف ، ويجعل في بيت المال للمواثق والنواب الفي الف درهم ، ويحطى للمقاتلة ستة وثلاثين الف الف ويحمل الى معاوية اربعة آلاف الف ، وكان يجبي من الكوفة اربعين الف الف ويحمل الى معاوية ثلثي الاربعة آلاف الف ، لأن جباية الكوفة ثلثا جباية البصرة ، وحمل عهد الله بن زياد الى معاوية ستة آلاف الف درهم فقال : " اللهم ارضى عن ابن اخي " . (١٩٨)

وعندما توفي معاوية دعا اهل الكوفة الحسين بن علي ، ووصفوا معاوية بأنه غضبها فيثها وجعل مال الله دولة بين جبايرتها وأغنيائها . (١٩٩) وظهرت الدعوة لتوفير الفي في الشورات

(١٩٢) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٣ ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .

(١٩٣) : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢١٥ .

(١٩٤) : الطبري ، ج ٦ ص ١١ .

(١٩٥) : تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول ، ص ١٢٧ .

(١٩٦) : الطبري ، ج ٥ ص ٤٠٣ ، ٥٠٩ ، ج ٦ ص ٤٣ ، ٤٤ ، ١٠٥ .

(١٩٧) : الجاحظ - رسائل الجاحظ وتحقيق عهد السلام هارون ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ج ٢ ص ١١ ، ابن ابي الحديد ، شرح نهج البلاغة ، تحقيق محمد ابوالفضل

ابراهيم ، القاهرة ، ١٩٥٩ م ، ج ٥ ، ص ١٣٠ .

(١٩٨) : البلاذري ، انساب ، القسم الرابع ، ج ١ ص ٢١٨ ، ابن الاثم ، فتح ، ج ٤ ص ١٨١ .

(١٩٩) : الطبري ، ج ٥ ، ص ٣٥٢ .

ضد الحكم الاموي ، فالخوارج اتهموا الامويين بالاعتزاز بالثني* والاستئثار به (٢٠٠) واحتج
المراقبون على الحجاج لاحضاره الجيش الشامي الى حساب وارد العراق ، وقام يزيد
بن هلي سنة ١٢٢ هـ ، وكان في نص بجمته " وقسم هذا الثني على اهله " (٢٠١) وخطب
يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٦ هـ الناس فقال لهم " ان لكم علي مهديا ان
لا أنقل مالا من بلدة الى بلدة حتى أسد ثغر ذلك البلد وخصاصة ثغره ، بما يمينهم ،
فان فضل فضل نقله الى البلد الذي يليه من هو أحوج اليه " (٢٠٢) وهكذا نرى أن القبائل
في العراق كانت ترى أن الدولة تستأثر بفتحها وتعتزها ، ولعل هذا كان له أثره في موقف
القبائل في العراق من الدولة الاموية .

بالرغم من عدم توفر الروايات التي تشير الى ما كان يرد من ولاية افريقيا ، فان
دراسة العوامل التي أدت الى ثورة البربر سنة ١٢٣ هـ توضح أن ولاية افريقيا اضطروا
نظرا لارتسوخ في المشرق من أفكار حول غنى المغرب أن ياجؤوا الى بعض الوسائل القديمة
في المصادرات بعد زوال مبرراتها ، كسي لا يظهرها لدى الخليفة كتمسرين من غيرهم ،
كما أن تعيين عبيد الله بن الحبحاب واليا على افريقيا وهو الذي نفذ عطية المسح في مصر ،
مع تقدير جديد للضرائب ، قد نستنتج منه رغبة الخليفة هشام بن عبد الملك في سد
هذه التنظيمات للمغرب ، لا سيما أنه يرد في بعض روايات لابن عبد انعم ذكر عرضي
لعمليات التنظيمية ، وذلك بتقسيم المغرب الأقصى الى قسمين ، السوس الادنى وهو
طنجه وما والاها والسوس الأقصى (٢٠٤) أما الاندلس فيرى الدكتور أحمد بدر أنه ليس هنالك
إشارة اليه لارسال الاموال من هذا البلد الثغني سواء الى والي افريقيا أو خليفة دمشق .
(٢٠٥)

-
- (٢٠٠) : الطبري ، ج ٥ ص ١٩١ .
(٢٠١) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ١٧٢ ، البلاذري ، انساب ، الجزء الثالث ، تحقيق
محمد باقر المحمودي ، بيروت ، طبعة أولى ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ص ٢٣٨ .
(٢٠٢) : الطبري ، ج ٧ ص ٢٦٩ .
(٢٠٣) : القهزبي ، الخطط ، ج ١ ص ١٨٢ .
(٢٠٤) : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج ١
ص ٥١ - ٥٢ .
(٢٠٥) : أحمد بدر ، دراسات في تاريخ الاندلس وحضارتها ، ج ١ ص ٣٤ .

بالإضافة إلى فضول الأموال التي كانت ترسل إلى بيت المال في دمشق كان يرسل إلى الخليفة في مصر الأموال بهدايا التبرع والتميز، ومن الولايات الشرقية، فلما كانت خلافة عمر بن عبد العزيز نهى أن يذبح الربيع في التبرع والتبرع به شيئا (٢٠٦) وربما أهدى إرسال هذه الهدايا إلى الخليفة اثر وفاة عمر بن عبد العزيز.

بيت مال الصدقة :

من الطبيعي أن يكون للصدقة بيت خاص ، لأن أموال الصدقة وجوه صرف غير مال الخراج ، وفقا للآية الكريمة " وإنا الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والموظفة لولئهم وفي الرقاب والفقراء " وفي سبيل الله وابن السبيل " . (٢٠٧) وكان مال الصدقة يأخذون ويؤتاهم من مال الصدقة بينما كان موظفو الدولة كلهم يأخذون أرزاقهم من مال النبي ، ولا يجوز نقل صدقات بلاد إلى بلاد غيره ، (٢٠٨) إلا سبيل الله في الغزاة فإنه ينقل إليهم ، لأنهم يسكنون الثغور ، (٢٠٩) وكانت العشور تفرض على أهل البعث، وعلى المسلمين صدقات أموالهم . (٢١٠) ويظهر أن الأمويين جعلوا العشور وظيفة تجمع نقدا ، فمن رواية عبد الله بن جعفر بن أبي الطيخ عن سليمان بن عبد الملك قال : قال عمر بن عبد العزيز ، فقال : كم جمعت من الصدقة ، قال كذا وكذا ، قال ، فكم جمع الذي قبلك ، قال ، كذا وكذا ، فسي شيئا أكثر من ذلك ، فقال عمر : من أين ذلك ، قال : بأمر السوء من أن كسان يؤخذ من الفرس دينار ومن الخادم دينار ومن الفدان خمسة ، وإنك طرحت ذلك كله ، قال : لا والله ، ما لقيته ولكن الله القاه . (٢١١) وكان عمر بن عبد العزيز دقيقا جدا في صرف أموال الصدقة في وجوهها ، فقد عليه ما صدم بن عمر بن قتادة وشيخ بن محمد بن عبد الله بن زيد ، في خلافته ، فدخلا عليه بخصاصة ، فذكرا دينا عليها ، ففرض من كل واحد منهما اربعمائة دينار فخرج الصك يعطيان من صدقة كلب ما عزل فسي بيت المال ، قال محمد بن عمر ، وكان ذلك المنزل قدم به لم يوجد احد منهم يقضى عنه دين

-
- (٢٠٦) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٠٠ ، ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٢٧٦ .
(٢٠٧) : أبو يوسف ، ص ٩٥ ، ابن تيمية ، السياسة الشرعية ، ص ٣٤ .
(٢٠٨) : أبو يوسف ، ص ٩٦ .
(٢٠٩) : الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص ١٢٤ .
(٢١٠) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ٨٢ .
(٢١١) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٢٧٧ .

فأدخل فضله بيت المال عزلا لأنه يقضي به عن الديان فهذا وجهه ، (٢١٢) وعن محمد بن عمر أنه قضى منه ابن أبي حيشم وهو خليفة خمسين ومائتي دينار من صدقات بني كلاب وكتب بها ، ذلك أنه لم يزل رأى عمر بن عبد العزيز والذي يشير به علي بن ربي هذا الأصر من أهل بيت ، توفير هذا الخمس على أهله (الغارمين) فكانوا لا يفعلون ذلك ، فلما ولي الخلافة ، نظر فيه فوضعه في مواضع الخمسة ، (٢١٣) وفي طبقات ابن سعد أن عمر بن عبد العزيز ربما أعطى المال يستأنف على الإسلام وأنه أعطى بطريقة الف دينار استأنفه على الإسلام. (٢١٤) كما اتخذ عمر بن عبد العزيز دار طعام للمساكين والفقراء وإيثار السبل ومنع أهله أن يصيروا من تلك الدار شيئا. (٢١٥)

النقود المتداولة في الشام :

كان بين الدولة البيزنطية وبين الدولة الساسانية معاهدة خاصة بالعملة تقضى بأن يضرب الساسانيون نقودا من الفضة فقط ، وبألا يتخذوا عملة ذهبية سوى العملة الرومسية ، ولهذا كانت عملة بلاد الفرس الجارية هي الدراهم الفضية ، بينما شاعت العملة الذهبية في البلاد الإسلامية التي كانت سابقا تابعة للدولة البيزنطية. (٢١٦) وقد عرف عرب الجزيرة النقود الذهبية والنحاسية البيزنطية اصلتهم الوثيقة بعرب الشام . فقد كانت التجارة بينهم موسمية منتظمة ، يحمل التجار من عرب الجزيرة حاصلات اليمن والحيشة والسواحل الافريقية ، وربما بعض ما يورد من الهند الى الشام ، ويوردون بمنتجات الشام والنقود البيزنطية ، وكانت النقود البيزنطية المتداولة قبل الإسلام وبعد ، هي نقود فوكاس (٦٠٢ - ٦١٠ م) ونقود هرقل (٦١٠ - ٦٤١ م) ، ولا بد أن تكون بعض نقود الباطرة السابقين موجودة أيضا بدليل أن النقود المقطعة من قبل العرب تحمل صورهم ، وكان النقد البيزنطي يسمى سوليدس (Solidus) ووزن ٤.٤٨ غم تقريبا ، (٢١٧) أما النقد النحاسي

(٢١٢) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٥٧ .

(٢١٣) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٥٧ .

(٢١٤) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٥٨ .

(٢١٥) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٧٩ .

(٢١٦) : آدم ميتز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، تصريب محمد عبد الهادي ابوربد ، القاهرة ، ١٩٤٠ ، ج ٢ ، ص ٣١٦ .

(٢١٧) : Ostrogorsky , Op. Cit , p. 39

(٢١٨) وهو ما أطلق العرب عليه اسم فلحس.

يتبين لنا مما ورد في المصادر التاريخية أن الجزية والخراج ، وأعطيات الجند في الشام و مصر كانت تدفع بالدينانير ، بينما كانت الدراهم هي العملة التي تستخدم في العراق والمشرق ، وتشير المصادر إلى أن عمر بن الخطاب وعبد الله بن الزبير ونصيب ضربوا الدراهم على الطراز الساساني ،^(٢١٩) بينما سك معاوية في خلافة الدراهم والدينانير ،^(٢٢٠) وأن الدينانير التي ضربها^{عليها} أمثالها متقلدا سيفا ، ولكن طلحة الأثار لم يجدوا بعد ديناراً مساوية عليه تمثاله ، ومن الخريب إلا يذكر المؤرخون القدامى شيئا من الصورة التي أن أتى المقرئ فاعطانا معلومات أكثر تفصيلا من شكل النقود والمأثورات ، ولذلك يتساءل الاستاذ المش إذا كان المقرئ قد عثر على كتاب أو وثيقة ذكرت فيها هذه المعلومات .^(٢٢١)

ويجمع المؤرخون على أن عهد الطك هو أول من ضرب الدراهم والدينانير العربية فسي الاسلام ، وان كان المؤرخون يختلفون في السنة فان عددا كبيرا يؤكد أن ذلك تم سنة ٧٦هـ^(٢٢٢) وكانت قضية اصلاح النقود وتوحيدها في جميع أنحاء الدولة الاسلامية ضرورة بالغة الأهمية لوضع حد للفوضى والصعوبات أثناء جمع الجزية والخراج ، مثال على ذلك ، أن الخليفة عمر قسّط الخراج في العراق ورقا وعينا ، والدراهم تؤدي فيه عددا ، ففسد الناس فكانوا يؤدونه بالطهيرة ووزن الدرهم أربعة دنانق ويستبدون بالواني ووزنه مثقال ، فلما ولسي زياد طلبأباد الوافي فشق ذلك على الناس ، فلما أصبح عبد الملك خليفة قَدّر وزن الدرهم على نصف وخمس مثقال ، وترك المثقال على حاله ،^(٢٢٣) ويذكر البلاذري أنه لما استوثق

(٢١٨) : محمد ابو الفرج المش ، النقود العربية الاسلامية ، مصدر وثائقي للتاريخ والفسن ،

المؤتمر الدولي لبلاد الشام ، الجامعة الاردنية ، ١٩٧٤ ، ص ٤٧٢ .

(٢١٩) : الاب أنستاس الكرملبي ، النقود العربية و علم النميات ، ١٩٢٩ م ، المقرئ ،

كتاب النقود الاسلامية ، ص ٣٢ .

(٢٢٠) : المصدر السابق ، ص ٣٣ .

(٢٢١) : محمد ابو الفرج المش ، النقود العربية الاسلامية ، ص ٢٨١ .

(٢٢٢) : الدينوري ، ص ٣١٦ ، ابن قتيبة ، المعارف ، ص ٢٤١ ، الطهري ، ج ٦ ، ص ٢٥٦ ،

ابن الأثير ، ج ٤ ، ص ٥٤ ، القلقشندي ، ج ١ ، ص ٤٢٤ ، السيوطي ،

تاريخ الخلفاء ، ص ٢٣٧ .

(٢٢٣) : أبو هلال العسكري ، الأوائسل ، ج ٢ ، ص ٣٢ .

الأمر لعبد الملك بن مروان بحد مقتل عبد الله ومصعب ابني الزبير ، فحصى من النقود
والاوزان والحكاكيل وضرب الدنانير والدراهم سنة ست وسبعين من الهجيرة فجعل وزن الدينار
اثنين وعشرين قيراطا الا مائة بالشامي ، وجعل وزن الدرهم خمسة عشر قيراطا سوى (أى
لا زيادة فيه ولا نقصان) والقيراط أربع حبات وكل دائق قيراطين ونصف ، وجعل عبد الملك
الذهب الذي ضربه دنانير على الحثقال الشامي . (٢٢٤)

ومرّ تعريب النقود في الواقع بمراحل قبل أن يصبح النقد عربيا خالصا ، وقد وجد
دينار في سورية حوالي ١٩٥٤ م وانتقل الى لبنان ومنه اقتني لصالح متحف كراتشي ميست
هو محفوظ فيه الآن ، وهذا الدينار العربي الجديد يعود الى سنة ٧٤ هـ وهو يشتمل
على الوجه شخص عبد الملك واقفا متقلدا سيفا مرتديا ملابس مزركشه ، وكتب في المنادار
حول حوله حسب اتجاه حركة عقرب الساعة " بسم الله ، لا اله الا الله وعده ، محمد رسول الله " .
وعلى الظهر بدا في الراسل المصلي البيزنطي الصغير وكتب وراءه " بسم الله " . وكان هذا التعريب
الساعة أيضا " بسم الله " ضرب هذا الدينار سنة ٧٤ هـ ، . هذا الدينار لا يزال
فريدا في العالم ، وقد ضرب على نمطه دنانير في السنوات ٧٥ - ٧٦ - ٧٧ هـ ، وكان
هذا الدينار يمثل الخطوة الخامسة من مراحل تطور النقود الذهبية نحو التعريب ، حيث
كان التعريب واضحا ، وان كان التأثير البيزنطي لا يزال موجودا ، أما الدنانير العربية
الخالصة فلا تحمل صورة للخليفة وانما تحمل مآثورات عربية صرفة ، من ضمنها آيات قرآنية ،
وقد اثني ابن خلدون على ابداع النقد العربي الصرف بقوله " ونقش عبد الملك فيه كلمات
لا صورا ، لأن العرب كان الكلام والبلاغة أقرب مناهجهم وأظهرها مع أن التسرع
ينهي عن الصور " . (٢٢٦)

(٢٢٤) : استاس الكرلي ، النقود العربية ، البلاذري ، ص ١٠ ، المقريزي ص ٣٤ .

(٢٢٥) : Miles, The Earliest Arab Gold Coinage. 1967 p. 212.

(٢٢٦) : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ١ ص ١٩٢ ، تاريخ الخلفاء للسيوطي ، ص ٢٣٧ .

لا يحمل دينار عبدالمك الذي ضرب سنة ٧٩ هـ الا الآيات القرآنية على الوجهين والأطراف ، وكان قطر الدينار الاموي ، بين ١٨ و ٢١ مم وكان وزنه بين ٤٢٠ و ٤٣٠ غرام وهو اقل من وزن الدينار العربي المضروب حسب النخط البيزنطي ، وكان ذلك ضروريا من أجل ايجاد نسبة عادلة بين الدينار الذهبي والدرهم الفضي وزنا وثقبة .^(٢٢٧) الى جانب الدينار صك الامويون عملة قيمتها نصف دينار ووزنها ٢٠٦ غ و ٢١٢ غ وثلت دينار ووزنه بين ١٣٩ و ١٥٥ غ .

والملاحظ أن مكان الضرب لم يظهر على الدنانير العربية على الاكثر ، وهذا يعني أن الدنانير كانت تضرب بدمشق في بادئ الأمر ، وقد جاء في رواية الوليد بن مسلم عن الازاهي وسعيد بن عبدالمعز أن عمر بن عبدالمعز كتب الى صاحب بيت الضرب بدمشق . " أن من أتاك من فقراء المسلمين بدينار ناقص فابدله بوازن " .^(٢٢٨) ويرى الاستاذ المش أن الدنانير الأموية العربية الصافية في افريقيا ضربت في دمشق لصالح المغرب ، ان أنها شبيهة بالنقود الشرقية ، ولا تختلف الا بذكر افريقيا ، وأن الدارس اذا أمعن النظر في الخط على هذه الدنانير يرى أنه لا يختلف عن الخط المشرقي وأسلوبه ، وأنه يوجد في متحف دمشق دينار فريد ضرب لصالح افريقيا سنة ١١٠ هـ حسب النخط المشرقي ، كما يوجد دينار آخر في متحف دمشق ضرب سنة ١١٦ هـ ، أما الدينار الموجود في برلين فقد ضرب سنة ١٢٢ هـ .^(٢٢٩) وممّ تمرب الفلوس البيزنطية بمراحل اكثر تمدادا وربما أطول أمدا ، فقد قلد العرب الفلوس البيزنطية ، ولكنهم أضافوا اسم مكان الضرب بينما كانت النقود البيزنطية عامة خالية من أسماء المدن السورية ، ماعدا انطاكية التي كان لها منزلة دينية ، وقد وجدت فلوس نقش عليها اسم بيسان ، بعلبك ، دمشق ، طبرية ، ايليا ، فلما أصبحت النقود النحاسية عربية ، وجد هناك أنواع عديدة تختلف في وزنها وحجمها وأشهراتها

(٢٢٧) : محمد ابوالفرج المش ، النقود العربية الاسلامية ، ص ٢٧٦ .

(٢٢٨) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ٢٧٦ .

(٢٢٩) : Walker, A Catalogue of The Muhammeden Coins, in the British Museum, Vol. II P. 100.

بعضها مغفل ، وبعضها يحمل مكان الضرب ، وأخرى تحمل مكان الضرب والتاريخ ، وقلوب تحمل اسم الخليفة ومكان الضرب والتاريخ أحيانا وأخرى تحمل اسم الوالي ومكان الضرب والتاريخ. (٢٣٠) ولذلك فإن المعلومات التي تقدمها العملة النحاسية أكثر أهمية من تلك التي تقدمها الدراهم أو الدينار ، فالدراهم كانت تحمل اسم مدينة الضرب ، ما يشير إلى أن الخليفة فوض الولاية بهذه المهمة ، وكان عبد الملك قد كتب إلى الحجاج بضرب الدراهم وحث إليه بالسكة ، فسيّرهما إلى الأفاق ، لتضرب الدراهم بها. (٢٣١) واستمر الولاية بضرب النقود حتى خلافة هشام بن عبد الملك الذي أمر خالد بن عبد الله القسري والي العراق سنة ست ومائة أن يبطل السك من كل بلدة إلا واسطا ، (٢٣٢) وكذلك فعل يوسف بن عمر الثقفي عندما عزل خالد سنة عشرين ومائة ، فلما استخلف مروان بن محمد بضرب الدراهم بالجزيرة بحرّان . (٢٣٣)

أثر النظام الضريبي على النشاط الزراعي :

انتشر الحرب بالفتوح في بلاد الشام كلها إلا أنهم لم يتعرضوا لجماعات القرى بأى أذى أو ضرر كما يتبين من عهود الصلح الكثيرة ، وكانت خططهم منذ البداية قائمة على عدم الأضرار بالفلاحين ، بل إن قيادة العرب بذلوا جهودهم لتوفير الطمأنينة في نفوسهم وبقائهم على الأرض ، واعتبروا الفلاحين أحرارا ، هذا مع إعادة تنظيم الضرائب والإشراف على جبايتها ، وجعل الخراج وفقا للمساحة ونوع الزرع وإبطال الامتيازات السابقة ، وهذه أمور لا بد أن تنعكس على أوضاع المزارعين في المنطقة .

-
- (٢٣٠) : محمد أبو الفرج العسقلاني ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ .
(٢٣١) : انستاس الكركلي ، النقود العربية وطم النميات ، البلاذري ، ١٠ ، الحقيزي ٣٤ ، ٣٦ .
(٢٣٢) : المصدر السابق ، الحقيزي ، ص ٤٤ .
(٢٣٣) : المصدر السابق ، الحقيزي ، ص ٤٤ ، ويوجد في المتحف الوطني بدمشق مجموعة من الدراهم تعود إلى مناطق مختلفة وإلى الفترة السابقة لولاية خالد القسري ، عمارة ٩٦ هـ ، سرق ٩٣ هـ ، سابور ٩٣ هـ ، دستوي ٩٢ هـ ، اردشير خسر ٩٢ هـ .

ومن الطبيعي أن تستمر أساليب الزراعة والحياة القروية على ما كانت عليه في العهد الميزنطي ، إلا أن العرب وفروا للمزارعين استقراراً أكثر من الفترة الميزنطية المتأخرة المضطربة ، وكان للوضع الجديد أثره ، إذ اعتبرت أرض العنوة وهي الأراضي الريفية فيما للأمة ، أي أرضاً خراجية مادام زراعتها وفلاحتها عليها ، وفي حين أن أراضي النخلاء وأراضي من قتل أو هرب اعتبرت صوافي ، وهذا يعني أن أراضي الصوافي يمكن أن ينشأ عليها ملكيات جديدة ، كما فتح المجال لاستغلال الأرض الموات والخالية وتوسيع نطاق الزراعة ، وإن كانت الاشارات إلى الأرض الموات في الشام محدودة ، يعمد منطقة الجزيرة حيث يشار عادة إلى الأرض الخالية والمواطن النائية ، (٢٣٤) ولذلك فإن الملكيات التي ظهرت في بلاد الشام وفي عهد معاوية كانت عبارة عن أقطاعات من أرض الصوافي التي منحها لأهل بيته وخاصة ، وقد رأينا أن الاشراف كانوا يلحون في طلب الأقطاعات ما أدى إلى نفاذ ما في فترة عهد الملك ودفعتهم إلى أن يمنح أقطاعات من أراضي خراجية صارت لبيت المال لوفاء أصحابها دون ورثة ، ثم لم يلبث الوليد بن عبد الملك وسليمان من بعده نتيجة للاحاق الاشراف أن سمحوا لهؤلاء بشراء الأراضي الخراجية . وإذا دققنا في الروايات المتعلقة بأصحاب الأقطاعات نجد أن جل ملاكي القرى من الأمراء الأمويين ومنهم بعض اشراف القبائل من مواليهم ، وهذا يفسر لنا أهمية تشير إلى الأهمية المعطاة للزراعة والأراضي الزراعية من قبل الأمراء الأمويين ، وكان أصحاب هذه القرى يقيمون في العاصمة أو إحدى المدن الرئيسية ، وهذا يعني أنهم يدبرونها بواسطة وكلائهم ، (٢٣٥) وأن أهل القرى هم مزارعون وفلاحون يعطون في أرض السادة الملاكين ربحاً لقاء نسبة من الحاصل ، وقد يستمر ذلك أنها كانت لا تدفع سوى العشر (٢٣٦) وبعد واهتمام الأمويين بالزراعة ومشاريع الري في وقت مبكر ، فقد حفر يزيد بن معاوية نهر يزيد وكان قبل ذلك نهرًا صغيراً يسقي ضيقتين في الفوطة ، فلما أصبح خليفة ورأى تلك الأراضي الواسعة التي ليس فيها ماء أمر بحفر ذلك النهر الصغير وتوسيعه . ويصف ابن عساکر يزيد بأنه كان مهندساً وأنه احتفر نهرًا سمته ستة أشبار في عمق ستة أشبار ، وأن أهل الفوطة

(٢٣٤) : الملائري ، فتح ، ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

(٢٣٥) : المصدر السابق ، ص ١٤٤ ، ١٥٦ ، الجبهشاري ، ص ٦٠ ، باقوت العموي .

ج ٢ ، ص ١٠١ ، ابن عساکر ، تاريخ دمشق ، المجلد الأول ، ص ٥٨٧ .

(٢٣٦) : د . عبد العزيز الدوري ، العرب والأرض في الشام ، مؤتمر بلاد الشام ، ص ١٣٨ .

عندما حاولوا منعه أرضاهم ، بأن ضمن لهم خراج سنتهم ،^(٢٣٧) كما بلغ عدد الأنهار المتفرقة عن بردى في عهد هشام بن عبد الملك ما يزيد عن ثلاثة عشر نهرا ،^(٢٣٨) وحفر هشام في الرصافة نهري المهني والمري ، واستخرج الضيمة التي تعرف بالمهني والمري ،^(٢٣٩) وكان أهل بالس قد طلبوا من سلمة بن عبد الملك أثناء توجهه غازيا الى الروم أن يحفر لهم نهرا من الفرات يسقي أرضهم وأراضي قاصرين وهايدين وصفين ، وهي قرى منسوبة الى بالس ، على أن يجعلوا له الثلث بمقد العشر الذي يدفع للدولة .^(٢٤٠) وعندما مصر سليمان بن عبد الملك مدينة الرطبة وبنى فيها استقر لأهل الرطبة قناتهم التي تدعى بردة واحتفر آبارا ، وكان أول ما بنى منها قصره . والدار التي تعرف بدار الصباغين وجعل في الدار صهريجاً متوسطا لها ثم اختط للمسجد خطة وبناه ، فولي الخلافة قبل استتمامه فأكله في خلافته .^(٢٤١) ويعلق الدكتور أحمد طوقان على بناء سليمان للرطبة " ان اختيار سليمان لتلك المنطقة ليس غريبا اذا عرفنا الحقيقة التالية ، كانت السهول المحيطة بالرطبة والممتدة على طول الساحل الفلسطيني ملتفة الأشجار ، وافرة الثروة الحيوانية ، كما كانت المنطقة المجاورة للرطبة تتمتع بثروة طبيعية جمة كالمياه والأنهار ، فاختيار سليمان بن عبد الملك لتلك البقعة تتشى مع الفكـرة الأساسية التي جدت بالأمويين الى بناء منشآتهم عموماً ."^(٢٤٢) وفي الرد على الدكتور طوقان أتساءل لماذا نقل سليمان القصة من اللد الى الرطبة مع أن اللد تقع في نفس المنطقة الخصبة الغيرة ؟ ولو أن اللد بقيت مزدهرة لأمكننا قبول رأي الدكتور طوقان ، أمّا وأنها قد جفرت نتيجة لانتقال سكانها الى الرطبة

(٢٣٧) : ابن عساکر ، تاريخ مدينة دمشق ، المجلد الثانية ، القسم الاول ، ص ١٥٢ .

(٢٣٨) : المصدر السابق ص ١٥٢ . ويشهر تيوفانس الى اهتمام هشام بمشاريع السرى والزراعة . وذلك في أحداث سنة ٧٢٤ م / ١٠٦ هـ / ٦٢١٦ من تاريخ الخليفة .

(٢٣٩) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٨٤ .

(٢٤٠) : المصدر السابق ، ص ١٥٦ ، باقوت الحموي ، ج ١ ص ٣٢٨ .

(٢٤١) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٩ .

(٢٤٢) : د . أحمد طوقان ، السائر في السيرة الأموية ، موتمر بلاد الشام ، ص ١٢٤ .

فيمنى أن هناك أسبأها أخرى غير التي ذكرت دفعت سليمان بن عبد الملك الى بنساء الرملة ، وهي رغبت في أن يعرف له ذلك كما عرف لعبد الملك بناؤه لقبة الصخرة وللولايد بناؤه لمسجد دمشق .^(٢٤٣) ثم ان هذه المنطقة بالرغم من خصوصيتها وكثرة فاكهتها ، الا أنها ليست كما ذكر جملة المياه والأنهار بل ان مناسها قليلة وجوفية بسبب شح الأمطار ،^(٢٤٤) وهذا يفسر لنا اهتمام سليمان بحفر الآبار العذبة فيها واستمرار خلفاء بني أمية بالانفاق على آبار الرملة وقناتها ، فلما استغلف بنو العبّاس انفقروا عليها ، وكان الأمر في تلك النفقة يخرج في كل سنة من خليفة بعد خليفة ، فلما استغلف المعتصم بالله أسجل بتلك النفقة سجلا ، فانقطع الاستثمار وصارت جارية يختصب بها العمال ،^(٢٤٥) وأصبح شربهم من الآبار الطحة ، والمترفون لهم صهاريج مقلدة ، وكانت أكثر البلاد صهاريج .^(٢٤٦)

أما قصور الأمويين في البادية فان سوفاجيه وغزابار يحاولان الهرهنة على أنها يمكن مجرد منازل للنزهة بل مراكز للاستثمار الزراعي ، يدل على ذلك منشآت الري حولها من قنوات وصهاريج ومجاري لارواء حقول ومشاريع زراعية في منطقة بادية الشام ، وهذه القنوات والصهاريج وان كانت على آثار مشاريع سابقة ، الا أنها تدل على تقدير الأمويين لأهمية الأرض وعلى احياء أراض خالية بعد الفتح ، وقد توصل سوفاجيه الى رأي هذا اثر مسح أثرى للمواقع الأموية في بوادي حماة وتدمر ومآب والهلقات وشمال سورية والجزيرة الفراتية ، فتبين له أن جنى منشآت الأموية لها طابع خاص ثابت ومحدد ، وهو قصر تلازمه مجموعة أبنية وتوجد فيها آثار استغلال زراعي^(٢٤٧)

(٢٤٣) : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦٩ .

(٢٤٤) : د . دويدري ، جغرافية سورية والوطن العربي ، ص ٣٩ - ٤٠ .

(٢٤٥) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٩ .

(٢٤٦) : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦٩ .

(٢٤٧) : Jean Sauvaget, Chateaux Omayyades de Syrie, Revue des Etudes Islamiques, XXXV 1967. pp. 1 - 52.

وما ان ظهرت دراسة سوفاجيه سنة ١٩٦٧ حتى تأثر بها جرابار (Grabour) ، وكانت بداية نظرية جرابار مقتصرة على قصر الحير الشرقي ، وكانت البعثة الأثرية التي قامت بالحفر في قصر الحير الشرقي قد كشفت عن معصرة الزيتون والحمام وبعض البيوت داخل البناء الكبير وهي أمور لم تكن معروفة من قبل لدى علماء الآثار الاسلامية ، ولكن غرابار لم يلمح أن عثم ذلك على جميع هذه القصور ، وذكر غرابار في دراسته لمؤتمر بلاد الشام سنة ١٩٧٤ أن هناك أكثر من مائتي مستوطنة أو مشروع زراعي يرجع تاريخها الى القرنين الأول والثاني الهجريين ، وقال ان الهدف الأول من المنشآت الأموية في جميع الأحوال يرى في شمال قصر الحير الشرقي الذي هو عبارة عن استصلاح زراعي (٢٤٨)

هذه الاشارات سواء في مصادرنا أو ما توصل اليه علماء الآثار كلها تشير الى اهتمام الامويين بالزراعة في الشام ، ولذلك نجد بعض المستشرقين أمثال بليبايف ينوهون بفضل العرب في ازدهار الزراعة في الشام ، اذ عند ما دخل العرب بلاد الشام كما يقول بليبايف كانت مساحة الأراضي المسالحة للزراعة قد تقلصت كثيرا ، وهذا الانحسار الزراعي الى مستون منخفض بسبب ما أسفرت عنه حروب الروم والفرس من سلب ونهب ، ونتيجة للسياسة المالية التي كان يتبعها الامراء اوز هرقل ، يضاف الى ذلك أن وسائل الري من أقمشة وترع كانت قد تهدمت بسبب الاعمال ، كما أن عدد سكان الريف الزراعي قد انخفض كثيرا بسبب نزوح الفلاحين عن ديارهم أو بسبب الوفيات من جراء الأوبئة المتعاقبة ، فاستحال الأراضي الزراعية الحروية الى تقار جديدة ، هذه الأراضي التي فتحها العرب لم تطمس تحت اشرافهم أن استحال الى حقول ومزق وحدائق وساتين وكروم ذات عملاء عظيم (٢٥٠) والروايات المتعلقة بالشام في العصر العباسي في القرن الثاني وأوائل القرن الثالث تشير الى أن الزراعة كانت مزدهرة في الشام ، وهذا دليل على أن المزارع لم يكن يشعر أن كل ما يجنيه سوف يتوجه الى الدولة ، ولذلك لانجد ذكرا لهجرة

(٢٤٨) : Grabar, Early Islamic Settlements in the Badyaht
al-Sham - in Conference on Bilad al-Sham, Amman,
University of Jordan, April, 1974.

(٢٤٩) : بليبايف ، العرب والاسلام والخلافة العربية ، بيروت ، الدار المتحدة للنشر

١٩٧٣ ص ٢١١

(٢٥٠) : المرجع السابق ، ص ٢١١ - ٢١٢

الفلاحين من أرضهم في بلاد الشام كما حدث زمن هارون الرشيد عندما ترك بعض أهالي فلسطين أراضيهم هرباً من كثرة الخراج ، فوجه الخليفة هرشة بن أسبن لمطارتها ، فداقوما من مزارعها وأكثرتها الى الرجوع اليها على أن يخفف عنهم من خراجهم ، وأن يعاملوا معاملة أحسن مما مضى ، فرجعوا فسمي هؤلاء بأصحاب التخفيف ، ثم عاد قوم منهم بعد ذلك فردت عليهم أراضيهم على مثل ما كانوا عليه وهم أصحاب الردود ،^(٢٥١) كما استأه الخليفة هـسارون الرشيد من والده على دمشق الحسين بن عمار واتهمه بأنه ولاه " دمشق وهي جنة بها غدر تنكأ أمواجها على رياض كالدراي ، واردة منها كفايات المؤمن الى بيوت أمواله ، فما يسرح بك التعدي لرافقهم فيما أمرت ، حتى جعلتها أجرد من الصخر ، وأوحش من القفر " ، فكان جوابه أنه والله لم يقصد لغير التوفير من جهته " ولكن وليت أقواما ثقل على أعناقهم الحسق ففرقوا الى ميدان التعدي ، ورأوا العراغة يترك العمارة أوقع بأضرار الملك وأنه بالشئمة على الولاة ، فلا جرم أن أمر المؤمن قد أخذ لهم بالاحتـ الأوفر من صـاتي " .^(٢٥٢)

وقد شعر أهالي الشام بتأثير بلادهم الزراعي ، فقاموا ببعض التحركات التي من شأنها اشعار السلطة بأوضاعهم السيئة ، وحاول الخلفاء العباسيون اتخاذ بعض الاجراءات الاقتصادية لرفع مستوى البلاد الاقتصادي ، أو العودة بها الى ما كانت عليه في عهد الأمويين ، فقد تصدى الخليفة المأمون لتعديل أراضي الشام ، وفرق السـاح في كافة أجنادها وأقام شتاء سنة ٢١٤ هـ كله في دمشق لهذه الغاية .^(٢٥٣)

وكان العامل الاقتصادي أحد أسباب ثورة المبرق الماني سنة ٢٢٧ هـ في فلسطين والأردن وكان اتباه ، وحسب رواية في الطبري ، " قوم من فلاحي تلك الناحية وأهل القسرى وأنهم في حدود مائة ألف " . وتضيف رواية أخرى أنه لما حل موعد الحرائـسة

(٢٥١) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٢٥٢) : محمد كرد علي ، الاسلام والعضارة العربية ، القاهرة ، الطبعة الثالثة ، ١٦٦٨

ج ٢ ص ٢١٦ .

(٢٥٣) : المرجع السابق ، ج ٢ ص ٢٣٤ ، ابن العديم ، بنحية الطلب ، مخطوطة ،

مجلد ٤ ، ورقة ٢٧ ، ٦٨٠ .

انصرفوا الى القرى ان أن بعضهم كانوا حراثين وبعضهم من أرباب الأرضين ، وبقي المبرقع
في نغزعا الف أو ألفين . (٢٥٤)

هذه الروايات تشير الى أن الشام شهدت فترة من الازدهار الزراعي في خلافة
بني أمية لم تشهده بعد ذلك فترة طويلة ، ان أن خلفاء بني العباس وولاتهم لم يوجهوا
اهتمامهم في بادئ الأمر للقيام باصلاحات غايتها تنمية الحياة الاقتصادية ودفع عجلتها
الى الامام ، وانما كان همهم الوحيد القضاء على الأميين وانصارهم ومصادرة أموالهم وأسواق
مويد بهم ، مما أسفر عن ثورات متكررة جعلت البلاد في وضع مرتبك وفي حالة شديدة من الفوضى .
أثر تعريب النقد الذهبي على العلاقات العربية البيزنطية والاقتصاد :

لم يؤد الفتح العربي الى تغييرات اقتصادية حاسمة في تجارة عالم البحر المتوسط ،
فان العرب لم تكن لديهم الرغبة في تحميم ماضي مصر والشام الاقتصادي ، كما أنهم لم يكونوا
تجارا يرتادون البحار ، ولذلك تركوا ممارسة التجارة لمن كانوا يمارسونها سابقا من سكان
الاسكندرية أو سكان مدن السواحل الشامية ، كما أن العرب من النواحي الادارية أبقوا
الكثير مما كان متبع في الشام ومصر في العهد البيزنطي مع اعداد التعديلات التي يقتضيها
الوضع الجديد . وهناك أمثلة عدة على ذلك في «ماتين الحقاطين» (٢٥٥) فقد بقي
الأقطار بمنهم أوراق البردي التي احتفظت بالشارات والتعابير المسيحية ، التي كانت
مستخدمة في العهد البيزنطي ، وانتقلت دور الطراز في تيمس وتونا ودماط والتسي (٢٥٦)
كانت تحتكرها الدولة البيزنطية الى أيدي العرب ، واستمرت دور الضرب البيزنطية فسي
سك العملة الذهبية التي بقيت حتى عام ٦٩٢م / ٧٢٣هـ النقد الاساسي المتداول في مصر

(٢٥٤) : الطبري ، ج ٦ ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٢٥٥) : Lopez, Mohammed & Charlemagne, A Revision in Speculum, 1943, XVIII, p. 21.

(٢٥٦) : البلاذري ، فتح ، ص ٢٤١ .

Grohman, Allgemeine Einführung in der Arabischen Papyri
Vien 1924, pp. 77, 92. The Kurrah Papyri from Aphrodite -
The Oriental Institute, Chicago 1936, pp. 70 - 72.

والشام (٢٥٧) ولم يختلف الأمر في الشام عنه في مصر ، فاعتماد معاوية ويزيد على النصارى وفقاً للغة اليونانية لغة دواوين الخراج ، وتسامح الأمويين مع النصارى من أصل السلاو ، كل ذلك يشير الى استمرار للمعاشي البيزنطي ، وبالرغم من التغييرات السكانية في منطقة الساحل الشامي والحروب المتكررة مع الدولة البيزنطية ، فان هذه الأمور لم يكن لها تأثير حاسم على الوضع الاقتصادي ، إذ أن النقد الذهبي البيزنطي بقي النقد العالمي المستخدم في المعاملات التجارية في عالم البحر المتوسط . (٢٥٨)

ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن الفتح العربي أدى الى بعض التغييرات من أهمها إيقاف ما كان يرسل الى القسطنطينية من مصر من حبوب ، والتي أصبحت ترسل الى مكة والمدينة ، مما اضطر هرقل الى إيقاف توزيع القمح مجاناً في العاصمة والاعتماد على مناطق أخرى لتسديد العاصمة بما تحتاجه ، وهذا بدوره أدى الى استفادة سكان بعض المناطق الأخرى التابعة للدولة البيزنطية ، كالمناطق الزراعية في البلقان وآسيا الصغرى ، وجنوبي روسيا لأنها وجدت أسواقاً جديدة لمنتجاتها . (٢٥٩)

أما التغيير الثاني فهو التحمي من كثير من القوانين التي سنّها جستنيان فيما يتعلق بالتصدير والاستيراد في القرن السابق ، ذلك أن العرب عندما سيطروا على المناطق التي كانت تحت النفوذ الساساني وسيطروا كذلك على الشام ومصر ، لم يعد للمراكز الجمركية القديمة التي كانت موجودة بين الدولتين من أهمية ، كما أن حكام القسطنطينية في هذه الفترة ، كما تشير الى ذلك الأدلة المختلفة ، لم ينعوا التجارة مع الشام ومصر ، الا فيما يتعلق بالمنتجات المستخدمة في بناء السفن ، لأن المنع يعني الاعتراف بخسرتهم لهاتين الولايتين نهائياً . ويبدو أن الحكام البيزنطيين حتى سنة ٦٩٣ م / ٧٤ هـ كانوا يرفضون الاعتراف بأن الشام ومصر ولايات خارجة عن نطاق الامبراطورية ، ولذلك لم يطبق على المنتجات المرسله من هاتين الولايتين قانون جستنيان ، وان كانت الضرائب الجمركية بالتابع تفرض

Archibald Lewis, Naval Power in the Mediterranean, : (٢٥٧)
500 - 1100 A.D. P. 79.

Ibid. p. 81 . : (٢٥٨)

Vernadsky, G. Sur L'Origine de la Sol Agricole, : (٢٥٩)
in Byzantium, 1925, IV pp. 169 - 180.

على هذه المنتجات المستوردة ، كما أن قوانين الملاحة والتجارة الصارمة التي كانت مطبقة سابقا بيد ولأنها اختفت في هذه الفترة ، وأصبح التجار أحرارا لارقابة من الدولة عليهم بعد أن توقف إصدار القمع من الاسكندرية الى العاصمة ، (٢٦٠) وظهر قانون الملاحة الروماني الذي أصبح بموجبه رابطة السفن أحرارا في أن يتوجهوا الى المكان الذي يريدونه من أجل أخذ حمولتهم ، (٢٦١) ولذلك فإن القرن السابع بشكل عام يمكن اعتباره عهد التجارة الحرة غير المقيدة في البحر المتوسط . (٢٦٢)

شهدت الشام مرحلة من الازدهار سائلا لطاق التي شهدتها مصر في حوالي ٧٠٠ م / ٨١ هـ ، إذ أن علاقات مصر التجارية مع الجنوب والشرق ازدادت ، فالساسانيون الذين هددوا في نهاية القرن السادس توسع التجارة المصرية في البحر الاحمر والمحيط الهندي تحطمت قوتهم على أيدي العرب ، فعادت لهذا الطريق أهميته ، واستفادت دمشق من فائض الأموال التي كانت ترسل الى بيوت أموالها ومن أخماس الخنائم التي كان يرسلها القادة من الشرق والغرب ، كما أن ازالة الحواجز التجارية القديمة بين منطقة الحسرة والشام قد ساعد على ازدهار التجارة مع الشرق ، ولعل الساحل السوري فقط هو الذي كان يعاني أحيانا من تعدد السكان الجريحة مثلا ومن هجمات الاسلول البيزنطي أحيانا أخرى ، فلم يصل الى المستوى المرتفع في الثروة التجارية والصناعية التي كانت تتمتع بها الأقسام الداخلية ، ومع ذلك لا بد من أن تكون عذريته قبل اعطاء أحكام قطاعية ، فان هذه المنطقة الساحلية كانت ولا تزال قادرة على أن تعد الاسطول

Charanis, p. The Social Structure of The Later Roman Empire, in Byzantium, 1944 - 1945, XVII pp. 50 - 51. : (٢٦٠)

Andrè M. Andreades, The Economic Life of the Byzantine Empire, In Byzantium, II p. 65. : (٢٦١)

بشير اندرياديس الى أن البعض ينسب هذا القانون الى الأباطرة الايسوريين ، ولكن اوستروغورسكي Ostrogorsky يبين أنه لا يمكن أن نقول أكثر من أن هذا القانون قد صدر ما بين ٦٠٠ م و ٨٠٠ ، وهناك اشارة في الموسوعة البريطانية الى هذا القانون ولكن دون ايضاح دقيق .

The largely mythical body of law attributed to the Rhodian mariners has been constructed from a few scattered references in the Digest. E.B. ed. 1970. Art. Maritime Law. Archibald Lewis, Op. Cit. p. 83. : (٢٦٢)

العربي بأعداد ضخمة من الأفراد ، كما أن قهرص بالرغم من الغزوات كانت قادرة على أن ترسل
جزية سنوية قدرها سبعة آلاف دينار إلى دمشق ومهلخا مماثلا إلى القسطنطينية ، وهذا بدوره
يشير إلى ازدهار تجارى .

ولذلك ، فإن السنوات الخمسين الأولى من حكم العرب للشام ومصر لم تؤد إلى نتائج
مفيدة بالنسبة للمهابة الاقتصادية في القسم الشرقي من البحر المتوسط . أما أنه ليس هناك
دلائل تشير إلى تدعيم الاقتصاد في الغرب ، ويقدم لوبيز Lopez أدلة قيمة على استمرار
تجارة غير مضطربة نسبيا في كل البحر الأبيض المتوسط . خلال القرن السابع ، وتقدم
إيطاليا دليلا واضحا على استمرار التجارة مع الشرق بشكل فعال ولا سيما مع رافيننا
Ravenne^(٢٦٤) التي كانت لها علاقات وثيقة مع القسطنطينية والإسكندرية . كما أن
السوريين كانوا معروفين على نطاق واسع ، فأربعة من البوابات في أواخر القرن السابع وأوائل

القرن الثامن كانوا سوريين ، كما وجد دير للسوريين في روما ، وهذا كله قد يشير إلى أن
العلاقات مع الشام هي أقوى مما كان يعتقد .^(٢٦٦) أما فرنسا فقد كانت المركز التجاري الأساسي
للتجار السوريين ، وحتى سنة ٧١٦ م / ٢٨ هـ كان جنوب فرنسا يستورد التوابل الشرقية وأوراق
البردي ومنتجات أخرى .^(٢٦٧) ونجد دليلا على ذلك كما يقول بيري في الامتياز السدي
منحه الملك الميروفنجي في تلك السنة لدير كوربي Corbie باستيراد البضائع الشرقية
دون دفع ضريبة في ميناء فوس Fos . ان هذا الامتياز يؤكد ما كان قد صنع من

Lopez, Op. Cit. p. 22. : (٢٦٣)

Diet, ch., Etudes Sur L'Administration Byzantine : (٢٦٤)
dans L'archat de Revenne, Paris, 1888, pp. 279 - 280.

Ibid., pp. 279 - 280. : (٢٦٥)

Ibid., pp. 255 - 256 . : (٢٦٦)

Pirenne, H., Mohammed & Charlemagne, New York, : (٢٦٧)
1939, p. 88.

امتيازات في القرن السابق ، ومع ذلك فهناك شواهد تشير الى وجود أزمة اقتصادية في فرنسا واسبانيا في أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الميلاديين ، ومهما كانت عوامل هذه الأزمة فقد انعكست على النقد المستخدم عند القوط. والمهروفنجيين ، ان ازداد الاعتماد على النقد الفضي ، بينما أخذ النقد الذهبي بالتضاؤل . (٢٦٨)

ان هذه الأدلة تشير الى أن حوض البحر المتوسط كان وعدة مزد هرة سنة ٧٠٠ م / ٨١ هـ ، فاذا درسنا الوضع الاقتصادي سنة ٧٥٢ م / ١٣٥ هـ نجد كما يقول ارشيبالد لويس صورة مغايرة تماما ، نجد مصر والشام في حالة من الاضطراب والفوضى ، وكذلك شمالي افريقيا واسبانيا وفرنسا راكدة ولا نجد أثرا للمصريين والمصريين في الأسواق الغربية ، ونجد أن الاسرة الكارولنجية هي المسيطرة بدلا من المهروفنجيين في اكس لا شابل Aix-La Chapelle والمباسبون بدلا من الامويين وطاستهم بخداد ، وكلتا العاصمتين تعمدان من شواطئ البحر المتوسط . ولا شك أن أمرا مما قد حدث أدى الى مثل هذه الثورة الاقتصادية والسياسية العميقة . (٢٦٩)

ان تفسير هذه التغييرات الاقتصادية والسياسية يقع في التبدل الذي أصاب طبيعة النزاع بين الامويين والمهريفطيين ، طيبين ٦٩٣ - ٧٥٢ م / ٧٤ - ١٣٥ هـ ، ذلك أن الاسلوب الذي اتبعه العرب في محاولاتهم للاستيلاء على القسطنطينية كان عسكريا بحثا في الهدوء . أما في محاولتهم الثالثة للقضاء عليها نرى تدخل العاطل الاقتصادي . فبالإضافة الى العداء العسكري والمهري أضيفت الحرب الاقتصادية ، وقد بدأت هذه الحرب الاقتصادية عندما ضرب عبدالملك بن مروان الدنانير الذهبية المعربة الأولى وأرسلها لجسنتيان الثاني في القسطنطينية كاتاة (٢٧٠) كما أن عبدالملك أمر أن تزال الشارات والتماهير المسيحية من أوراق المهري ، وأن تضاف التماهير الاسلامية . (٢٧١)

Ibid., pp. 84 - 85.

:(٢٦٨)

Archibald Lewis, Op. Cit., p. 88.

:(٢٦٩)

Ibid., p. 89. Lopez. Op. Cit., p. 21.

:(٢٧٠)

:(٢٧١) : البلاذري ، فتوح ، ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

ومن الواضح أن عبد الملك أراد بحطه هذا أن يحرر الدولة الإسلامية من السيطرة
البيزنطية اقتصاديا ، وأن يقيم وحدة اقتصادية مستقلة من جهة ، كما أنه أراد بحطه هذا
أن يعقق نوعا من الضغط الاقتصادي على بيزنطة ، وكان جواب جستنيان على ذلك إعلان
الحرب على العرب ، ولا شك أنه قام من ناحية أخرى بتدابير لقطع التجارة مع أعدائه ،
وهذا هو التفسير الوحيد ربما لذلك التهجير الوحشي الإيجباري لسكان قبرص الذين كانوا
يتاجرون مع الشام ، فإذا كان هذا التعليل صحيحا فإنه يفسر كذلك ثورة الاسطاول فسي
بند كبيرهايوت Kibyrrhaeot^(٢٧٢) الذي يستند إلى عهد كبير في تبارته على مسر ،
وسيره نحو القسطنطينية لخلع خليفة جستنيان الثاني ، وقد يفسر لنا كذلك لماذا أسهم
تجار رافينا وهم الذين كانوا يمدون مسر بالاعشاب في سقوط ذلك الامبراطور ، كما أنه
ما يشير الانتباه أن من أول أعمال ثيودور الثالث إعادة اسكان قبرص في ٦٩٨م/٧٥٠هـ ،
كما أنه لم يمد فقط القبارصة الذين تغرقوا في المناطق الثابتة لامبراطورية وانما حاول
كما رأينا ارجاع أولئك الذين كانوا قد هربوا إلى الشام ، وربما سق ثيودور بذلك

Ibid., p. 89. Lopez. Op. Cit., p. 21.

(٢٧٢) : يضم بند الكبيرهايوت ، الساحل الجنوبي من آسيا الصغرى والجزر القريبة منه

Ostrogorsky, Op. Cit., p. 139.

Archibald Lewis, Op. Cit., p. 89. : (٢٧٣)

Diel, Exarchat, p. 279 - 80. : (٢٧٤)

George Hill., The History of Cyprus, Vol. I., pp. 288 - : (٢٧٥)

289.

Ibid., p. 289. : (٢٧٦)

يشير أوستروفورسكي إلى أن جستنيان نقل سكان قبرص إلى مقاطعة Cizicus
التي كانت قد تأثرت إلى حد كبير نتيجة لحصار القسطنطينية ، وكانت بحاجة
إلى ملاحين متمرسين .

Ostrogorsky., Op. Cit., p. 118.

نوما من السلم الاقتصادى مع الأميين لأننا لا نشاهد ضخوطا اقتصادية تمارس من قبيل
الخليفة في دمشق في عهد ذلك الاميراطور .
ولكن ما أن عاد بيستيان الى السلطنة سنة ٧٠٥ م / ٨٧ هـ حتى نلاحظ عودة
الى ظهور حرب اقتصادية مرة ثانية ، فنلاحظ من جهة استعمار الوليد في عملية التعريب التي
تمت في الشام والعراق في خلافة عبد الملوك والتي لم يتم تأجيلها في مصر الا في عهد الوليد
بن عبد الملوك . (٢٧٧) وتشير أوراق الهمدي ، أن الأوراق العربية تماما تعود الى ٧٠٩ م / ٩١ هـ
وأن آخر ورقة بردى تحمل اللغتين اليونانية والعربية تعود الى ٧١٩ م / ١٠١ هـ . كما
أن الوليد هو الذى طبق في نفس السنة ٩١ هـ ولاول مرة الرقابة على سكان
مصر ، فقد طبق نظاما صارفا أجبر فيه الافراد على عمل سجلاتهم ، وألزم كل فرد
بمزيد الانتقال من جهة الى أخرى في أنحاء القطر المصري أو بمزيد ركوب سفينة أو النزول
منها أن يعمل سجله ، وقد أمر الوالي بالقبض على كل شخص لا يعمل سجله معه ،
أما من فقد سجله أو أطفه فقد كان الوالي يلزمه الحصول على سجل آخر مقابل دفع غرامة
قدرها خمسة دنانير ، (٢٧٩) كما أن مخطوطة سريرية لمؤلف مجهول تشير الى أن الوليد
أصدر عام ٧٠٨ م / ١٠٢٠ سلوقي / ٩٠ هـ أمرا باحصاء الحقيمين ، وكذلك كل مسافرين
الى منطقتهم أو أرض أجدادهم أو مكان تولدهم ، (٢٨٠) أى نلاحظ تشديدا على تحركات الرعايا نجد
ما يقابله عند حكام بهنطة الذين بدأوا يتشددون كذلك على رعاياهم الذين يريدون التوجه
الى الأراضي العربية ، (٢٨١) الا أن الاجراءات الاقتصادية التي اتخذها بيستيان الثاني
وخلفاؤه هي التي كان لها أكبر الأثر ، ومن الصعب إعطاء صورة متكاملة للنظام الذى طبق ،
في حين يمكن إعطاء المخطوط العربية له في العودة الى النظام التجارى المقيد

(٢٧٧) : الكندي ص ٥٨ .

Archibald Lewis. p. 90:

(٢٧٨) :

(٢٧٩) : ساويرس ، ج ٥ ص ٧٠ .

(٢٨٠) : ص ١٧٦ من المخطوطة السريانية المترجمة الى اللاتينية - ص ٢٢٢ من

المخطوطة الأصلية .

Archibald Lewis p. 91

(٢٨١) :

الذي كان متبعاً في عهد جستنيان الأول وخلفائه ضد الامبراطورية الساسانية ، حيث كانت بارق التجارة والبضائع المستوردة كلها موجهة بدقة لصالح الامبراطورية والدفاع عن مصالحها ، كما أن بيزنطة استخدمت أسطولها لدعم ذلك النظام ، وهناك من الأسباب ما يدفع الى الاعتقاد بأن بيزنطة طبقت في حوالي ٧١٥ ، ٧١٦ م / ٩٧ ، ٩٨ هـ الحرب الاقتصادية المدعومة بالقوى البحرية على الولايات الأيوبية ، وبعض المناطق المجاورة ، والافتراض ، كما يقول هايد Heyd ، بأن هذا النظام قد طبق على الولايات العربية بزيادة عندما نعلم أن آخر حملة ضخمة من البضائع الشرقية تسجل في ميناء فوس Fos كانت (٢٨٢) ٧١٦ م / ٩٨ هـ ، كما أن ملكة لومبارديا أوقفت استخدامها لأوراق البوردي ، (٢٨٢)

أي أن البيزنطيين أغلقوا البحر المتوسط في وجه الملاحة البحرية المنطلقة من الأراضي العربية ، إلا إذا اتهمت هذه السفن الطرق والتنظيمات المفروضة من قبل بيزنطية . وقد يفسر هذا توجه أسطول اسلامي ضخم في أواخر سنة ٩٩ هـ نحو القسطنطينية ، إذ أن المصار البيزنطي كان يعني تهديداً للحياة الاقتصادية والتجارية في الشام ومصر . (٢٨٣)

إلا أن بيزنطة لم يكن باستطاعتها أن تتخلى عن منتجات العالم العربي ، كما أن التوابل وبضائع الشرق التي كان يتاجر بها التجار المصرب كانت مواد أساسية في حياة بيزنطة الاقتصادية ، ولذلك سمح حكام بيزنطة لمرافقاً أو مرافقين مراقبين استقبال التجار المسلمين ، منها طرابزون (Trebizond) الذي كان يسمح فيه بادخال كل التجارة العربية مع بيزنطة . (٢٨٤) ويعلق لومبسز (Lopez) أنه بالرغم من أننا لا نملك دليلاً واقعياً ، إلا أنه ليس ما يمنعنا من الافتراض أن هذا الاجراء قد يعود الى سنة ٧١٦ م / ٩٨ هـ ، أو قبل ذلك ، لأن اختيار طرابزون كمركز للتجارة

Heyd, Histoire du Commerce du Levant, Leipsiq 1885, (٢٨٢)
pp. 89 - 92.

Lopez. Op. Cit., pp. 26 - 28 . (٢٨٣)

Lopez. Silk Industry in the Byzantine Empire, in (٢٨٤)
Speculum, 1945, XX 26 - 27 .

العربية البيزنطية كان يحقق عدة أهداف لحكام بيزنطة ، فطرايزون مرفأ أمين على البحر الأسود غير مهدد ، واتخاذهم طرايزون كمحطة نهائية للتجارة العربية سحبا تجارة الحرير والتوابل التي كانوا بحاجة ماسة اليها من مصر والشام المركزين البحريين لمنافسهم الأيوبيين الى بلاد ما بين النهرين التي لم تكن تشكل خطرا عليهم ، وربما كانت القسطنطينية المرفأ التجاري الثاني الذي كان يسمح فيه للتجار بالدخول والخروج منه ، لأننا اذا نظرنا الى التعليمات الواردة في كتاب صادر في القرن التاسع الميلادي والمتعلقة بتجارة العاصمة ، فان هذه التعليمات تشير بصراحة الى أن تجار العرب كانوا يشجعون على المجيء الى المدينة من القرن الذهبي حيث كانوا يحظون امتيازات تجارية خاصة ، (٢٨٥) وربما كان هذا الوضع مطبقا منذ العام ٧١٨ م / ١٠٠ هـ ، فالجامع الذي يقال أن لمين الأيسوري قد بناه في القسطنطينية قد يؤيد هذا الافتراض . (٢٨٦)

غير أن وضع نظام لتقييد التجارة شيء ، وقرضه على الأعداء العرب أمر آخر ، الا أن عاملين اثنين سهلا تنفيذه اكثر مما كان متوقعا ، العامل الأول ، قوة الاسطول البيزنطي الذي خرج مقتصرا سنة ١٠٠ هـ وأخذ يخترصاب البحر المتوسط وسيطرة بيزنطة على عدد كبير من الجزر في البحر المتوسط كجزر البليار ، ساردينيا ، كورسيكا ، التي تشكل سلسلة من الجزر الحاجزة تجاه الشمال افرقيسي والساحل الاسباني ، بالإضافة الى سيطرة بيزنطة على مضيق مسينا وعلى مدخل البحر الادرياتيكي ، ولذلك كان من السهل جدا منع أي سفينة تتوجه غربا أو شرقا من الاستمرار . أما العامل الثاني الذي ساعدهم ، هو أن الطريق البحري المحاذي للساحل الجنوبي للبحر المتوسط من مصر الى شمالي افرقيا كان طريقا خطرا للملاحة ، والعرافي الصالحة للسفن قليلة ما بين برقة وطرابلس ، ولذلك فإن الطريق البحري المتبع هو طريق كريت قبرص ، الساحل الجنوبي لآسيا الصغرى ، وبالرغم من أن الخط البحري المباشر

Ibid. , p. 27.

: (٢٨٥)

Archibald Lewis. Op. Cit. , p. 94.

: (٢٨٦)

من الاسكندرية الى كريت كان مستخدما كذلك ، الا أن قوة الاسطول الميزنطي مكنته من أن يقلع بشكل فعال التجارة ليس مع الغرب فقط ، وانما بين الشام ومصر وشمالى افريقيا أيضا . (٢٨٧)

وإذا استلاعت سفينة أن تغلت من رقابة الأسطول الميزنطي في نقطة معينة ، فهناك احتمال كبير أن يعترضها الاسطول في مكان آخر ، ونظرة الى شواطئ البحر المتوسط في هذه الفترة تبين لنا أن هذا الحصار الاقتصادي قد طبق بشكل فعال ، لأننا اذا اتجهنا بأنظارنا الى الشرق حيث كانت الاجراءات الاقتصادية والبحرية موجهة ضد مصر والشام بالدرجة الأولى ، نلاحظ أن الشام سنة ٧٥٢ م / ١٣٥ هـ قد خسرت مركزها التجارى الهام وبقيت عاجزة مدة عشرين عاما من تشكيل أسطول . (٢٨٨) وانتقل الحكم الى العباسيين ، حيث أصبحت العراق الولاية المركزية التي يمر بها الخط التجارى المتوجه نحو طرابزون ، وغسرت دمشق مكانتها كمركز الخلافة الاسلامية ، هذا في الشرق ، أما في الغرب ، فنجد أن فرنسا التي كانت تعتمد في حياتها الاقتصادية على التجارة مع الشام ومصر تمر بفترة ركود اقتصادى بعد سنة ٧١٦ م ، اذ لم نعد نرى تجارا سوريين في موائلها الجنوبية أو تجارا من مناطق أخرى ، كما أن المدن التي هددها الكارولنجيون بقيت مهذمة ، (٢٨٩) كما توقف سك النقود الذهبية مدة خمسين سنة ابتداء من منتصف القرن الثامن الميلادى ، ولذلك فان بيريسن Pirenne يتهم الميزنطيين بتحطيم وحدة البحر الأبيض المتوسط القديمة ، ففي حربهم حتى الموت ضد الأيوبيين استخدمت ميزنطية الاجراءات الاقتصادية والبحرية للوصول الى النصر في الفترة ما بين ٧١٥ - ٧٥٢ م / ٩٧ - ١٣٥ هـ ، وقد ساعدت الظروف السياسية واضطراب الأمر في الشام وقام الثورة العباسية بميزنطة على تحقيق ما رغبها ، وحطمتها هذا ، كما يقول بيرين ، حطمت ميزنطة الخط الاقتصادى القديم للحياة في بلدان البحر المتوسط ، وهيأت المجال لظهور نمط جديد . (٢٩٠)

Ibid., P. 95. : (٢٨٧)

George Hill. Op. Cit., Vol. 7, p. 290. : (٢٨٨)

Buckler. F.W. Harun al-Rashid, Cambridge 1927, P. 7. : (٢٨٩)

Pirenne, Op. Cit., PP. 162 - 163. : (٢٩٠)

الفصل الثالث

التنظيم العسكري

عناصر الجيش

لم يكن هناك في عهد الرسول شمة فاصل بين مجتمع وجيش إذ أن الجماعة الإسلامية في المدينة بكاملها كانت تعتبر جماعة محاربة يتوجب على أفرادها المشاركة في الجهاد بشكل أو بآخر ، وإن كان الرسول حريصاً على أن لا يخرج معه إلا الراغب في الجهاد ،^(١) ثم سارت الأمور نحو وجود هذا التمايز بقدر ما كان الإسلام يتقدم وينتشر بين القبائل ،^(٢) إذ أصبح هناك مسلم مجاهد ، وآخر غير ذلك دعي بالأعرابي .^(٣) واستمر هذا التمايز وتضخم مع الزمن ، ففسى خلافة أبي بكر وأثناء الردة عد إلى التكليف ، فكلف من بقي على الإسلام والطاعة بمواجهة المرتد من قومه ، كما كلف أمراء بعض المناطق بضرب الهمت على من لم يلحق طوعاً في الجهاد ، فأسير عثمان بن أبي العاص أن يضرب بحثاً على الطائف على كل مخالف بقدره ، وضرب على كل مخالف عشرين رجلاً ،^(٤) وكتب إلى عتاب بن أسيد أن يضرب على أهل مكة وعلى خمسمائة مقو ،^(٥) وعند ما بدأت الفتوحات في عهد أبي بكر رفض الاستعانة بأحد من أهل الردة .^(٦) فلما كانت خلافة

(١) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٢ ص ٢٧ . الظهري ، ج ٣ ص ١٠٧ .

(٢) : د . أحمد بدر ، التنظيم العسكري عند العرب ، مجلة "دراسات تاريخية" ، العدد

الرابع ، نيسان ١٩٨١ ، ص ١١٨ .

(٣) : ابن رشد ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ، ١٣٥٧ هـ / ١٩٢٨ م ، ج ١ ، ص ٣٧٤ . يذكر ابن رشد أنه ثبت أنه طيه السلام كان إذا بعث سرية قال لأمرها ، إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث أو خلال ادعهم إلى الإسلام فإن أجاهاوك فاقبل وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأطعمهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم مال المهاجرين وطيبهم ما على المهاجرين ، فإن أبوا واختاروا دارهم فأطعمهم أنهم يكونون كأفسراب المسلمين يجرى عليهم حكم الله/يجرى على المؤمنين ولا يكون لهم في الغني والغنيمة نصيب إلا أن يجاهدوا مع المسلمين

(٤) : الظهري ، ج ٣ ص ٣٢٢ .

(٥) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٢٢ .

(٦) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٢٧ ، ٣٤١ ، ج ٤ ص ٢٥ .

عربين الخطاب لم يشأ أن تنزل هذه القوى معطلة ، فاذن لهم عبر أن يشاركوا في الحرب ولكن كجنود في بادئ الأمر ، يذكر الطبري أن عبر ندب أهل الردة فأقبلوا سراطين كل أوب فرس بهم الشام والعراق ، (٧) أشركهم عبر في الجهاد ولكنه لم يطمعهم في الرئاسة كما يقول الشمسي ، (٨) وإنما يعد سلطانهم دون المائة . (٩) وقد اضطر عمرازاء تسردد العرب في الالتحاق بالجهة الفارسية أن يحدد إلى وضع أسس القاعدة الجديدة للتجنيد حين نصر على الالتزام إلى جانب التابع ، فكتب إلى عماله على الأقاليم " ولا تدعوا في ربيعة ولا مضر ولا طغائهما أحدا من أهل النجدة ، ولا فارسا إلا جليتموه ، فان جاء طائفا والا حشرتموه " (١٠) كما كتب لبعض قواده : " لا تدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي إلا انتخبتموه باسم وجهتموه إلى السهل المجل " . (١١) وقد اقتضت طائفة القاعدة تدابرها ، وبدأت لشبهاء نساءها ، فكان أن أوجد عبر الديوان الذي كانت مهمته كما يقول ابن خلدون " احصاء المسافر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم " . (١٢)

هذا ويمكن اعتبار وضع الديوان الخطوة الأساسية في تنظيم المقاتلة ، لأن المسلم مادام قد ضمن عطاءه وعطاء أهله ، فقد لزمه الجهاد إذا دعي واستوفى شروطه ، كما أن عبر أوضح منذ البدء أن العطاء هو لأهل الفيء الذين أفاء الله عليهم ، وهم أهل المدائن فصاروا يعد إلى الكوفة والبصرة ودمشق وحمص والاردن وفلسطين ومصر ، (١٣) وقال : " الفيء لأهل هؤلاء الأقطار ولحق بهم وأعانهم وأقام معهم ، ولم يفرض لغيرهم ،

(٧) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٤٨ .

(٨) : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٥ .

(٩) : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥٥٧ .

(١٠) : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٧٨ .

(١١) : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٤٧٩ .

(١٢) : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ١ ، ص ٢٠٢ .

(١٣) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٦١٩ ، ابن رسته ، الأطلاق النفيسة ، ص ١٠٧ .

ألا فهم سكنت الحدائق والقرى وطوبهم بجرى الصلح والمهم أدنى الجزاء بهم سددت
 الفرج ودخ العدو . (١٤) وإذا طمنا أن عروجه أو امره إلى أمراء الأجناد أن يتقدموا
 إلى الرمية أن فطاءهم قائم وأن رزق مياهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون ، (١٥) وأن الرجل
 إذا أخلّ بوجهه الذي يكتب إليه زمن عمر وعثمان كانت تنزع عمامت ويقام للناس ويشهر أمره ، (١٦)
 أمكننا القول بوجود جيش ثابت مهمة الجهاد ابتداءً من عهد الخلفاء الراشدين ،
 ويرى البعض وجود تناقض في النصوص الواردة في هذا الموضوع فمرة نرى الخليفة يبيح
 الزراعة للجند وأخرى نراه ينهاهم عنها ويحاقب من يشتغل بها ، وما ذلك إلا لأنه كان يحرمها
 على الجند النظامي ويبيحها للمتأولين الذين يلتحقون بالجيش من الهواوي والأصاري والاملاء
 المفتوحة ، فهو لا كانوا يجندون وقت الحرب ويسرحون وقت السلم وحظهم من الجهاد
 أسبهم من الفئمة فقط ، ولا يمنهم الخليفة من الزراعة .

ومن تنبنا لجيوش الفتح والامدادات التي تالت ، يتبين لنا أن هذه الجيوش
 في الشام كانت تتألف بالدرجة الأولى من القبائل العربية ولا سيما الليمانية منها ، يذكر
 ابن الاثم أن الأزدي في معركة اليرموك كانت في ذلك اليوم في القلب ، وحمر وهمدان
 ومدح وخولان وخشم وكثانة وقضاة ولخم وجذام وحضرموت مينة وميسرة ، ولم يكن فيهم
 تم ولا ربيعة لأنهم كانوا في العراق مع سعد بن أبي وقاص . (١٧) وتلاحظ منذ البداية
 استناداً إلى ماورد عند ابن سعد والطبري اشتراك الحجم الذين دخلوا في الاسلام مع العرب (١٨)
 وانضمت جماعات من الروم التي رغبت في الاسلام اثر معركة اليرموك وبعد فتح قيسارية

(١٤) : الطبري ، ج ٣ ص ٦١٥ .

(١٥) : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٦٢ .

(١٦) : ابن الاثير ، ج ٤ ص ٣٨٠ .

(١٧) : ابن الاثم ، فتوح ، ج ١ ص ٢٥٤ .

(١٨) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٦١٥ ، ابن سعد ، ج ٣ ، قسم ١ ص ٢١٩ .

الى عمرو بن العاص من الشام وسارت معه الى مصر لفتحها . (١٩) ويذكر المقرئى عدد
 من رفاق عمرو بن العاص من بنى ينة مائة رجل ومن بنى الأزرق أربع مائة رجل
 ومن بنى ربهيل ألف رجل . (٢٠) كما لم يغفل جيش عمرو بن العاص في مسير
 من وجود جماعة فارسية ، وقيل أنهم تسوم من النخورة الذين كانوا بمنصاة . وقد نزلت
 الفرس كما يقول ابن عبد الحكم بناحية بنى وائل : (٢١) وكان سنخيت طلى
 معرفة الفارسيين وكان في شرف العدلاء . (٢٢)

نلاحظ أن قادة الفتح يستعينون كذلك في مناطق الثغور والمناطق الممرضة
 لهجوم من القوى البيزنطية بالمجاهدين مقابل اسقاط الجزية ، فقد صالح الجرجسية
 سبيد بن مسلمة الفهرى طلى أن يكونوا أهوانا للمسلمين وحيونا ومسالح في جبل النكام وأن
 لا يؤخذوا بالجزية ، (٢٣) وعند ما أرسل أبو عبيدة مسرة بن منروق العبسي للدخول
 في الدروب وراء الأعداء (٢٤) أشار عليه خالد أن يرسل معهم أدلاء يعرفونهم الطريق
 ويكونون لهم حيونا طلى أعدائهم ، فذهب لهم من أهل حلب من المجاهدين من يتنون
 ناصحا لهم فاخاروا لهم وأعداهم أبو عبيدة وأحسن إليهم وطرح عنهم الجزية . (٢٥)
 وبقيت الاستعانة بالمجاهدين مقصورة على مناطق الثغور في خلافة بني أمية ،
 الا أنهم لم يكونوا دائما يظلمون منهم الجزية ، ففي أقصى الشمال عند التوغل فسي

(١٩) : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص ١٢٩ .
 (٢٠) : أحمد بدره ، التتظيم الحسكرى عند العرب ، ص ١٢٠ .
 (٢١) : ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص ١٢٩ .
 (٢٢) : ابن ماكول ، الاكمال في رفع الارتياح عن الموطلف والمختلف في الاسماء والكنى
 والأنسب ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ج ٤ ص ٣٨٦ .
 (٢٣) : البلاذرى ، فتوح ، ص ١٦٤ .
 (٢٤) : الطبرى ، ج ٤ ص ١١٢ ، الواقدى ، فتوح ، ج ٢ ص ٢ ، ابن الأثير ، ج ٢ ،
 ص ٤٩٣ .
 (٢٥) : الواقدى ، ج ٢ ص ٢ .

في أرمينيا باتجاه الخزر في عهد هشام بن عبد الملك نجد أن مروان بن محمد وظف
على أهل طبرسرانشاه عشرة آلاف مدى في كل سنة تحمل إلى أهراء الباب (٢٦) بعد أن
صالحه ملكها ، (٢٧) وعلى صاحب طبرسرانشاه أن يكون في الساقية إذا بدأوا بمهاجمة
العدو ، وفي المقدمة إذا انصرفوا ، (٢٨) كما أنه عندما سار إلى قلعة صاحب شروان وهي تدعى
خرش أذن من بالطاعة والانحدار إلى السهل فالتزمهم عشرة آلاف مدى في كل سنة وجعل
على صاحب شروان أن يكون في المقدمة إذا بدأ المسلمون بغزو الخزر وفي الساقية إذا
رجعوا ، (٢٩) ولكنه لم يوظف شيئا على فيلان شاه وذلك " لحسن غناك وجميل بلاك واحسانه
أمره " (٣٠) وأنا جعل عليه أن يغزو معهم فقط . (٣١)

و عندما نقض جستنيان الثاني الهدنة سنة ٦٩٣م / ٧٤ هـ مع عبد الملك متغذبا من
مسألة الدنانير تملة لنقض السلاح ، التقى المسلمون بالجيوش البيزنطية بالقرب من قيسارية
في معركة سيستوليس Sebastopolis ، (٣٢) وكان جستنيان قد اتجه
إلى محاولة استخدام السلاف في الدفاع عن الدولة ، فجمع عددا كبيرا من السلاف ووزعهم
على أشد المناطق تضررا لهجمات المسلمين في آسيا الصغرى والتي كانت في طريق زحفهم
جنوب القسطنطينية ، فكّن منهم فرقة كبرى بلغت (٣٠.٠٠٠) جندي ، وجعل مقرها الرئيسي
في بند الأوسكيون المطل على الدردنيل ، وقد اغترب جستنيان باستعداداته ، ولكنه هزم
هزيمة ساحقة كان معها أن يخسر آسيا الصغرى بأكملها ، وانحاز عشرون ألفا من الصقالبة

(٢٦) : البلاذري ، فتوح ، ص ٢١٠ .

(٢٧) : المصدر السابق ، ص ٢٠٩ .

(٢٨) : المصدر السابق ، ص ٢١١ .

(٢٩) : المصدر السابق ، ص ٢١١ .

(٣٠) : المصدر السابق ، ص ٢١٠ .

(٣١) : المصدر السابق ، ص ٢١١ .

Sulu Saray

(٣٢) : تعرف هذه المنطقة اليوم باسم سولوسراي

Ostrogorsky. Op. Cit., p. 118.

الى المسلمين ما استثار حقد جستنيان فعهد الى اجراء مذبحه فيمن بقي منهم بجيشه
عند لوكا (٣٣) ولذا غدا السلاف مستعدين لخدمة المسلمين في أى نضال
عربي ينشب بينهم وبين البيزنطيين ، لاسيما وأنهم كانوا على علم بدروب آسيا الصغرى .
ويذكر الحواري ميخائيل السرياني أن عبد الملك أسكن هؤلاء الصقالبة الذين انتحزوا الى
المسلمين منطقة انطاكية ، وربما دخل قسم من هؤلاء بعد ذلك في الاسلام ، ان يرد فسي
أنساب الاشراف أن مروان بن محمد كان له موالى من الغزر والصقالبة والروم ، كما يذكر
البلاندى أن سلمان وزباد كانا من الصقالبة الذين رتبهم مروان بن محمد في الثفسور ،
وعند ما بنى مروان بن محمد الخصور شرقي جبجان ، بنى عليها حائطا وأقام عليه باب خشب
وخندق خندقا وأسكنها الفرس والصقالبة وأنباط نصارى وأعطاهم غططا في المدينة وأعطاهم على
البناء . (٣٧)

أما اذا أردنا التعرف على العناصر التي كان يتألف منها الجيش الشامي في العصر
الأموي ، فلا بد من دراسة النصوص المختلفة المتعلقة بالجيوش التي اشتركت اما بقمع الفتن
أو الفتوح ، ففي صفين تختلف الروايات في عدد جند معاوية ما بين ٧٠ ألف (١٣٨) الى بضعة
وثمانين ألفا ، (٣٩) الى مائة وعشرين ألفا ، (٤٠) ولكنها تتفق على أن جيش معاوية
كان يتألف من القبائل العربية (٤١) التي قطنت أو كانت قاطنة في أنحاء الشام ، وأن هذا الجيش

Theophanes, Sixth Year of Justinian , 692. A.C. p. 558, 559 (٣٣)
George Hill. Op. Cit., p. 287.

ويستشهد اوستروغورسكي برواية تيوفانس القايلة بأن جستنيان قضى على من بقي من
الصقالبة لأن الصقالبة وجدوا في القرن العاشر في جند الاوسيكين .

George Hill. Op. Cit., P. 288. : (٣٤)

(٣٥) : الإلاندري ، أنساب ، القسم الثالث ص ١٢١ .

(٣٦) : البلاندى ، فتوح ، ص ١٥٥ .

(٣٧) : المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

(٣٨) : خليفة ، ج ١ ص ٢١٨ .

(٣٩) : ابن عدي ، المقدم ، ج ٣ ص ٣٢٧ .

(٤٠) : ابن عدي ، زبدة الحلب في تاريخ حلب ، ج ١ ص ٣٨ .

(٤١) : خليفة ، ج ١ ص ٢٢٢ ، الطبري ، ج ٥ ص ١٤ ، ابن الاثير ، ج ٣ ص ٢٩٦ .

كان جله يتألف من قبائل قضاة وأنيمن ولانجد ذكرا الا لقيس دمشق،^(٤٢) وعند الدينوري
لقيس حمص^(٤٣) (لأن منطقة قنسرين في ولاية معاوية للشام كانت لا تزال تابعة لجند حمص)
أما الموالي فلا يرد ذكر لهم الا كطاهرين لأسياهم.^(٤٤)
وبالرغم من أن الروايات المتعلقة بالجيش الذي أرسله يزيد الى الحجاز لا تشير
الى القبائل وانما الى عدد المقاطعة الذين انضموا الى مسلمة بن عقبة المري من كل جنس ،
أو عدد المقاطعة من أهل الشام عامة^(٤٥) ، فانه يمكننا القول أن دور الموالي في الجيش نسي
الفترة السفينانية كان محدودا جدا ، فمن جهة نرى أن المقاطعة الذين اشتركوا في معركة
مجر راهط سواء مع الضحاك أم مع مروان كانوا كلهم من العرب ،^(٤٦) كما نستنتج من اقتراح
عبيد الله بن زياد وعبد الرحمن بن عبيد الله الثقفي بجمع موالي بني أمية وتسليمهم أجمعين^(٤٧)
حتى يتسنى لهم دعم مروان أن موالي بني أمية حتى هذه الفترة لم يكن يعتمد عليهم في القتال ،
ولكن هذا الاعتماد يزداد تدريجيا ابتداء من خلافة عبد الملك ، فعندما ثار الجراجمة في
جبل اللكام استطاع سحيم بن المهاجر أن يقضي على ثورتهم بجيش من موالي عبد الملك وموالي
بني أمية ، وجند من ثقات جنده ،^(٤٨) وأرسل عبد الملك أربحين رجلا من أهل فرغانة
مع رجل من بصرى للقبض على الحارث الكذاب الذي ادعى النبوة والتلب منهم أن ينطلقوا
معه ويطيعون ،^(٤٩) وعندما ثار يزيد بن المهلب سنة ١٠١ ، جهز يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة

(٤٢) : خليفة ، ج ١ ص ٢٢٢ ، الدينوري ، ص ١٧٢ .

(٤٣) : الدينوري ، ص ١٧٢ .

(٤٤) : الطبري ، ج ٥ ص ١٩ .

(٤٥) : اليحوي ، ج ٢ ص ٢٥١ ، تهذيب دمشق ، ج ٧ ص ٦٠ .

(٤٦) : البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ١٣٨ ، الطبري ، ج ٥ ص ٥٣٨ ، تهذيب ،

ج ٧ ص ٧ .

(٤٧) : البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ١٣٨ .

(٤٨) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٩٥ ، ابن الاثير ، ج ٤ ص ٣٠٤ .

(٤٩) : ياقوت السموي ، ج ٣ ، ص ٣٢٤ .

وابن أخيه العباس بن الوليد في سبعين ألف مقاتل ، وقيل كانوا ثمانين ألفاً ،^(٥٠) فلما
سمع أصحاب ابن المهلب بوصول مسلمة وأهل الشام راعهم ذلك فخطب ابن المهلب الناس
وقال : قد رأيت أهل العسكر وخوفهم ، يقولون قد جاء أهل الشام ومسلمة ، وما أهل الشام ؟
هل هم إلا تسعة أسياف سبعة منها الي وسيفان طي ، وما مسلمة إلا جرادة صفراء أتاكم
في برابرة وجرامقة وجرجمة وأنباط . وأبناء فلاحين ،^(٥١) أي بمعنى أن نسبة العرب إلى الموالي
كانت ٧ : ٢ ، وإذا تبين لنا كذلك ظهور فرقة عرفت بالوضاحية لعبت دورها في القضاء
على ثورة يزيد بن المهلب ،^(٥٢) وأن وضاح كان مولى لبني أمية ، وكان يهربها ، وأن ياقوت
الحموي اعتمد في قوله هذا على السكري في قول جرير :

لقد جاهد الوضاح بالحق ملنا

فأورت مجدا باقيا آل سريرا

أمكنا القول أن الوضاحية فرقة من الموالي ، لا سيما أننا نرى هذا البيت في قصيدة
لجرير (ضاربهام الملوك) قالها أيام يزيد بن عبد الملك في أواخر حياته ، حيث نراه يتسبى
على الموالي ويظلم في ربط العرب بالعجم بأبي الانبياء ابراهيم الخليل . فيقول :

وأبناء اسحاق اللبوث اذا ارتدوا

معامل هتوت لاسنين السنورا

فيوما سراويل الحديد طههم ،

ويوما ترى خزا وعصبا منيرا

لقد جاهد الوضاح بالحق ملنا

فأورت مجدا باقيا آل سريرا

أهونا ، أبو اسحاق يجمع بيننا

أب كان مهديا نهبيا مطهيرا

(٥٠) : ابن الأثير ، ج ٥ ص ٧٣ ، ٧٤٤ .

(٥١) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٧٣ ، ٧٤٤ ، العميون والعدائيق ، ص ٧٠ .

(٥٢) : الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٩٥ ، ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٧٣ ، ٧٤٤ .

فجمعنا والفرأبننا سارة

أب لا نبالي بعد من تصدنا (٥٣)

ويستمر جرير في القصيدة في حوالي أربعة عشر بيتا ، وهو في قصيدته هذه قد تراجع عن نظرت القديمة ، نظرة الاشعزاز من الموالي واحتقارهم ، (٥٤) وقد سلك هذا السلك لا شتراك الموالي مع جيوش الخليفة في القضاء على ثورة يزيد . (٥٥) ونستطيع أن نفهم موقف جرير هذا اذا عرفنا أن جريرا كان شاعرا سياسيا بالمعنى الثام ، شاعرا يحامي عن نظرية حق الامويين في الحكم ويناضل عنهم ويسدد سهامه الى خصومهم ، وهو في تضاعف ذلك يحفهم باطار رائع من التقوى والعمل الصالح مقرا أن شهيتهم على الحق وأن من يخالفهم من الشيع أهل باطل . (٥٦)

يا آل مروان ان الله فضلكم

فضلا عظيما على من دينه البسودع .

واعتمد مروان بن محمد على الوضاعية في القضاء على ثورة حمص ، (٥٧) وكان عدد همم

ثلاثة آلاف كما استخدمهم مروان لقمع ثورة أهل الخوذة ، (٥٨) ويورد كذلك اسم الذكوانية وأنهم

(٥٣) : ديوان جرير ، دار صادر ، بيروت ، ص ١٨٥ - ١٨٧ .

(٥٤) : نستشف هذه النظرة من الأبيات التي قالها عندما هجا جرير بني العم الذين أعانوا الفرزدق ، وكانوا قوما من أعالي فارس قد فرغوا الى العراق أيام عمر وعاشوا بينهم قتال فيهم :

سيروا بني العم ، فالأشوا منكم
 ونهر تهرى ، فلم تعرفم المسرب
 الضارب والنخل لا تنبوا منا جلهم
 عن الحدوق ولا يعيهم الكسرب

وقال لطمة بن قوط العنبري لما أراد أن يبيحه رقد القرى ، وأن هذا يجب أن يتعفف عنه العربي ولا يأتيه الآ الموالي :

قالوا اشتروا جزرا منا فقلت لهم
 بيعوا الموالي واستحيوا من الحرب
 وقال في هجاء التميم :

وما جعل القوادم كالذئابسى
 وما جعل الموالي كالصبيسى

(٥٥) : د . نعمان محمد أمين طه - جرير ، حيات ، وشعره ، دار المعارف ، مصر ، ص ١٧٥ .

(٥٦) : د . شوقي ضيف ، تاريخ الادب العربي ، العصر الاسلامي ، الطبعة السادسة ، دار المعارف ، مصر ، ص ٢٨٢ ، ٢٨٣ .

(٥٧) : الطبرى ، ج ٧ ، ص ٣١٣ ، ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٣٢٩ .

(٥٨) : الطبرى ، ج ٧ ، ص ٣١٣ ، ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٣٢٩ .

موالي سليمان بن هشام بن عبد الطك (٥٩) وكان مع مروان يوم معركة الزاب ثلاثة آلاف من المحررة ومعه الذكوانية والصحيصعية والراشدية ، بالإضافة الى القبائل العربية ، قضاة ، السكاسك ، بني عامر ، بني سليم ، السكون ، غلفان . (٦٠) ويذكر خليفة ابن خياط أن مروان كان في مائة ألف من المقاتلة من أهل الشام والجزيرة ، وحشدت معه بنو أمية بأنفسهم وأتباعهم ، (٦١) أما المحررة فهم على الأكثر موالي مروان بن معاوية الخنز والصقالبة والروم ، (٦٢) وقد رأينا أن الذكوانية هم من موالي سليمان بن هشام بن عبد الطك ، فإذا اعتبرنا المحررة والذكوانية فرقا من الموالي أمكننا بالقياس أن نعتبر الصحيصعية ، والراشدية من الموالي كذلك لاسيما وأن الطبري يورد صراحة أسماء القبائل العربية التي اشتركت في معركة الزاب بالإضافة الى هذه الفرق من الموالي ، ثم اننا اذا رأينا كثرة موالي بني أمية في الأندلس الذين دعوا عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، (٦٣) استطعنا أن نستنتج أن الجيش الذي أرسله هشام بن عبد الطك للقضاء على ثورة البربر والذي دخل منه حوالي ١٠ آلاف مع بلنج بن بشر الى الأندلس كان يضم عددا لا يستهان به من الموالي ، وان لم يرد ذلك بشكل صريح عند ذكر الجيش الذي أرسله ، وبالرغم من اسهام الموالي في الجيوش الاموية الشامية الا أن دورهم يبقى متواضعا بالنسبة للمقاتلة من أبناء القبائل العربية . أما فيما يتعلق بتحديد أعداد المقاتلة في الشام ، فأمر فيه بعض الصوفاة لاشتراك المتلوطين ، ومقاتلة من الامصار الأخرى أحيانا ، ففي الحطة التي وجهت للقسطنطينية في خلافة سليمان ، بلغ الجيش الذي توجه مع سلمة مائة ألف وعشرين ألفا حسب قول ابن العمري (٦٤) وخمسة آلاف وثلاثين ألفا ممن يأخذون العداة ويقتلهم في السرزق

(٥٩) : الطبري ، ج ٧ ، ص ٣١٢ ، ابن الأثير ، ج ٥ ، ص ٣٢٤ ، وذكوان

بن عبد الله مولى عبد الطك بن مروان .

(٦٠) : الطبري ، ج ٥ ، ص ٤٣٣ .

(٦١) : خليفة ، ج ٢ ، ص ٦١١ .

(٦٢) : البلاذري ، أنساب القسم الثالث ، ص ١٢١ .

(٦٣) : ابن عذارى ، ج ١ ، ص ٦٠ ، ٦١ ، ج ٢ ، ص ٦١ - ٦٥ .

(٦٤) : ابن العمري ، تاريخ مختصر الدول ، ص ١١٤ .

حسب رواية ابن قتيبة^(٦٥) وربما أشار ابن العبري الى عدد المقاطعة من أهل الشام
بينما يذكر ابن قتيبة عدد مقاطعة الجيش من أهل الشام والأمصاري الأخرى التي اشتوتكت
مقاتلتها في هذه الحملة ، وفي نفس الوقت الذي اشترك فيه الجند الشامي في غسـسـسـسـسـسـسـسـسـسـسـس
القسطنطينية ، نجد الطبري يذكر أن عدد المقاطعة الشاميين في جيش يزيد بن المهلب
الذي توجه لفتح جرجان بلغ ٦٠ ألفاً^(٦٦) أي أن عدد المقاطعة في الشام في خلافة
سليمان بن عبد الملك بلغ مائة ألف وثمانين ألفاً ، وربما ضم هذا العدد أهل الديسوان
والمناورة كذلك ، وفي تاريخ تيوفانس أن الصانفة التي توجبت سنة ٧٢٦/٧٠٨ م
ضمت مائة ألف مقاتل ، (١٥) ألف مقاتل بأسلحة خفيفة بقيادة عامر بن ضبارة ، و (٨٥) ألف
مقاتل بقيادة معاوية بن هشام بن عبد الملك وأنهم ما جموا نيقيا (Nikaie) من منداقة
بيثينيا (Bithynien)^(٦٧) وبالرغم من أن مسلمة بن عبد الملك كما يذكر البلاذري
أسكن أربعة وعشرين ألفاً من أهل الشام في مدينة الباب والأبواب على العطاء في خلافة
هشام^(٦٨) ، وأن هشاماً أرسل جيشاً الى الأندلس يتألف من سبع وعشرين ألف مقاتل ،
سنة آلاف من كل جند باستثناء جند قنسرين الذي اكتفى منه بثلاثة آلاف فقط^(٦٩) ، فاننا نرى
أن مروان عندما سار الى الشام لخلع ابراهيم بن الوليد ، وجه ابراهيم الجنود مع سليمان بن
هشام بن عبد الملك في عشرين ومائة ألف ، بينما كان مروان في ثمانين ألفاً من أصل الجزيرة
وقنسرين^(٧٠) ، وهذا يعني تسجيلاً مستعراً في ديوان العطاء في أجناد الشام ، وأن متوسط عدد مقاطعة
جيش الشام كان يتراوح بين مائة ألف ومائة ألف وعشرين ألفاً .

(٦٥) : ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج ٢ ، ص ٧٣ .

(٦٦) : الطبري ، ج ٦ ، ص ٥٣٩ .

(٦٧) : Theophanes. Tr. Leopold Breyer. p. 38.

(٦٨) : البلاذري ، فتوح ، ص ٢٠٩ .

(٦٩) : احمد بدر ، تاريخ المغرب والاندلس ، ص ٤٠ .

(٧٠) : الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٠٠ ، ٣٠١ .

كان الجند الشامي على أهبة الاستعداد دائما طيلة خلافة بني أمية ، فالغزوات في الجبهة الشمالية ، والتي كانت تمتد على جند الشام كانت متواصلة تقريبا بالاضافة الى الصوائف والشواتي التي كانت مستمرة ، فاذا انقطعت فمعنى ذلك انشغال الجند بقمع فتنة ، ولا شك أن نظام الصوائف والشواتي الذي ظل معولا به طيلة خلافة بني أمية كان عبارة عن تعيينات ومناورات جماعية ، جعلت مقاتلة الشام أكفأ المقاتلين ، لأن بني أمية كما يقول البلاذري كانت تغزو الروم بأهل الشام والجزيرة صائفة وشائية معا يلي شهر الشام والجزيرة ،^(٧١) ولكن هذا لم يكن يمنع الراغبين في الجهاد من الاشتراك في هذه الحملات من الزهاد والعباد والصالحين .^(٧٢) بالاضافة الى اشتراك جيش الشام والجزيرة في الصوائف والشواتي ، كانت الهجرات تصرب أحيانا على أهل المدينة ، فقد ضرب الوليد بن عبد الملك اليمث عيسى أهل المدينة في سنة ٨٨ هـ ، فذكر محمد بن عمر عن أبيه أن مخزوم بن سليم الوالبي ، قال : ضرب عليهم يمث ألفين ، وأنهم تجاعطوا ،^(٧٣) فخرج ألف وخمسمائة ، فغزوا الصائفة مع مسلمة والعباس .^(٧٤)

وعندما حج هشام بن عبد الملك سنة ١٠٦ هـ بالناس ، قدم المدينة فوافق قدومه موت سالم بن عبد الملك بن عمر بن الخطاب ، فصلى هشام على سالم بالبقيع لكثرة الناس ، فلما

(٧١) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٦٧ ، العميون والحدايق ، ص ٨٩ .

(٧٢) : مصعب الزبيدي ، نسب قريش ، ص ٣٣٩ ، ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٤٢١ ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ٤ ، ص ٤٠٦ .

(٧٣) : المعنى الاصطلاحي كما ورد في لسان العرب ، أن يكتب الغزو على الرجل فيعطى رجلا آخر شيئا ليفزع مكانه ، وقيل الجعل والبعالة أن يكتب اليمث على الفزاة فيخرج من الاربعة أو الخمسة ، رجل ورجل له جعل (لسان العرب ، طبعة بولاق ، سنة ١٣٠١ هـ ، مادة جعل) ، وفي حديث ابن سيرين أن ابن عمر ذكروا عند البعائل فقال : لا أغزو على أجر ولا أبيع أجرى من الجهاد .

(٧٤) : الطبري ، ج ٦ ، ص ٤٣٤ .

رأى كثرتهم قال لبراهيم بن هشام المغزوي : اضرب على الناس بمئتين أربعة آلاف فسمي عام الأربعة آلاف . (٧٥) وكان الناس اذا دخلوا الصائفة خرج أربعة آلاف من المدينة الى السواحل ، فدانوا سناك الى انصرف الناس وخرروا بهم من الصائفة .

الى جانب المقاطعة كان هناك الللائع الذين يرتادون مكان نزول الجيش قبل نزوله وكان الخليفة عمر بن الخطاب يؤكد على أهمية هؤلاء في فتح عورات العدو وأن يكون هؤلاء من أهل الرأي والبأس ، (٧٦) ثم صاحب الأقباض ، وصاحب المقاسم (٧٧) أو والي المقاسم ، وقد توكل المهمة لشخص واحد يتولى جمع وتقسيم الغنائم ، (٧٨) ثم هناك أصحاب الساقة الذين يخلفون الجيش ، يسوق الناس وحفظ ما عساه يسقط منهم أثناء السير ، ويذكر ابن خلدون أن العرب كانت أسفارهم لنزواتهم وحرورهم بظمومتهم وسائر حيلهم وأحيانهم من الأهل والولد كثيرة ، حتى في العهد الأموي وأذلك كانت عساكرهم كثيرة الحلل بحيدة ما بين المنازل متفرقة الأحياء ، يذهب كل واحد منها من نادر صاحبه من الأخرى ، (٧٩) ولذلك كان عبد الملك يحتاج الى ساقة تحشد الناس على أثره أن يقوموا اذا ظعن وأن يرحلوا اذا رحل ، ونقتل أنه استعمل في ذلك الحجاج حين أشار به روح بن زنهاع ، وقصته في احراق قسطنطين روح وغياضه لأول ولايته حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة . (٨٠)

بالاضافة الى الملائع والساقة كان هناك السعاة الذين يقومون بحمل الرسائل والكتب بين القواد والولاة أو بين القواد والخليفة ، كما وجدت بعض الفئات المدنية

(٧٥) : الطبري ، ج ٧ ص ٢٩٠ .

(٧٦) : النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ج ٦ ص ١٦٩ .

(٧٧) : الطبري ، ج ٣ ص ٣٩٢ .

(٧٨) : ابن الاثم ، فتوح ، ج ٢ ص ١٢٦ ، الخولاني ، تاريخ داريا ، ص ٧٦ ، ٨٩٠ .

(٧٩) : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٨١٨ .

(٨٠) : ابن عسكويه ، العقد الفريد ، ج ٥ ص ١٤ ، ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٨١٨ ،

شرف الدين بن يوسف الانصاري ، التذكرة الايوبية ، ص ١٢٣ .

كالقرّاء والقصاص ، وفئة العمال والفعلة والأطبة .

اعتاد المسلمون أول أمرهم أن يتزوّموا أثناء معاركهم بالشعر الحماسي جريها على عادة العرب في جاهليتهم متنديين من الرجز وأنغامه مشرا لنفوسهم ومنشطا لدواهم ، كما وجدوا في شعر حسان بن ثابت وابن رواحة معينا لا ينضب ، فلما توالى نزول القرآن ونصّبهم الله بالذكر في قوله تعالى : " يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون " (٨١) صاروا يكثرون من تلاوته وذكر الله في حروبهم يتلخّطون به بلا صوت تلمّظ الأفاعي ، ثم عرف جماعة منهم بحفظ القرآن يسمّون القرّاء ، كانوا يخرجون من الجيش ويتفرقون بين صفوفه يسمعون الناس سورة الأنفال لما فيها من ذكر الثواب في الآخرة على الجهاد . وكان القرّاء في الجيش الاسلامي في معركة اليرموك المقداد بن الأسود ، (٨٢) ثم ازداد عدد القرّاء بعد ذلك بحيث أنهم شكوا في المراق كتيبة عرفت بكتيبة القرّاء اشتركت مع ابن الأشعث في ثورته على الحجاج . (٨٤) بالإضافة الى القرّاء وجد القصاص منذ وقت مبكر ، فإن أبو سفيان بن حرب هو القاص في معركة اليرموك ، (٨٥) ولا شك أن عددهم ازداد في العصر الأموي ، وان كانت الروايات تشير الى كثرتهم في المساجد وليلهم في اشارة روح الفساد والرون المعنوية للجنود أثناء القتال . (٨٦)

(٨١) : سورة الانفال ، آية ٤٧ .

(٨٢) : ابن سعد ، ج ٢ ص ١٠ .

(٨٣) : الطبري ، ج ٣ ص ٣٩٧ .

(٨٤) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٣٥٠ ، ٣٥٧ .

(٨٥) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٩٧ .

(٨٦) : فيما يتعلق بالقاص ودوره في العصر الأموي يمكن العودة الى كتاب الادارة فسي

العصر الأموي ، ص ٣٣٢ - ٣٣٤ .

وكان المسلمون أول أمرهم يقومون بواجب الجهاد كما يقومون بالأعمال الخمس
اللازم لهم من حفر الخنادق وإقامة التحصينات وزرع الحسك^(٨٧) يشترك في ذلك كبيرهم
وصغيرهم ، فلما فتحوا الأقطار وكثر في أيديهم الرقيق كان من الطبيعي أن يستعينوا بهم
على أعمال الجهاد المهينة كتسديد الجمال والخيول وعزم الأمتعة وحراستها في الحمل والترحال ،
واقامة القناطر والجسور ، لاسيما وأن العرب رأوا كثرة الأتباع لدى الفرس ، ففسد
روى السري عن شعيب عن سيف أن رستم خرج في عشرين ومائة ألف كلهم متبوع ،
وكانوا بأتباعهم أكثر من مائتي ألف وأنه خرج من المدائن في ستين ألف متبوع^(٨٨) وكان
هذا النظام متبعا كذلك عند الهيرنظميين حيث كان قادتهم يحضرون معهم عددا من
الفلان بعضهم أرقاء وبعضهم خدم ماجورون ، واستحسن الامبراطور ليون تلك
العادة وأوصى بتشجيع الفقراء من الفرسان أن يقتني كل أربعة أو خمسة منهم خادما
وتابعا لعمل أمتعتهم التي لا يمكن حملها معهم بسهولة^(٨٩) .
وبالرغم من أن الاشارات الى كثرة الاتباع لا ترد صراحة في مصادرنا ، فاننا نستطيع
القول بأن العرب اتبعوا هذه الطريقة ، فقد ورد في الطبري أن عدد رجال ابن الأشعث
في معركة دير الجماجم كانوا مائة ألف من يأخذون العطاء ومثلهم من مواليتهم^(٩٠) . كما أن مروان في

(٨٧) : أصل الحسك الشائك في اللقمة نبات له ورق كورق الرجلية ، وعند ورقه شوك ملزز
وصلب ذو ثلاث شعب ، تعلق ثمره بصوف الخنم ، ويظهر أن هذا الشوك كان
كثير الوجود في بلاد العرب ، فقد ضربوا بشوكه العثل في السلاية ، وقد استخدمه
المسلمون في حروبهم ، كما استخدمه الفرس والروم في التحصين ، والرسول عليه السلام
أول من استخدمه في الاسلام وذلك في حصار الطائف ، ثم نرى المسلمين
فيما بعد يصنعونه من أصابع حديدية مدهبة لها شعب ثلاث أو أربع يثبتونه حول
الخنادق لمنع تقدم الفيل والرجال ، وقد استخدم الفرس حسك الحديد في صد
هجوم النعمان بن مقرن (الطبري ج ٤ ص ١١٥ ، ١١٩) وقد ذكر صاحب
آثار الأول ، ما يفيد أن العرب أجادوا ذلك النوع من وسائل الدفاع وصار للحسك
عندهم صناع يمدونه وعمال ينقلونه على الدواب ، ويثبتونه في الطرق التي يحتمل
قدوم العدو منها . الحسن العباسي ، آثار الأول في تدبير الدول ، مخطوط
بالمتحف العربي بالقاهرة رقم (٣٨٣) ومطبوع على هامش تاريخ الخلفاء للسيوطي ،
ط مصر ١٣٠٥ هـ ، ص ٢١٥ .

(٨٨) : الطبري ج ٣ ص ٥٥٥ .

(٨٩) : Dr. Omar. A History of the art of war. p. 190.

.. / ..

(٩٠) : الطبري ج ٦ ص ٢٤٧ .

حره سنة ١٢٧ هـ ضد الخوارج كان جيشه يضم الكثير من العبيد ، وما يدل على أن هؤلاء العبيد لم يكونوا مسلحين أو فرقة معارضة ، هو أن مروان عندما هزم ودخل الخيبري حجرة مروان وقطع أطناها ، ورأى أهل معسكر مروان قلة من مع الخيبري ، ثار اليه عبيد من أهل المعسكر بمحمد الغيام فقتلوا الخيبري وأصحابه جميعا .^(٩١) وفي تاريخ خليفة بن خياط أنه كان في حرس مروان رجل يقال له سليمان بن مسروح البهري فنادى في العبيد من اتهمني فهو حمر ، فاجتمع اليه من العبيد ثلاثة آلاف رجل فقتل الخيبري .^(٩٢) كما أن مروان بن محمد في حره مع سليمان بن هشام بن عبد الملك أرسل الفعلة بالفؤوس لقطع الأشجار ليمقدوا جسورا ، ويجوزوا الى معسكر سليمان .^(٩٣)

أما من حيث الأطباء ومن يعينهم في مداواة الجرحى ، فقد كان الطب لدى المسلمين ضعيفا في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ولم يكن للمجروح في القتال من يقوم بعلاج جراحه الا زوجته أو من يلون به من أهله ، فقد كثرت الجراحات بالمسلمين يوم أحد وليس من يعني بجراحاتهم .^(٩٤) ولكن في معركة الخندق نجد ذكرا لامرأة يقال لها ربيعة في خيمة لها بمسجد المدينة تداوى الجرحى الذين يذمبون اليها ، وعند ما جرح سعد بن معاذ نال الرسول من قومه أن يجعلوه في خيمة ربيعة .^(٩٥) ثم ان هذه المهمة كما يبدو صارت من خصائص بعض النساء المسلمات المتأوقات ، فعن أم عطية الأنصارية " كنا نغزو مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فتداوى الجرحى ونمرض المرضى وكان يرضخ لنا من الخنيفة " .^(٩٦) أي يعطيهم ولا يضرب لهم بسهم كالرجال . ونلاحظ أنه باتساع الفتوح وبعد الأسفار صار المسلمون يصحبون معهم نساءهم ، فكان أول واجباتهن سقي المحاربين والحناية بالجرحى ، وحمل الماء لهم ونقلهم الى مكان أمين لعلاجهم ، وحفر القبور لموتى المسلمين ، فكان النساء يطفن في أرض المعركة ومعهن أولادهن

(٩١) : الطبرى ، ج ٧ ص ٣٤٧ .

(٩٢) : خليفة بن خياط ، ج ٢ ص ٥٦٩ .

(٩٣) : الطبرى ، ج ٧ ص ٣٠١ .

(٩٤) : الطبرى ، ج ٢ ص ٥١٤ ، ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج ٣ ص ٢٨ .

(٩٥) : الطبرى ، ج ٢ ص ٥٨٢ .

(٩٦) : ابن رشد ، بداية المجتهد ونهاية المقتصد ، ج ١ ص ٣٧٩ .

فهد فنون الشهيد ، ويحطون الرثيث الى النساء ، وبما جوتهم من كل موسم ، (٩٧) وأول ذكر
للأطباء عند الطبري نجاه في رواية سيف في قوله ان صرحت بالاطبة الى سنة . (٩٨) وفي
خلافة بني أمية نجد ذكرا لأبي الحكم الذي كان طبيبها نصرانيا عالما بأنواع العلاج والأدوية
وكان طبيبها لمعاوية ، وقد أرسله مع يزيد بن معاوية عندما ولاه الموسم مطببا له . (٩٩) وعندما
وجه يزيد بن معاوية مسلم بن عقبة المري نحو الحجاز أصبح معه طبيبها ، (١٠٠) ولا شك أن عدد
الأطباء وسماوتهم قد ازداد مع مرور الزمن بمد أن حذق العرب الطب من الفرس والروم .

التمهنة والقيادة :

ما أن تم فتح الشام حتى عد عسرين الخطاب الى تقسيم الشام الى أجناد
أو مراكز عسكرية أربعة هي جند عمص ، ودمشق ، والأردن ، وغلستين ، ولقد أوجد معاوية
فيما بعد جند قسرين ، وأوضح البلاذري أن هذه الأجناد كانت مراكز للمقاتلة يأخذون
أعطياتهم من فيها ، وكان ديوان كل جند يضم سجلات بمقاتلة القبائل المقيم في ذلك
الجند ومن يلون بهم ، ولذا نجد أن كثيرا من المصادر لا تذكر أسماء القبائل التي اشتركت
وانما تشير الى عدد المقاتلة من كل جند ، (١٠١) وبالرغم من أن الروايات المتعلقة بالعرفاء ودورهم
تلك تكون معدومة ، فان الإشارة الى وجود عريف للمسك في الشام مثلا ، (١٠٢) تجعلنا نميل الى
الافتقاد أنه كان لكل قبيلة عريفها ، كما كان الأمر في مصر والعراق في خلافة بني أمية ،
وأن هذا العريف كان مسوؤلا عن أفراد قبيلته ، ولكن لدينا أدلة تشير الى أن دورهم
ليس

(٩٧) : المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٥١٤ ،

(٩٨) : الطبري ، ج ٢ ص ٥٨٢ ،

(٩٩) : ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأئمة ، ص ١٧٥ ،

(١٠٠) : البلاذري ، أنساب ، ج ٤ قسم ٢ ص ٤١ ،

(١٠١) : اليعقوبي ، ج ٢ ص ٢٥١ ، تهذيب ، ج ٧ ص ٦٠ ،

(١٠٢) : تهذيب ، ج ٥ ص ٢٥ ،

(١٠٣) : أنظر كتاب الإدارة في العصر الأموي فيما يتعلق بالعريف وتداول واجباته ،

ص ٣١٩ ، ٣٢٤ ،

في الشام كان كدورهم في العراق بحيث كان العرفاء مسوؤلين عن أفراد عراقاتهم ، وعن
توزيع العطاء ، وعن الأمن والنظام في عراقاتهم ، (١٠٤) وعن تقديم العدد اللازم من الجند
عند ارسال البعث . (١٠٥)

أما تقديم العدد اللازم من المقاطعة في الشام فبيد وأنه كان يتم من طريق الانتخاب
أو القرعة ، هذا ما نستنتجه من الرواية الواردة عند الطبري في صدور الكلام عن غزوة قبرص ،
ان أن عثمان عندما أذن لالحاج معاوية في غزو البحر ، سمح له بذلك شريطة أن لا ينتخب
ولا يقرع بينهم وإنما يخبرهم " فمن اختار الغزو طائفا فاحطه وأعنه " . (١٠٦)

وكان سفيان بن عوف الأزدي قد اتخذ من كل جند من أجناد الشام أهل فروسة
ونجدة وعتاف وسياسة للمغرب ، فكانوا عدة له قد عرفهم وعرفوا به ، (١٠٧) أي أنه كان ينتخب
هو " لا " انتخابا ، وربما كان ذلك يتم وفق المسلمات التي توكل الى القائد ، وعندما عين عبد الملك
بشر بن مروان واليا على العراق كتب اليه أن يبعث المهلب في أهل مصره الى الأزرقسة ،
وليختب من أهل مصره وبهدهم وفرسانهم وأولي الفضل والتجربة منهم لأنه أعرف بهم . (١٠٨)

(١٠٤) : عن أبي مخنف أن عبيد الله بن زياد بعين ولاء يزيد الكوفة ، أخذ العرفاء والناس
أخذوا شديدا وقال للعرفاء : اكتبوا اليّ الصرياء ، ومن فيكم من طيبة أمير المؤمنين
ومن فيكم من الحرورية وأهل الربيع الذين رأيهم الخلاف والشقاق ، فمن كتبهم لنا
فبرئ ، ومن لم يكتب لنا أحدا فيضمن لنا ما في عرافته ألا يخالفنا منهم / ولا يبيئي
علينا باغ ، فمن لم يفعل هربت منه الذمة وحلال لنا ماله وسفك دمه ، وأيما عرف
وجد في عرافته من بنية أمير المؤمنين أسعد لم يعرفه الينا ، صلب على باب داره ،
وألفيت تلك العرافة من العطاء (الطبري ج ٥ ص ٣٥٩) .

(١٠٥) : عندما قرر الحجاج ارسال عثمان بن سعيد لقتال شبيب الخارجي ، دعا
أصحاب الدواوين فطلب منهم أن يضرهوا البعث على الناس ، وأن يخرجوا أربعة آلاف
من الناس من كل ربع ألف رجل ، وأن يعجلوا في ذلك ، فجمعت العرفاء وجلس
أصحاب الدواوين ، وضرهوا البعث فأخرجوا أربعة آلاف (الطبري ج ٦ ص ٢٣١) ،
كما أن الحجاج دعا العرفاء وطلب منهم أن يلحقوا الناس بالمهلب وأن يأتسوه
بالبراءات بموافقاتهم (الطبري ج ٦ ص ٢٠٥) .

(١٠٦) : الطبري ج ٤ ص ٢٦٠ ، ابن الاثير ج ٣ ص ٩٦ .

(١٠٧) : تهذيب ج ٣ ص ٤٥٥ .

(١٠٨) : الطبري ج ٦ ص ١٩٦ .

يتبين لنا ما تقدم أن التسجيل في الديوان يلزم المقاطعة البقاء ضمن نطاق جندهم ويلزمهم الخروج للقتال في نفس الوقت ، إلا أن الانضمام في الديوان كان اختياريا من حيث المبدأ ، كما لم تفرض الدولة على الفرد الانضمام الى الديوان الا وقت الضرورة ، وفي حالة تسجيل الشخص في الديوان كان عليه الاجابة حين دعوته (١٠٩) وان الغرض لأناس في المعطاء مند الحاجة (١١٠) يشعر بأن الكثيرين لم يكونوا في الديوان والامثلة المتعلقة بالمراق كثيرة (١١١) ويبدو أن تعبير الغرض يشير الى التسجيل لأول مرة في الديوان . يذكر أبو مخنف أن الحارث بن عميرة خرج لمحاربة الخوارج في " ألف من المقاطعة الأولى ، وألفين من الغرض الذين فرض لهم الحجاج " (١١٢) كما يذكر المدائني أن اعرابيا من طي خرج الى الشام الى بني عم له ، فطلب صلتهم ، فلم يعطوه طائلا وعرضه عليه الغرض فأبى ثم قدم فقتلوه فاعداوه شيئا قليلا وقالوا : تفترض ، فقال :

أقننا يقتسرين ستة أشهر
ونصفا من الشهر الذي هو سابع
يو مؤمن بي موقان أو يفرضون لسي
الى الري لا يسمع بذلك سماع (١١٣)

لا شك أن هذه الأبيات تعكس وضع مقاطعة الشام الذين كانوا مصدر النجدات لا خدمات الثورات أو للسمونة في الفتح ، ولعل ذلك كان يدفع البعض الى الامتناع عن التسجيل في الديوان كهذا الاعرابي الذي خشي أن يؤدى تسجيله في الديوان الى ارساله الى موقان أو الري ولذلك نجد يزيد الثالث يحد في جلة وعوده التي أطلقها لنيل الدعم لحكمه ، أن يبقى القوات الشامية في أرضها ولا يرسلها الى الخارج كما جرى الأمر مرارا وتكرارا (١١٤)

- (١٠٩) : ابن سعد ج ٦ ص ٢٣٤
- (١١٠) : الطبري ج ٥ ص ٦٢٠ ج ٧ ص ٤٦٤ ، تاريخ الخلفاء لمؤلف مجهول ، ص ٥٥٢
- (١١١) : الطبري ج ٥ ص ٦٢١ ج ٦ ص ٢٢٢ ج ٧ ص ٤٦٤ ، ابن قتيبة ، عيون الأخبار ج ١ ص ٢٧٤
- (١١٢) : الطبري ج ٦ ص ٢٢٠
- (١١٣) : ياقوت الحموي ومعجم البلدان ج ٤ ص ٤٠٤ ج ٥ ص ٢٢٥
- وموقان ، ولاية فيها قرى وروج كثيرة تحطها التركمان للري فأكثر أهلها منهم ، وهي بأذربيجان كما يذكر ياقوت عن ابن الكلبى أن موقان وجيلان هما أعسل طبرستان وأهله يسمونه موقان .
- (١١٤) : خليفة بن خياط ج ٢ ص ٥٥١ ، الطبري ج ٧ ص ٢٦٩

ومع ذلك نلاحظ أن التسجيل في الديوان في الشام كان يتم باستمرار ، يدل على ذلك الأعداد الكبيرة من المعاقلة التي وجدت في دمشق عندما ساصرها عبدالله بن علي ، فقد بلغ عدد الجنود (٥٠) ألفاً ، بينما نجد قلة عدد أهل الديوان في الكوفة مثلاً في نهاية الدولة الأموية ، فعندما كتب مروان بن محمد إلى يزيد بن عمر بن هبيرة أن يوجه اثني عشر ألفاً من المعاقلة ويفرض لأناس آخرين ويلحقهم بنصر بن سيار كتب يزيد بن عمرو إلى مروان ، بأن مامعه من الجنود لا يفوق باثني عشر ألفاً ويعلمه أن فرض الشام أفضل من فرض العراق ، لأن حرب العراق ليست لهم نصيحة للخلفاء من بني أمية وفي قلوبهم احن . (١١٦)

تطور شكل التعبئة عندما اضطر القواد المسلمون إلى مواجهة جيوش الفرس والبيزنطيين الضخمة والتي كانت لا تقاوم الا على نظام وتعبئة ، ومعنى التعبئة لدى ابن خلدون : تقسيم الجيوش والعساكر أقساماً لكثرتها ويسمونها كراديس ، ويسمون في كل كردوس صفوفه ، ويرتبونها ترتيباً قريباً من الترتيب الطبيعي في الجهات الأربع ، فالقائد أو الأمير العام في القلب ثم هناك الميمنة والميسرة والمقدمة والساقة ، فإذا تهلهم هذا الترتيب المنسجم اما في مدى واحد للبحر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم أو اليومان بين كل عسكريين منها أو حسب حال الجند في القلة والكثرة ، فحينئذ يكون الزحف بمد هذه التعبئة . (١١٧)

وعندما وصل خالد مددا لقوات الشام بناء على أمر أبي بكر وجد أن قتال الجنود كان على تساند ، (١١٨) كل جنود وأمرهم لا يجمعهم أحد ولم يتضاهقون بمد الروم ، فبين لهم أنه لا يجوز لهم مقاتلة الروم وهم قوم على نظام وتعبئة بينما العرب على تساند وانتشار ، وأن أبا بكر لو علم بالذي كان ويكون لجمعهم ، وخوفاً من أن يرفض رأيه ، اقترح أن يتجاوزوا الامارة ، فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بمد غد حتى يتأمر كلكم ودعوني اليكم اليوم ، (١١٩) ونتيجة لذلك خرج خالد كما يقول السري عن شبيب بن سيف في تعبئة

(١١٥) : الأزدى ، تاريخ الموصل ، ص ١٣٤ ، تهذيب ، تاريخ دمشق ، ج ٧ ، ص ٦٢ .

(١١٦) : الدينوري ، الاخبار الطوال ، ص ٣٦٠ .

(١١٧) : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ، ص ٨٢٤ ، ٨٢٥ .

(١١٨) : خرج القوم متساندين ، أي على رايات شتى ، اذا خرج كل بني أبي علي راية

ولم يجتمعوا على راية واحدة تحت راية أمير واحد (الطبري ج ٣ ص ٣٩٦) .

(١١٩) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٣٩٦ - ٣٩٧ .

لم تعبها العرب قبل ذلك ، فخرج في ستة وثلاثين كردوسا الى اربعين فجعل القلب كراديس وجعل القيادة لأبي عبيدة ، وجعل الميسرة كراديس وطيها يزيد بن أبي سفيان ، والميمنة كراديس وطيها عمرو بن العاص . واذنا قنا باحصاء الكراديس في القلب والميمنة والميسرة لوجدنا أن القلب كان يضم ستة عشر كردوسا ، بينما نجد عشرة كراديس في كل من الميمنة والميسرة ، واذنا عرفنا أن المقاطعة كان يتراوح عددهم بين ٣٦ ألفا الى ٤٠ ألفا . أمكننا القول ان الكردوس كان يتألف تقريبا من ألف مقاتل ، وطي كل كردوس قائد ، وهؤلاء يأترون بأمر قواد الميمنة أو الميسرة أو القلب ، وهؤلاء بدورهم يأترون بأمر القائد الأعلى خالد بن الوليد .

والقتال على التعبئة كما يقول ابن خلدون ، مذكور في أخبار فارس والروم والدولتين في صدر الاسلام ، أن الخلافة الراشدة ودولة الأمويين (١٢٠) أي أن الامويين استمروا فسي اتباع هذا النظام في تقسيم الجند الى ميمنة وميسرة وقلب ، ولكننا نجد عودة الى نظام الصفوف في معركة صفين ، ان حرض علي أصحابه فقال في كلام له : " فسووا صفوفكم كالبنيان المرصوص " . (١٢١) ويقدم لنا كل من الدينوري وخليفة بن خياط لوحة يكمل بعضها البعض ، فيذكر الدينوري أن كل فريق منهم اصطف في سبعة صفوف ، صفين في الميمنة و صفين فسي الميسرة وثلاثة صفوف في القلب وأن القائد العام أو الأعلى في جيش معاوية كان عبدالرحمن بن خالد بن الوليد الذي دفع اليه معاوية باللواء الأعظم ، ثم وجد قائد عام للرجالة وآخر للخيالة ، وقائد للميمنة وآخر للميسرة وثالث للقلب ، ثم كان لكل مقاطعة جنود قائد ولكل قبيلة ضمن الجند قائدها وزعيمها ، (١٢٢) أي نلاحظ أن رابطة النسب القبلية ظلت تراعى فسي تشكل الكتائب أو وحدات الجيش التي تدخل ضمن وحدات اكبر قائمة على أساس الروابط الجديدة التي نشأت بعد موجة الفتوحات كرابطة القاعدة العسكرية أو الجند . (١٢٣)

(١٢٠) : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ص ٨٢٥ .

(١٢١) : ابن الاثير ، ج ٣ ص ٢٩٧ .

(١٢٢) : الدينوري ، ١٧٢ ، خليفة ، ج ١ ص ٢٢٢ .

(١٢٣) : خليفة ، ج ١ ص ٢٢١ - ٢٢٢ ، الدينوري ، ص ١٧١ - ١٧٢ .

ويبدو أن الزحف بالصف استمر طيلة الفترة الأموية حتى خلافة مروان بن محمد الذي أهدم الصف وصار إلى التعبئة كراديس في قتل الضعك الخارجي والخبيري من بعده ، (١٢٤) ويورد الطبري ذلك في قوله : فلما قتل الخبيري سنة ١٢٧ هـ وببيع شيبان قاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأهدم الصف منذ يومئذ ، وجعل الآخرين يكرهون بكراديس مروان كراديس تكافئهم وتقابلهم . (١٢٥)

القيادة :

كانت القيادة منذ عهد الرسول تعهد إلى أشخاص يتمتعون بعصا معينة ، فقد أقره (صلعم) قوله : " اني لأؤمّر الرجل على القوم وفيهم من هو خير منه لأنه أيقظ منّا وأبصر بالحرب " ، ويحث الرسول بعثا على رأسه عمرو بن العاص ومعه أبو بكر وعمر لعلمه بالحرب . (١٢٦)

وعندما قرر أبو بكر توجيه الجيوش إلى الشام جعل القيادة للمصاحبة المشهود لهم بالحزم وبقوة الشكينة عند القتال والقدرة على تنظيم البند واعدادهم ، وكان عمر كذلك يوم مصاحبة " اذا وجد من يجزي عنه في حربه ، فان لم يجد ففي التابعين باحسان " . (١٢٧) وظلت قضية السابقة تراعى حتى في التعيين للقيادات الأصغر ، فعندما سمع عمر لسعد بن أبي وقاص باستخدام المرتدين أمره أن لا يولي رؤسائهم طس مائة ، (١٢٨) ولكن عمرا شدّ عن قضية السابقة في تعيين أبي عبيد بن مسعود لأنه كان أول الناس انتدابا لحرب الفرس ، إذ أنه عندما قيل لعمر بعد أن اجتمع البعث المقرر توجيهه إلى المسراق : أمر عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين والانصار ، قال : " لا والله ، لا أفعل ، ان الله انما رفعكم بسيفكم وسرعتكم إلى العدو ، فاذا جهنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق الوالدفع وأجاب إلى

(١٢٤) : ابن خلدون ، المقدمة ، ج ٢ ، ص ٨٢٨ .

(١٢٥) : الطبري ، ج ٧ ، ص ٣٤٩ .

(١٢٦) : النويري ، نهاية الأرب ، ج ٦ ، ص ١٥٢ .

(١٢٧) : الطبري ، ج ٤ ، ص ٢٥ .

(١٢٨) : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٥٥٧ .

الدعاء ، والله لا أوامر عليهم الا أولئهم انتدابا . وكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود
وقيل سليل بن قيس ، فأمر أبا عبيد ، ^(١٢٩) وعن رجل من الأنصار أن عمر رضي الله عنه قال
لأبي عبيد " انه لم يمنعني أن أوامر سليل الا سرعت الى العرب ، وفي التسرع الى الحرب
ضياح الا عن بيات ، والله لولا سرعت لأمره ولكن الحرب لا يصلحها الا المكث " . ^(١٣٠)
كما أنه أوصى أبا عبيد أن يسمع من أصحاب النبي (صلعم) وأن يشركهم في الأمر ، ^(١٣١)
ولكن شرط السابقة بدأ يتضال وان كان معاوية في الشام قد جعل القيادة للصمابة وأبنائهم
المشهود لهم بالكفاءة والاخلاص له بالاضافة الى اعتماد طي سادات القبائل في كل جند . ^(١٣٢)
أما في الفترة الرومانية فلاحظنا زيادة كبيرا في الاعتماد على أمراء بني أمية من آل مروان
كقادة وان بقي لسادات القبائل قيادة قبائلهم ، ان نرى عبد الملك عندما حشد جيشا لقتال
الروم واجتمع هذا الحشد خارجا من مدينة دمشق ، خرج اليهم عبد الملك فمباهم فجعل
على كل قبيلة من القبائل رجلا من ساداتهم يقتدون برأيه وينتهون الى أمره ، وأمر ابنه مسلمة
بن عبد الملك عليهم وطلب منه عندما يعزم على حرب عدوه أن يجعل معه محمد بن مروان طي
مهمته وابن عمه محمد بن عبد العزيز طي مهمته . ^(١٣٣)
وبينما نجد معاوية يمتد على قادة متعددين ينتمون الى قبائل مختلفة لقيادة
المصائف والشواتي وفي قيادة الحملات الموجهة الى أرمينية ، ^(١٣٤) نرى أن النسبة الكبرى من ولاية

-
- (١٢٩) : الطبري ، ج ٣ ص ٤٤٥ ، الهلاندري ، انساب ج ٥ ص ٢١٤ .
(١٣٠) : الطبري ، ج ٣ ص ٤٤٥ .
(١٣١) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٤٥ .
(١٣٢) : خليفة ، ج ١ ص ٢٢٢ ، الدينوري ، ص ١٧٢ .
(١٣٣) : ابن الاثم ، فتوح ، ج ٧ ص ١٦٨ ، ١٦٩ .
(١٣٤) : تظهر في خلافة معاوية أسماء قواد كانت لهم مكانتهم ، كمحمد الرحمن بن خالد بن
الوليد ، مالك بن هبيرة السكوني ، فضالة بن عبيد ، يزيد بن شجرة الرهاوي ،
وسفيان بن عوف الازدي ، ومحمد بن قيس الغزاري (الطبري ج ٥ ص ٢٣٤ ،
٢٥٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٣ ، ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٥ ، ٣٢٠ ، ٣٥٢ .

الصوائف والشواتي ومن قادة الجبهة الشمالية كانوا من أمراء البيت الأموي الذين تتابعوا على جهاد الروم ، ^(١٣٥) ويبدوان خلفاء بني أمية كانوا يملقون أهمية كبيرة على هذه الحملات ،

(١٣٥) : غزا محمد بن مروان والي الجزيرة الصائفة سنة ٧٣٣ هـ - ٧٥٠ هـ وغزا الوليد بن عبد الملك

سنة ٧٧ هـ ، ولعبد الله بن عبد الملك بلاه مذكور في غزوة المصيصة من الثغور الشامية

(الطبرى ج ٦ ص ٣٨٥) وفي عهد الوليد بن عبد الملك غزا مسلمة بن عبد الملك أرض

الروم سنوات ٨٦ هـ ، ٨٧ هـ ، ٨٨ هـ ، ٨٩ هـ ، ٩٠ هـ ، ٩١ هـ ، ٩٢ هـ ، ٩٣ هـ

(الطبرى ج ٦ ص ٤٢٦ ، ٤٢٦ ، ٤٢٦ ، ٤٣٤ ، ٤٣٩ ، ٤٣٩ ، ٤٢٢ ، ٤٥٤ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩)

ويذكر ابن العديم أن الوليد تولى الخلافة ومحمد بن مروان على ولاية فـما زال

كذلك حتى عزله الوليد سنة ٩٠ هـ وولى مكانه أخاه مسلمة ، فدخل مسلمة حران

وكان أكثر مقامه بالناعورة ومنى فيها قصرا بالحجر الأسود الصلد وحضنتا بقسي

منه الى عهد ابن العديم برج . وكذلك ظهرت في الغزوات الموجهة لأرض الروم أسماء

العباس بن الوليد سنة ٨٨ هـ ، ٨٩ هـ ، ٩٠ هـ ، ٩٣ هـ ، ٩٤ هـ ، ٩٥ هـ . وقد عمر

مرقس وحضنها وكان يقطع اليها بعثا من أهل قنسرين سنويا ، وعهد العزيز بن الوليد ،

(الطبرى ج ٦ ص ٤٥٤) وعمر بن الوليد سنة ٩٢ هـ (ج ٦ ص ٤٦٨) ومروان بن الوليد

(ج ٦ ص ٤٦٩) .

وفي خلافة سليمان بن عبد الملك جهز الجيوش الى القسطنطينية سنة ٩٧ هـ

واستعمل ابنه داود على الصائفة ، وواصل مسلمة غزواته سنة ٩٦ هـ ، ٩٨ هـ ، وتوفي

سليمان سنة ٩٩ هـ ، وهو مرابط بدابق من أرض قنسرين . وفي خلافة هشام بن

عبد الملك يبرز اسم معاوية بن هشام ، سنة ١٠٧ هـ ، ١٠٩ هـ ، ١١١ هـ ، ١١٢ هـ ، ١١٣ هـ ،

١١٤ هـ ، ١١٦ هـ ، ١١٧ هـ ، (الطبرى ج ٧ ص ٤٠ ، ٤٦ ، ٦٥ ، ٦٧ ، ٧٠ ، ٨٨ ، ٩٢ ،

٩٣ ، ٩٩) (تيوفانس ، ترجمة Leopold Breyer ص ٤٦) بالاضافة الى معاوية ،

قلدهشام كذلك أبناءه ابراهيم بن هشام ، وسعيد بن هشام ، وسليمان بن هشام .

(الطبرى ج ٧ ص ٤٣ ، ٦٧ ، ٩٩ ، ١٣٩) ويورد تيوفانس اسم سليمان بن هشام

في غزوة سنة ١٢٢ هـ / ٧٣٩ م ويشير الى أن الجيش ضم (٩٠) ألف مقاتل ،

عشرة آلاف من ذوى الأسلحة الخفيفة ، وان البطال كان مع سليمان في هذه الغزوة

مع (٢٠) ألف فارس وسليمان فسي (٦٠) ألفا ، (تيوفانس ص ٤٨ ، ٤٩) .

ولذلك كانوا يسندون قيادتها لابنائهم ، أو اخوتهم ، لأنهم يعلمهم هذا انما يتابعون عطية الجهاد ضد أعداء المسلمين ، كما أن هذه الحملات كانت تكسب الامراء ماله من المجد ، بالانخافه الى أن عطية الجهاد هذه كانت تمكنهم من أن تحافظ جيوشهم الشامية على ما تتمتع به من نظام وسجايا حربية ، ومن ثم كانت هذه الجيوش مصدر قلق لباطرة بيزنطة ، نجد ذلك منعكسا فيما كتبه الامبراطور ليمون في الكتيب الذي أصدره والذي زاوطيه فوكاس Nicephorus Phocas ان يبين أن الميزنطيين في حروبهم لم يواجهوا عطيات حربية حصيفة ومحكمة ومدروسة بدقة كخطط العرب ، وان القائد المكلف بمواجهتهم كان يحتاج الى كل قدراته الاستراتيجية والتكتيكية ، كما أن الفرق التي يقودها يجب أن تكون انضباطية وجريئة ، اذا اراد أن ينجح في صد العرب الكفرة . (١٣٦)

ويرتبط بقضية الصوائف والشواتي على الأرض الميزنطية : وضع نظام خاص لمعاملة الاسرى ، ووسائل اطلاق سراحهم ، ويقدم لنا المقدسي صورة عن حياة الاسرى المسلمين الذين أسرتهم الدولة الميزنطية ، ويشير الى أن سلعة بن عبد الملك لما غزا بلاد الروم اشترط على ملك الروم أن يبني دارا بازا قصره في الميدان ينزلها الوجوه والاشراف ، اذا أسروا ، ليكونوا تحت كنفه وتماهده ، فأجابه الى ذلك فبنى دار الهلاط ، (١٣٧) ويضيف " ولا يسكن دار الهلاط الا وجيه في اجراء وتماهد وتتره ، وسائر الاسرى من عامة المسلمين مستعبدون ويستعملون في الصنائع ، فالحازم اذا سئل عن صنعة لم يقر بها وربما اتجر الأسارى

Dr. Omar. A History of The Art of War, p. 208.

: (١٣٦)

Tactica XVIII § 120. " The Commander who has to meet with them will need all his stratigical ability, The troops must be well disciplined and courageous, if the barbarous and blaspheming Saracen is to be driven back. "

(١٣٧) : المقدسي ، احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، دمشق ١٩٨٠ ، ص ١٣٨ .

بمنهم وانتفعوا ، وكان البيزنطيون لا يكرهون أحدا على أكل لحم الخنزير ولا يشقون لساناً (١٣٨) أى أن الدولة البيزنطية كانت تراعي مبادئ التعاليم الإسلامية في معاملتها للأسرى المسلمين فلم تتركه أحدا على تناول لحم الخنزير أو أى شيء يخالف السنن الإسلامية ، ولعل هذه المعاملة الجيدة التي حظي بها الأسرى المسلمون تعود إلى ما تمتعت به الدولة الأموية من مهابة وجلال ، والمي حسنة معاملتها للأسرى البيزنطيين .

أما نظام الفداء فلم يظهر بشكل واضح إلا في عهد الدولة العباسية ، ويذكر المقريزي أن أول فداء وقع بحال في الإسلام كان أيام بني العباس ولم يقع في أيام بني أمية فداء مشهور ، وإنما كان ينادى بالنفر بعد النفر في سواحل الشام ومصر وبلاد بلاد بلخ وقبة الشفور الجزرية ، إلى أن كانت خلافة هارون الرشيد ، (١٣٩) والمرويات القليلة المتعلقة بالفداء في العصر الأموي تعود كلها إلى خلافة عمر بن عبد العزيز ، إذ يذكر ابن عبد الحكم أن عمر بن عبد العزيز أرسل شخصاً ليفادي الأسرى صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنتاهم وحرهم ومطوكهم بما سئل عنه (١٤٠) بمعنى أنه قرر فداءهم بالحال ، كما أنه ورد في طبقات ابن سعد أن عمر أعطى هرقل من المسلمين عشرة من الروم وأخذ المسلم ، (١٤١) وكان عمر بن عبد العزيز يقبل فدية الأسير من أسرى العدو بالحال ، فعن محمد بن عمر بن إبراهيم بن عبد الله . . . من عمر بن عبد العزيز ، أنه أتى بأسير أسره مسلمة بن عبد الملك ، وأن أهله سألوه أن يفتدوه بمائة مثقال ، فردّه عمر وقداه بمائة مثقال ، (١٤٢) وعندما أغار الروم على ساحل اللاذقية في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠ هـ ومدوا يديها وسبوا أهلها أمر عمر ببنائها وتحصينها ، ووجهه إلى امير طبر الروم في فداء من أسر من المسلمين . (١٤٣)

(١٣٨) : المقدسي ، المصدر السابق ، ص ١٣٦ ، ابن رسته ، الاطلاق النفيسة ، ناهية

ليدن ١٨٩١ م ص ١٢٢ ، ١٢٣ .

(١٣٩) : المقريزي ، الخطط ، ج ٣ ص ٦ .

(١٤٠) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ص ١٤٠ .

(١٤١) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٣٦٠ .

(١٤٢) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٣٦٠ .

.. / ..

(١٤٣) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٩ .

أما في العصر العباسي ، فان كلا من الدولتين العباسية والميزنطية قد حرصتا على سلامة كبار رجال الدولة الذين وقفوا أسرى في أيديهما ليماد لانهم كبار رجال دولتهما ، وكان هناك مكان خاص على شاطئ آسيا الصغرى يسمى اللامش ،^(١٤٤) وكان يسبق حركة التبادل ايضاً سفارات يشترك فيها عمال الثغور لتقرير أسس الفداء ، ويتضح أن تبادل الأسرى كان يجري طبقاً لقواعد مرسومة ونظام خاصة .^(١٤٥)

الأسلحة ووسائل الدفاع والتحصين في الشام :

عندما انطلقت جيوش الفتح العربية لم يكن مقاتلتها على مستوى واحد من حيث الآلة والسلاح ، كما أن بعض الأسلحة التي استخدمها العرب كانت دون مستوى أسلحة الأعداء ، فقد شبه الفرس نصال المسلمين يوم القادسية بالمغازل استهانة بها ، كما أن المقاتلة المسلمين الذين استخدموا الدرق أو الحجف كانوا قلة^(١٤٧) إذ أن عامتهم كانوا يترسون بأشياء مختلفة حسب درجاتهم في اليسار والفقير ، يقول الطبري : " وما عامة جنينهم غير برانع الرجال قد عرضوا فيها الجريد يترسون بها من أنفسهم ، وما عامة ما وضعوه على رؤسهم الا انساع الرجال يطوى الرجل تسع رحله على رأسه يتقي به ، والفرس فيداهم بالحمديد واليلاق^(١٤٨) ، وعند ما حاصر المسلمون حمص بقيادة أبي عبيدة ونالده بن الوليد استعرا الحصار طويلاً ، إذ تمسك القوم بالمدينة رجباً أن يهلكهم الشتاء ، وكان أهل حمص يتواصون فيما بينهم ويقولون : " تمسكوا فانهم حفاة فاذا أساهمهم البرد تقطعت أقدامهم مع ما يكون ويشرون " ،^(١٤٩)

(١٤٤) : الحقيزي ، الخطط ، ج ٣ ص ٠٦

(١٤٥) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٦-٨

(١٤٦) : الطبري ، ج ٣ ص ٤٩٦ ، البلاذري ، فتوح ، ص ٢٦٠

(١٤٧) : الدرق والحجف جمع درقة ، وججفه وهي كمانى الافصاح ، والنظايرس المحيط

ترس من جلد الابل او البقر ليس فيها خشب ولا سيور من الجلد أو العصب ، ولكن

ورد في شرح البخاري ما يفيد أن الدرقة زمن الرسول (صلعم) نانت تصنع

من الخشب ثم تلصق عليها جلدة مساوية (القسطلاني ، ارشاد الساري ، ج ٥ ص ١٠٥)

وهذا الشرح أدق إذ أن الجلد لا يثبت وحده أمام طعنات السلاح الا اذا كان مستنداً

الى جريد أو خشب يتقيه .

(١٤٨) : الطبري ، ج ٣ ص ٥٢٥

(١٤٩) : الطبري ، ج ٣ ص ٦٠٠

بينما كان فرسان الروم يلبسون في أرجلهم أعضدة حديدية لولولة ، أما سواعدهم فكانت
محصنة وأما أعضادهم فكان الكثير منهم يقبها بسوار ضيق من المعدن ، (١٥٠) إذا فقد شاهد
المسلمون أعداءهم يحصنون أطرافهم بالحديد ، ولا شك في أنهم غنموا دروسا كثيرة من الفرس ،
والروم ، (١٥١) ومن الطبيعي أن يعمدوا الى تقليد هم ، وقد كثرت الأموال بين أيديهم ،
وما هم أقل منهم في أية ناحية من النواحي العربية ، ونجح معاوية خلال ولايته على الشام
أن يكون جيشا منظما مدربا نتيجة للثقات المستمرة مع الامبراطورية البيزنطية لاسيما
وأن معاوية ومن أتى بعده اتخذوا الجيوش البيزنطية كنموذج لقواتهم في السلاح
والستراتيجية ، (١٥٢) ولذلك فإن جيش معاوية في صفين كان مجهزا تجهيزا كاملا حتى
أطلق عليه اسم الخضريه لاسوداده باندروع والسلاح ، (١٥٣) بينما لم يكن مقاتلة الغليفة

Dr. Omar, Op. Cit., pp. 80, 90, 91. : (١٥٠)

(١٥١) : الطبرى ، ج ٤ ص ٨٠

Dr. Omar. Op. Cit., p. 208. Tactica XVIII . § 120. : (١٥٢)

كان البيزنطيون يعتمدون في حروبهم بالدرجة الأولى على فرق الخيالة الثقيلة السلاح
التي يلبس أفرادها الخوذ الفولاذية والدروع المنسفة Scale Armour
أو الدروع المزودة Coat of mail التي تغطي الجسم كله ، وكانت
أسلحتهم السيف والخنجر والرمح والنبل ، أما خيولهم فكانت تغطيها أطواق الصدر
Breast Plates ، وصفائح الجبهة Frontal Plates
وتستخدم فرق الخيالة الخفيفة للهجوم السريع للاستطلاع ولا رشاق اليد ومضايقتهم ،
وكان سلاح أفرادها الرئيسي النبال ، أما المشاة ذوالأسلحة الخفيفة يستخدمون
النبال كذلك ولكن وجدت فرق تستخدم الرماح ، بينما يستخدم المشاة ذوالأسلحة
الثقيلة الدروع المزودة ويحملون الرماح والسيوف والتروس .

Wilhelm Ensslin, The Army and The Fleet, Byzantium, pp. 301 - 302.

(١٥٣) : ابن عدي ، المعقد الفردي ، ج ٣ ص ٣٣٧ ، المسعودي ، مروج الذهب ج ٣ ص ٣٨٠

٣٨٨ ، ويذكر المسعودي أن مينة معاوية كانت تضم ١٠ آلاف من مذبح وعشرون

ألفا من الخيول بالحديد ، وكان الحرب يطلقون على الكتيبة المغطاة بالحديد ، كتيبة

خضراء (الطبرى ج ٣ ص ٥٤)

علي بن أبي طالب على هذا المستوى ، نستنتج ذلك من قول علي يحرض أصحابه بأن يسوا صفوفهم كالهنديان المخصوص ، وأن يقدموا الدارع ويؤخروا المعاصر ، وأن سفيان بن عوف الأزدي في خلافة معاوية لا يجيز في العرض الا رجلا بفارس ورمح ومخضف (١٥٥) ومسله وترس وخيوط كتان وسخلاة ومضغ ومقود وسكة عديد . (١٥٦) وعندما أرسل مروان بن محمد عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي الى المدينة لقتال حمزة الغاريبي قدمها في أربعة آلاف فارس عربي منهم من عليه درعان أو درع وسنور وتجايف عدة لم ير مثلها في ذلك الزمان ، (١٥٧) وإذا رأينا الامبراطور ليون يحترف بالرغم ما عرف عنه من تحامل على الحرب بأن الجندى العربي لم يكن يفترق عن الجندى الهيندي في السلاح ووسائل الدفاع والآلة ، (١٥٨) نتبين مدى التقدم السريع الذي أسره المسلمون ولا سيما مقاتلة الشام .

لم ينحصر هذا التقدم في الأسلحة الخفيفة التي يستعملها الجندى فقط ووسائل الدفاع من ترس ودرع ومخفر وبيضة ، وإنما في الأسلحة الثقيلة التي يشترك في استخدامها أكثر من جندى . يذكر ابن هشام في كلامه عن غزوة الطائف أن أول من رمى في الاسلام بالمنجنيق هو الرسول (صلعم) رمى به أهل الطائف ، كما يرد عند ابن هشام والطبري أن عروة بن مسعود وغيلان بن سلمة لم يشهدا حينئذ ولا حصار الطائف لأنهما كانا بجيش يتعلمان صنعة الدبابة والمجانيق والضبور ، (١٦٠) وإذا قلنا أن جيش من أرض البلقاء ، والبلقاء

(١٥٤) : ابن الاثير ، ج ٣ ص ٢٩٧ .

(١٥٥) : المخضف ، مخزر الاسكاف والجمع مخاضيف .

(١٥٦) : تهذيب ، ج ٦ ص ١٨٥ .

(١٥٧) : الطبري ، ج ٧ ص ٣٩٩ .

(١٥٨) : Von Krcmer. The Orient under the Caliphs . p. 328.

Dr. Omar. Op Cit., pp. 208 - 209.

(١٥٩) : ابن هشام ، السيرة ، ج ٤ ص ٩٤ .

(١٦٠) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٩٠ ، الطبري ، ج ٣ ص ٨١ ، ٨٢ .

الدبابة والضبور ، اسم الدبابة لغة مشتق من (دب يدب دبباً إذا مشى على مهل) وسميت بذلك لأنها تدب حتى تصل الى الحصون ، ثم يعمل الرجال الذين بداخلها في ثقب أسوارها بالآلات الحفر . ويظهر أن الضبور نوع منها ، أو هي الدبابة نفسها من تواف الاسماء ، ففي القاموس المحيط ، أن الضبور جلد يمشى خشباً فيه رجال تقترب الى الحصون للقتال ، والجمع ضبور ، وليست الدبابة شيئاً غير هذا . وبين صاحب آثار الأول (ص ٢١٤) ان الدبابة آلة تتخذ من الخشب الشخين الطرز وتغلف باللهد أو الجلود المنقعة في الغل لدفع النار وتركب على عجل مستدير وتحرك وربما جعلت برجاً من خشب ودير فيها هذا التدبير ، وقد يدفعها الرجال فتدفع على بكر .

من عمل دمشق ، وأن هذه المنطقة نالت تحت الحكم البيزنطي ، فمن الجائز أن يكون
العرب قد نقلوا هذا السلاح عن البيزنطيين . ويرى فون كريمر أن العرب نقلوا عن
البيزنطيين استعمال المنجنيق والعرادة لرسي الكتل الصخرية ، ويوافق في هذا الرأي
الدكتور أومار Omar . (١٦١)

اضطر الحاقظة في الشام الى استئدام المنجنيق عند حصارهم للحدن المعصنة ،
فقد حصر المسلمون دمشق سبعين ليلة حصارا شديدا بالزمواف والترامي والمجانيق ،
(١٦٢)

وأغار مقاطعة أهل الشام على أطراف صقلية في ولاية معاوية وأخربوا مجانيق كانت معهم فنصبوها
على حصونهم ورموها رميا متداركا ، الا أن الحجارة التي استخدمت كانت معتدلة . واستمر
(١٦٣)

استخدام الحجارة سوا عند ما حاصر عبد الملك قرقيسيا في طريقه لقتال مصعب بن الزبير ،
(١٦٤)

أو في حصار مكة عند ما توجه الحجاج لقتال عبد الله بن الزبير . وحتى مروان بن محمد
(١٦٥)

الذي استخدم المنجنيق على نطاق واسع استعمل الحجارة فقط ، ان عند ما حاصر مروان أهل

حصن سنة ٢٧ هـ نصب عليهم كما تذكر الرواية نيفا وثمانين منجنيقا وأنه طرح عليهم حباتها

بالليل والنهار ، (١٦٦) ولكن مسلمة بن عبد الملك عند ما هاجم مدينة الباب والأبواب حاصروهم

وراهم بالحجارة ثم بعد يد اتخذ على هيئة الحجارة . (١٦٧) تجاه هذه الروايات نتساءل عن

مدى الدقة فيما يرويه المسعودي عند ما يذكر أن الحصين بن نمير السكوني رمى الكعبة بالأحجار

والنار والنفط ومشاقات الكتان ، (١٦٨) فهل نسب المسعودي الى فترة يزيد ما حدث في وقت متأخر

بعض الشيء لكي يملل بذلك احتراق الكعبة التي يقال انها احترقت أثناء الحصار .
(١٦٩)

(١٦١) : Von Kremer. Op. Cit., p. 327, Omar, Op. Cit., p. 219.

(١٦٢) : الطبري ، ج ٣ ص ٤٣٨ ، ابن الاثير ج ٢ ص ٤٢٨ .

(١٦٣) : ابن الاثم ، فتح ، ج ٢ ص ١٤٣ .

(١٦٤) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٢٦٢ .

(١٦٥) : الطبري ، ج ٦ ص ١٨ .

(١٦٦) : المصدر السابق ، ج ٧ ص ٣٢٦ ، ابن الاثير ، ج ٥ ص ٣٣٣ .

(١٦٧) : البلاذري ، فتح ، ص ٢٠٩ .

(١٦٨) : المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٧١ .

(١٦٩) : من أجل تحليل احتراق الكعبة يمكن العودة الى كتاب الدكتور نبيه عاقل ، خلافة
بني أمية ، ص ١١٤ - ١١٥ .

مهما يكن من أمر ، فإن الاشارات الى استخدام الخنجنيق بأعداد كبيرة لا يمكن
أن تتوافق اليقين بما بين كديه دار لصناعتها ، و فرق تقوم على تجهيزها واعداد القذائف
لها والحمل على صيانتها وحفظها سليمة صالحة للاستعمال .
الى جانب آلات الهجوم لابد من أن نشير الى وسائل الدفاع الثابتة التي كانت
تستخدم وعلى نطاق واسع كالخندق وبناء الحصون والأسوار ، وأول من استخدم الخنادق
في خلافة أبي بكر وأكثر منها الحلاء بن الحضرمي أثناء قتاله المرتدين ، فكان المسلمون
والمرتدون هناك يحفرون الخنادق يتحصنون بها ثم يتراوعون القتال منها . (١٧٠)
وفي أثناء الفتوح ، كان الخلفاء ينصحون قوادهم بالتزام الخنادق خشية الهجمات ،
كما أنهم اذا حاصروا عدواً وعند قلة على نفسه وأرادوا اشغاره بدوام الحصار ضربوا عند قلة
حول خندقه ليرأس من فك الحصار ويبادر بالتسليم ، وقد ألهقت هذه الخطة في حصار
مدينة هيت ليجبروهم على التسليم ، (١٧١) ومن القواد الذين عرفوا بالتزام الخندق في الحيدان
المهلب بن أبي صفرة في حربه للفوارج ، وكان المهلب شديد الاحتياط والسد لا ينزل
الآن في خندقه وهو على تعبئة ويتولى الحرس بنفسه . (١٧٢) وفي الحرب بين الحجاج وابن
الأشعث خندق الحجاج على نفسه بالزاوية ، وخندق عبدالرحمن على البصرة ، (١٧٣) وخندق
سلمة بن عبدالمك في قتاله ليزيد بن المهلب . (١٧٤) ومع استخدام الخنادق كان لابد
من التفكير في وسيلة لاقتحامها ، ففي موقعة الأحزاب كانت محاولات قريش لاقتحام
الخندق الذي حفره الرسول بدائية ، فكان أبطال قريش يدورون سوله يساولون اقتحام

(١٧٠) : الطبري ، ج ٣ ص ٣٠٨ ، ابن الأثير ج ٢ ص ١٥٥ .

(١٧١) : الطبري ، ج ٤ ص ٣٨ .

(١٧٢) : ابن الأثير ، ج ٤ ص ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٣٨٨ .

(١٧٣) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ٤٦٥ .

(١٧٤) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٨٠ .

الخنديق ، من أضيق أماكنه ، ولم يفكر أحد في الحمل على ردم جزء منه وعبوره لأنه كان
مكيدة غريبة عليهم لم يألفوها ، فلما فتح المسلمون الأقطار بعد الرسول أكثروا من استخدام
الخنديق مهاجمين ومدافعين ، وفتحت أمامهم سبل الحيل ولعل خالد بن الوليد أول من عمد
إلى قتل أهل المسنة ورميها مع رجالها في أضيق مكان منه أثناء فتح الأنبار ، وفي حصار
دمشق قطع المقاتلة الخنديق وعلى ظهورهم القرب ، (١٧٦) وعندما خندق مسلمة بن عبد الملك
فكر يزيد بن المهلب أن يرسل مع محمد بن المهلب من يدفن خندق مسلمة بالبرازع والاكف
والزبل . (١٧٧)

وتطور عبور الخنديق بسرعة بعد ذلك ، ففي سنة ١٤٥ هـ عندما خرج محمد بن عبدالله
المعمر بالمدينة أعاد حفر خندق الرسول حولها ونحو طيه جدارا من جهة المدو ، وأوقف
طيه حراسا من أصحابه يدافعون عنه ، فلما جاءت القوات العباسية بقيادة عيسى بن موسى ،
تقدم بعض قواد عيسى إلى بداره في مائة من جنده فهدموه ، وانتهوا إلى الخنديق ،
فنصبوا عليه أبوابا خشبية ثم عبروه ، وفي رواية ثانية أنهم طرحوا حقائق الأبل في الخنديق
ثم طرحوا أبوابا خشبية بقدر الخنديق فجازت الخيل . (١٧٨)

الحصون والأسوار :

كان عامة العرب في الجاهلية رحلا أهل بدو لا يعرفون الحصون
أو الاعتناء بالأسوار ، وإنما حصونهم ظهور خيولهم وشفرات سيوفهم ، وقد
عرف الحصون منهم أهل السيرة أمجاورتهم الفرس ، وأهل الشام أمجاورتهم الروم ، وعرفها
أهل الحجاز عن طريقين بعد ذلك ومن طريق رحلتهم إلى اليمن ذات القصور الشاهقة ،
ومن طريق اليهود الذين نزحوا إليها من الشام بعد أن طردتهم الرومان منها ، فأدخلوا

(١٧٥) : الطبري ، ج ٣ ص ٣٧٤ .

(١٧٦) : المصدر السابق ، ج ٣ ص ٤٣٩ .

(١٧٧) : ابن الأثير ، ج ٥ ص ٨٠ .

(١٧٨) : الطبري ، ج ٧ ص ٥٩٠ .

العيا نظام الأطم والحصون ، وأدى احتكاك المسلمين بقوات الروم الى تزايد ادراكهم
لأهمية الحصون لاسيما أنهم ، كما يقول كريزول (Creswell) ، في انطلاقهم
للفتح ، قد اتبعوا خطا يكار يتفق مع خط الحجاز الحديدى في العصر الحديث ، وكانت
هذه الجيوش في طريقها تسلسلة من قلاع الحدود الرومانية ،^(١٧٩) التي كانت تستمد
من خليج العقبة الى دمشق ، ومن دمشق الى تدمر ، وقد وصف هذه الحصون كل من
برونو (Brunow) ودومازيفسكي (Domaszewski) في كتابهما
القيم (Die Provinz Arabie) ، وأشهر هذه القلاع قلعة أذرع التي بناها
تراجان ، ويظهر أن تراجان بنى كذلك القلاع في اللجون والدجانية (Dajaniya)
وقلعة بشير التي تعود الى عهد ديوكليسيان (٢٨٤ - ٣٠٥ م) وقلعة الضمير التي تعود
الى ١٦٢ م . كما أن بعض الأمراء الأمويين قد عاشوا في بعض قلاع الحدود الرومانية ،
فالوليد الثاني كان يقيم أحيانا في حصن الأزرق الذي تم تجديده بعد ذلك سنة ٦٣٤ هـ
/ ١٢٣٦ م ، وكان في أيام الوليد قلعة رومانية ، وعند ما هوجم الواليد من قوات يزيد الثالث
كان في حصن البجرا الذي هو اسم عربي لقلعة رومانية تقع على بعد (١٥) ميلا
الى الجنوب الغربي من تدمر .^(١٨٠) وفي قلب الصحراء وعلى مسيرة (٢٠) ميلا شرقي
الزرقاء كانت هناك قلعة رومانية تعرف بتسميتها الحديثة بقصر العلابات ، وقد بدأ
بتشيد ها كراكلا سنة ٢١٣ / ٢١٧ م وأتمها جستنيان سنة ٥٢٩ م ، وعلى بعد ١٥ ياردة
من ركنها الجنوبي الشرقي يوجد مسجد صغير يرجع الى النصف الأول من القرن الثامن
الميلادى ، وقد بناه ولاشك أحد أمراء بني أمية الذي أقام في القلعة المجاورة ، وكانت
النتيجة كما يقول كريزول مزدوجة ، فقد أعادت هذه الخبرة بالحصون الرومانية نطقا بني أمية
المعرفة الضرورية لبناء قلاعهم على الحدود البيزنطية ، كما أنها أثرت على باراز بنائهم
(١٨١)
لقصورهم .

Creswell, K.A.C. The Castra of The Roman Limes, : (١٧٩)
Fortification in Islam, From the Proceedings of the
British Academy, 1952 - Vol. XXXVII London, 1952, p. 89.

Ibid., p. 89. : (١٨٠)

Ibid., p. 90. : (١٨١)

حظيت الثغور الشامية والجزيرة باهتمام الخلفاء الأمويين ، وكانت ثغور المسلمين الشامية أيام عمر وعثمان وما بعد ذلك أنطاكية وغيرها من المدن التي سماها الرشيد عواصم ، (١٨٢) وهي كورة قورس والجهة ومنبج وأنطاكية وبالس والرصافة ، رصافة هشام ، وكانت دابق هي القاعدة الرئيسية العسكرية في الداخل في العصر الأموي ، (١٨٣) ثم أصبحت منبج هي مركز المنطقة التي أطلق عليها الرشيد اسم العواصم ، (١٨٤) أما في الساحل فقد كانت أنطاكية هي المركز الرئيسي . (١٨٥)

لم يهتم الخلفاء الراشدون ببناء الحصون أو مدن ثغرية شمالي الشام وراء أنطاكية ، إنما بدأ الاهتمام في عهد بني أمية وخاصة في خلافة هشام بن عبد الملك ، حتى أنه لم ينته عصر بني أمية حتى كان نظام التحصين الهري قد استكمل معالمه . (١٨٦)

اهتم معاوية منذ أن كان واليا على الشام والجزيرة بمنطقة الثغور ، فتمهد حصون مرعش والحدث ، (١٨٧) واهتم بمنطقة منبج وبنى لها جسرا لمرور الصوافف الى الأراضي البيزنطية منذ عهد عثمان . فلما توفي معاوية سنة ٦٠ هـ اضطر يزيد الى توجيه اهتمامه الى توطيد الكيان الداخلي ، فاستغل البيزنطيون ذلك الوضع الداخلي للدولة الأموية وكررت غاراتهم على الثغور وحاصروا مرعش التي تركها أهلها بسبب الضغط البيزنطي عليها . (١٨٨) كما هدد الروم ططية في فترة الاضطراب السياسي ، (١٨٩) مما دفع عبد الملك بمجرد أن قضى على منافسه الى أن يتخذ اجراءات سريعة وجريئة واستراتيجية ، فاختر مواضع متقدمة في الأراضي البيزنطية تحل محل مرعش وططية ، وهي طرندة والحبيصة ، وقد بنى عبد الله بن عبد الملك

(١٨٢) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٦٨ ، ياقوت الحموي ، ج ٢ ص ٨٠ .

(١٨٣) : ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ص ٤١٦ .

(١٨٤) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٢٠٥ .

(١٨٥) : جون باجوت ، الفتوحات العربية الكبرى ، ترجمة غيرى حماد ، بيروت ص ٦٢٩ .

(١٨٦) : د . محمد عبد الهادي شفيق ، المرابطون في الثغور الاسلامية الرومية ، بحث

في كتاب الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين . ص ٤٣٢ .

(١٨٧) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

(١٨٨) : المصدر السابق ، ص ١٩٢ .

(١٨٩) : المصدر السابق ، ص ٨٩ .

طباية سنة ٨٣ هـ (١٩٠) كما أنه خرج سنة ٨٤ هـ على الصائفة فأنسى مصيصة وبني حصنها على أساسه القديم ووضع بها سنانا من البند منهم ثلثائة رجل انتخبهم من ذوى البساس والنجدة (١٩١) ومنذ أن بنيت المصيصة كانت الطوابع من انطاكية تطلع عليها في كل عام فتشتوا ثم تتصرف (١٩٢) فلما كانت خلافة هشام بن عبد الملك أحاط المصيصة بثلاثة حصون ، هي حصن الرهف (١٩٣) ثم حصن المثقب بناء حسان بن ماهويه الأنطاكي (١٩٤) وحصن قطر غاش (١٩٥)

كذلك اهتم هشام بالطريق الداخلي الموصل بين أنطاكية والمصيصة فبنى حصن مورة وحصن بغراس وحصن بوقا من عمل أنطاكية (١٩٦) واهتم هشام بن عبد الملك بأمر ططية عندما هاجمها الروم سنة ١٢٣ هـ فأرسل خيلا مع الرسول الذي خرج من ططية مستغيثا وهو بالرصافة ، ثم غزا هشام بنفسه ونزل ططية وعسكر عليها حتى بنيت (١٩٧) وفي سنة ١٢٥ هـ أطاق الوليد بن يزيد بناء حصن زيطرة ، وكان هذا الحصن قد خربه البيزنطيون فاحتاج الأمر الى إعادة بنائه (١٩٨) وفي عهد مروان بن محمد تركز الاهتمام كذلك بالمصيصة فبنى حصن الخصوص شرقي جيبان (١٩٩) وحصن منصور نسبة الى منصور بن جهمونه بن الحارث العامري الذي تولى بناءه وأقام فيه مع جنود كثيرين من أهل الشام والجزيرة ليرد العدو.

(١٩٠) : البلاذري ، ص ١٨٩ .

(١٩١) : المصدر السابق ، ص ١٦٩ ، النويري ، نهاية الأرب ، ج ٢١ ، ص ٢٠٤ .

(١٩٢) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٦٩ .

(١٩٣) : المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

(١٩٤) : المصدر السابق ، ص ١٧١ ، ياقوت الحموي ، ج ٥ ، ص ٥٤ ، وهو حصن على ساحل البحر قرب المصيصة .

(١٩٥) : المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(١٩٦) : المصدر السابق ، ص ١٧١ .

(١٩٧) : المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

(١٩٨) : المصدر السابق ، ص ١٩٥ .

(١٩٩) : المصدر السابق ، ص ١٧٠ .

(٢٠٠) : المصدر السابق ، ص ١٩٦ .

البحرية :

أدرك معاوية ، منذ أن كان والياً على جنود دمشق والاردن في خلافة عمر بن الخطاب ، الخطر الذي يلوح في الأفق مهددا الشام بسبب وجود أسطول الروم قريبا من شواطئه ، وافتقاره الى وسائل الدفاع ، ذلك أن معاوية كان قد اشترك في فتح كثير من المدن الساحلية التي قاومت مقاومة عنيفة نتيجة لتطبيقها الامداد والمؤمن من دولة الروم ، وهذا ما ضمن لها البقاء والمقاومة فترة أطول . (٢٠١)

وقد نهج العرب في الهدى سياسة بحرية دفاعية بوضع حاميات قوية في المدن الساحلية الهامة مثل اللانقية وطرابلس وصور وصيدا وعرة وجبيل على الساحل الشامي ، (٢٠٢) وفي مرمة حصونها واقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد لها . (٢٠٣) ولكن اثر غارة الروم على الشام ومصر سنة ٢٥ هـ والتي كانت من أشد الغارات عنفاً ، (٢٠٤) تهيمن أن السياسة البحرية الدفاعية لم تعد كفيلا بالمحافظة على سلامة ممتلكاتهم وأنه لا بد للحرب من الهجوم على قبرص والاستيلاء عليها ، لأنهم اذا نجحوا في ذلك امكنهم أن يتصدوا للأساطيل البيزنطية قبل اقترابها من الساحل الشامي ، فلحاصمى عثمان لمحاربة بغزوهم كتب الى أهل الساحل يأمرهم باصلاح المراكب وتقريبها الى ساحل حصن عنة . (٢٠٥) وكانت هذه خطوة معاوية الأولى ، اذ لم يلبث أن استولى المسلمون على أرواد Aradus (٢٠٦) ثم في عام ٣٥ هـ / ٦٥٥ م ، بعد مرور أقل من عشرين عاما على نزول الحرب لأول مرة على الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط ، فقد لواء النصر للحرب في الموقعة البحرية الكبيرة ، ذات

Ostrogorsky, Op. Cit., P. 104 : (٢٠١)

(٢٠٢) : هناك أمثلة كثيرة في البلاذري عن هذه السياسة الدفاعية ، فتوح ، ص ١٢٤ ، ١٣٤ ،

١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٥٠ ، ١٥٣ .

(٢٠٣) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

(٢٠٤) : Bury, A History of the Later Roman Empire, Vol. II P. 288

(٢٠٥) : ابن الاثم ، فتوح ، ص ٢٥١ ، ١١٨ .

(٢٠٦) : جون فضلوحوراني ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ترجمة د . يعقوب بكر ،

دار الكتاب ، القاهرة ، ص ١٨١ .

الصواري . وكان خوض معركة كهذه يتطلب عدة أمور ، قواعد بحرية ، وتشمل الأحواض ، وأماكن بناء المنفخون ومواد البناء ومهارة البنائين ، ثم السفن الحربية وما يتبعها من ملاحيين مدربين وجنود بحريين وضباط . وكانت الاسكندرية قاعدة بحرية كاملة تشتمل على ميناء رائع ، وأحواض متسعة لبناء السفن وبنائين من الأقباط ، ولم يكن ينقص سوى الخشب الجيد الذي تفتقر إليه مصر ، فلم يكن يد من جلبه من الشام أو غيرها من المناطق ، وكانت موانئ الشام ولا سيما عكا وصور قواعد بحرية أبحر منها جزء من الاسطول الذي اشترك في ذات الصواري . (٢٠٧)

ولكن الساحل الشامي كان في ذلك الوقت طائلا من بناء السفن ، فلما كانت سنة ١٤٦٦ هـ وشن الروم غارة عنيفة على سواحل الشام ، عمد معاوية إلى انشاء دور لصناعة السفن بالشام نفسها إلى جانب دور الصناعة بمصر ، لأن صناعة السفن كما يقول البلاذري كانت بمصر فقط . (٢٠٩)

وقد فعل معاوية ذلك لكي يجد لديه أساطيل على أهبة الاستعداد ، فجلب الصناع والنجارين إلى عكا من جند الأردن التي وقع اختياره عليها لبنائها بها أول دار لصناعة السفن بالشام . (٢١٠)

وبقيت دور الصناعة في عكا حتى خلافة هشام بن عبد الملك الذي نقلها إلى صور ، ولكن التعاون بين مصر والشام بقي مستمرا سواء في استخدام الأقباط كلاحين في سفن الشام أو في استيراد الأخشاب التي تصلح لبناء السفن من الشام . ويظهر أن بناء السفن بمصر بالرغم من

(٢٠٧) : المرجع السابق ، ص ١٨٢ ، وقد تخصص الأقباط في سد ثغرات واستخدام المسامير الحديدية في بنائها ، وقد ثبت أن السفن التي تستخدم المسامير في تثبيت ألواحها أفضل من السفن التي تشد بالحبال (هو نيرباخ ، فلهلم ، البحرية العربية) وتطورها في البحر المتوسط ، تطوان (١٩٥٤) عن تاريخ البحرية الإسلامية في مصر والشام ، د . أحمد مختار المبادئ ، د . السيد عبد العزيز سالم ، طبعة ١٩٧٢ ، ص ٠٦ .

(٢٠٨) : ابن الأثير ، فتوح ، ج ٢ ص ١٢٨ .

(٢٠٩) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٢٤ .

(٢١٠) : المصدر السابق ، ص ١٢٤ .

(٢١١) : المصدر السابق ، ص ١٢٥ .

انشاء دار للصناعة في الشام ، كان له شأن عظيم في العصر الأموي ، فقد ألقا أوراق بسردى أفروديتو (Aphrodito) ٧١٠ م / ٤٢ هـ (وهي كوم أشقاوأوأشقوه) (٢١٢) شعاعا من النور على صناعة السفن في مصر ، وأظهرت مهارة المصريين في تلك الصناعة ومهارة الملاحين المصريين وتقدير الحكومة المركزية لتلك المهارة ، ومدى استنلابها على يد الأمراء المسلحين ، كما أنها تدل على أن القبط كانوا يجندون في صعيد مصر للعمل في أحواض السفن بالاسكندرية والاشتراك في الغارات السنوية (Koursa) بل انهم كانوا يرسلون للمعمل في الاساطيل التي تتخذ قواعد لها في الشام . (٢١٣)

نتيجة لامتناع معاوية بالأسطول والسيطرة على عدد من الجزر استتلع سنة ٥٣ هـ / ٦٧٢ م قسم من أسطوله أن يحتل ازمير ، وأن يحتل قسم آخر شواطئ ليشيا (Lycia) وكيليكيا . وفي سنة ٥٥ هـ / ٦٧٤ م بدأ حصار القسطنطينية برا وبحرا ، واستمر هذا الحصار مدة أربع سنوات كانت قطع الأسطول العربي خلالها تتسحب في الغريف الى سيزيكس لتعاود الكرة في الربيع ، وقرّر معاوية سنة ٥٦ هـ / ٦٧٨ م سحب قواته المحاصرة للقسطنطينية لشموه بدو أجله ، وبأن بيعة يزيد ستلقى معارضة الكثيرين . (٢١٤)

ولكي نأخذ فكرة من مدى التقدم الذي أحرزه الأمويون في سياستهم البحرية يكفي أن نذكر بأن الاسطول العربي الذي توجه في خلافة سليمان بن عبد الملك لدعم القوات البرية ولاحكام الحصار على القسطنطينية برا وبحرا كان يتألف من (١٨٠٠) سفينة فيها سفن حربية - Kampf Schiffen - وسفن لنقل المؤن - Proviant Schiffen (٢١٥) أصغر حجما ولكنها كانت تضم (١٠٠) من المقاتلين المسلحين تسليحا ثقيلًا ، وكان حصار المسلمين للقسطنطينية حصارا قاسيا شديدا نتيجة للثلوج التي هطلت مدة مائة يوم في تراقيا مما عرقل عملية الحصار ، واضطر المسلمون الى تحمل الكثير من المشاق والجهود . (٢١٦)

وفي الربيع وصلت نجدهات برية وبحرية لمسلمة بن عبد الملك ، فقد وصل أسطول من مصر يتألف من (٤٠٠) سفينة ، ويتألف كذلك من سفن حربية وأخرى لنقل المؤن ، ووصل أسطول آخر

(٢١٢) : جورج حوراني ، المرجع السابق ، ص ١٨٤ ، وكوم أشقوه على بعد نحو سبعة كيلومترات الى الجنوب الغربي من طما في صعيد مصر .

(٢١٣) : المرجع السابق ، ص ١٨٤ .

(٢١٤) : نبيه مائل ، خلافة بني أمية ، ص ٨٨ .

(٢١٥) : Theophanes. Tr. by Leopold Breyer p. 27.

(٢١٦) : Ibid., p. 28.

من افريقيا مؤلف من ٣٦٠ سفينة محملة بالاسلحة والموثن ، الا أن معظم هذه السفن ، كما يقول تيوفانس ، دمرت نتيجة لاستخدام الهيزنطيين للنار الاغريقية . (٢١٧)

هذا ويجب أن نشير الى أنه بالرغم من وجود أسطول لدى الهيزنطيين ، الا أنه لم يكن يلعب الا دورا ثانويا في العمليات الحربية (٢١٨) في الفترة السابقة للفتوح الاسلامية ،

وكان سكان سواحل البحر المتوسط الشرقية هم الذين يظهرون تفوقهم في هذا المجال ،

فلما لاحق معاوية القوات الامبراطورية بحرا وظهر أمام أسوار القسطنطينية ، بدأ انتباه

الهيزنطيين بشكل جدي لأهمية الأسطول وضرورة العناية به كقوة حربية ، وأصبحت المقاطعات

الساحلية في آسيا الصغرى ، والجزر الايجية ، تعد الأسطول بالسفن والرجال ، وكانت

المقاطعات البحرية الاساسية هي بند الكبيرة ما يوت - Cibyrrhaet - نسبة

الى مدينة كيبيرا Gibyra في بامفيليا Pamphylia في الجنوب الغربي من آسيا

الصغرى ، ثم جند الدود يكانير أو البحر الايجي - Dodecanese (٢١٩) . وقل الاهتمام

بالأسطول في عهد الأسرة الايسورية ، فلما استولى الأندلسيون على كريت وظهرت قوة الأغلبية ،

عاد الاهتمام ثانية الى الأساطيل البحرية الحربية ، فظهر بند ساموس - Samos -

غرب آسيا الصغرى ، وكند بحر ثالك ، وأصبحت هذه البنود كلها تمت قيادة قواد برتبة

(٢٢٠) Strategoi - وكما أوجدوا قواعد في البنود الأوربية خاصة في Cephalonia

من الطبيعي أن يكون اعتماد العرب في الفترة المبكرة من نشاط أسطولهم على أقباط

مصر ، وسكان الشام القدامى الذين مهروا في ركوب البحار وتدربوا على فنون القتال . (٢٢١)

وقد رأينا أن عثمان بن عفان عندما سمع لمعاوية بركوب البحر اشترط أن لا ينتخب بين

Ibid., p. 28 .

: (٢١٧)

Wilhelm Ensslin, The Army & The Fleet, Byzantium, P. 304. : (٢١٨)

Ibid., P. 304

: (٢١٩)

Ibid., P. 304

: (٢٢٠)

(٢٢١) : ابن الاثم ، فتوح ، ج ٢ ص ١١٨ ، ١٢٩

.. / ..

الناس ولا يفرح بهمهم وأن يسرهم (٢٢٢) ولكن كان طي من تلوع وأخذ رزقه أن يلتحق. (٢٢٣)
ويبدو أن معاوية اعتد في بادئ الأمر على اليمانية في غزو البحر لتفوقهم على القبائل
القيسية في هذا المجال ، والواقع أن حرب اليممن منذ عصر ما قبل الاسلام
وعتى عصر الفتح الاسلامية وان كانوا قد قطعوا كل اتصال لهمم بالبحر وأهبطوا
شؤونهم لانصرافهم الى التجارة البحرية ابان الفزوين الحبشي والفارسي لليمن ،
فانهم لم يفقدوا تماما تقاليدهم البحرية التي اكتسبوها من خلال تاريخهم الطويل
وتباريتهم الماضية في ممارسة الملاحة والطواف بسفنهم في البحر الحبشي أو الاريتري
وتردد هم على مواني البحر العربي والمحيط الهندي ، فقد رسخت هذه
التقاليد في كيانهم ، وظلت كامنة في أعماقهم ، الى أن تهيأت لها ظروف مؤاتية
للمظهر منذ عصر الفتوحات ، فنشطت بعد خمول . ونلاحظ أن القيادة
البحرية الذين تجرأوا على قيادة حملات بحرية في خلافة عصر بن الخطاب
كانوا من اليمانيين ، فالعلاء بن الحضرمي الذي حمل أهل البحرين في البحر الى فارس
بغير إذن من عمر كان يمانيا حضرميا ، (٢٢٤) وطلحة بن مجزر المدلجي صاحب الحملة البحرية
الى الحبشة سنة ٢٠ هـ كان يمني الأصل لخميا ، (٢٢٥) ومع ذلك نلاحظ أن المقاطعة
العرب من اليمانية لم يكونوا متعمسين لغزو البحر ، نستنتج ذلك مما يرويه ابن عساکر
من أن شاعر اليمن عندما رأى اعتاد معاوية على اليمانية في الغزو البحري
قال :

ألا أيها القوم الذين تجمعوا

بمكا أناس أنتم أم أباعر

أنترك قيسا آمنين بدارهم

ونركب ظهر البحر والبحر زاخر.

ويروى أن شاعر اليمن لما قال هذه الأبيات رجع قومه جميعا عن وجههم ، فلما بلغ

(٢٢٢) : الطبري ، ج ٤ ص ٢٦٠ .

(٢٢٣) : ابن الأثير ، فتوح ، ص ٢٤٠ ، ص ١١٨ .

(٢٢٤) : الطبري ، ج ٤ ، ص ٧٩ - ٨١ .

(٢٢٥) : المصدر السابق ، ج ٤ ص ١١٢ .

معاوية ما كان منهم ، دعاهم فسكن منهم ، وقال : " أنا أغزيكم في البحر لأنه أرفق من الجبل وأقل مؤونة ، وأنا أعاقب بينكم في البر والبحر " (٢٢٦) ثم فعل ذلك ، أي أن معاوية وعد أن يعاقب بينهم في البر والبحر ، أي لم تتشأ لدى الأمويين في هذه الفترة فرق خاصة من القاطنة تابعة للبحرية ، وإن ظهر بعض القادة الذين اشتهروا بغزوهم في البحر ، كعبد الله بن قيس حليف بني فزارة الذي غزا خمسين غزاة بين شاذية وصائفة في البحر ، (٢٢٧) وجنسية بن أمية الأزدي الهباني (٢٢٨) الذي اعتمد عليه معاوية في غزو أرواد ورواس وكريت ، وخالد بن كيسان صاحب الروم في خلافة عبد الملك والوليد ، (٢٢٩) وكذلك نجد أن القتال في البحر كان أشبه ما يكون بالقتال في البر ، ويقدم ابن الأعمش صورة حية عن معركة ذات الصواري ، إذ عندما بلغ المسلمون خبر توجه ملك الروم قسطنطين بن هرقل في جمع كبير لغزوا المسلمين في البحر ، كتب عثمان إلى معاوية وأمره أن يركب في البحر بجنود المسلمين من أهل الشام ، وكتب إلى عبد الله بن سعد بن أبي سرح يأمره أن يركب بأهل مصر ، فاجتمع أهل مصر وأهل الشام بساحل مدينة عكا في جمع كبير من العدة والعدد والسلاح ، ثم انهم غطسوا الخيل معهم في المراكب ، وانطلقوا من عكا في خمسائة مركب فيها رجال مقاتلة والغيسل والسلاح والطعام الكثير ، وخرج الروم في ألف مركب من مراكبهم فيها المقاتلة والنفط والنيران ، (٢٣٠) وعند ما رفض الروم اقتراح معاوية وعبد الله بن سعد بن أبي سرح بالخروج إلى الساحل والقتال في البر ، ربط المسلمون المراكب بعضها إلى بعض واصطف المسلمون على جوانب المركب في أيديهم الرماح والسيوف والقسي والسهام ، واقتتل الفريقان وليس بينهم رمية سهم ولا طمعة رمح إلا الضرب بالسيوف والهواجر والخناجر والسكاكين حتى احمر ماء البحر ، وقتل عدد كبير من المسلمين ومن الروم ، وما أن عبد الله بن سعد أمير مصر وعد القبط من النواتية ثلاثمائة دنانير من كل رجل من الروم يقتلونه ، فان القبط قتلوا منهم في ذلك قريبا من سبعمائة رجل . (٢٣١)

(٢٢٦) : تهذيب ، ج ٥ ص ٣٠٥

(٢٢٧) : الطبرى ، ج ٤ ص ٢٦٢ ، ابن الأثير ، ج ٣ ص ٩٧

(٢٢٨) : الطبرى ، ج ٤ ص ٣٠٩

(٢٢٩) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ٤٢٢

(٢٣٠) : ابن الأعمش ، فتح ، ج ٢ ص ١٢٨

(٢٣١) : المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢٩

أما عن أشكال السفن العربية ومعداتها في العصر الأموي ، فان مصادرنا لاتدنا بمعلومات على الاطلاق ، وأكبر الثمن أنها لم تكن تختلف كثيرا عن السفن المعروفة لسدى الروم في ذلك العصر ، لأنها كانت من صناعة عمال تأثروا بالأساليب المعروفة عند الرومان والبيزنطيين ، ويعتقد جورج حوراني ، أن الاسطول العربي في معركة ذات الصواري كان يتكون من درافين من الطراز البيزنطي العادي وهي سفن عربية سريعة خفيفة تشتمل على طبقة أو طبقتين من المباديف .^(٢٢٢) لأن سفن البحر المتوسط القديمة ذات الشراع المربعة كان يمكن استعمالها في الرحلة لا في الحرب ، ومن الطبيعي أن تنتزع البراكيب العربية بعد ذلك في أحجامها وأغراضها كما تنال على ذلك الاسماء المختلفة التي أسلفت عليها مثل الحراقات والشواني ، والطرادات والعشاريات والشلندات والمساحات ، ويمكن القول^(٢٢٣) :
درمونة محرّب dromon في اليونانية والتي ترجع اليها أيضا الكلمة المقابلة في السريانية .

Frankel, Die Aramaischen Fremd Wörter, in Arabischen (Schiffahrt und See Verkehr) Leyden 1886, p. 221.

(٢٢٣) : - معصم ياسين العموي - تاريخ الاسطول العربي ، ط ١٣٦٤ هـ ١٦٤٥ م ص ٣٦ - ٤١ .

والحراقة : ضرب من السفن فيها مرابي نيران يرمى بها العدو في البحر ، وقال دوزي : هي نوع من السفن الخفيفة .

الشونة ، المركب المعد للجهاد في البحر والبح الشواني ، وكان من أهم القطع التي يتألف منها الاسطول الاسلامي والرومي لأنها كانت أكبر السفن وأكثرها استعمالا لحمل المعركة للجهد ، وكانوا يقيمون فيها أبراجا وقلعا للدفاع والهجوم وكان متوسط ما يحمله الشيني الواحد ١٥٠ رجلا ، ويقابل الشونة في الفرنسية Galere وفي الإيطالية Galera .

الطراد : سفينة صغيرة سريعة السير والجرى ، وقال دوزي هي نوع من المراكب العربية أكثر شبيها بالبرميل الهائل من السفينة ، وكان يستعمل غالبا في حمل الخيول والفرسان ،

وأكثر ما يحمل فيها اربعمون فارسا ، واستعملها الفرنج فأطلق عليها الاسمان اسم Tarida وأطلق عليها السلمان Tartana والفرنسيون اسم Tartan

العشاري ، جمعها عشاريات ، نقل المقرئ من ابن الطوير أنها من توابح الاسطول وكان يسار بها في النول ، منها يرسم الخليفة ومنها ما يرسم ولاية الأعمال .

الشلندي : جمعها شلنديات ، مراكب حربية كبيرة مسطحة لحمل المعركة والسلاح وتعادل في أهميتها الشونة والحراقة وأصلها اللاتيني Chelandium

المسطح : وهذه من أكبر سفن الاسطول الاسلامي ، وكانوا يجرونها في البحار خلف السفن الصغيرة لئلا تفرق هذه في واد بها .

أن القوات البحرية لم تظهر بشكها المنظم الا في عهد المتوكل وفي مصر ، عندما نزل السروم د مياط سنة ٢٣٨ هـ / ٨٥٢ م ، ان يذكر المقرئ " أنه وقع الاهتمام منذ ذلك الوقت بأمر الأسطول وأنشئت الشواني برسم الأسطول ، وجعلت الأرزاق لغزاة البحر كفاهي لغزاة البحر ، وانتخب الأمراء له الرماة ، فاجتهد الناس بمصر في تعليم أولادهم الرماة وجسيع أنواع السارسة ، وانتخب له القواد المارثون بمعارسة العدو ، وكان لا ينزل في رجال الأسطول غشيم ولا جاهل بأمر الحرب ، ويشير المقرئ الى أنه " كان لخدام الأسطول سرية ومكانة ، ولذل واعد من الناس رغبة في أن يمد من جعلتهم ، فيسعى بالوسائل حتى يستقر فيه " (٢٣٤) أي ظهرت غيرة هذه الفترة أهمية الأسطول وغزاة البحر ، بحيث أن الناس أصبحوا يسمون بكل الوسائل للانضمام الى هذه القوات البحرية ، بينما رأينا أن المقاتلة من عرب اليمن في خلافة معاوية لم يكونوا متحمسين لغزو البحر ما دفعه الى أن يعقب بينهم في البحر والبحر ، وهذا دليل على مدى التطور الذي أصاب البحرية في هذه الفترة الزمنية .

النظام الطالي للجيش :

لم يكن المقاتلة ينالون في الهدم وقبول تنظيم ديوان العطاء سوى الأنفال والغنائم ، وجماع معنى النفل والناقلة كما يرد في لسان العرب ما كان زيادة على الأصل ، سميت الغنائم أنفالا لأن المسلمين فضلوا بها على سائر الأمم الذين لم تحصل لهم الغنائم ، والنفل ، والهبة ، والنفل ، والخطوع . وعن ابن السكيت . تنفل فلان على أصحابه ، اذا أخذ أكثر مما أخذوا عند الغنيمة ، والنفل بالتحريك الغنيمة ، وفي الحديث أن الرسول (صلعم) بعث بعثا قبل نجد ، فبلفت سهمانهم اثني عشر بعيرا فنفلهم بعيرا بعيرا ، أي زادهم على سهمانهم ، ويتون من خمس الخمس ، وفي حديث ابن عباس " لانفل في غنيمة حتى يقسم جنسة كلها أي لا ينفل منها الأمير أعدا من المقاتلة بعد احرازها حتى يقسم كلها ، ثم ينقله ان شاء من الخمس ، فأما قبل القسمة فلا " (٢٣٥)

(٢٣٤) : المقرئ ، الخطوط ، ج ٣ ، ص ٦٠ .

(٢٣٥) : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة نفل .

أما الغنائم فهو كل ما غلب عليه المسلمون بالقتال ، (٢٣٦) قل أو أكثر حتى الأبرة ،
والرأجب في السفنم تخميسه ان يقول الله تعالى في سورة الانفال " واطموا أنا غنمتم من
شيء " فان لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل " . (٢٣٧) أما الباقي
فيقسم بين الجنده من أهل انديران وغيرهم ، (٢٣٨) ان قال عمر بن الخطاب " الغنمة لمن شهد
الوقعة " . (٢٣٩) وكان توزيع الغنائم يتم بالسوية للمراجل سهم وللغارس سهمين . (٢٤٠) وكانت
الغنائم تجمع عند نيلها لدى صاحب الأقباض ثم ترسل الى صاحب المقاسم ، (٢٤١) الذي ينادى
على ما بين يديه ويشن . وقد أرسل معاوية الى صاحب المقاسم يخاتم ذهب وفيه فص ياقوت
أحمر من منانم رودس وأمر أن ينادى عليه ، ثم أخذه معاوية لنفسه وحسبه للمسلمين
(٢٤٢)
من سهمه .

وبما أن عمر بن الخطاب رفض تقسيم الأراضي التي افتتحها عنوة وأجراها كلها مجرى
أرض الصلح وتركها في أيدي أصحابها على الجزية والخراج ، فإنه اجتمع بالصحابه لتقسيم
الوجوه التي تصرف فيها وارادات البلاد ، فقرروا أن يكون من وجوه صرفها ، توزيع الأثمانيات
على المقاتلة ، فيذكر سيف أنهم اتفقوا على " فرض الأعطية من الجزاء على من صالح أو دعي
الى الصلح من جزائه مردود عليهم بالمعروف ، وليس في الجزاء أخماس ، والجزء لمن منع
الذمة ، ووفى لهم فيمن ولي ذلك منهم ولمن لحق بهم وأعانهم " . (٢٤٣) ويذكر سيف عن الشعبي
ومحمد بن سيرين " فرض العطاء حين فرض لأهل الفيء الذين أقال الله عليهم ، الفيء لأهل
هؤلاء الأصار ولمن لحق بهم وأعانهم وأقام معهم ولم يفرض لغيرهم ، ثم كتب في اعطاء
أهل المدائن أعطياتهم عطاء واحد سنة ٥ هـ " . (٢٤٤)

(٢٣٦) : أبو يوسف الخراج ، ص ١٦ .

(٢٣٧) : سورة الانفال ، آية ٤١ .

(٢٣٨) : يحيى بن آدم ، الخراج ، ص ٣ ، أبو يوسف ، ص ٢١ .

(٢٣٩) : ابن تيمية ، السياسة الشرعية ، ص ٣٠ .

(٢٤٠) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٤٤٠ .

(٢٤١) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٣٩٧ ، ٤٣٦ ، الخولاني ، تاريخ داريا ، ص ٧٦ .

(٢٤٢) : ابن الاثم ، فتوح ، ج ٢ ، ص ١٢٦ ، وقد يعهد الأمر الى شخص واحد يقبض
الغنائم ويقسمها فيسمى صاحب الأقباض والمقاسم .

(٢٤٣) : الطبري ، ج ٣ ، ص ٦١٨ .

(٢٤٤) : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦١٥ .

ولعل إشارة سيف الى أن الخطأ وقع في سنة ١٥ هـ واقعية وتميها كان بهجري
فعلا في الأضرار بعكس ما كان في المدينة من توزيع الأموال حين حضورها (٢٤٦) ولذلك قيل
عن توزيع الأموال بشكل راتب معين في كل سنة خطأ ، ويبين ذلك الشعبي فيقول عمن رأى عمر
أنه قال لسا فتح الله عليه ، وفتح فارس والروم ، جمع أناسا من أصحاب رسول الله ، فقال :
ماتون ؟ فاني أرى أن اجعل مثلنا الناس في كل سنة وأجمع المال فانه أفضل بركة ، نفرض
الأعطيات . (٢٤٧)

ويبدو أن الخطأ بقي يوزع بالتساوي بين المقاطعة في العراق والشام حتى سنة ٢٠ هـ
مع زيادة أهل البلاد في عطاياهم ، (٢٤٨) ومن رافع مولى عمر قال : سمعت العباس بالجابسية
يقول لعمر : أربع من عمل بهن استوجب العدل ، الأمانة في المال والقسم في السوية . . . (٢٤٩)

ويذكر سفيان بن وهب الخولاني أنه لما اجتمع النبي ، أرسل أمراء الأجناد الى عمر بن الخطاب
أن يقدم بنفسه ، فلما قدم حمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أما بعد فان هذا المال نقسه على
من أفاء الله بالعدل ، الرفيع فيه بمنزلة الوضيع ليس أحد به أحق من أحد . " ثم قسم
بين الناس فأصاب كل رجل منهم نصف دينار اذا كان وحده ، فاذا كانت معه امرأته أو ابنة أو بنتاً . (٢٥٠)
الا أن زيادة وارد الدولة بعد استقرار الشام والعراق ومصر وحصول اختلاف في الرأي
في أحقية المسلمين الأوائل ومن أسلم بعد هم في المدينة في نصيبهم من الأموال وبين
الفاحين والروافد في الأضرار في وارد البلاد اضافة الى توسع رقعة الدولة الاسلامية ،
كان دافعا لاجاد جهاز اداري ومالي جديد يتشعب والظروف الجديدة لهذه الدولة ، فوضع
ديوان الخطأ على التفضيل . (٢٥١)

-
- (٢٤٦) : أبو عبيد الأموال ، ص ٢٤٢ .
(٢٤٧) : أبو يوسف ، ص ٤٩ .
(٢٤٨) : الطبري ، ج ٣ ص ٦١٦ ، رواية سري عن سيف " القسم بالسوية وأن يعطى أهل
البلاد على قدر بلائهم " .
(٢٤٩) : الطبري ، ج ٤ ص ٦٤ .
(٢٥٠) : أبو زرعة الدمشقي ، تاريخ ، ج ١ ص ١٢٨ ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ١٧٦ .
(٢٥١) : لم يلاق قرار عمر بوقف الأرض على جميع المسلمين استحسانا لدى المقاطعة وقالوا له
بعد ذلك : " اتقف ما أفاء الله علينا بأسيافتنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا
ولأبناء أبناءهم ولم يحضروا " . وقال عمر للأضار بعد اتخاذ القرار : " وقد زعموا
أني قد ظلمتهم عقوبتهم " . (أبو يوسف ، الخراج ، ص ٢٦) .
.. / ..

كان العطاء في الشام يتدرج بين أهل الأيام ومقاتلة اليرموك ومن أتى بعدهم والروادف ، فعطاء أهل الأيام ثلاثة آلاف ، وأهل اليرموك ألفان ، ولأهل البلاد الراضع منهم ألفان وخمسمائة ، وفرض لمن بعد اليرموك ألفا ألفا ثم فرض للروادف حسب تناسبهم المئتين ، وخمسمائة ، والروادف الثلث بعدهم ثلاثمائة وسوى كل طبقة في العطاء قوتهم وضميرهم ، وعربهم وعجمهم ، وفرض للروادف الربيع على مائتين وخمسين وفرض لمن بعدهم وهم أهل هجر والعباد على مائتين ، كما أنه فرض لنساء أهل اليرموك مائتين مائتين ، ثم سوى بين النساء وجعل الصبيان سواء على مائة مائة ، ويذكر البلاذري أن عسر فرض لأهل اليمن وقيس بالشام والعراق لكل رجل مائة ألفين إلى ألف إلى تسعمائة إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة ولم ينقص أحدا عن ثلاثمائة ، بينما يشير النص الذي أورده الطبري إلى أن الحد الأدنى كان مائتين . (٢٥٣)

تلاحظ من هذين النصين أن الحدود الدائم بالنسبة للمقاتلة أصبح العطاء ، وأن عطاء مقاتلة العراق والشام كان بنسبة واحدة في هذه الفترة ، وأن عر اعتسد في فرض العطاء على قواعد معينة ، وهي الرجل وبلاؤه في الاسلام ، والرجل وقدمه في الاسلام ، والرجل وبنائه في الاسلام والرجل وحاجته . (٢٥٤) أما في العهد الأموي ، فلاحظ أن السولا للبيت الأموي والاخلاص له كان دافعا عاما لزيادة العطاء لأهل الشام ، وظهر ذلك منذ خلافة معاوية الذي نقل بيت مال الدولة من الكوفة إلى دمشق وزاد في عطاء أهل الشام وأنقص عطاء أهل العراق . (٢٥٥) كما أن عهد الطك وعد أهل العراق خلال ثورة ابن الأشعث أن يجعل عطاءهم مساويا لعطاء أهل الشام ، ولكن نظرا لرفض مقاتلة العراق بشروط عهد الأشعث ، فإنه لم يبر بوعده . (٢٥٦) أما الوليد بن يزيد الذي عرف بسخاء في العطاء

(٢٥٢) : الطبري ، ج ٣ ص ٦١٤ .

(٢٥٣) : البلاذري ، فتوح ، ص ٤٣٨ .

(٢٥٤) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٣ ، قسم ١ ص ٢١٥ .

(٢٥٥) : فلموزن ، تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام إلى نهاية الدولة الأموية ، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده ، ص ١٢٦ ، نقل عن تيوفانس .

(٢٥٦) : الطبري ، ج ٦ ص ٣٤٧ .

فقد زاد عطاء جميع الأمصار ، غير أنه ما لبث أن زاد عطاء أهل الشام بعد زيادة
المشرات عشرة ، (٢٥٧) ومثل هذا الأمر منطقي لما عرف عن أهل الشام من ولاء للمؤمنين ،
ومع ذلك فلم تكن كل قبائلهم على نفس الدرجة من الولاء ، ولذلك نجد أن معاوية لم يكن
ليفرض في بلاد الأمازيغ القبائل الليمانية ، فلما قدم مسكين الدارمي الشاعر إلى معاوية
وسأله أن يفرض له أبي فخرج مسكين وهو يقول :

أخاك ، أخاك ، ان من لا أخاله

كساع إلى الهيجا بنخير سلاح

وقال أيوب السعدي ، ولم يزل معاوية كذلك حتى أغزى اليمين وكثرت ، وضعفت
عدنان ، فبلغ معاوية أن رجلا من أهل اليمن قال يوما ، " لهجت أن لا أهل حبوتي حتى
أخرج كل نزارى بالشام " ، فلما بلغت معاوية فرض من وقته لأربعة آلاف رجل من قيس وجعل
مسكين في شرف العطاء ، (٢٥٨) فإذا صحّت هذه الرواية فهي تشير إلى أن التسجيل في
ديوان الجند لم يكن اختياظيا أو مفتوحا للجميع ، وإنما يخضع لتوجيهات من الخليفة ، ونجد
صدي لذلك أيضا في توجيهات عمر بن عبد العزيز وإن كانت مبنية على أسس أخرى ، فقد
أمر واليه على مصر أيوب بن شرحبيل بفريضة للجند وطلب منه أن يلصق ذلك بأهل البيوتات
الصالحة " كما أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى يزيد بن الحصين " أن مر للجند بالفريضة
وطيك بأهل الحاضرة واياك والأعراب ، فإنهم لا يحضرون محاضر المسلمين ولا يشهدون
مشاهدتهم " ، (٢٦٠) بمعنى أنه لا يجوز تسجيل أعرابي في ديوان الجند ، ويعلق أبو عبيد على هذا
الأمر : وليس وجه هذا ؛ عندنا أن يكونوا لم يروا لهم في الفريضة ، ولكنهم أرادوا أن لا فريضة
لهم راتبة تبهر عليهم من المال كأهل الحاضر الذين يبايعون المسلمين على أموالهم
ويصينونهم على عدوهم بأبدانهم وأموالهم ، وهم مع هذا أهل المعرفة بكتاب الله وسنة رسوله
والمعونة على إقامة الحدود ، وحضرة الأعيان والجمع وتعليم الخير فلماذا آثروهم

(٢٥٧) : الطبري ، ج ٧ ص ٢١٧ ، ابن الأثير ، ج ٥ ص ٢٦٨ .

(٢٥٨) : تهذيب ، ج ٥ ص ٣٠٣ .

(٢٥٩) : الكندي ، الولاية والقضاة ، ص ٦٨ .

(٢٦٠) : أبو عبيد ، الأموال ، ص ٢٢٧ .

بالأهمية البارزة (٢٦١) وفي كتاب عمرو بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم
نلاحظ أنه يأمره أن يفرض للناس، إلا للتاجر، ولما سئل سليمان بن يسار حول كتاب عمرو
قال: أصاب عمرو، التاجر مشغول بتجارته عطى صلح المسلمين (٢٦٢) بمعنى أن الفرض وهو
التسجيل للمرة الأولى لا يكون للتاجر أو أعرابي وأنه يفضل أهل البيوتات الصالحة .

لم يكن مطاء المقاطعة في العهد الأموي بمنسبة واحدة ، فقد كان هناك حد أعلى
للمعطاء يدعى شرف المعطاء ، وبينما كان شرف المعطاء محددًا بالآلفين وخمسمائة درهم في
عهد عمرو من تبعه من الخلفاء الراشدين ، (٢٦٣) فإنه انخفض في خلافة بني أمية إلى ٢٠٠ درهم .
يذكر البلاذري أنه قتل مع الضمك في مرج راهط ثمانون من الأشراف كان لكل رجل منهم
في المعطاء ألفان وقطيفة يعطونها مع عطائهم . (٢٦٤)

وإذا كان شرف المعطاء قد أعطي في بادئ الأمر لأهل الأيام والفتوح الأولى مجازاة
لهم لمساهمتهم في تلك العروب العظيمة وبلائهم فيها أو لمن قام ببعض الأعمال الإدارية
والقيادية ، (٢٦٥) فإنه أضيف إليها في العصر الأموي/بني أمية مع التوريث في شرف المعطاء
الذي لم يكن يورث قبل ذلك ، فقد اشترط حسان بن مالك بن سعد وكان سيد أهل الشام
على مروان ما كان لهم من شروط على معاوية وابنه يزيد منها أن يفرض لهم ألفي رجل آلفين
الآلفين ، وإن مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه ، (٢٦٦) ولا شك أنه كان يفرض في شرف المعطاء لأشراف
القبائل وساداتهم ومن يظهر الهلاء في الحرب .

(٢٦١) : أبو عبيد ، الأموال ، ص ٢٢٢ .

(٢٦٢) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٣٥٥ .

(٢٦٣) : الطبري ، ج ٣ ص ٦١٤ ، ج ٤ ص ٧٥ .

(٢٦٤) : البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ١٣٦ ، ابن سعد ، ج ٥ ص ٢٥٥ .

(٢٦٥) : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٤٣ ، البلاذري ، فتوح ، ص ٤٤٢ .

(٢٦٦) : السمودي ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٨٦ .

أما عدد من كان يفرض لهم في شرف العطاء فقليل إذا ما قيس ببقية الأعطيات ، وإن كنا نفترض أن نسبتهم في الشام أكبر مما هو في الأمصار الأخرى كمصر مثلا حيث يذكر ابن عبد الحكم أن عدد المقاتلة المسجلين في الديوان زمن معاوية كان أربعين ألفا وكان منهم أربعة آلاف في مائتين مائتين (دينار) ،^(٢٦٧) أما أغلبية المقاتلة فكان عطاؤهم يتراوح بين مائتين إلى ثلاثمائة إلى ألف وألف وخمسمائة درهم ،^(٢٦٨) ونلاحظ أن عدد المقاتلة في الشام الذين يأخذون عطاءً أمرتفعاً كان كبيرا ، لأننا إذا اعتمدنا رواية أبي عبيد معمر بن المشنسى المتعلقة بكتاب الحجاج إلى رتبيل يتبين لنا أنه كان مع عمارة بن تميم ٣٠ ألفا كل واحد منهم يأخذ مائة درهم في الشهر أي ١٢٠٠ درهم في السنة ، فقد كتب الحجاج إلى رتبيل : أما بعد فاني قد بعثت إليك عمارة بن تميم في ثلاثين ألفا من أهل الشام لم يخالفوا طاعة ولم يخلعوا خليفة ولم يتبعوا امام ضلالة ، يجرى على كل رجل منهم في كل شهر مائة درهم يستطعمون الحرب استطاحا ما .^(٢٦٩)

بالإضافة إلى العطاء كان المقاطلون ينالون الرزق شهرها ، فقد روى ابن مسافر أن عمر بن الخطاب لما وصل الجابية ، كان من جملة ما فعله أنه دعا ابن قاطورا صاحب الأرض فقال : أخبرني ما يكفي الرجل من القوم في الشهر واليوم ؟ فأنتى بالمدى والقسط . فقال يقيه مديان في الشهر وقسط زيت وقسط غل ، فأمر عمر بدينين قسما فدلنا ثم عدنا ثم اد منها بقسطي زيت ثم أجلس عليهما ثلاثين رجلا فكان كفاف شبعهم ،^(٢٧٠) وكانت هذه المؤن تحفظ في هري ثم توزع على المقاتلة .^(٢٧١)

كان المقاتلة يأخذون زيادة عن العطاء والرزق أموالا إضافية تسمى المعاون ، وجدت هذه منذ أيام عمر بن الخطاب ،^(٢٧٢) فقد خطب حين أراد الرجوع

(٢٦٧) : ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ١٠٢ ، المقريزي ، الخطط ، ج ١ ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٢٦٨) : الطبري ، ج ٥ ص ٢٢٣ ، البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ٣٥٤ ، ابن قتبية ،

عيون الأخبار ، ج ٢ ص ٤٤ ، ٤٥ .

(٢٦٩) : الطبري ، ج ٦ ص ٣٩٠ .

(٢٧٠) : ابن مسافر ، تاريخ دمشق ، المجلد الأول ، ص ٥٥٦ .

(٢٧١) : البلاذري ، فتوح ، ص ١٤٠ ، ٢١٠ ، ٢١١ .

(٢٧٢) : الطبري ، ج ٤ ص ٤٣ ، ٦٥ .

من الشام الى المدينة ، فبيّن لأهل الشام بأنه قضى ما عليه وأنه جنّد الجنود
وهياً لهم الفروج ووسع عليهم ما بلغ فيؤمهم وما قاتلوا عليه من شامهم ، وأنه سقّ لهم أطعامهم ،
وأمر لهم بأعطياتهم وأرزاقهم ومعاونتهم ، (٢٧٣) وقد ارتفع مقدار المعونة في الشام حين دعوة
المقاتلة الى حملة مهمة أو للقضاء على ثورة ما ، فقد أعطى يزيد بن معاوية الجند الذين
انتدبهم لحقائقة ابن الزبير مائة دينار معونة فوق أعطياتهم . (٢٧٤) وعند ما وجه مروان جيشاً
من فلسطين مع حبيش بن دلجة القيني الى ابن الزبير في ستة آلاف وأربعمائة جندي ،
قيل انه لم يقتل رجلاً من أصحاب ابن دلجة الا كان أقل ما وجد معه مائة دينار . (٢٧٥)
وقد جعل عمر بن عبد العزيز العرب والموالي في الرزق والكسوة والمعونة والمداواة
سواءً ، الا أنه جعل فریضة المولى العتق خمسة وعشرين ديناراً . (٢٧٦) وعند ما أراد يزيد بن
الوليد بن عبد الملك أن يوجه المقاتلة الى الوليد بن يزيد قرومخ ١٠٠٠ درهم معونة لمن
ينتدب لقتال الوليد ونظراً لقلّة من تقدم رفع القيمة الى ١٥٠٠ درهم ثم الى ٢٠٠٠ درهم . (٢٧٧)
وهكذا نرى أن بني أمية في الشام استصلحوا الجند بادرار أرزاقهم وسدّ حاجاتهم
والكفاية لهم على قدر غنائمهم وبلائهم ، سئل عمرو بن معاذ وكان على الصوائف ، بما قدرت
على جيوش الصوائف ؟ وكان يفسرو في كل سنة ويحرق الجيوش التي ببلاد الروم ،
فقال بسمانة الظهر والقديد وكثرة الكمك . (٢٧٨)

كان العطاء يدفع سنوياً للمقاتلة في المحرم عند بداية السنة الهجرية فسي

(٢٧٣) : الطبری ، ج ٤ ص ٦٥ .

(٢٧٤) : المصدر السابق ، ج ٥ ص ٤٨٣ ، ابن الاثير ، ج ٤ ص ١١٢ .

(٢٧٥) : البلاذري ، أنساب ، ج ٥ ص ١٥١ .

(٢٧٦) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٢٧٧ .

(٢٧٧) : الطبری ، ج ٧ ص ٢٤٢ .

(٢٧٨) : الطرطوشي ، سراج الملوك ، الطبعة الأولى ، ١٣١٩ هـ ص ١٠٦ .

(٢٧٦)

خلافة عمر بن الخطاب ، كما أنه ما بلغ الناس ماشورا قط في أيام زياد الأوطاففة
بأخذون العطاء ، وكان زياد اذا أهل المحرم أخرج للمقاتلة أعطياتهم ،
غير أن دفع العطاء في وقته المحدد لم يكن أمرا ميسورا دائمة وغاصة اذا لم
يصل الخراج في وقته المعين ، أو بسبب الاضطرابات ، وفي هذه الحال
كان العطاء يدفع أقساما أو يؤخر دفعه عن الموعد المقرر ، فقد وعد
يزيد بن معاوية الناس أن يجمع لهم عطاءهم كله ، اذا أن معاوية كان يخرج
لهم العطاء ثلاثا ، (٢٨١) كما أننا نرى يزيد بن الوليد يعد المقاتلة أن يدفع لهم
عطاءهم كل سنة ويزقهم كل شهر ، وهذا يعني أن الأعطيات أحيانا لم تكن توزع
سنويا ولا الأرزاق شهريا ، كما أن الخليفة اذا كان بحاجة الى الأموال أخذها
من بعض الولايات ، فكان هذا يؤدي الى حبس العطاء من مقاطعة ذلك المصر ،
فقد اضطرت الأعداء الداخلية مروان بن محمد الى تغيير العطاء من ديوان مصر ،
ثم دفعهم في العام التالي معذرا لهم بقوله ، " اني انما حبست عنكم العطاء في السنة
الماضية لعدو حضري ، فاحتجت فيه الى المال ، وقد وجهت اليكم بعطاء السنة
الماضية وعطاء هذه السنة " . (٢٨٣)

ويعود لزياد بن أبيه فضل تنظيم العطاء في العراق على أسس جديدة غير
تلك التي كانت متبعة سابقا والتي أصبح فيها لكل عشيرة مرف خاص بها يتولى توزيع
العطاء على أفراد عشيرته الثابتين في الديوان . (٢٨٤) وبما أن هذا التنظيم
هو تنظيم منطقي يسهل تطبيقه ، وكان مطبقا كذلك في مصر على هذا الأساس ،
(٢٨٥)

-
- (٢٧٦) : الجبوري ، ج ٤ ص ٤٣ . في رواية سيف أن عمر كتب الى سعد بن مالك والى هبة بن
خزوان أن يتربعا بالناس في كل حين ربيع في أطيب أرضهم ، وأمر لهم بمعاونتهم في
الربيع من كل سنة وباعطائهم في المحرم من كل سنة .
(٢٨٠) : البلاذري ، أنساب ، ج ٤ ، قسم ١ ص ١٩ .
(٢٨١) : ابن كثير ، البداية والنهاية ، طبعة القاهرة ، ج ٨ ص ١٤٣ .
(٢٨٢) : الجبوري ، ج ٧ ص ٢٦٩ ، خليفة ، ج ٥ ص ٥٥١ .
(٢٨٣) : المقرئ ، الخطوط ، ج ١ ص ١٧٣ .
(٢٨٤) : القلقشندي ، ج ١ ص ٤٢٤ ، ابن سعد ، ج ٦ ص ٦٣ ، ١٣٥ .
(٢٨٥) : المقرئ ، الخطوط ، ج ١ ص ٣٩٣ ، باقوت الحموي ، ج ١ ص ٤٩٢ .
.../...

يمكننا أن نفترض بأن توزيع العطاء في الشام كان يتم وفقا للهدأ ذاته ، لاسيما وأن هناك
اشارة الى وجود تعريف للسكاسك ، ووجود تعريف لكل قسم .
(٢٨٦) (٢٨٧)

أما عطاء الأسرى ، فليس بين أيدينا سوى نص واحد يعود الى عهد عمر بن عبد العزيز
يتعلق بالأسارى بالتسطينية ، ان أنه كتب اليهم حسب رواية ابن عبد الحكم : " أما بعد
فانكم تعدون أنفسكم أسارى ، معاذ الله بل أنتم العبياء في سبيل الله ، واعلموا أنني
لست أقسم شيئا بين رهيبي الأخصصت أهليكم بأوفر نصيب وأطيبه ، واني قد بمثت اليكم
بخمسة دنانير مخصصة دنانير ، ولولا أنني خشيت ان زدكم أن يحبس طاعة السروم
منكم لزدتكم " ، بمعنى أن عطاء الأسير كان يعطى لأهله ، ولا بد أن هذا الهدأ
كان مطبقا في الفترات السابقة ، فعطاء بني أمية كان يهضم أمر مقاتلتهم في الشام ويستبعد
أن يكونوا قد أهطوا أمرهم وأمر أسروهم ، وهذا بدوره يقتضي تسجيلا في الديوان لمن يقتل
أو يفقد أو يوسر . وقد اتخذ عمر بن عبد العزيز اجراءات معينة متعلقة بالخائب ، فإذا
كان قريب الضحية أعطى العطاء لأهل ديوانه ، وان كان منقطع الضحية يحزل عطاؤه الي
أن يقدم أو يأتي نعيه ، أو يوكل عنده بوكالة بهيئة طى حياته فيدفع العطاء الي وكيله ،
أما اذا مات أو قتل كان ما يستحق من عطاءه موروثا عنه على فرائض الله تعالى وهو دين لورثته
في بيت المال . واختلف الفقهاء في استيفاء نفقات ذريته من عطاءه في ديوان الجيش فبعضهم
يقول ان ورثته يحالون على مال العشر والصدقة لأن عطاءه قد سقط بموته ، والبعض الآخر

(٢٨٦) : تهذيب ، ج ٥ ص ٢٥ .

(٢٨٧) : المصدر السابق ، ج ٦ ص ١١٧ .

(٢٨٨) : ابن عبد الحكم ، سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٤٠ .

(٢٨٩) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ص ٣٥٧ .

(٢٩٠) : الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٢٠٦ .

يرى أنه يستقي من عطائه نفقات ذريته ترغيباً وتشجيعاً للجنود على التجنيد . (٢٩١)

واختلف الفقهاء كذلك في سقوط عطائه اذا حدثت به طامة تمنعه من القتال ،
فالبعض يرى أن عطائه يسقط لأنه في مقابل عمل لم يعد يستطيع القيام به ، والقول الثاني
انه باق على العطائه ترغيباً في التجنيد والارتزاق . (٢٩٢)

كان على أهل العطائه أن يجهزوا أنفسهم بالأسلحة ، ويذهبوا للقتال عند ما

يضرّب عليهم البعث ويدعون الى الخدمة ، ويظهر أن هذا كان منذ البداية كما يتضح (٢٩٣)

من قول عمر بن الخطاب : " لقد هممت أن أجعل العطائه أربعة آلاف ، ألفاً يجعلها في

أهله ، وألفاً يزودها معه ، وألفاً يجهز بها ، وألفاً يتفرق بها " . وروى الهيثم بن عدي عن ابن

عباس الهمداني وغيره أن كثير من شهاب كان على الرى ودستى وقزوين كان اذا غزا أخذ (٢٩٤)

كل امرئ من معه ، بهترس ودرع وبهضة وسلة وخمس ابر وخيوط كتان ومقص ومقراض ومخلاة ،

ووجه عمر بن عبد العزيز كتاباً الى ولاته حين أخرج العلاء جاء فيه : " لا يقبل من رجل

له مائة دينار الا فرس عربي ودرع وسيف ورمح ونبل " . (٢٩٥)

وكان أخذ العطائه يستعمل على صاحبه أن يقوم بالغزو ، الا أنه كان باستدانة مسن

لا يريد الغزو أن يخرج بدلا ، ويروى المدائني أنه لم يكن أحد من بني مروان يأخذ العطائه

الا وعليه الغزو ، فمنهم من يغزو ومنهم من يخرج بدلا . وكان لهشام بن عبد الملك مولى

يقال له يعقوب ، فكان يأخذ عطائه هشام مائتي دينار ودينار ، فيأخذها يعقوب ويغزو ،

(٢٩١) : الطاودي ، ص ٢٠٦ .

(٢٩٢) : المصدر السابق ، ص ٢٠٦ .

(٢٩٣) : الطهري ، ج ٦ ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .

(٢٩٤) : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٦١٥ .

(٢٩٥) : البلاذري ، فتوح ، ص ٣١٤ .

(٢٩٦) : ابن سعد ، الطبقات ، ج ٥ ، ص ٢٥٨ .

وكانوا يصيرون أنفسهم في أهوان الديوان ، وفي بعض ما يجوز لهم المقام ويوضع به
(٢٩٧)
الغزوة عنهم ، أي بإمكان أهل الحطاة التغلص من البعوث إذا عطوا في الوظائف
التي تقتضي البقاء في المصر أو إذا أرسلوا عنهم بديلا ، أما العرفاء فكانوا لا يشاركون
في البعوث والقتال في أكثر الأحيان ، لأنهم خلفاء الغزاة في هيالهم ، ولكن هذا
(٢٩٨)
لا يمنع من مشاركتهم في القتال إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، لأنهم كانوا يعدون
من أهل الديوان ويأخذون الحطاء .

وهكذا يتبين لنا من دراستنا للتنظيم العسكري في الشام أن الجيش الشامي
كان يتألف بالدرجة الأولى من القبائل العربية المقيمة في الشام ، وما أن القبائل اليمنية
والقضامية كانت تولف الأكترية ، فمن الطبيعي أن يتألف الجيش في معظمه من هذه القبائل
بالإضافة إلى القبائل القيسية التي كان مستقرها الجزيرة وعند قنشرين ، ولكننا نلاحظ
استفادة بني أمية من كل الطاقات البشرية ، فقد استعانوا بأهل الذمة في مناطق الحدود
والشور ، كما أنهم استخدموا الموالي الذين ازدادت نسبتهم في الفترة الرومانية
حيث ظهرت لدينا فرق خاصة ، كالوضاحية والذكوانية والمحرمة وغيرهم ، ولكن
القيادات العليا في الشامية بيد العرب من الصحابة وأبنائهم ومن أشرف القبائل
في الفترة السفانية وبيد أمراء بني أمية في الفترة الرومانية ، ولا سيما في قيادة الصوائف
والشواتي ، إذ أن أمراء بني أمية كانوا يخلقون أهمية كبيرة طيها لأنهم إنما يتابعون عملية
الجهاد ضد أعداء المسلمين من جهة كما أنها كانت تكسبهم حالة من المجد من جهة
ثانية ، ثم إن عملية الجهاد هذه كانت تمكنهم من أن تحافظ جيوشهم الشامية
على ما تتمتع به من نظام وسجايا حربية ، ولقد بقيت القبيلة أو العشيرة عنصرا مكونا

(٢٩٧) : الطبري ، ج ٧ ص ٢٠٢ .

(٢٩٨) : تهذيب ، ج ٧ ص ١٥٢ .

(٢٩٩) : الطبري ، ج ٦ ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

بارزا في مجال التمهئة سواء في اعتمادهم على نظام الصف أو الكراديسس
أو عندما تدسج لفايات عسكرية أو مالية في تنظيمات أكر . ونلاحظ في مجال
الأسلحة ووسائل الدفاع وآلات الحصار أن مجال الاقتباس يظهر واضحا ، الآ أن
التطور الذاتي والابتكار على شكل استجابة ناجحة لمتطلبات التطور قد سارا جنبها
الى جنب مع الاقتباس ، ويتقي أن نقارن بين الهداية والأوج وبينها مدة لا تتجاوز
الخمسين سنة في كثير من الأحيان سواء على صعيد العدد أو على صعيد الآلات والعدد ،
حتى نرى هذه القفزة الواسعة التي حققها الحرب عامة ومقاطعة أهل الشام خاصة .

=====

=====

—

••

الخاتمة

أقلت هذه الدراسة الضوء على أهمية بلاد الشام في صدر الاسلام ، لاسيما عندما أصبحت الشام الولاية المركزية في عهد بني أمية ، فأضحت لها المكانة السياسية الأولى وتمتعت بقوة عسكرية فائقة وبأوضاع إدارية واجتماعية متميزة ، فالأكثرية الساحقة من الروم ومرزقتهم نزحوا عن المدن الساحلية والداخلية الهامة ولحقوا بهرقل الى آسيا الصغرى والقسطنطينية . والقبائل العربية النصرانية ، التي كانت تشكل نسبة سكانية لا يستهان بها في الشام قبل الفتح ، اعتبرت اجتماعيا بمستوى المسـرب المسلمين الفاتحين عندما اعتنقت الاسلام ، والدليل على ذلك هو الازدياد المستمر في أعداد المقاتلة العرب في كل جند ، وهذا الازدياد لم يكن ناجما عن هجرة القبائل من الجزيرة العربية فقط ، وإنما من اعتناق القبائل العربية النصرانية للمدين الاسلامي . كما أن معظم العرب في الشام في العصر الاموي كانوا من عرب الجنوب ، باستثناء جند قنسرين حيث كانت الاكثرية قيسية ، وأصبح العرب يشكلون الغالبية الكبرى من السكان في معظم الأبناد سوا في المناطق الساحلية أو الداخلية ، الا في جند دمشق حيث نلاحظ أن السكان في مدن جند دمشق الساحلية كان أكثرهم من اليهود والفرس نتيجة للسياسة التي اتبعها معاوية وعبدالملك من بعده .

ونظرا لسياسة التسامح الديني التي اتبعها خلفاء بني أمية ، وعدم فرض ضرائب اضافية على أهل الذمة ، كما حدث في العراق ومصر مثلا ، بقيت النصرانية واسعة الانتشار نسبيا بين السكان من غير العرب ، ومن ثم فإن النسبة الكبرى من الموالي وفقا للروايات المتوافرة كانوا موالي عتاقة ينتمون الى أصول مختلفة ، وكان خلفاء وأمراء بني أمية يتكون أعدادا كبيرة منهم ازادات في الفترة المروانية نتيجة للفتوحات في الشرق والغرب . ولذلك ازاد اعتماد خلفاء بني أمية في هذه الفترة على الموالي في كل دوائر الدولة ، كما ظهرت فرق للموالي ، كالوضاحية والذكوانية والمحرة ، شاركت في قمع الثورات التي نشبت ضد الأمويين ، ولكن القيادات في الجيش في الشام بقيت تسند الى العرب ، الى أبناء الصحابة وأشرف القبائل في الفترة السفيانية ، والى أمراء البيت مرواني خاصة وبني أمية عامة في الفترة المروانية ، كما أن بعض الوظائف

الأساسية بقيت تسند الى الحرب ، كولاية الأجناد والقضاء والشرطة ، أما المستشارون والوزراء فكان منهم العرب ومنهم الموالي .

ونتيجة لسياسة معاوية المالية التي أصبح على الولايات بموجبها ارسال الفائض من الأموال الى بيت المال المركزي ، تدفقت الأموال على الشام بالاضافة الى أخمس الفنائم التي كانت ترسل اليها مما أدى الى ازدهار الشام وتمتع أهلها كافة بمميزات خاصة ، فعطاء مقاطعة الشام كان أكثر من عطاء المقاطلة في الأمصار الأخرى . كما لانجد ذكرًا لضرائب اضافية كتلك التي فرضت في العراق ومصر ، مما أدى الى ازدهار الزراعة لعدم شعور المزارع بأن كل ما يجنيه سوف يتوجه الى الدولة ، ومن ثم لانجد ذكرًا لهجرة الفلاحين من أرضهم ، كما حدث في العراق ومصر في العصر الاموي ، أو كما حدث في الشام زمن هارون الرشيد عندما ترك بعض أهالي قرى فلسطين أراضيهم هربًا من كثرة الفرج . وشهدت الشام كذلك ازدهارًا تجاريًا نتيجة لسيطرة العرب على المناطق التي كانت تحت النفوذ الساساني وسيطرتهم كذلك على الشام ومصر ، فلم يعد للمراكز الجمركية القديمة التي كانت موجودة بين الدولتين من أهمية . كما أن حكام القسطنطينية في هذه الفترة ، كما تشير الى ذلك مختلف الأدلة ، لم يمنحوا التجارة مع الشام ومصر ، لأن المنع كان يعني الاعتراف بحسراتهم لهاتين الولايتين ، ويبدو أن الحكام البيزنطيين حتى سنة ٦٩٣ م / ٧٤ هـ كانوا يرفضون الاعتراف بأن الشام ومصر ولايات خارجية عن نطاق الامبراطورية ، ولذلك لم يطبق على المنتجات المرسله من هاتين الولايتين قانون جستينان . كما أن قوانين الملاحسة والتجارة الصارمة التي كانت مطبقة سابقًا يبدو وكأنها اختفت ، ولكن عندما عهد عبدالمك ابن مروان الى تحرير الدولة الاسلامية من السيطرة البيزنطية اقتصاديًا والى اقامة وحدة اقتصادية مستقلة من جهة ، والى تصديق نوع من الضغط الاقتصادي على بيزنطة من جهة أخرى بسك للدينار العربي الاسلامية ، نلاحظ أنه أضيفت الحرب الاقتصادية الى الهدوء المسكوي البري والبحري . ولكن عدم فرض خلفاء بني أمية قيودًا على التجارة الخارجية للدولة الاسلامية ، كتلك التي فرضها البيزنطيون ، أدى الى سحب تجارة منتجات العالم العربي وتجارة الحرير والتوابل ، التي كان البيزنطيون يأمن الحاجة اليها ، من مصر

والشام المركزين البحرين لحنانسيهم الأمويين الى العراق . . وما ساعد البيزنطيين على اغلاق البحر المتوسط في وجه الملاحة البحرية المنطلقة من الشام ومصر ، تسيبوة الأسطول البيزنطي الذي خرج منتصرا سنة ١٠٠ هـ ، وسيطرة بيزنطة على عدد كبير من جزر البحر المتوسط التي تشكل سلسلة من الجزر الحاجزة تجاه الشمال الافريقي والساحل الاسباني . فاذا أضفنا الى ذلك انقسام الصف الأموي سنة ١٢٦ هـ اثر مقتل الوليد بن يزيد ، وانقسام كلمة أهل الشام الذين كانوا يشكلون القاعدة المتينة والجهة المتراصة التي كان الحكم الاموي يقوم عليها ، فانه لم تأت سنة ١٣٥ هـ / ٧٥٢ م حتى كانت الشام قد خسرت مركزها السياسي والتجاري الهام ، فقد انتقل الحكم الى العباسيين ، وأصبحت العراق الولاية المركزية التي يمر بها الخط التجاري المتوجه نحو طرابزون ، وخسرت دمشق مكانتها السياسية الهامة ، ولم تستعد لها ، الا فترة من الزمن والى حين ، في عهد كل من نور الدين وصلاح الدين ، حيث عادت الى مسرح الأحداث كما صفة كبرى لزهيديين عظيمين من زعماء العالم الاسلامي ، وحظيت ابان حكمهما بقدر كبير من العز والمجد والازدهار .

* * * * *

* * * *

* * *

* *

*

.

"المصادر والمراجع"

* المصادر العربية :

- الأُبشهي (شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأُبشهي) ، (ت ٨٥٠ هـ)
المستظرف في كل فن مستظرف وهما مشه كتاب ثمرات الأوراق في المحاضرات للامام
تقي الدين أبي بكر بن علي بن محمد بن حجة الحموي .
- ابن ابكار (اسكندر بن يعقوب) .
نهاية الأرب في أخبار العرب ، مرسليليا ، ١٨٥٢ م .
- ابن أبي حديد (عزالدین أبو حامد بن هبة الله بن محمد بن الحسن بن)
(ت ٦٥٦ هـ) ، شرح نهج البلاغة ، ١٧ ج ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ،
دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٩ .
- ابن أبي دينار ، الوئس في أخبار افريقيا وتونس ، تونس ، ١٣٨٦ هـ .
- ابن أبي السرور (أبو الحسن علي بن أبي عبد الله بن محمد) .
بلغة الظرفاء في ذكرى توارينخ الخلفاء ، مطبعة النجماح ،
مصر ، الطبعة الاولى ، ١٣٢٧ هـ / ١٩٠٩ م .
- ابن أبي أصيبعة (موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم بن غليفة بن يونس
السمدي الخزرجي) ، (ت ٦٦٨ هـ) .
عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق الدكتور نزار رضا ،
منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت .
- ابن الأَعمش (أبو محمد أحمد بن أعمش الكوفي) ، (ت ٣١٤ هـ) .
الفتوح ٧ أجزاء ، تحقيق الدكتور محمد عبد الحميد خان ،
١٣٨٨ - ١٣٩٤ هـ / ١٩٦٨ - ١٩٧٤ م .
- الأزدي (أبو زكريا يزيد بن محمد بن أبياس بن القاسم) ، (ت ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م)
تاريخ الموصل ، تحقيق الدكتور علي حبيبة ، القاهرة ، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٧ م .

- الاصطخري (أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي) .
السالك والجمالك ، تحقيق دى غريبه ، مطبعة بريل ، لندن ، ١٩٢٧ .
- الأصفهاني (أبو الفرج حلي بن العسين) ، (ت ٣٥٦ هـ) :
١- مقاتل الطالبيين ، تحقيق السيد أحمد صقر ، القاهرة
١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م .
- ٢- الأغاني ، ١٨ ج ، تحقيق مصطفى السقا ، طبعة دار الكتب
السنوية ، القاهرة ، ١٩٢٧ - ١٩٦١ .
- الأنصاري (شرف الدين موسى بن يوسف) .
التذكرة الأيوبية ، مخطوطة في المكتبة النحاسية ، رقم ٧٨١٤ .
- بحشل (أسلم بن سهل الرزاز الواسطي) ، (ت ٢٩٢ هـ) .
تاريخ واسط ، تحقيق كوركيس شواد .
- البخاري ، الجامع الصحيح ، ٤ أجزاء ، طبعة لندن .
- أبو البقاء (عبد الله محمد البدرى الصيرى الدمشقي) .
نزهة الأنام في محاسن الشام ، المطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤١ هـ .
- البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر) :
١- فتوح البلدان - تحقيق محمد رضوان ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر .
٢- أنساب الأشراف ، الجزء الأول ، تحقيق الدكتور محمد حميد الله ،
معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية .
- القسم الأول من الجزء الرابع ، مؤسسة الدراسات الإفريقية
الإسلامية ، الجامعة المصرية ، القدس ١٩٧٢ .
- القسم الثاني من الجزء الرابع ، مكتبة المشى ، بغداد .
- القسم الثالث ، العباس بن عبد المطلب وولده ،
تحقيق الدكتور عبد العزيز الدورى ، بيروت ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م .

- الجزء الثالث ، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي ، بيروت ،
- الطبعة الأولى ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .
- الجزء الخامس ، مؤسسة الدراسات الشرقية ،
- الجامعة العبرية ، القدس ، ١٩٣٦ .
- البلخي (أبو زيد أحمد بن سهل) .
- كتاب البنو والتاريخ ، الجزء الثاني ، باريس ١٩١٩ .
- البيروني ، الآثار الباقية في القرون الخالية ، طبعة ليهرك ، ١٩٣٢ م .
- البيهقي (أحمد بن الحسين) .
- سنن البيهقي ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدرآباد ،
- طبعة أولى ، ١٣٥٤ هـ .
- ابن تيمية ، السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، دارالكتب العربية ، بيروت .
- التنوخي ، الفرج بعد الشدة ، ج ١ ، القاهرة ، المطبعة الأولى .
- الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب) :
- ١- البيان والتبيين ، تحقيق حسن السندوي ، دار الفكر ، بيروت .
- ٢- كتاب الطح في أخلاق الملوك ، تحقيق فوزي عطوي ، الشركة
- اللبنانية للكتاب ، بيروت .
- ٣- المثابرة ، طبعة القاهرة ، ١٩٥٥ م .
- ٤- ثلاث رسائل ، القاهرة ، الطبعة السلفية ، ١٣٤٤ هـ .
- جرجس بن العميد ، تاريخ ابن العميد ، لبنان .
- جرجس ، ديوان جرجس ، دار صادر ، بيروت .
- الجمحي (محمد بن سلام)
- طبقات الشعراء ، طبعة أوفست ، دار النهضة ، من طبعة لندن ،
- ١٩١٣ م ، بيروت .

- الجبهشيارى كتاب الوزراء والكتاب ، تحقيق مصطفى السقا ، ابراهيم الأبيارى ،
عبد الحفيظ الشايبى ، طبعة ١٣٥٧ هـ / ١٩٣٨ م .
- ابن الجوزى (ابو الفرج) (ت ٥٩٧ هـ)
تاريخ مصر بن الخطاب ، دار احياء علوم الدين بد مشق .
- ابن حبيش (عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن يوسف)
الفتوح ، مخطوطة منسوخة من مكتبة الدكتور سهيل زكار .
- حسان بن ثابت ، الديوان ، تحقيق الدكتور وليد عرفات ، دار صادر ، بيروت ،
١٩٧٤ م .
- ابن حزم (ابو محمد هلي بن سعيد الاندلسي)
جمهرة أنساب العرب ، نشر وتحقيق ا . ليفي بروفنسال ، دار المعارف
مصر .
- الحميرى (عبد النعمان)
الروض المطار في خبر الأقطار ، تحقيق احسان عباس ، بيروت ،
١٩٧٨ م .
- ابن حنبل (أحمد بن محمد) (ت ٢٤١ هـ)
المسند ، ٤ أجزاء ، دار المعارف ، مصر ، الطبعة الثالثة ،
١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م .
- أبو حنيفة (النعمان بن ثابت) (ت ١٥٠ هـ)
جامع السائد ، جزان ، حيدر آباد ، ١٣٣٢ هـ .
- ابن خرداذبة (عبيد الله بن عبد الله) (ت ٢٧٢ هـ)
المسالك والممالك ، تحقيق دى غويه ، مطبعة بريل ، ليدن
١٨٨٩ م ، اوفست مكتبة الشئى ، بغداد .
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن خلدون الخضرى المغربى) (ت ٨٠٨ هـ)
المقدمة ، تحقيق عبد الواحد وافي ، منشورات مؤسسة الأعلمى ،
بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٧١ م .
.../...

- ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، جزءان .
- خليفه بن خياط ، تاريخ خليفة ، تحقيق الدكتور سهيل زكار ، دمشق ١٩٦٧ .
- الخوارزمي (محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي الكاتب) (ت ٣٨٧ هـ)
مفاتيح العلوم ، القاهرة ، ١٣٤٢ هـ .
- الخولاني (القاضي عبد الجبار)
تاريخ داريا ، تحقيق سعيد الأفاني ، مطبوعات المجمع العلمي العربي ،
١٣٦٩ هـ ، ١٩٥٠ م .
- الدينوري (أحمد بن داود) (ت ٢٨٢ هـ)
الأخبار الطوال ، تحقيق عبد النعم عامر ، مراجعة الدكتور جمال الدين
الشيال ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، الاقليم الجنوبي ، القاهرة ١٩٦٠ م .
- الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان) (ت ٧٤٨ هـ / ١٣٧٤ م)
سير أعلام النبلاء ، ٨ أجزاء ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ،
١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .
- السرازي ، التفسير الكبير ، المجلد الثامن ، الطبعة الثانية .
- ابن رجب (عبد الرحمن بن أحمد) (ت ٧٥٩ هـ)
الاستخراج لأحكام الشراج ، تحقيق عبد الله الصديق ، القاهرة ١٩٣٤ م .
- ابن رسته (أبو علي أحمد بن عمر) (ت ٣٩٠ هـ)
الأعلاق النفيسة ، مطبعة بريل ، ليدن ١٨٩١ م .
- ابن رشد (محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي)
بداية المبتدئ ونهاية المتتبع ، جزءان ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ،
١٩٢٧ م / ١٣٥٧ م .
- أبو زرعة (عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان) (ت ٢٨١ هـ)
تاريخ أبي زرعة ، جزءان ، تحقيق شكر الله بن نعمة الله الفرجاني ،
مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق .

- ساويرس ، سير الآباء البطارقة ، الجزء الخامس ، باريس ، ١٩١٠ .
- ابن سمد (محمد) (ت ٢٣٠ هـ) .
- السيوطي كتاب الطبقات الكبير ، الأجزاء السبعة الأولى ، لميدن ١٣٢٢ هـ .
- (عبد الرحمن بن أبي بكر) (ت ٩١١ هـ) :
- ١- الاقتراح في علم أصول النحو ، تحقيق أحمد صبحي فرزات ،
استانبول ، مطبعة كلية الآداب ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م .
- ٢- تاريخ الخلفاء ، تحقيق لجنة من الأدباء ، دار الثقافة ،
بغروت .
- الشاهشتي (أبو الحسن علي بن محمد)
- الديارات ، تحقيق كوركيس فواد ، مطبعة المعارف ، بغداد ،
١٩٥١ م .
- الشافعي (محمد بن أدريس) (ت ٢٠٤ هـ)
- الأم ، ٦ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٢١ هـ - ١٣٢٦ هـ .
- ابن شداد (عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي) (ت ٦٨٤ هـ)
- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، الجزء الأول من
القسم الأول ، تحقيق دومينيك سورديل ، دمشق ١٩٥٣ م .
- تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق الدكتور سامي الدمان .
- الصابسي ، تمفة الأمراء في تاريخ الوزراء ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ،
١٩٥٨ م .
- الصولسي (محمد بن يعقوب) (ت ٣٣٦ هـ) .
- أدب الكاتب ، تحقيق محمد بهجت الأثرى ، المطبعة السلفية ،
القاهرة ، ١٣٤١ هـ .
- ابن طباطبا (محمد بن علي) (ت ٧٠٩ هـ)
- الغفرى في الآداب السلطانية ، المطبعة الرعمانية ، مصر ،
١٣٤٥ هـ / ١٩٢٧ م .

- الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) (ت ٣١٠ هـ)
تاريخ النسل والطوك ، ١٠ أجزاء ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ،
دار المعارف ، الطبعة الثانية .
- الطرطوشي (محمد بن الوليد)
سراج الطوك ، المطبعة الأزهرية المصرية ، الطبعة الأولى ١٣١٩ هـ .
- ابن طولون (شمس الدين)
الشجر اليسام في ذكر من ولي قضاء الشام ، تحقيق صلاح الدين المنجد ،
دمشق ١٩٥٦ م .
- ابن عبد البر (أبو عمر يوسف بن عبد البر النمري القرطبي) (ت ٤٦٣ هـ)
الأنباه على قبائل الرواة ، القاهرة ، ١٣٥٠ هـ .
- ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله) (ت ٢١٢ هـ)
سيرة عمر بن عبد العزيز ، تحقيق أحمد عبيد ، الطبعة الثانية ،
١٣٧٣ هـ / ١٩٥٤ م .
- فتوح مصر وأخبارها ، مطبعة بريل ، لندن ، ١٩٣٠ م .
- ابن عديسه (القاسم بن سلام) (ت ٢٢٤ هـ)
كتاب الأموال ، تحقيق محمد حامد الفقي ، القاهرة .
- ابن عديم (كمال الدين ، أبي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله) (ت ٦٦٠ هـ)
زبدة الحلب في تاريخ حلب ، تحقيق الدكتور سامي الدهان .
- ابن هذاري السراكشي ، البيان المغرب في أخبار المغرب ، جزءان ، دار بيسروت
صدر ١٣١ هـ / ١٩٦٨ م .

- ابن عساکر (القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي)
تاريخ مدينة دمشق ، المجلد الأول والثانية ، تحقيق صلاح الدين
المنجد .
- المخطوطة ، رقم ٣٣٧٠ ، نسخة سليمان باشا العظم ، المكتبة
الظاهرية .
- العمري مسالك الأبحار في مالک الأنصار ، مطبعة الدار ، مصر .
- أبو الفدا (الملك المؤيد عماد الدين أبو الفدا) (ت ٧٣٢ هـ)
المختصر في تاريخ البشر ، الجزء الأول ، دار الكتاب اللبناني .
- ابن الفقيه (أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني)
كتاب البلدان ، لندن ، ١٣٠٢ هـ .
- أبو الفضل النيسابوري ، مجمع الأمثال ، القاهرة ، ١٣٥٢ هـ .
- ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم) (ت ٢٧٦) :
١- عيون الأخبار ، مجلدان ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٨ هـ / ١٩٣٠ م .
- ٢- المعارف ، تحقيق محمد اسماعيل عبد الله الصاوي ، بيروت ،
١٣٩٠ هـ / ١٩٧٠ م .
- ٣- الامة والسياسة ، جزآن ، تحقيق الدكتور طه محمد الزيني ،
مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع .
- قدامة بن جعفر ، نيز من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، مطبعة بريل ، لندن ،
١٣٠٦ هـ .
- القزويني (زكريا بن محمد بن محمود)
آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت .

- القشيري (أبو علي بن سعيد بن عبد الرحمن القشيري الحراني) (ت ٤٣٣٤ هـ)
تاريخ الرقة ومن دزلها بن أسباط رسول الله والتابعين والفقهاء
والمحدثين ، عقق وعلق حواشيه وقدم له طاهر النعماني .
- القسطلاني (شهاب الدين أحمد بن محمد)
إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ، طبعة بولاق ، ١٣٢٢ هـ .
- القلقشندی (أحمد بن عبد الله) (ت ٨٢١ هـ) :
١- مآثر الأناقة في معالم الخلافة ، جزان - الكويت ١٩٦٤ م .
٢- صبح الأفشى ، ١٤ جزء ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ،
١٣٣١ هـ / ١٩١٣ م .
- ابن قيم الجوزية (الشيخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر) (ت ٧٥١ هـ)
أحكام أهل الذمة ، جزان ، مطبعة جامعة دمشق ، الطبعة الأولى ،
١٩٦١ م .
- ابن كثير (اسماعيل بن عمر) (ت ٧٧٤ هـ)
البداية والنهاية في التاريخ ، الجزء السادس ، القاهرة ،
- ابن الكلبى (هشام بن محمد بن السائب)
عمهرة النسب ، الجزء الأول ، منغطوة برقم / ٣٨٢ / في مركز
الوثائق والتوثيق ، الجامعة الأردنية .
- الكندي (أبو عمر محمد بن يوسف)
كتاب الولاة وكتاب القضاة ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ،
١٩٠٨ م .
- ابن ماجة (ت ٢٧٣ هـ)
السنن ، القاهرة ، ١٣١٣ .

- ابن ماكول (ت ٤٧٥ هـ ، ١٠٨٢ م)
الاكمال في رفع الارتباب عن الموءتلف والمغتلف في الأسماء والكنى ،
٧ أجزاء ، الطبعة الثانية ، بيروت .
- مالك بن أنس ، المدونة ، ٤ أجزاء ، القاهرة ، ١٣٢٤ هـ .
- المالكي (أبو بكر عبد الله بن أبي عبد الله المالكي)
رياض النفوس في طبقات علماء القبروان وزهادهم وعبادهم ونسأكلهم
وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، نشر عسین مؤنس ، مكتبة
النهضة المصرية ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٥١ م .
- الصاوري (أبو الحسن علي بن محمد حبيب البصري البغدادي) (ت ٤٥٠ هـ) :
١- الأحكام السلطانية ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ،
مصر ، ١٩٧٣ م .
٢- أدب القاضي ، تحقيق مسي الدين خلال السمران ، بغداد ،
١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م .
- المبرد (أبو الحباس محمد بن يزيد) (ت ١٨٥ هـ)
الكامل في اللغة والأدب ، مكتبة المعارف ، بيروت .
- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) (ت ٣٤٦ هـ) :
١- مروج الذهب ومعادن الجواهر ، ٤ أجزاء ، دار الأندلس .
٢- التتبيه والأشراف ، تحقيق عبد الله اسماعيل الساري ، مكتبة
السنن ، بغداد .
- ابن مسكويه (أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب) (ت ٤٢١ هـ) .
كتاب تجارب الأمم ، الجزء الخامس ، مطبعة التمدن الصناعية بحمص ،
القاهرة ، ١٣٣٢ هـ .
- مصعب الزبيري (أبو عبد الله مصعب بن عبد الله) (ت ٢٣٦ هـ)
نسب قريش ، تحقيق أ . ليفي بروفنسال .

- الدقديسي (شمس الدين) (ت ٣٨٠ هـ / ٩٩٠ م)
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تعليق غازي طليحات ، طبعة ١٩٨٠ م
- المقرى التلمساني (أحمد بن محمد)
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، دار بيروت صادر ،
- ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م
- الحقيرزي (أبو العباس أحمد بن علي) (ت ٨٤٥ هـ) :
- ١- الدواغل والاهتبار بذكر الخطوط والآثار ، ثلاثة أجزاء ، دار التحرير المطبع والنشر ، عن طبعة بولاق ، ١٢٧٠ هـ .
- ٢- البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، القاهرة ، ١٣٥٦ هـ .
- ابن منظور ، لسان العرب ، دار صادر للطباعة والنشر ، ١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م
- مؤلف مجهول (من القرن الثالث الهجري)
- أخبار العباس وولده ، تحقيق الدكتور عبد العزيز السدوي ،
- والدكتور عبد الجبار المطلبي ، بيروت ١٩٧١ م
- مؤلف مجهول ، العميون والحدائق في أخبار الحقائق
- (من خلافة الوليد بن عبد الملك الى خلافة الممتصم)
- مكتبة الحثني ، بغداد .
- مؤلف مجهول ، تاريخ الخلفاء ، بيروت ١٩٧١ .
- مهنازل السعدي ، سيرة يوسف الدمشقي ، مطبعة القديس بولس ، لبنان ، ١٩٠٢ م
- النايفة الذهباني ، الديوان ، تحقيق وشرح كرم البستاني ، دار بيروت صادر .
- نصر بن مزاحم ، وقعة صفين ، القاهرة ، ١٣٦٥ هـ .
- النويصري (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) (ت ٧٣٣ هـ)
- نهاية الأرب في فنون الأدب ، الجزء العاشر والمشرور ، تحقيق محمد علي البجاوي ، الجزء الخامس والسادس ، نسخة مصورة من طبعة دار الكتب .

- ابن هشام (أبو محمد عبد الملك بن هشام المصنف) (ت ٢١٣ هـ)

السيرة النبوية ، ٤ أجزاء ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٥ .

- أبو هلال العسكري ، الأوئل ، جزءان ، تحقيق محمد المصري ، وايد قصاب ،

وزارة الثقافة والارشاد القومي ، احياء التراث العربي .

- الهمداني (الحسن بن أحمد بن يعقوب)

صفة جزيرة العرب ، تحقيق محمد بن علي الاكوع الحوالي ، منشورات

دار الهامة للبحث والترجمة والنشر ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .

- الواقدي (أبو عبد الله محمد بن عمر)

فتوح الشام ، جزءان ، دار احياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان .

- ابن الوردي (عمرو بن مظفر)

تاريخ ابن الوردي ، النجف ، ١٩٦٩ م .

- وكيع (محمد بن خلف بن عيان)

أخبار الرضا ، جزءان ، تعليق عبدالعزيز مصطفى المراغي ، الطبعة الأولى ،

١٣٦٦ هـ / ١٩٤٧ م .

- باقوت الحوي ، معجم البلدان ، خمسة أجزاء ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م .

- يحيى بن آدم القرظي (ت ٢٠٣ هـ)

كتاب اليراج ، تحقيق أحمد محمد شاكر ، القاهرة ، ١٣٤٧ هـ .

- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب) :

١- تاريخ اليعقوبي ، جزءان ، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٩ هـ / ١٩٦٠ م .

٢- كتاب البلدان ، لندن ، ١٨٩١ م .

- أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم)

كتاب الخراج ، الطبعة السلفية ، القاهرة ، ١٣٤٦ هـ .

الأخبار ، القاهرة ، ١٣٥٥ هـ .

* المراجع العربية والمترجمة :

د . ابراهيم أحمد العدوي :

١- الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، مكتبة النهضة ، مصر ، ١٣٧٠هـ / ١٩٥١م .

٢- الأساطيل العربية في البحر المتوسط ، مكتبة النهضة ، مصر ، ١٩٥٧ .

د . احسان صدقي الحمد ، الحجاج بن يوسف الثقفي ، بيروت ١٩٧٣م .

د . احسان النص ، العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، منشورات ، دار اليتيمة العربية ، بيروت .

أحمد أمين ، فجر الاسلام ، بيروت ، الطبعة العاشرة ، ١٩٦٩م .

د . أحمد بدر :

١- دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها من الفتح حتى الخلافة ، الطبعة الثانية ،

١٩٧٢ .

٢- تاريخ المغرب والاندلس ، دمشق ، ١٩٨٠ .

٣- التنظيم العسكري عند العرب المسلمين ، بحث في مجلة دراسات تاريخية ،

العدد الرابع ، ١٩٨١م .

د . أحمد شفيق ، الرق في الاسلام ، تمريب أحمد زكي ، المطبعة الأميرية ، طبعة

أولى ، ١٣٠٩هـ .

د . أحمد مختار العبادي ، د . السيد عبد العزيز سالم ، تاريخ البحرية الاسلامية

في مصر والشام ، طبعة ١٩٧٢م .

آدم ميتز ، العصارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، تمريب محمد عبد الهادي

أبو ريده ، القاهرة ، ١٩٤٠م .

أنستاس الكرمل ، النقود العربية وعلم النميات ، طبعة ١٩٢٩م .

بتسلر ، فتح العرب لمصر ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، مطبعة دار الكتب

المصرية بالقاهرة ، ١٣٥١هـ / ١٩٣٣م .

بليانيف ، العرب والاسلام والخلافة العربية . الدار المتحدة للنشر ، بيروت ،

١٩٧٣ م

ترتون ، أهل الذمة في الاسلام ، ترجمة وتعليق الدكتور حسن حبشي ، دار المعارف ،

مصر ، ١٩٦٧ م

جواتياين ، س . د . Goiti Yayen قداسة بيت المقدس

وفلسطين في صدر الاسلام ، تحرير الدكتور عطية القوصي ، وكالة المطبوعات ،

جواد علي ، تاريخ العرب قبل الاسلام ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، الجزء

الرابع ١٣٧٤ هـ / ١٩٥٤ م - الجزء السادس ، ١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م

جورج فضل حوراني ، العرب والملاحاة في المحيط الهندي ، ترجمة د . السيد يعقوب

بكر ، مراجعة الدكتور يحيى خشاب ، مطبعة دار الكتاب العربي ، القاهرة .

يون باجوت ، الفتوحات العربية الكبرى ، ترجمة خيرى حماد ، بيروت .

حبيب الزيات :

١- الديارات النصرانية في الاسلامية ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٣٨ م

٢- سمات النصارى واليهود في الاسلام ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٥٠ م

حسام السامرائي ، المؤسسات الادارية في الدولة العباسية ، ١٩٧١ م

حسين مولوى ، الادارة العربية ، ترجمة ابراهيم أحمد العدوى ، ١٩٥٨ م

الخضري ، محاضرات في تاريخ الأمم الاسلامية ، دار اعيان الكتب العربية ، عيسى

البابى الحلبي ، ١٣٤٨ هـ / ١٩٣٠ م

دوسو ، العرب في سورية قبل الاسلام ، ترجمة

عبد الحميد الداخلي ، مراجعة محمد مصطفى زيادة ، لجنة التأليف والترجمة

والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٩ م

د . رجاء الدويدري ، جغرافية سورية والولان العربي ، مطبعة طرزين ، دمشق ،

١٩٨١ م

٠٠/٠٠

- الزركسي . الأعلام ، أحد عشر جزءاً ، ١٩٧٠ م .
- ستيفن رونسيمان ، Steven Runciman ، العضارة البيزنطية ،
- ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٦١ م .
- سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، دار المعارف ، مصر .
- سعيد الأفغاني ، في أصول النحو ، دمشق ، ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م .
- شكرى فيصل ، المجتمعات الإسلامية ، دار العلم للملايين ، بيروت .
- شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ، العصر الإسلامي ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٣ م .
- صالح أحمد العلي ، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ، دار الطليعة ،
- بيروت ، ١٩٦٩ م .
- صلاح الدين البحيري ، جغرافية الأردن ، عمان ، ١٩٧٣ م .
- الطحاوي ، مشكل الآثار ، مطبعة دار المعارف النظامية في الهند ، حيدرآباد ،
- الطبعة الأولى ، ١٣٣٣ هـ .
- ظافر القاسمي :
- ١- نظام الحكم في الشريعة والاسلام ، دار النفايس ، بيروت ، الطبعة
- الأولى ، ١٣٩٤ هـ / ١٩٧٤ م .
- ٢- نظام الحكم في الشريعة والاسلام ، السلطة القضائية ، دار النفايس ،
- بيروت ، ١٣٩٨ هـ .
- عبد الحسي بن عبد الكبير الكتاني ، التراثيب الادارية ، فاس ، ١٣٤٩ هـ .
- عبد الرحمن زيدان ، كتاب العز والصلوة في معالم نظم الدولة ، الرباط ، ١٩٦٢ م .
- عبدالسلام محمد هارون ، الألف المختارة من صحيح البخاري ، بيروت ، ١٩٧٩ م .
- د . عبد العزيز الدوري :
- ١- مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي ، بيروت ، ١٩٦٩ .
- ٢- العرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام ، بعث ألقى نسي
- المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ، جامعة الأردن ، ١٩٧٤ م .

- ٣- نظام الضرائب نو، صدر الاسلام، ملاحظات وتقرير، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، فصل من مجلة مجمع اللغة العربية، بدمشق،
الجزء الثاني.
- عبدالعزيز فهمي، مدونة عستان في الفقه الروماني (ترجمة) دار الكتب المصرية،
القاهرة، ١٩٤٦م.
- عبدالقادر بدران، تهذيب تاريخ دمشق الكبير للامام الحافظ المؤرخ علي بن الحسن
ابن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر، دار المسيرة، بيروت ١٣٩٩هـ/
١٩٧٩م.
- د. عدنان البني، تدمر والتدمريون، رسالة دكتوراة منسوخة، دمشق، ١٩٧٧م.
- ابن العربي، أحكام القرآن، القاهرة، مطبعة الحلبي، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.
- علي أحمد الجرجاوي، حكمة التشريع وفلسفته، القاهرة، المطبعة الرابعة، ١٩٣٨م.
- علي حسني الخريطلي، تاريخ العراق في ظل الحكم الاموي، دار المعارف، مصر،
١٩٥٩م.
- عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، بيروت، لبنان.
- د. فاروق عسر، طبيعة الدعوة السياسية، الطبعة الأولى، ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م.
- فان فلوتسن، السيادة العربية والشيعية والاسرائيليات في عهد بني أمية، ترجمة
عسن ابراهيم عسن، محمد زكي ابراهيم، الطبعة الثانية، مكتبة النهضة
المصرية، ١٩٦٥م.
- فتحي عثمان، الحدود الاسلامية بين الاهتلاك الحربي والاتصال الحضاري،
الكتاب الأول، الدار القومية للطباعة والنشر.
- فلهوزن، تاريخ الدولة العربية من ظهور الاسلام الى نهاية الدولة الأموية،
ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة.
- فنسك، مفتاح كنوز السنة، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة مصر، ١٩٣٤م.

فيليب حنسي :

- ١- تاريخ سورية ولبنان ، ترجمة د . حداد وعبدالكريم رافق ، دارالثقافة ، بيروت ، ١٩٥٨ م .
- ٢- تاريخ العرب ملول ، ثلاثة أجزاء ، ترجمة الدكتور جبرائيل جبسور ، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع ، ١٩٥٢ م .
- د . فؤاد أحمد طوقان ، الحائر ، بحث في القصور الأموية في البادية ، وزارة الثقافة والارشاد ، عمان ، المملكة الاردنية الهاشمية ، ١٩٧٩ م .
- د . محمد حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ، الطبعة الثالثة ، ١٩٦٩ م .
- محمد ضياء الدين الريس ، الخزاج والنظم المالية للدولة الاسلامية ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٩ م .
- محمد أبو الفرج العشي ، النقود العربية الاسلامية ، مصدر وثائقي للتاريخ والفن ، بحث ألقى في المؤتمر الدولي لبلاد الشام ، الجامعة الأردنية ، ١٩٧٤ م .
- د . محمد عبد الهادي شميرة ، المرابطون في الثغور الاسلامية الرومية ، بحث في كتاب الى طه حسين في عيد ميلاده السبعين .
- محمد كرد علي :
- ١- خطط الشام ، ٦ أجزاء ، دمشق ١٩٢٦ م .
- ٢- الاسلام والحضارة العربية ، جزآن ، القاهرة ، ١٩٦٨ م .
- ٣- أمراء البيسان ، دار الأمانة ، بيروت ، الطبعة الثالثة .
- ٤- غوطة دمشق ، مطبوعات المجمع العلمي بدمشق - الطبعة الثانية .
- محمد ياسين الحموي ، تاريخ الأسطول العربي ، ١٣٦٤ هـ / ١٩٤٥ م .
- د . محمد يوسف موسى ، نظم الحكم في الاسلام ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ١٩٦٤ م .

- مصطفى الدباغ ، بلادنا فلسطين ، منشورات دار الطليعة ، بيروت ، الطبعة الأولى ،
١٣٨٤هـ / ١٩٦٥م .
- د . منير المجلاني ، عقيدة الاسلام في أصول الحكم ، دمشق ، الطبعة الأولى .
د . نبيه فاقسل :
- ١- خلافة بني أمية ، دمشق ، الطبعة الثالثة ، ١٩٧٥م .
- ٢- الامبراطورية البيزنطية ، دمشق ، ١٩٦١م .
- نجدة خماش ، الادارة في العصر الأموي ، دار الفكر ، دمشق ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م .
- د . نعمان محمد أمين طه ، جبرير وحيات وشمرة ، مكتبة الدراسات الأدبية ، دار
المعارف ، مصر .
- نولسدك ، أمراء غسان من آل جفنة ، ترجمة الدكتور بندلي جوزي ، والدكتور
قسطنطين زريق ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، ١٩٣٣م .
- يوسف الياس الدبس ، تاريخ سورية الدنيوى والديني ، الجزء الثاني ،
المجلد الرابع ، بيروت ، ١٨٩٩م .
الجزء الثالث ، المجلد الخامس ، بيروت ، ١٩٠٠م .

=====

===

=

.

BIBLIOGRAPHY :

المصادر والمراجع الأجنبية :

- Arculfus , The Pilgrimage of Arculfus in the Holy Land about the year 670 A.D.
Translated and annotated by the Rev. James Ros. Macpherson, London, 1889.
- Bell, Gertrud, Palace and Mosque at Ukhaidir, Oxford, The Clarendon Press, 1914.
- Brown , A Literary History of Persia, London, 1959 .
- Buckler, F. W. Harun al-Rashid, Cambridge, 1927 .
- Bury, A History of the Later Roman Empire, London, 1889.
- Caetani, L. , Annali dell Islam, Milan 1904 - 1918 , Vol. III , Vol. V .
- Cocke , G.A. , A Text Book of North Semetic Inscriptions, Oxford, 1903 .
- Creswell, K. A. C. :
 1. Early Muslim Architecture, Oxford , The Clarendon Press, 2nd Edition .
 2. Fortification in Islam before 1250 A.D. From the Proceedings of the British Academy, 1952, Vol. XXXVII .
- Dennette, Daniel, C., Conversion and the Poll-tax in Early Islam, Cambridge, 1950.
- Diel, Ch., Etudes Sur L'Administration Byzantine dans L'Exarchat de Ravenne, Paris, 1888 .
- Duchesne, L. Autonomie Ecclesiastique, Eglises Séparées, 1896.
- Gregory. J. W., The Rift Valleys of East Africa, London, 1971.
- Grohman, Allgemeine Einführung in der Arabischen Papyri, Wien , 1924 .
- Heyd, Histoire du Commerce du Levant, Leipsig, 1885.

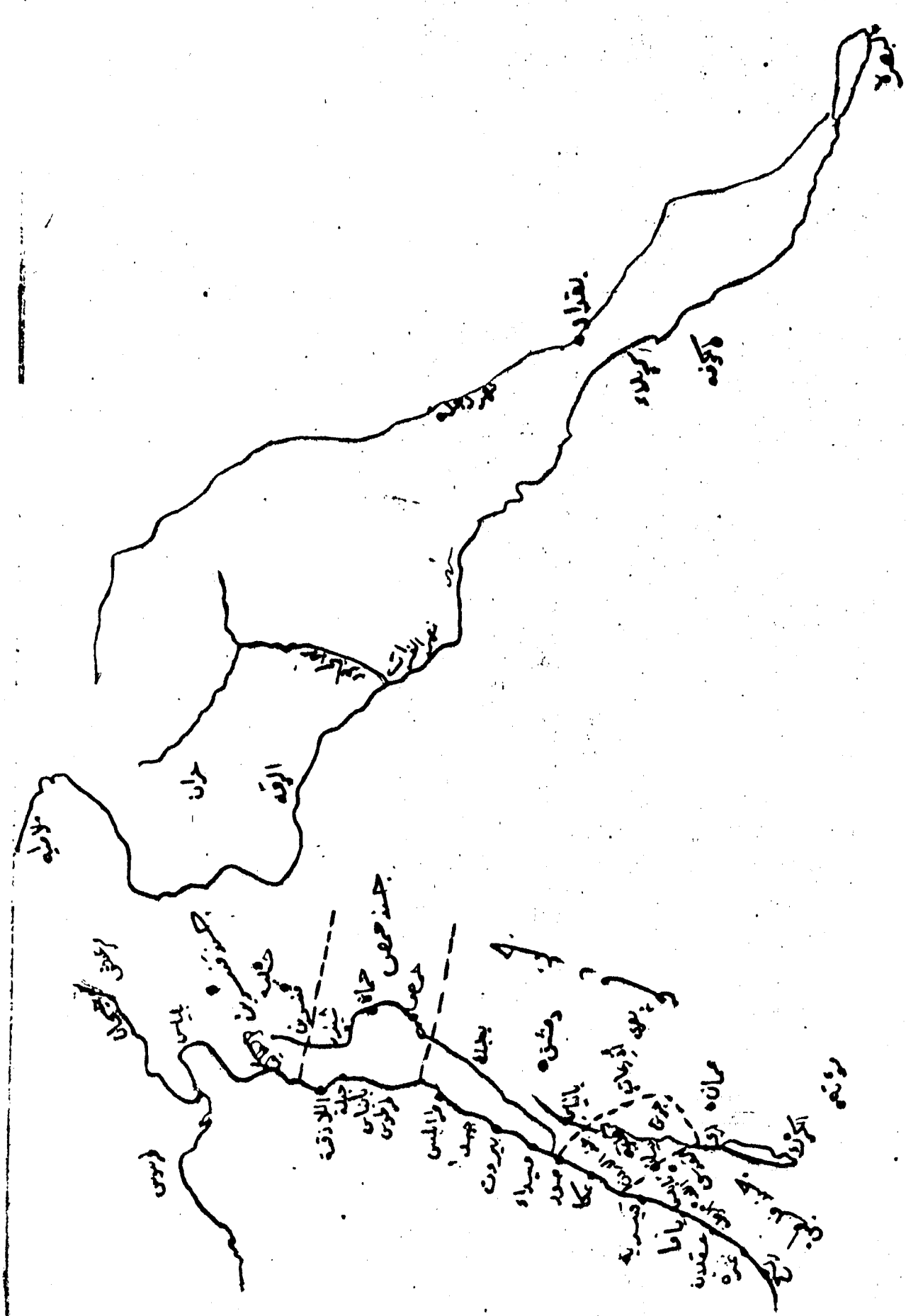
- Hill, George. The History of Cyprus, Vol. I. to the conquest by Richard Lion Heart, Cambridge University Press, 1940 .
- Hodgson, Marshal, G. S., The Venture of Islam, Conscience and History in a World of Civilization, The University of Chicago Press.
- King, L. C. The Morphology of the Earth, New York, 1962.
- Levy, Reubens, The Social Structure of Islam, 2nd Edition, Cambridge University Press.
- Lewis, Archibald, R., Naval Power and Trade in the Mediterranean, A.D. 500 - 1100 .
- Løkkegaard, Frede, Islamic Taxation in the classical Period, Copenhagen, 1950 .
- Mclean Harper, George, Village Administration of the Roman Province of Syria, Princeton, 1908 .
- Michel Le Syrien, Chronique, Edition et Traduction de Y. B. Chabot. t. II .
- Miles, The Earliest Arab Gold Coinage, 1967 .
- Omar Charles, K.B.E., A History of the Art of War in the Middle Ages, Vol. I, A.D. 378 - 1278 . Burt Franklin, New York.
- Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, Tr. Joan Hussey, Oxford, 1956 .
- Pirenne, H., Mohammed & Charlemagne, New York, 1939 .
- Lane Pool, A History of Egypt in the Middle Ages, London, 1925 .

- Le Strange :
 1. Palestine Under the Moslems, Published for the Committee of the Palestine Exploration Fund 1890.
 2. The Lands of the Eastern Caliphate, Cambridge, 1980 .
- Theophanes, Bilderstreit und Arabersturm In Byzanz, Das 8 Jahrhundert 717 - 813 Aus der Welt Chronike des Theophanes, Ubersetzt, eingeleitet und erklart von Leopold Breyer, Wien, 1957 .
- Thomas Bishop of Marga, (A.D. 840) The Historia Monastica, Edited from Syriac Manuscripts in the British Museum and other Libraries. By E. A. Wallis Budge , Vol. II . The English Translation, London, 1893.
- Tritton, A. S., The Caliphs and their Non-Muslim Subjects, Oxford University Press, 1930 .
- Von Kromer, Kulture Geschichtliche Streifzug auf dem Gebiet des Islames, Calcutta, 1950 .
- Walker, A Catalogue of the Muhammeden Coins in the British Museum, Vol. II. The Arab Byzantine and Post Reform Coins.
- Washington, Irving, Lives of the Successors of Mohammed, Vol. II. London, 1850 .
- Wiet, Gaston, L'Egypte Musulmane, Précis de L'Histoire d'Egypte, t. II.
- Willibald, The Hodæporicon of St. Willibald 754. A.D. Translated by the Rev. Canon Brownlow, M.A. London, 1891 .

Articles :

- Andreades, Andre, M., The Economic Life of the Byzantine Empire, Population, Agriculture, Industry, & Commerce, In Byzantium II. An Introduction to East Roman Civilization ed. by Norman H. Baynes & H. St. B. Moss .
- Cahen, Claude, Economy, Society, Institution , The Cambridge History of Islam, Vol. II. The Cambridge University Press .
- Charanis, P., The Social Structure of the Later Roman Empire, in Byzantium; 1944 - 1945 XVII.
- Ensslin, Wilhelm, The Emperor and Imperial Administration, in Byzantium X .
- Grabar, Early Islamic Settlements in the Badyaht al-Sham, in Conference on Bilad al-Sham, Amman University of Jordan, April, 1974 .
- Lopez : 1. Silk Industry in the Byzantine Empire, in Speculum, 1945, XX.
2. Mohammed & Charlemagne, A Revision in Speculum, 1943, XVIII .
- Sauvaget, Jean, Chateaux Omayyades de Syrie, Revue des Etudes Islamiques 1967 XXXV .
- Vasiliev, A. A., Byzantium and Islam, in Byzantium XI .
- Vernadsky, G., Sur L'origine de La loi agraire, in Byzantium, 1925, IV .
- Islamic Encyclopaedia, New Edition.
- Encyclopaedia Britannica, 15th Edition .
- The Modern Encyclopaedia, First Edition , 1961 .

أحداث الشام في العصر اللاموي



البحر

موتنة

البحر

ممان

بعلبك

دمشق

بيشنة

حمص

حمص حماة

اللاذقية

اللاذقية

اللاذقية

اللاذقية

اللاذقية

اللاذقية

لاقونية

الحملا

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

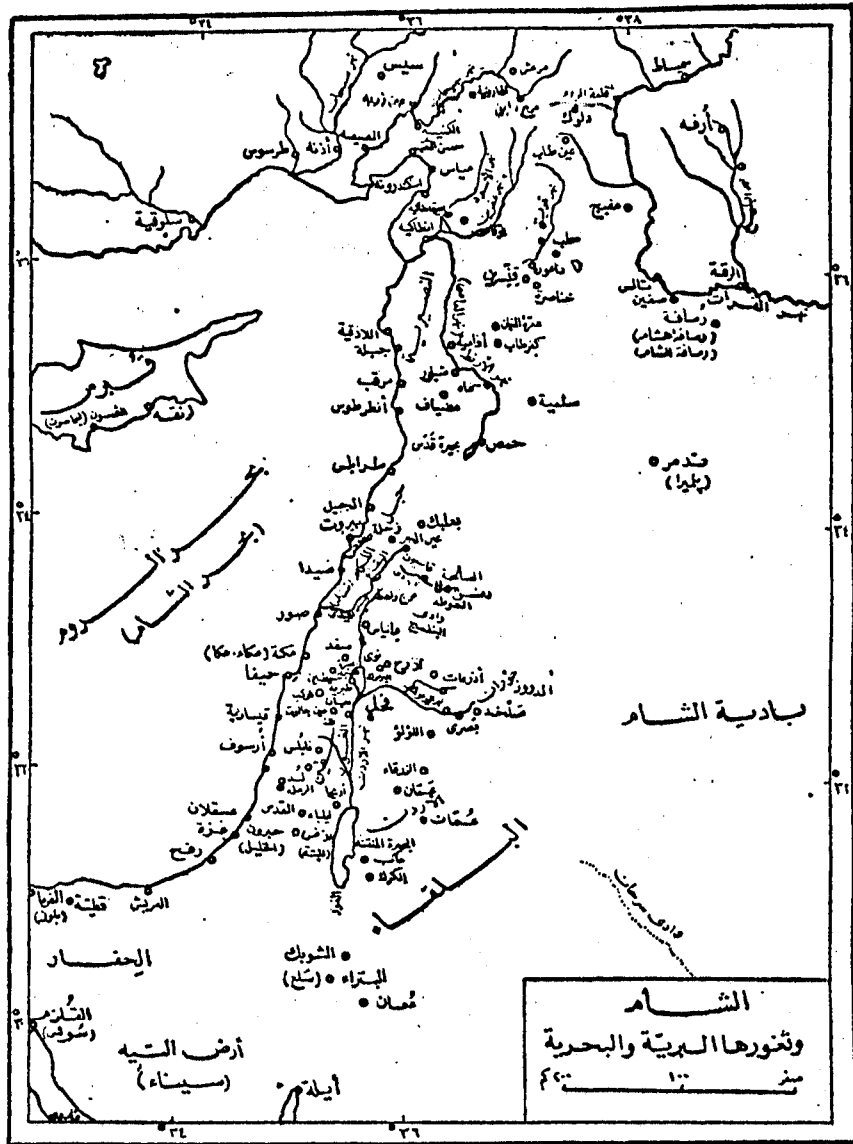
بغداد

بغداد

بغداد

بغداد

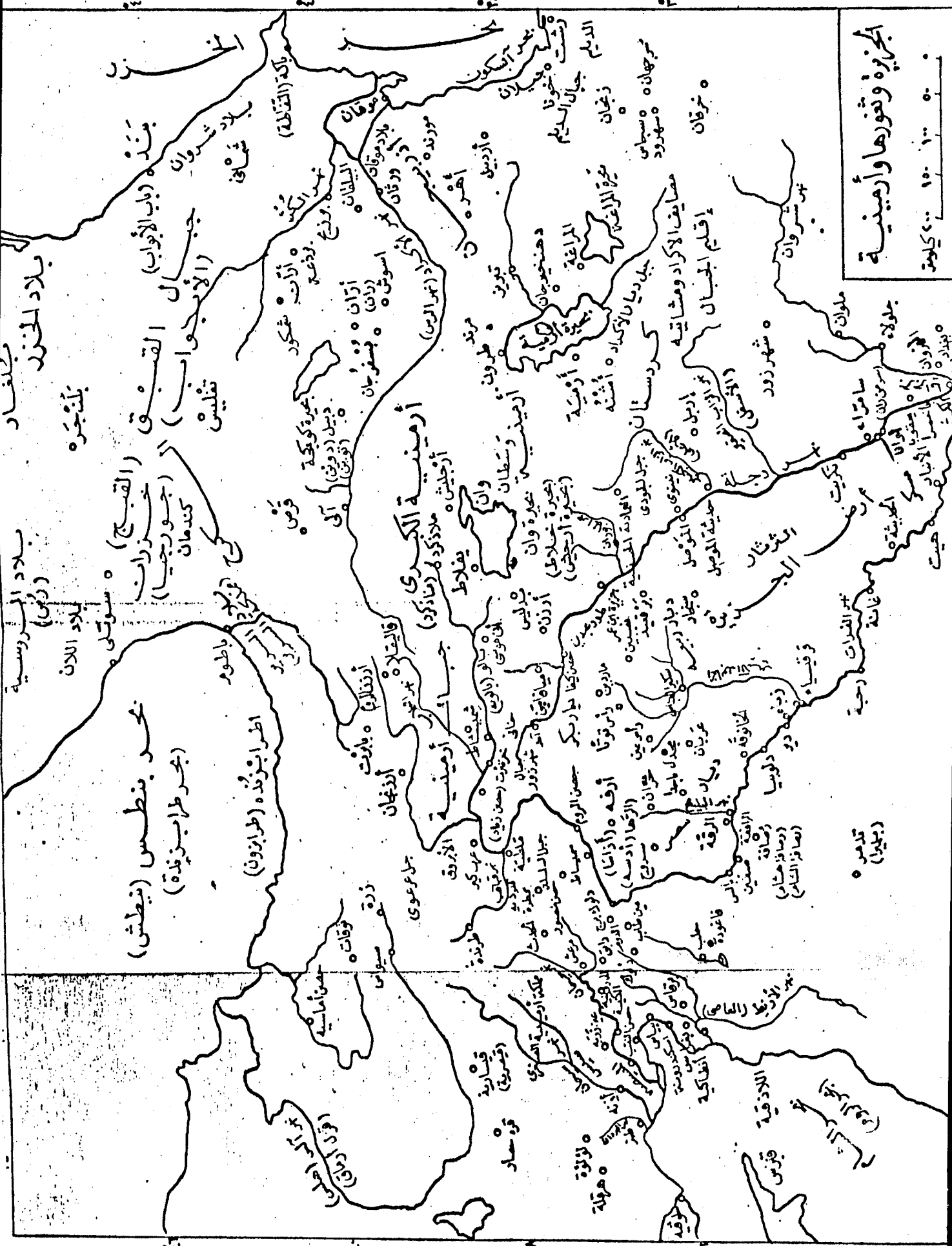
بغداد



تصليحت: (د. ماجد البنا والاطلس التاريخي للمسلمين في التصور الوسطي)

الجزيرة وقورها وأرمينية

١٥٠ ١٠٠ ٥٠ كيلومتر



بلاد الحنز

بلاد الروسية

بلاد اللان

بلاد شاني

بنده (باب الأواب)

جبال القسوق

القبج (القبج)

نجر بنطس (نيطش)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

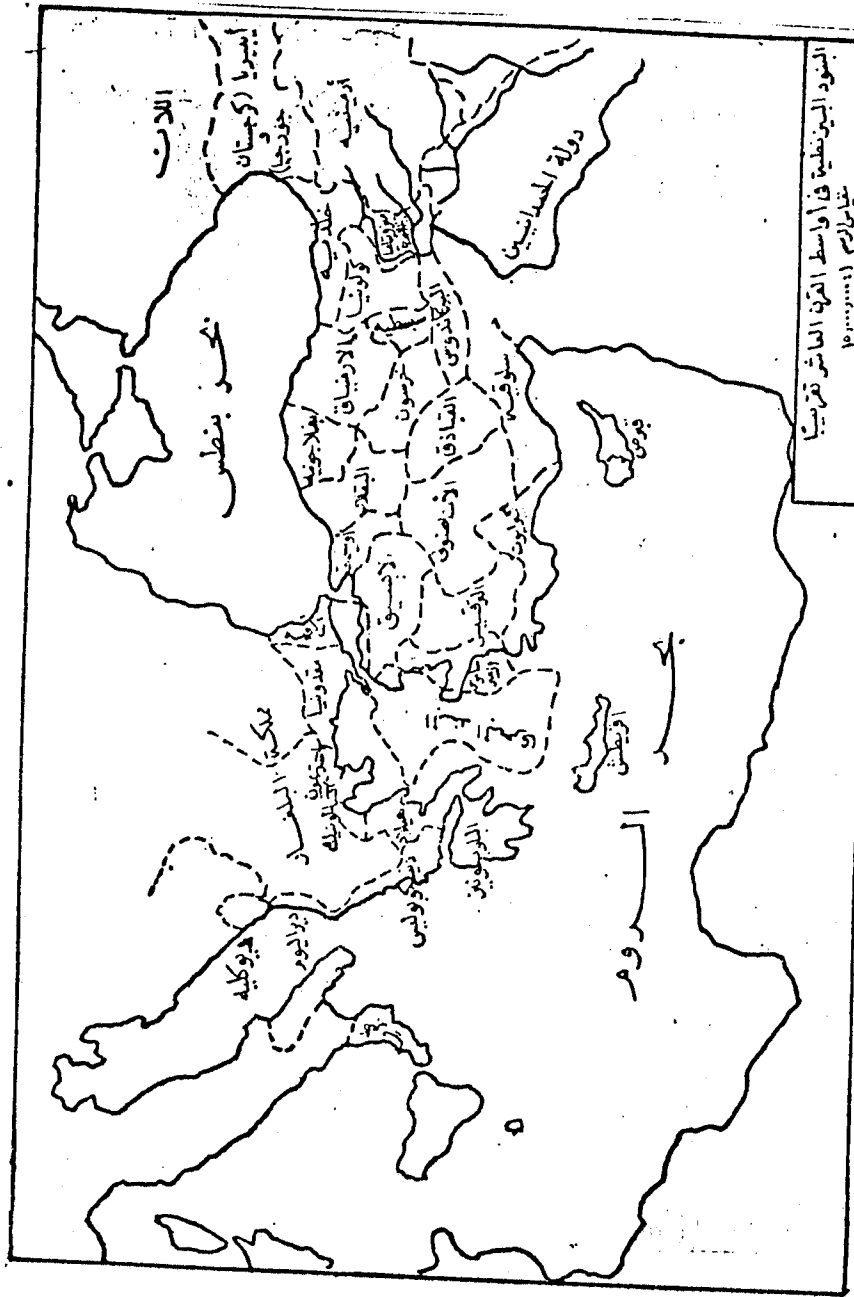
بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

بيليا (بيليا)

ولاية افي بيقية والجزب
 الادي في العمر الاوسى





البيزنطية في اواسط القرن العاشر تقريبا
تقريباً 1099

بغلا من: *Vasilev's Empire Byzantine*

الفهرس

رقم الصحيفة	الموضوع
أ - ع	المقدمة - تحليل المصادر
١ - ٩	تصهيد

الباب الأول

١٠ - ٣٥	الفصل الأول = العناصر السكانية في الشام قبل الفتح وموقفها منه
٣٦ - ٤٩	الفصل الثاني = توزع العناصر السكانية في الشام بعد الفتح
٥٠ - ١١٢	الفصل الثالث = طبقات المجتمع ودورها في الإدارة والحكم:
٥٠ - ٧٤	المسلمون من العرب
٧٤ - ٨٥	الموالي
٨٥ - ١٠٣	أهل الذمة
١٠٣ - ١١٢	الرقبيق
١١٣ - ١٥٢	الفصل الرابع = دور أهل الشام في توطيد سلطان بني أمية
١١٣ - ١٢٥	دور أهل الشام في دعم خلفاء بني أمية
١٢٥ - ١٢٦	دور أهل الشام في دعم ولاية بني أمية في العراق:
١٢٦ - ١٣٠	أ- مقاومة الأشعث بن قيس ودوره في قمع حركات الخوارج
١٣٠ - ١٣٧	ب- مقاومة الأشعث بن قيس ودوره في القضاء على ثورتي بن الأشعث (٨١-٨٥ هـ) ويزيد بن المهلب (١٠١-١٠٢ هـ)
١٣٧ - ١٤٠	ج- ثورة زيد بن علي ودور أهل الشام في القضاء عليها
١٤٠ - ١٤٤	دور أهل الشام في دعم الحكم الأموي في المغرب
١٤٤ - ١٥٢	موقف أهل الشام من أحداث الفتنة الثالثة
١٥٣ - ١٦٦	الفصل الخامس = دور أهل الشام في الفتوح:
١٥٣ - ١٥٦	فتوح أرمينيا
١٥٦ - ١٦٢	فتوح جزر البحر المتوسط
١٦٢ - ١٦٣	فتوح إفريقيا

الهاب الثاني

- ٢٣٠-١٦٧ - الفصل الأول = النظام الإداري
- ١٧٣-١٦٧ التقسيمات الإدارية
- ٢١٥-١٧٣ الموظفون الإداريون :
- ١٨٢-١٧٣ الخليفة
- ١٨٥-١٨٢ الوزراء والمستشارون
- ١٩٠-١٨٥ السيادة
- ١٩٥-١٩١ الكتاب
- ٢٠٢-١٩٥ صاحب الشرطة
- ٢٠٣-٢٠٢ صاحب البريد
- ٢١٥-٢٠٣ القاضي
- ٢٣٠-٢١٥ ديوان الدولة في الشام :
- ٢١٨-٢١٦ ديوان الخراج
- ٢١٩-٢١٨ ديوان الصدقات
- ٢٢٣-٢١٩ ديوان الجند
- ٢٢٤-٢٢٣ ديوان الرسائل
- ٢٢٥-٢٢٤ ديوان الخاتم
- ٢٢٩-٢٢٦ ديوان البريد
- ٢٣٠-٢٢٩ ديوان المستغلات ، ديوان الرضى ،
ديوان النفقات

- الفصل الثاني = النظام المالي في الشام

- ٢٤١-٢٣١ النظام المالي في الشام في العهد المماليكي
- ٢٤٦-٢٤١ الجزية
- ٢٥٤-٢٤٦ الملكية المقارمة وضريبة الأرض أو الخراج
- ٢٦١-٢٥٤ الصوافي
- ٢٦٥-٢٦١ الضرائب الإضافية

- ٢٧٢ - ٢٦٥ بيوت الأموال في الشام
٢٧٦ - ٢٧٢ النقود المتداولة في الشام
٢٨٢ - ٢٧٦ أثر النظام الضريبي على النشاط الزراعي
٢٩١ - ٢٨٢ أثر تعريب النقد على العلاقات العربية
البيزنطية والاقتصاد

- الفصل الثالث = التنظيم العسكري :

- ٢٩٢ - ٣٠٨ عناصر الجيش
٣١٨ - ٣٠٨ التعبئة والقيادة
٣٢٣ - ٣١٨ الأسلحة ووسائل الدفاع والتحصين
٣٢٦ - ٣٢٣ الحصون والأسوار
٣٣٣ - ٣٢٦ البحرية
٣٤٦ - ٣٣٤ النظام المالي للجيش

- الخاتمة

- المصادر والمراجع :

- ٣٦١ - ٣٥٠ المصادر العربية
٣٦٧ - ٣٦٢ المراجع العربية والمترجمة
٣٧١ - ٣٦٨ المصادر والمراجع الأجنبية

- المصورتات :

- ١ - سورية البيزنطية
٢ - أجناد الشام في العصر الأموي
٣ - الشام وثغورها العربية والمحربية
٤ - الجزيرة وثغورها وأرمينية
٥ - البندوب البيزنطية في أواسط القرن العاشر تقريبا
٦ - ولاية افريقيا والمغرب الأقصى في العصر الأموي



Abstract

The social and administrative conditions in al-Sham (Syria) during the early Islamic period is the theme of this study; it commences with the definition of al-Sham, its historical and geographical boundaries during the period under study.

The first part deals with the different social classes and their part in administration, governing and stabilizing the rule of the Omayyads, therefore, the first chapter is concerned with the peoples in al-Sham, before the conquest, the regions of their settlement and their attitude towards the conquest.

The second chapter discusses the new distribution of the peoples after the conquest, especially the Arabs, and discusses the factors that affected their settlement in the different regions (al-Ajnad).

The different social classes, their social position and their part in administration and governing, are discussed in chapter three.

The fourth and the fifth chapters deal with the part of the people of al-Sham in stabilizing the rule of the Umayyads in Syria, Iraq, and in Africa, the conquests they achieved, and the advantages they acquired.

The second part of this study is concerned with the administrative, fiscal and military systems.

In dealing with the administrative system, the administrative divisions were discussed as well as the important officials, their duties and responsibilities and the different state departments (Dawawin).

Taxation, tax collection, and the measures that were carried out by Caliph Umar, and then by the Umayyads,

as well as the coinage used and the striking of the first Arab gold coinage and its consequences are presented in detail in dealing with the fiscal system.

The elements of the Syrian army, leadership, and mobilization, means of defence and fortification, the organization of the Diwan and the *Ata'* of the *Muqatilah* in al-Sham are dealt with in the last chapter.

The conclusions that I have come into are presented throughout the dissertation, amongst them are the following:

- 1- Al-Sham's position was unique, speaking from a social point of view, and the social problems that arose in Iraq were not felt so strongly in Syria, for most of the Byzantines and their mercenaries in the coastal and internal cities left Syria and followed Hercules to Asia Minor; the Christian Arabs in Syria before the conquest formed quite a considerable proportion of the population, and when they adopted Islam they were not regarded as clients; but were socially regarded as the Moslem Arabs who joined the armies of the conquest; this could be deduced from the increase in the numbers of the *Muqatilah* in each region, and this increase of course was not due to migration only, but to the adoption of Islam by the Christian Arabs.
- 2- Most of the Arabs in al-Sham during the Unayyad period were of Yamanite or *Quda'i* origin, with the exception of the region of *Qinnisrin*; but while the Arabs formed the majority of the coastal cities of *Jund Hims*, the population of the coastal cities belonging to the *Jund of Damascus* were mostly composed of Jews and Persians, and because of the Caliph's tolerant and indulgent policy towards the *Dhimmi*, Christianity remained widely spread in Syria Specially in Palestine.

- 3 - The factors that defined the social position of the Moslem Arabs changed gradually in consequence of the political developments after the battles of Siffin and Marj-Rahit. The companions of the prophet, their sons, and the commanders of the conquest enjoyed the most distinguished position at first; but after the battle of Siffin and the support Mu'awiyah received from the southern tribes, who formed the majority of the Arabs in Syria, he had to change his policy and depend more and more on the notables of the tribes whether in governing the different regions of al-Sham or in commanding the armies sent against Byzantium or against Armenia in the North. After the battle of Marj-Rahit, the highest position was that of the princes of the house of Marwan and the Umayyads in general, then came the notables of the tribes and of course all the true and loyal supporters of the Umayyads.
- 4 - The Marwanid period showed an increase in depending on Arab governors sent from al-Sham to the two most important districts, Iraq and Egypt, and it showed also an inclination to depend more and more on the clients (al-Mawali) especially the freed slaves (Mawali al 'Itaqah) in the different departments of the state and in sending them as governors especially to Africa; but the dependence of the state on the Dhimmis in administration decreased at the end of the Umayyad period in al-Sham.
- 5 - As al-Sham was the central district, the duties of the most important officials were somewhat different from those of the same officials in the other districts, and the state departments (Dawawin) were greater in number and importance.

- 6 - Although al-Sham was the first country conquered - yet the traditions concerning the treaties with the different cities show that the Arabs distinguished clearly from the very beginning between the poll-tax (al-jizyah) and the land-tax (al-kharaj) and while the jizyah in Syria at the beginning was one dinar, Umar I changed it later to a graded tax of four dinars maximum for the well to do with reductions for the middle class and the poor, this seems to have taken place in the year 640 A.D. 20 A.H. for Theophanes mentions that in the thirtieth year of Heracles, Umar made a census of all the lands, men, animals and palms; but as the traditions concerning the kharaj land and the Sawafi lands are very few in comparison to those connected with Iraq, it was necessary to depend on them in order to clarify and illustrate the ones concerning Syria specially if there were hints allowing such comparisons, and an interpretation for the term Sulh and 'Uwah has been presented .
- 7 - When Mu'awiyah became Caliph he made it clear that the different districts should participate in sending the overflow of their income to the central treasury in Damascus (Bayt Mal al-Fay'), this procedure was carried out by all the other Caliphs and traditions directly or indirectly allude to this fact except where Spain is concerned. The Arab tribes in Iraq in general and the tribes of al-Kufa in particular resented this procedure which aroused their wrath against the Umayyads and the people of al-Sham, who enjoyed a number of priviliges denied to others, for example, the traditions do not mention extra taxes being collected from the people in Syria like the ones mentioned in Iraq and Egypt.

- 8 - The important political and economic changes following the striking of the Arab gold coins have been discussed.
- 9 - The Army of al-Sham was mainly composed of Arabs, and the Yamanites and Guda'i tribes formed the majority, it was natural that most of the Muqatilah were from these tribes in addition to the Qaysites in Qinnisrin and al-Jazirah; but the Umayyads made use of all the man-power, so they used the Dhimmis in the frontier lines as well as the Mawali later on, for we read of Mawali troops during the Marwanid period; yet the leadership remained in the hands of the Arabs, the companions of the prophet, their sons, and the notables of the tribes during the Sufyanid period, and the princes of the house of Umayya during the Marwanid period specially in leading the Summer and Winter expeditions (al-Sawa'if wal-Shawati)
- 10 - The tribes and clans in al-sham still formed the prominent parts in mobilization, even when they were incorporated in larger organizations for military or fiscal purposes.